



دراسات أدبية

المقامات الأندلسية

(من القرن الخامس حتى القرن التاسع الهجري)
دراسة استقصائية.. تاريخية.. تحليلية.. أسلوبية

تأليف

الدكتور شريف علاونه

قسم اللغة العربية / كلية الآداب

جامعة البترا



طبع بدعم من وزارة الثقافة

2 0 0 8

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com



المقامات الأندلسية

(من القرن الخامس حتى القرن التاسع الهجري)
دراسة استقصائية.. تاريخية.. تحليلية.. أسلوبية
للدكتور شريف علاونه

دراسات أدبية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الأولى

١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبات والوثائق الوطنية

٢٠٠٧/١٠/٣٠٩٤

٨١١,٦٣

علاونه. شريف راغب

المقامات الأندلسية / شريف راغب علاونه. - عمان:

المؤلف. ٢٠٠٧

(٣٢١) ص.

ر.أ.: (٢٠٠٧/١٠/٣٠٩٤).

الواصفات: /الشعر العربي//المقامات//العصر الأندلسي/

* أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية



طبع بدعم من وزارة الثقافة

2 0 0 8

الآراء الواردة في الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الجهة الداعمة

المقامات الأندلسية

(من القرن الخامس حتى القرن التاسع الهجري)
دراسة استقصائية.. تاريخية.. تحليلية.. أسلوبية

تأليف

الدكتور شريف علاونه

قسم اللغة العربية / كلية الآداب

جامعة البترا



طبع بدعم من وزارة الثقافة

2 0 0 8

إهداء

إلى

الذين أحبوا الأندلس،
وكتبوا عن تاريخها وحضارتها

إلى

الباحثين في الأدب الأندلسي،

والدارسين له

أهدي هذا العمل

المحتويات

المقدمة ٩

الفصل الأول القاميون الأندلسيون (نراجهم وأخبارهم)

عبدالرحمن بن فتوح.....	١٧
أبو حفص عمر بن الشهيد.....	١٩
أبو محمد بن مالك القرطبي.....	٢١
أبو الوليد محمد بن المعلم.....	٢٣
الفتح بن خاقان الإشبيلي.....	٢٤
أبو عبدالله محمد بن أبي الخصال.....	٢٧
محمد بن يوسف السرقسطي.....	٢٥
محارب بن محمد الوادي أشي.....	٢٩
ابن قزمان الزجال.....	٣٠
علي بن جامع الأوسي.....	٣١
ابن غالب الرصافي.....	٣٣
محمد بن خلف الغرناطي.....	٣٥
عبدالرحمن بن القصير.....	٣٦
أبو بكر يحيى الأركشي.....	٣٨
ابن رضا الكاتب.....	٤٠
عبدالرحمن السلمى المالقي.....	٤٢
صفوان بن إدريس.....	٤٣
أبو عامر بن أرقم.....	٤٤
محمد بن عياض القرطبي.....	٤٦
سلام بن سلام المالقي.....	٤٧
أبو البقاء الرندي.....	٤٩

٥٢ ابن المربع الأزدي
٥٤ لسان الدين بن الخطيب
٥٧ أبو الحسن النباهي المالقي
٥٩ الفقيه عمر الزجال
٦٠ مقاميون آخرون

الفصل الثاني المقامات الأندلسية (نصوص وتحليل)

٦٥ مقامة لابن فتوح
٦٩ مقامة لابن بُرد الأصغر
٧٥ فصول من مقامة لعمر بن الشهيد
٨٧ فصول من مقامة لابن مالك القرطبي
٩٧ فصول من مقامة لأبي الوليد بن المعلم
١٠٣ المقامة البلبسية للفتح بن خاقان
١١٣ المقامات اللزومية للسرقسطي
١٢١ مقامة لابن أبي الخصال
١٢٤ مقامتان لابن قزمان الزجال
١٣٠ المقامة الدوحية لابن عياض القرطبي
١٣٢ من مقامة لابن غالب الرصافي
١٣٤ من مقامة ليحيى الأركشي
١٣٥ مقامة لمحارب الوادي أشي
١٤٧ من مقامة لأبي عامر بن أرقم
١٥٠ المقامة القرطبية
١٧٠ المقامة الشلبية لابن سيد أمير
١٨١ المقامة المحسنية
١٨٨ مقامة العيد لابن المربع الأزدي
١٩٤ من مقامات لسان الدين بن الخطيب

١٩٤	■	مقامة السياسة
٢٠٩	■	المقامة السيّنية
٢١٢	■	مقامة الإشارة إلى أدب الوزارة
٢١٧	■	مقامة بيان قدر رتبة الوزارة
٢٣٢		مقامة النخلة لأبي الحسن النباهي المالحقي
		مقامتان للفقيه عمر الزجّال
٢٤٤	■	مقامة تسريح النصال إلى مقاتل الفضّال
٢٥١	■	مقامة في أمر الوباء

الفصل الثالث

المقامات الأندلسية

(الدراسة الفنية)

٢٦١	أولاً: الموضوعات والمضامين
٢٩٠	ثانياً: الخصائص الفنيّة
٣٢١	المصادر والمراجع

مقدمت

لم تُلَقَّ المقامات الأندلسية اهتماماً من الباحثين والدارسين كما لقيت فنون النثر الأندلسي الأخرى من رسائل وخطب وأدب رحلات وغيرها، ولعل ذلك يرجع - فيما نرى - إلى نزرة المقامات الأندلسية المتوافرة بين أيدينا من جهة، وإلى أنه لم يظهر في الأندلس كتاب مختصون بهذا الفن عرفوا به وعرف بهم، كما هو الحال عند بعض المقاميين المشاركة من جهة أخرى. فنجد من الكتاب الأندلسيين من لم يؤلف سوى مقامة واحدة أو اثنتين، على أن أكبر عدد هو سبع مقامات، إذا استثنينا مقامات أبي الطاهر السرقسطي (ت ٥٣٨هـ)، وهي خمسون. وقد يكون لهم مقامات أخرى ما زالت مطمورة أو ضائعة. يضاف إلى ذلك أن المعلومات المتوافرة لدينا عن أكثر المقاميين الأندلسيين ومقاماتهم نزرة يسيرة، لا تغني الباحث، ولا تضع بين يديه مادة كافية للدرس والتحليل.

بيد أننا نشير هنا إلى أن بعض دراسات المحدثين، التي تناولت الأدب الأندلسي بعامة، أو تلك التي تناولت الأدب الأندلسي في فترة من فتراته قد توقفت عند بعض المقامات الأندلسية، وسردت قوائم بأسماء بعض المقاميين الأندلسيين، دون أن تترجم لهم، أو تعرّف بهم. ومن الدراسات الرائدة في هذا المجال دراسة الدكتور إحسان عباس في كتابه (تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطوائف والمرابطين) حيث خصّص ثلاثاً وعشرين صفحة لدراسة المقامات الأندلسية في القرنين الخامس والسادس للهجرة.^(١)

أمّا الرسائل الجامعية، التي اتخذت من النثر الأندلسي موضوعاً لها، فبعضها أغفل المقامات الأندلسية^(٢)، وكأنها ليست من ألوان النثر الأندلسي وفنونه، في

(١) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، دار الثقافة، بيروت، ط ٧، ١٩٨٥، ص ٣٠٣ - ٣٢٦.

(٢) انظر: النثر الفني في عهد الموحدين بالمغرب والأندلس، يوسف عروج، جامعة دمشق، ١٩٨٣.

حين نجد بعضها الآخر يمر بفن المقامة سريعاً، ويجعل همّة وغايته في الحديث عن فن الرسالة. والرسائل الجامعية التي دارت حول المقامات لا تكاد تختلف عن الدراسات السابقة، إذ عرضت للفن المقامي عند الأندلسيين من خلال سرّد موجز لبعض المقامات وذكر لأسماء أصحابها، كما أنها وقفت عند دراسة د. إحسان عباس، ولم تضيف إليها.^(١)

وإذا كانت الدراسات السابقة قد تناولت النشر الأندلسي، أو المقامات الأندلسية في فترة من فترات الأدب الأندلسي، فإن دراستنا هذه تتناول بالاستقصاء والتأريخ والتحليل المقامين الأندلسيين ومقاماتهم خلال الفترة من القرن الخامس الهجري حتى القرن التاسع. فهي تتناول المقامين ومقاماتهم في مدى خمسة قرون، أي من بداية نشأة المقامة في الأندلس حتى آخر أيام بني الأحمر في غرناطة.

وقد جعلت هذه الدراسة في ثلاثة فصول، خصّصت الفصل الأول منها للحديث عن المقامين الأندلسيين، والتعريف بهم بالقدر الذي أسعفتنا به المصادر. فترجمت لأصحاب المقامات من وصلت إلينا مقاماتهم، أو ممن وصلت إلينا أسماء مقاماتهم دون نصوصها وشخصها، آخذاً بعين الاعتبار سني الوفاة لأولئك المقامين، سواء أكانت تلك السنوات قد نصّت عليها المصادر، أو أنها أزمان تقريبية توصّلنا إليها بعد متابعة أخبارهم، وربطهم بمعاصريهم. فالدارس لفن المقامات عند الأندلسيين تواجهه صعوبة التحقق من تراجم بعض المقامين، ووفياتهم، وتاريخ إنجازهم لمقاماتهم؛ فتصير متابعة الرجال وربطهم بآخرين من معاصريهم، أو بمجداث عصورهم أمراً لا غنى عنه للوقوف على زمن تقريبي لعصر مقامي أو آخر.

(١) قصي الحسيني: فن المقامات بالأندلس. دار الفكر للطباعة والنشر، عمّان، ١٩٩٩. وانظر أيضاً: أحمد أبو موسى، النشر الفني في عهد الموحّدين بالأندلس: ص ١٤٠-٢٠٠. ود. حسن عباس: نشأة المقامة في الأدب العربي، ص ١٠٤-١١٦. ود. يوسف نور عوض: فن المقامات بين المشرق والمغرب: ص ٢٧١-٣١١.

ولا بأس في الإشارة هنا إلى أن دارسي الأدب الأندلسي بعامة، ودارسي المقامات الأندلسية على وجه الخصوص قد أغفلوا التعريف بالمقاميين الأندلسيين، وكانوا يكتفون غالباً بسرد أسماء بعض المقاميين، والوقوف عند الأعلام المشهورين في هذا الفن. فالدكتور إحسان عباس سرد قائمة بأسماء (٢١) من المقاميين الأندلسيين، نقلها عنه من جاءوا بعده. وقد أورد أحد الباحثين^(١) قائمة بأسماء خمسة وسبعين من أصحاب المقامات في اللغة العربية، لم يورد فيها من أسماء المقاميين الأندلسيين سوى اسم السَّرْقِطِي، الذي كان مَعْنِيًا بفن المقامات عناية برّز فيها عن غيره من أصحاب هذا الفن، في حين نجد أكثر كتّاب المقامة في الأندلس قد عرفوا بنظم الشعر، أو اشتهروا بكتابة الرسائل، أكثر من شهرتهم بكتابة المقامات.

وقد استدركتُ على دارسي النثر الأندلسي ممن تناولوا فن المقامات بعضاً من أعلام هذا الفن، وكشفت النقاب عن عدد ممن مارسوا كتابة المقامات، من أمثال: ابن غالب الرصافي (ت ٥٧٢هـ)، وأبي عبد الله الجوني (من أدباء القرن السادس)، وأبي علي بن كسرى (ت ٦٠٣ أو ٦٠٤)، وأبي بكر الكُتْنُدي (من أدباء القرن السادس الهجري)، وأبي البقاء الرندي، وأبي عامر بن أرقم، وغيرهم، ممن سيرد ذكرهم في موضعه من بحثنا هذا.

أمّا الفصل الثاني فقد جعلته لنصوص المقامات الأندلسية التي استخرجتها من بطون المصادر وقسمتُ تلك النصوص إلى قسمين، أولهما: المقامات التي حُقِّقَتْ ونُشِرَتْ في كتب خاصة كمقامات السَّرْقِطِي، ولسان الدين بن الخطيب، وابن أبي الخصال وغيرهم. وثانيهما: المقامات التي حُقِّقَتْ نصوصها، وبقيت في بطون المصادر، كالذخيرة، والمُعَرَّب، والإحاطة، وغيرها. ولم نورد في هذا الفصل نصوص المقامات التي نُشِرَتْ، وحققت تحقيقاً دقيقاً، وإنما اكتفينا بتحليلها، والتعقيب عليها، واقتبسنا فقرات منها للاستشهاد بها على المعاني والأفكار.

(١) فكتور الكك: بديعات الزمان. المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٦١م، ص ١٢٩-١٣٧.

واهتممنا بغير المنشور فقدّمناه في هذا العمل عساه أن يضيف جديداً إلى النثر العربي عامة، والأندلسي خاصة، ويفيد المهتمين بدراسة المقامات الأندلسية.

وقد رجّح لديّ أن أثبت نصوص المقامات غير المنشورة ثلاثة أمور، أولها: أنها ليست بالكثيرة، فكثير من المقامين الأندلسيين، تأدت لنا أسماؤهم دون نصوص مقاماتهم وشخصياتها. وثانيها: أنّ الذين درسوا النثر الأندلسي، ووقفوا عند المقامات لم يوردوا نصوصها كاملة، وإنما كانوا يكتفون بإيراد فقرات من بعض المقامات يستشهدون بها على المعاني التي يريدونها. فرأيت أن أجمع ما وصل إلينا من مقامات غير منشورة في هذا الفصل، بحيث يكون النص المقامي وتحليله في سياق واحد، ممّا يسهّل على المطالع والمراجع والمتابع. والأمر الثالث: أن هناك نصوصاً مقامية كشفت عنها هذه الدراسة لأول مرة، وكان ينبغي أن نثبت نصوصها لنضعها بين أيدي الدارسين والباحثين.

وقد أتيج لهذه الدراسة أن تقف على نصوص مقامية نشرت حديثاً فتناولتها بالدراسة والتحليل في حين اكتفت الدراسات السابقة بالإشارة إليها، وإصدار أحكام عليها، تقوم على الخلط والظن. ومثال ذلك «المقامة القرطبية»، التي أفاض الدارسون في الحديث عنها، دون أن يطلّعوا على نصّها، فخلطوا بينها وبين المقامة البلنسية للفتح بن خاقان. وقد أثبتنا نصّ هاتين المقامتين لما أحاط بهما من غموض وخلط لدى بعض الباحثين المتخصّصين من أمثال د. إحسان عباس، وبروكلمان وغيرهما ممن تابعوهما، وساروا على نهجهما^(١).

ومن المقامات المنشورة التي أثبتنا نصّها في هذا الفصل أيضاً المقامة «الشّلبية»، التي بناها صاحبها على نمط المقامة القرطبية، وهي من المقامات التي لم تتناولها الدراسات السابقة بالتحليل والنقد، حتى إن أكثر الدارسين لم يشيروا

(١) انظر ص ١٦٨-١٦٩ من بحثنا هذا.

إليها، ولم يذكروها، والذين أشاروا إليها اكتفوا بذكر اسمها دون أن يفصلوا القول في مضمونها.

وقد حاولتُ في نصوص المقامات الأندلسية أن أقدم الشرح الضروري والتعليق الذي ظننته مفيداً، في اختصار وإيجاز، كي لا تكون الشروح عبئاً إضافياً يطيل البحث بلا فائدة، وبخاصة أنني أتبعُ كل نصّ بتحليل يلقي الضوء على عناصره وأفكاره الرئيسة. وربما عمدتُ إلى شرح بعض المفردات الغامضة مستعيناً بما ورد من شروح وتعليقات في المصادر التي وردت فيها النصوص المقامية.

وقد كشفت هذه الدراسة النقاب عن نصوص مقامية لم تشر إليها الدراسات السابقة، فأوردناها في هذا الفصل من مثل «المقامة المحسنية»، ومقامة ابن غالب الرصافي في وصف القلم، ومقامة أبي حفص بن برد في وصف النخلة، والمقامة السّينية للسان الدين بن الخطيب، ومقامتين لابن قزمان الزّجال، وقطعة من مقامة للوزير الكاتب ابن أبي أرقم، وغيرها ممّا أوردنا نصوصها، أو ما وصل إلينا من نصوصها.

وإذا كان الكثيرون من المقامين الأندلسيين قد عرفنا أسماءهم دون أن تصل إلينا نصوص مقاماتهم وشخصياتهم؛ لأن أكثر تراثنا في هذا الفن ما زال مطموراً أو ضائعاً، فإن الكشف عن بعض المقامات، أو أجزاء منها، يحفظ لهذه الدراسة بلون من السبق والريادة.

أمّا الفصل الثالث فقد خصّصته لمضامين النصوص المقامية وأشكالها الفنية، وهي نصوص - في جملتها - تكشف عن الحياة الفكرية والأدبية والسياسية والاجتماعية في خمسة قرون متتابعة، من (القرن الخامس إلى التاسع الهجري)، كما أنّها تقدّم للباحثين صورة واضحة عن تطور النثر الأندلسي في تلك القرون من الناحيتين الفنية والموضوعية. وتكمن أهمية هذا الفصل في أنه تصدّى للنصوص المقامية، وواجهها مواجهة مباشرة، عندما درس مضامينها وخصائصها الفنية.

وبعد، فإن هذا البحث يتناول المقامين الأندلسيين ومقاماتهم، سواء أكانت من إبداعهم، أم معارضة لما كتبه البديع والحريري، ويدرسها دراسة لا تقف عند حدود البحث التاريخي عن المقامات وأصحابها، ولا عند حدود استخراج نصوصها وتقديمها، بل تنطلق لدراسة مضامينها وترصد اتجاهاتها الوعظية والنقدية والوصفية، ثم تلج في أعماقها لتستخرج خصائصها وسماتها الفنية.

والله ولي النفيق

د. شريف علاون

رمضان ١٤٢٨ هـ

تشرين أول ٢٠٠٧ م

١

الفصل الأول

المقاميون الأندلسيون

(تراجمهم وأخبارهم)

عبد الرحمن بن فتوح (كان حياً سنة ٤٣٠هـ)

خصّص ابن بسام الشنتريني (ت ٥٤٢هـ) في كتابه «الذخيرة» فصلاً لأخبار الأديب ابن فتوح، وأورد جملة من شعره في الغزل والمديح^(١)، وكنّاه أبا المطرف^(٢). وترجم له ابن الأبار (ت ٦٥٨هـ) في «التكملة لكتاب الصلة»، وكنّاه أبا الحسن^(٣).

ولابن فتوح عدّة مؤلفات في الأدب، ذكر منها ابن بسام: «الإغراب في رقائق الآداب»، وكتاب «الإشارة إلى معرفة الرجال والعبارة»، وكتاب «بستان الملوك»^(٤).

وكان ابن فتوح شاعراً، نعته ابن بسام بقوله: «من مشاهير الأدباء، وله شعر كثير»^(٥)، كما أنه أورد جملة من أشعاره في النسيب منها قوله:

وَقَفَ الْعِذَارُ بِخَدِّهِ فَحَسَبْتُهُ لَيْلاً تَوْقَفَ وَسَطَ مِضْوٍ نَهَارٍ
وَتَوَرَدَتْ وَجَنَاتُهُ فَحَسَبْتُهَا نَاراً تُلْظِي فَوْقَ مَاءٍ جَارٍ

وقوله:

خَلَعَ الْجَمَالُ عَلَيْكَ ثَوْبَ بَهَائِهِ فَعَدَوْتَ تَسْحَبُ ذَيْلَهُ مُتَبَخِّرَا
فَكَأَنَّ خَدَّكَ وَالْعِذَارَ بِصَحْنِهِ صَبَحَ جَرَى فِيهِ دُجَى فَتَحِيرَا

(١) الذخيرة: ق ١/٢م/ص ٧٧١-٧٨٥.

(٢) المصدر نفسه: ق ١/٢م/ص ٧٧١.

(٣) التكملة: ٢/ص ٥٤٩ (رقم الترجمة ١٥٥٢).

(٤) هذه الكتب ذكرها ابن بسام في الذخيرة: ق ٢م/ص ٧٧٠، وهي غير مطبوعة.

(٥) الذخيرة: ق ١/٢م/ص ٧٧٠.

لمزيد من شعره انظر: المصدر نفسه: ق ١/٢م/ص ٧٧١-٧٨٥.

واستحسن له صاحب «المطرب» بيتيه^(١):

ومُدَامَةٍ صَفراءَ عَلَّلني بها قمرٌ كغصن البان في حركاته
صَفراءُ تغرب إن بدت من كفِّه في فيه ثم تلوح من وجناته

أمَّا مقاماته فلم نعثر منها سوى على مقامة واحدة، أوردها صاحب «الذخيرة»^(٢)، ولأجلها عدّه د. إحسان عباس من المقامين الأندلسيين في عصر الطوائف^(٣).

لم تحدد المصادر سنة لوفاة ابن فتّوح، ولكننا نستطيع القول: إنه كان من أعيان المائة الخامسة للهجرة؛ فقد كتب مقامته كما ذكر سنة ٤٣٠هـ^(٤)، وكان على اتصال بالمأمون بن ذي النون، الذي كان أميراً على طُلَيْطَلَة، وتوفي سنة ٤٦٧هـ^(٥).

(١) المطرب من أشعار أهل المغرب : ص ٧٦.

(٢) انظر نص المقامة في الذخيرة : ق ١ / م ٢ / ص ٧٨٦ - ٧٨٨، وانظر أيضاً ص ٦٥ من دراستنا هذه.

(٣) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) : ص ٣٠٥.

(٤) الذخيرة: ق ١ م ٢ ص ٧٨٦.

(٥) د. شوقي ضيف: عصر الدول والإمارات (الأندلس)، ص ٣٧.

أبو حفص عمر بن الشهيد (القرن الخامس الهجري)

ترجم له الحميدي (ت ٤٨٨هـ) ترجمة موجزة في كتابه «جذوة المقتبس»، على الرغم من أنه كان معاصراً له، والتقاءه في مدينة المرية سنة ٤٤٠هـ^(١). قال الحميدي: «عمر بن الشهيد، أبو حفص التُّجِّي، لا أحفظ اسم أبيه، وهو رئيس، شاعر مشهور بالأدب، كثير الشعر، متصرف في القول، مقدّم عند أمراء بلده، والشهيد صفة تُسبب إليها فغلبت عليه»^(٢).

وعبارات الحميدي هذه نقلها بنصّها الضي (ت ٥٩٩هـ) في كتابه «بغية الملتبس»^(٣)، ولم يضيف إليها شيئاً.

وهذا المقامي لم يذكر مترجموه تاريخ وفاته، ولكنه -فيما يبدو لنا- من أدباء القرن الخامس الهجري؛ لأن الحميدي التقاه بالمرية سنة ٤٤٠هـ، يضاف إلى ذلك أنه كان من شعراء المعتصم به صمادح، المتوفى سنة ٤٨٤هـ.

أمّا ابن بسام فقد خصّص فصلاً لابن الشهيد^(٤)، أورد فيه رسالة موجهة إلى أحد أصدقائه^(٥)، وفصولاً من مقامة له^(٦)، وأشعاراً في مديح المعتصم بن صمادح^(٧). وقد أتى كلّ هذا بعد مقدّمة موجزة، لا تفيدنا في تصنيف ترجمة لهذا الأديب. يقول ابن بسام: «وأبو حفص هذا في وقتنا كان فارس النظم والنثر، وأعجوبة القرآن والعصر، ونهاية الخبر والخبر، رقم

(١) جذوة المقتبس: ص ٢٨٣.

(٢) المصدر نفسه: المكان نفسه.

(٣) بغية الملتبس: ص ٣٩٤.

(٤) الذخيرة: ق ١ م ٢ ص ٦٧١-٦٩٠.

(٥) المصدر نفسه: ق ١ م ٢ ص ٦١٧-٦٤٧.

(٦) المصدر نفسه: ق ١ م ٢ ص ٦٧٤-٦٨٥، وانظر دراستنا هذه ص ٧٥-٨٣.

(٧) المصدر نفسه: ص ٦٨٦-٦٩١. والمعتصم بن صمادح من أمراء المرية، وهي من إمارات شرقي الأندلس تقع على البحر المتوسط ملّك إحدى وأربعين سنة، وهو ابن أربع عشرة سنة، وتوفي سنة ٤٨٤هـ، وجيش المرابطين يحاصره. (المغرب: ٢/ص ١٩٥).

برود الكلام، ونظم عقود النثر والنظام... وقد أخرجتُ في هذا الفصل من بارع كلامه في نثره ونظامه ما يشهد برسوخ أعلامه، وشهرة أيامه»^(١).

وقد التقاه الحميدي -كما أسلفنا- وكتب عنه من أشعاره قوله: ^(٢)

في صحبة الناس في ذا الدهر معتبرٌ	لا عين تونق منها لا ولا أثرٌ
كأنّ ميثاقهم ميثاق غانية	يُعطيك منه الرضى ما يسلب الضجرُ
فلا يغرتك من قول طلاوته	فإنما هي نوار ولا ثمرُ
لكنهم ونفوذ القول جارية	على مقادير ما يقضي به الوطرُ
تسابق الناسُ إعجاباً بأنفسهم	على مدى دونه الغايات تُنحسرُ
فللتسامي ضباب في صدورهم	وللتكبر في آفاهم نُعرُ
وما عدلتهم إلا عذرهم	فالجهلُ ليس له سمعٌ ولا بصرُ

ولنا أن نتساءل: لماذا سكّنت المصادر بعد «الذخيرة»، عن ذكر مقامات ابن الشهيد؟ كما أنها لم تُشير إلى نص المقامة التي أوردها كتاب «الذخيرة»،. فصاحب كتاب «أدباء مالقة» ترجم لابن الشهيد ^(٣)، وذكره ابن سعيد في كتاب «المغرب» ^(٤)، وأورد المقرئ في «نفح الطيب» ^(٥) مختارات من شعره، وأشاد ثلاثتهم بشاعريته، وعدّوه شاعر المريّة في زمانه، ولكننا لا نجد أحداً منهم يشير إلى مقاماته، أو يورد شيئاً من نصوصها.

(١) الذخيرة: ق ١ م ٢ ص ٦٧١

(٢) جذوة المقتبس: ص ٢٨٣.

(٣) أدباء مالقة: ص ٣٤٤.

(٤) المغرب: ٢/ ص ٢٠٩.

(٥) نفح الطيب: ٣/ ص ٤١٣.

أبو محمد بن مالك القرطبي (عاش في المائة الخامسة للهجرة)

لا نجد في كتب التراجم حديثاً مفصلاً عن حياة هذا الأديب، حتى إن مصادر ترجمته لم تذكر اسمه، وإنما ذكرته بكنيته. وكان ابن بسام الشنتريني من أوائل الذين ذكروه، فقد خصص فصلاً لذكره، وإيراد جملة من نظمه وشعره^(١). ولكنه لم يذكر تاريخاً لوفاة. ومن الثابت أنه من شعراء المائة الخامسة؛ لأن ابن بسام في «الذخيرة» يسميه شاعر ابن صُمادح، الذي كان أميراً للمرية في القرن الخامس الهجري، وتوفي -كما أسلفنا- سنة ٤٨٤هـ^(٢).

وينبئنا ابن بسام أن أبا محمد أقام مدة بالمرية تحت ضنك معيشة، مما دفعه إلى التصريح بالسؤال في عدة مدائح رفعها لأميرها المعتصم بن صُمادح، منها قوله^(٣):

أمتعصماً بالله يا خير موئل	وأكرم مأمول وأفضل واهب
مضى الفطر والأضحى ولا نيل يُقتضى	فكم أخفقت وحدي عليك مطالي
سأرحل عنكم دون زادٍ لبلغة	وتلك لعمرى سُبّة في العواقب

ويضيف ابن بسام قائلاً: «وما زال يعلن باضطرابه، ويشكو الفقر في أشعاره، حتى أعياه ذلك، فجعل بعد يصف الغنى واليسار هنالك، تعريضاً وتطبيهاً، فمن ذلك قوله من قصيدة:

وما نذكر الإغدام إلا تحيلاً	لكثرة ما أغنى نداه وما أقنى
وأكثر ما نخشاه طغيان ثروة	فإننا نرى الإنسان يطغى إذا استغنى

(١) الذخيرة: ق ١/م ٢/ص ٧٣٩-٧٥٤.

(٢) انظر ترجمته في قلائد العقيان: ص ١٤٦-١٥٦.

(٣) الذخيرة: ق ١ م ٢ ص ٧٤٠.

فقال له بعض أصحابه: ومن أين هذا الغنى وقديماً تشكو الفقر ؟ ومضوا معه إلى منزله فما وجدوا عنده غير قُلَّةٍ فخار وقدح للماء، ونحو ثمانية أرطال دقيق في مخلاة»^(١).

أما مقاماته فقد احتفظ لنا صاحب «الذخيرة» بعدة فصول من مقامة طويلة له في مدح ابن صُمادح، جاءت في إحدى عشرة صفحة من كتابه، بعد أن اقتضبها ابن بسام لطولها وساق بعض فصولها^(٢).

(١) الذخيرة: ق ١ م ٢ ص ٧٤٠.

(٢) انظر المقامة في الذخيرة: ق ١ / م ٢ / ص ٧٤١-٧٥٢، وانظر ص ٨٧-٩٤ من دراستنا هذه.

أبو الوليد محمد بن عبد العزيز بن المعلم (من أدباء القرن الخامس الهجري)

ذكره صاحب «جذوة المقتبس» فقال: «محمد بن عبد العزيز بن المعلم أديب شاعر، روى عنه ابنه عبد العزيز»^(١). ونقل عنه ذلك الضبي في «بغية الملتبس» ولم يضيف شيئاً^(٢).

وأوفى ترجمة لابن المعلم نجدها في كتاب «الذخيرة» حيث نعته ابن بسام بقوله: «بديع ذلك الزمان، أحد وزراء المعتضد الكتاب الأعيان، وممن اشتهر بالإحسان في صناعة النظم والشر... وقد كتبت له منهما ما يشهد أنه كان من أهل الرواية والعلم، وذوي الدراية والفهم»^(٣). ونقل عبارات ابن بسام هذه صاحب كتاب «المغرب»^(٤). ثم أورد ابن بسام في سبع صفحات فصولاً من إحدى مقاماته^(٥)، أتبعها بمختارات من شعره^(٦)، منها قوله في مديح المعتضد بن عباد: ^(٧)

رأى البرق نجدياً فحنَّ إلى نجد	وبات أسير الشوق في قبضة البُعد
يعالج قلباً قلبته يد النوى	على جرة التوديع في لهب الوجد
ولا مسعدٌ إلا زفيرٌ وآلة	تقدُّ شِغاف القلب منه ولا تُجدي
وما أنطقته البارقاتُ تشوقاً	لنجدٍ ولكن للمقيمين في نجدٍ

(١) جذوة المقتبس: ص ٧٠ (ترجمة رقم ١٠١).

(٢) بغية الملتبس: ص ١٠٢ (ترجمة رقم ٢٠٤)، وورد ذكره في موضع آخر من بغية الملتبس: (ترجمة رقم ١٥٧٩).

(٣) الذخيرة: ق ٢/م ١١٢. والمعتضد هو عباد بن محمد بن إسماعيل، أمير إشبيلية، تولى الحكم سنة ٤٣٦هـ، وتوفي سنة ٤٦١هـ. انظر ترجمته في (أدباء مالقة: ص ٢٨٣-٢٨٦).

(٤) المغرب: ١/ص ٢٥٢.

(٥) الذخيرة: ق ٢/م ١١٣-١٢٠.

(٦) المصدر نفسه. ق ٢/م ١٢٠-١٢٤.

(٧) الذخيرة: ق ٢ م ١٢٠. ووردت هذه الأبيات أيضاً في: جذوة المقتبس: ص ٧٠، وبغية الملتبس: ص ١٠٢.

الفتح بن خاقان

(ت ٥٢٩هـ)

وهذا الأديب أشهر من أن يذكر، فهو أبو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله القيسي الإشبيلي، ويعرف بابن خاقان، يُرَدُّ أصله إلى قلعة الواد من قرى يحصب من أعمال غرناطة.

أحد الكتاب المصنفين في الجزيرة الأندلسية، بل هو من أشهرهم في هذا الميدان من التأليف. نظم الشعر، وأنشأ الرسائل، وألف في التاريخ والتراجم، وقد طارت شهرته، وذاع صيته بكتابه «قلائد العقيان»، و «مطمح الأنفس».

ترجم له الكثيرون من أصحاب كتب التراجم، كالمقري في «نفح الطيب»، ولسان الدين بن الخطيب في «الإحاطة»، و ياقوت في «معجم الأدباء»، وابن سعيد في «المغرب»، وابن خلكان في «وفيات الأعيان»، وغيرهم ممن أسهبوا في الحديث عنه، وذكر أخباره ومصنفاته.

وأوفى ترجمة له نجدها في مقدمة كتابه «مطمح الأنفس»^(١)، فقد استوفى محقق الكتاب أخبار الفتح وآثاره معتمداً في ذلك على المصادر التي ذكرناها.

ولا نجد أحداً من أصحاب كتب التراجم يحدد تاريخاً لولادة الفتح، ولكنهم اتفقوا على أن وفاته كانت سنة ٥٢٩هـ، بمدينة مراكش، أشار بقتله علي بن يوسف بن تاشفين أمير المسلمين، وهو أخو أبي إسحق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين الذي ألف له الفتح كتابه «القلائد».

وليس من غایتنا في هذا المقام أن نترجم بإسهاب للفتح بن خاقان، أو أن نفيض في الحديث عن أخباره ومؤلفاته، وإنما يعيننا - من آثاره - تلك المقامة^(٢) التي صنعها على شيخه أبي محمد البطليوسي والتي من أجلها، عددناه في المقاميين الأندلسيين.

(١) مطمح الأنفس (تحقيق محمد علي الشوابكة): مقدمة المحقق ص ١٨-٦١.

(٢) نظير نفس مقامة والتعليق عليها ص ١٠٣-١١٢ من بحثنا هذا.

أبو عبد الله بن أبي الخصال

(ت ٥٤٠ هـ)

وهذا الأديب ممن يُصَنَّفون في الطبقة الأولى من كتّاب النثر الأندلسي، فهو أبو عبد الله محمد بن مسعود المشهور بابن أبي الخصال. كانت ولادته سنة ٤٦٥ هـ في قرية فرغليط من أعمال شقورة. وفيها تلقى علومه الأولى، ثم تردّد على غيرها من المدن؛ للاستزادة من أنواع الثقافة والمعرفة^(١).

وأسرة ابن أبي الخصال أسرة موصولة بالعلم، أصيلة فيه، وقد ظهر منها في وقت واحد ثلاثة من الرجال هم: أبو عبد الله، وأخوه أبو مروان، وأخوهما أبو جعفر. وتذكر المصادر من أبنائهم بعض الأسماء ممن كان لهم صيت ومكانة، ولكن شهرة أبي عبد الله غطّت على شهرة من عُرفوا من أسرته.

وأفاضت كتب التراجم في الحديث عن الفقيه الكاتب أبي عبد الله بن أبي الخصال، فسردت أسماء شيوخه، وتلامذته النابهين، وذكرت مؤلفاته^(٢)، وأوردت أطرافاً من أخباره ومجريات حياته.

ولسنا في هذا المقام بصدد إيراد ما ذكرته المصادر من تفاصيل بشأن حياته ومؤلفاته وإنما سنكتفي بإيراد بعض العبارات التي تدل على فضل الرجل وعلوّ منزلته. قال فيه صاحب «الذخيرة»: «هو اليوم لا تشير الأصابع إلّا إليه، ولا تنطوي الأضالع إلا عليه... وله بيان لا يتعاطاه ناظم ولا ناثر، وإحسان لا يبلغ مداه أوّل

(١) استوفى د. محمد رضوان الداية دراسة شخصية ابن أبي الخصال، وآثاره وأدبه في كتابه «ابن أبي الخصال - رئيس كتّاب الأندلس في سلسلة أعلام الفكر - العدد ٥».

(٢) انظر مؤلفاته في: المطرب: ص ١٨٧، وانظر أيضاً: رسائل ابن أبي الخصال: مقدمة المحقق: (د. محمد رضوان الداية): ص ١٤ وما بعدها.

«ولا آخر...»^(١). ووصفه ابن سعيد بأنه «رئيس كتاب الأندلس»^(٢)، وذكر ابن الخطيب أنه «لم يكن في عصره مثله مع دين وفضل وورع»^(٣) وذكر المراكشي في «المعجب» أن لابن الخصال ديوان رسائل يدور بأيدي أدباء الأندلس، قد جعلوه مثلاً يحتذونه، ونصبوه إماماً يقتفونه^(٤).

ولابن أبي الخصال تاريخ حافل في الخدمة السلطانية، والحصول على الجاه والمكانة، فكتب لعلي بن يوسف بن تاشفين، وهو وال على غرناطة، وكتب له - عندما صار أميراً للمسلمين - رسائل تدل على طول مدة خدمته في دولته. وتولّى كثيراً من الأعمال الإدارية والكتابية لأمراء المرابطين، وبقي في الخدمة السلطانية إلى أن توفي مقتولاً سنة ٥٤٠ هـ.^(٥)

واشتغل أبو عبد الله بالتأليف، وبرع في كتابة الرسائل الديوانية والإخوانية، وشارك في نظم الشعر، ولكن شهرته غلبت في النثر، وعلا ذكره في الترسل، فكتب الرسائل، وألف المقامات، وأنشأ الخطب. وحظيت رسائله بعناية كبيرة في زمانه، وبعناية أجيال أتت بعده. حتى إن الشُّقندي فاخر به في تفضيل الأندلس والدفاع عنها قائلاً: «وهل لكم في بلاغة النثر كالفتح بن عبيد الله... ومثل ابن أبي الخصال في ترسيله»^(٦).

وإذا كان ابن أبي الخصال قد اشتهر برسائله، فإنه قد وصل إلينا في مجمل آثاره مقامة عارض بها الحريري، وصبّ فيها على قلبه. وهذه المقامة هي موضع اهتمامنا في هذا البحث^(٧).

(١) الذخيرة: ق ٣/ ٢م/ ص ٧٨٦.

(٢) رايات المبرزين: ص ٧٤.

(٣) الإحاطة: ٢/ ص ٣٨٨.

(٤) المعجب: ص ٢٤٠.

(٥) بغية الملتبس: ص ١٥٢ (رقم الترجمة ٢٨٢)، ومعجم ابن الأبار: ص ١٥٢ (رقم الترجمة ١٢٥).

(٦) نفع الطبيب: ٣/ ص ١٩٣.

(٧) انظر نص المقامة في: رسائل ابن أبي الخصال ص ٤٢٠-٤٤٩. وانظر تحليلنا لها ص ١٢١ من بحثنا هذا.

محمد بن يوسف السَّرْقَسْطِي (ت ٥٣٨)

هو أبو الطاهر محمد بن يوسف بن عبدالله بن إبراهيم التميمي السَّرْقَسْطِي الإِشْتَرَكُوبِي نسبة إلى اشتركية، وهو حصن قرب تطيلة في شمال الأندلس، وولد بسرقسطة ونشأ بها، ثم سكن قرطبة فنسب إليها أيضاً^(١).

والسَّرْقَسْطِي أديب مغمور، لم يعرف به القدماء، ولا عرفه المحدثون إلاّ أخيراً، فابن بسام (ت ٥٤٢) لم يترجم له في «الذخيرة»، وكذلك الفتح بن خاقان (ت ٥٢٩هـ) لم يذكره في «قلائد العقيان» وكلاهما كان معاصراً للسَّرْقَسْطِي.

وكان السَّرْقَسْطِي، كاتباً، وشاعراً، ومن علماء العربية في زمانه. ومن كتبه المطبوعة (المسلسل)، وهو كتاب في غريب اللغة، و(المقامات اللزومية) التي تعدّ نصوصها من عيون التراث في فن المقامات.

وعندما تذكر المقامة في الأندلس، يتبادر إلى الذهن مقامات السَّرْقَسْطِي، وهي خمسون مقامة عارض بها مقامات الحريري، ودليل معارضته لها عبارة جاءت في مقدمتها، ونصّها: «...فهذه خمسون مقامة أنشأها أبو الطاهر محمد بن يوسف التميمي السَّرْقَسْطِي بقرطبة من مدن الأندلس عند وقوفه على ما أنشأه الرئيس أبو محمد الحريري بالبصرة، أتعبَ فيها خاطره، وأسهر ناظره، ولزم في نثرها ونظمها ما لا يلزم، فجاءت على غاية من الجودة، والله أعلم»^(٢).

(١) انظر ترجمة السَّرْقَسْطِي في الصلة لابن بشكوال رقم ١١٧٥، والتكملة لابن الأبار رقم ٥٥٤، والإحاطة:

٢/ ص ٥٢١، وتاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين): ص ٣١٧.

(٢) المقامات اللزومية: ص ٣.

ولا تحدّد المصادر تاريخاً لكتابة المقامات اللزومية، ولكن من الثابت أنّ الحريري انتهى من كتابة مقاماته سنة ٥٠٤هـ، وأنّ السّرّسّطي توفي سنة ٥٣٨هـ، فيكون تاريخ تأليفها بين سنتي ٥٠٤هـ و٥٣٨هـ.

وقد نشر مقامات السّرّسّطي د. بدر أحمد ضيف نشرة علمية محقّقة بعنوان «المقامات اللزومية»^(١)، قدّم لها بتعريف بصاحب المقامات^(٢)، وذكر عدداً من شيوخه الذين أخذ عنهم، ونوّه بأستاذيته لكثير من علماء الأندلس. وكان صدور المقامات اللزوميّة سنة ١٩٨٢ لأول مرّة، حدثاً مُهماً، جاء ليشري مادة المقامة في الأندلس، وينشط النقاش حولها.

وقد أثنى د. شوقي ضيف على المقامات اللزومية، وقال فيها: «إنها أروع آثار السّرّسّطي، وإنها أروع ما قدّمت الأندلس للأدب العربي من أعمال أدبية»^(٣).

ويرى أحد الباحثين أنّ فروغ السّرّسّطي من تأليف مقاماته اللزومية كان مرحلة أفول المقامة الأندلسية؛ لأنه كان آخر من تقيّد بقواعد هذا الجنس الأدبي، وحافظ على جوّ الكدية فيه^(٤).

ويبدو لنا أنّ هذا الرأي مبالغ فيه. فمقامات السّرّسّطي، لكثرتها من جهة، والتزامها بأصول الفن المقامي المشرقي من جهة أخرى، تُعدّ علامة بارزة في مسيرة الفن المقامي في الأندلس. ولكننا نجد في ما بين أيدينا نصوصاً تمثل حكايات الكدية بالأندلس، كتبت بعد مقامات السّرّسّطي بقرون من مثل مقامة ابن المربع الأزدي، ومقامة الفقيه عمر الزّجال، وقد يكون هناك أيضاً مقامات أخرى لم تصل إلينا.

(١) نشرتها الهيئة المصرية العامة للكتاب (فرع الإسكندرية)، ١٩٨٢م.

(٢) المقامات اللزومية: ص ١١-٢٨.

(٣) تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات: الأندلس): ص ٢٢٢.

(٤) محمود طرشونة: حوليات الجامعة التونسية، عدد ٢٨، سنة ١٩٨٨، ص ١٦٣.

محارب بن محمد بن محارب الوادي آشي

(ت ٥٥٣هـ)

وأخبار هذا المقامي نزرة في كتب التراجم، لا تتجاوز ذكر اسمه وكنيته، فقد ذكره ابن عبد الملك المراكشي في كتابه «الذيل والتكملة» وترجم له في سطرين، بقوله: «محارب بن محمد بن محارب من أهل وادي آش، يكنى أباً محمد، كان أديباً فقيهاً، وله مقامة في القاضي عياض بن موسى»^(١). ومقامته هذه لم نعثر على شيء منها في المصادر التي بين أيدينا.

أمّا مقامته الأخرى في مدح القائد أبي عبد الله بن ميمون ووصف شجاعته في الحروب البحرية، فقد وصلت إلينا وأثبتنا نصّها وتحليلها في الفصل الثاني من دراستنا هذه^(٢).

وكان محارب الوادي آشي شاعراً، أورد له ابن الأبار قصيدة يمدح بها القاضي عياض، منها قوله:^(٣)

وَوَجَدُ بَنِي عِيَاضٍ بِالْمَعَالِي	مَدَى الدُّنْيَا حَدِيثٌ يُسْتَفَاضُ
إِذَا قُصِدُوا أَثَارُوا الْجُودَ بِحِرَاءِ	وَسَالُوا بِالْمَكَارِمِ ثُمَّ فَاضُوا
فَقُلْتُ لَهَا: وَمَنْ مِنْهُمْ عِيَاذِي	فَقَالَتْ: ذَاكَ سَيِّدُهُمْ عِيَاضُ
إِمَامَ زَانِهِ عِلْمٌ وَحِلْمٌ	لَهُ بِالْخَطَةِ الْعِلَا انْتِهَاضُ

(١) الذيل والتكملة: ٢/ ص ٧٣٦ (رقم الترجمة ١٨٥٩). وعياض بن موسى من علماء الشريعة في المائة السادسة وهو من أهل سبتة، وولي القضاء بغرناطة، توفي سنة ٥٤٤هـ. انظر ترجمته في: رايات المبرزين: ص ١٠٨، وقلائد العقيان: ص ٦٨٣-٦٩١. أمّا وادي آش التي ينسب إليها محارب فهي مدينة بالآندلس قريبة من غرناطة، تقع على ضفة نهر ينحطّ من الجبل (الروض المعطار).

(٢) انظر دراستنا هذه ص ١٣٥-١٤٦.

(٣) المقتضب من تحفة القادِم: ص ٨٥.

ابن قزمان الزجال^(١)

(٤٨٠ - ٥٥٥ هـ)

اسمه محمد بن عيسى بن عبد الملك بن قزمان، وكنيته أبو بكر^(٢). وقد خلطت بعض المصادر بينه وبين عمّه أبي بكر محمد بن عبد الملك بن عيسى، الذي كان من الزجّالين أيضاً، ولذا أطلقوا على صاحبنا اسم ابن قزمان الأصغر، ليميزوه عن عمّه ابن قزمان الأكبر.

وترجع شهرة ابن قزمان إلى أنه - كما ذكر ابن سعيد - كان إمام الزجّالين بالأندلس. وعلل ابن سعيد ميل ابن قزمان إلى الزجل « بأنه كان في أوّل أمره مشتغلاً بالنظم المعرب، فرأى نفسه تقصر عن أفراد عصره، كابن خفاجة وغيره؛ فعمد إلى طريقة لا يمازجه فيها أحد منهم، فصار إمام أهل الزجل المنظوم بكلام عامة الأندلس^(٣) ».

وقد درس د. عبد العزيز الأهواني ابن قزمان من أزجاله دراسة دقيقة تفصيلية^(٤)، وصورته الشخصية فيها أن كان طويل القامة، أبيض الوجه، أشقر اللحية، أزرق العينين، وهذا قد يوحي بأنه كان جميلاً، ولكن صاحب «المغرب» يذكر أنه كا قبيح المنظر.^(٥)

اشتهر ابن قزمان بأزجاله في الغزل والمديح ووصف الخمر وغيرها من الأغراض التي وردت في ديوانه.^(٦) ولكننا أوردناه هنا في المقاميين الأندلسيين، لأنّ لسان الدين بن الخطيب أورد له مقامتين في الدعاء. إحداهما في استهلال شهر رمضان، والأخرى في استهلال شهر شوال^(٧).

(١) انظر ترجمته مفصلة في كتاب الزجل في الأندلس للدكتور عبد العزيز الأهواني، ص ٦٧-١٠٥.

(٢) المغرب : ١ / ص ١٠٠.

(٣) المصدر نفسه : المكان نفسه.

(٤) الزجل في الأندلس : ص ٦٧ - ١٠٥.

(٥) المغرب : ٢ / ص ١٢١.

(٦) هذا الديوان مطبوع، نشره المعهد الإسباني العربي للثقافة، مدريد، ١٩٨٠.

(٧) الإحاطة : ٢ / ص ٤٩٨ - ٥٠٤ وانظر دراستنا هذه ص ١٢٤-١٢٩.

علي بن جامع الأوسي (توفي بعد ٥٦٧هـ)

أوفى ترجمة لهذا الأديب نجدها في كتاب «الذيل والتكملة» لابن عبد الملك المراكشي (ت ٧٠٣هـ)، فقد ذكر اسمه وكنيته، وعدّد شيوخه وتلاميذه، فقال: «علي ابن جامع الأوسي: مالقي أبو بحر وأبو الحسن، روى عن أبي الحسن شريح، وأبي الحسين بن الطراوة (ت ٥٢٨هـ) وروى عنه أبو بكر: عتيق بن قنترال (ت ٥٤٨هـ)، ويحيى بن أحمد الهوادي، وأبو الحسن بن علي النفزي، وأبو الحسين عبيد الله بن محمد المذحجي، وأصبع بن علي بن أبي العباس»^(١). وفي كتاب «أدباء مالقة» تحريف «الأوسي» إلى «الموسي»^(٢).

وكان ابن جامع - كما ذكر المراكشي - نحويّاً ماهراً أديباً كاتباً بليغاً متفتّناً، عالي الرواية، مكفوف البصر، أقرأ القرآن ودرس العربية بمسجد القاضي ابن حسن بمالقة مدّة، ثم انتقل عنها إلى باغّه، فأقام بها نحو ثلاثين سنة مكرّماً مبروراً معاملاً بما يليق بأمثاله، وكان سبب خروجه من مالقة أنّ مقامة صنعت في ثلب بعض أعيان مالقة فنسبت إليه فخاف على نفسه مما عسى أن ينجر إليه منهم بسببها، ثم عاد إليها محترماً متلقّى بأزيد مما أمّل إجلالاً وتعظيماً، وعكف بها على شأنه من الإقراء والتدريس إلى أن توفي بها»^(٣).

(١) الذيل والتكملة: ق ١/ ص ٢٠٢-٢٠٣ (رقم الترجمة ٣٩٦).

(٢) أدباء مالقة: ص ٣٣١.

(٣) الذيل والتكملة: ق ١/ ص ٢٠٣، وانظر أدباء مالقة: ص ٣٣٢.

باغّه: مدينة بالأندلس من عمل غرناطة (الروض المعطار: ص ١٢٢).

وترجم له صاحب كتاب «أدباء مالقة» وأورد قطعة من نشره ومختارات من شعره^(١)، وأشار إلى المقامة التي نُسبتُ إليه في ذمّ بعض أعيان مالقة ولكنه لم يورد نص تلك المقامة أو شيئاً منها^(٢).

أمّا ابن الزبير فقد ترجم لعلي بن جامع في كتابه «صلة الصلة»^(٣)، وعدّد شيوخه وتلامذته، ولكنه لم يذكر شيئاً عن تلك المقامة، ولا نجد في كتابه ما يشير إلى أن ابن جامع كان من أصحاب المقامات.

(١) أدباء مالقة: ص ٣٣٢-٣٣٤، وانظر أيضاً: مختارات من الشعر المغربي والأندلسي: ص ٢٥١.

(٢) المصدر نفسه: ص ٣٣٢.

(٣) صلة الصلة: ص ١٠٢، ترجمة رقم (٢١٩).

ابن غالب الرصافي

(ت ٥٧٢هـ)

وهو - كما عرّف به صاحب «أدباء مالقة»-: «أبو عبد الله محمد بن غالب الرصافي^(١)، فحل الشعراء، ورئيس الأدباء، أصله من رصافة بلنسية، واستوطن مالقة واتخذها دار إقامة إلى أن توفي بها رحمه الله يوم الثلاثاء التاسع عشر لشهر رمضان سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة»^(٢).

ولعل أول حادثة تاريخية كبيرة في شبابه هي ذهابه مع زمرة الشعراء الذين استدعاهم أمير الموحدين، عبد المؤمن على جبل الفتح (جبل طارق)، وأنشده الرصافي يومئذ قصيدته التي مطلعها^(٣):

لو جئت نار الهدى من جانب الطور قبست ما شئت من علم ومن نور

واشتهر الرصافي في مجال الشعر، ولذلك عدوه فحلاً من فحول الشعراء^(٤)، وقد شبّه بعضهم بابن الرومي ؛ لأنه حاول استخراج صور جديدة، ومال إلى توليد المعاني واختراعها^(٥).

وليس من غاية بحثنا هذا أن يقدم ترجمة مفصلة لابن غالب الرصافي، فقد أسهبت مصادر ترجمته في الحديث عن سيرته وشعره، ولكن الذي يعيننا في هذا المقام

(١) له ترجمة مفصلة في: تحفة القادم: ص ٧٥-٧٩، والإحاطة: ٢/ ص ٥٠٥-٥١٥، ووفيات الأعيان: ٤/ ص ٣٣٢، والوفاء بالوفيات: ص ٣٠٩-٣١٢، وبغية الملتبس: ص ١١٩-١٢١، ونفح الطيب: ٤/ ص ١٥٩-١٦١، وكتاب أدباء مالقة: ص ٦٨-٨٥. جمع شعره د. إحسان عباس، ونشرته دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣.

(٢) أدباء مالقة: ص ٦٨. وأكثر المصادر على أن وفاته سنة ٥٧٢هـ، انظر: وفيات الأعيان: ٤/ ص ٣٣٢، والتكملة لكتاب الصلة: ٢/ ص ٥٢٠ ومقدمة ديوانه: ص ١٥.

(٣) القصيدة في ٦٢ بيتاً، ديوانه: ص ٧٧-٨٦.

(٤) الإحاطة: ١/ ص ٥٠٦.

(٥) انظر مقدمة ديوانه: ص ١٥.

أنّ هذا الشاعر كان من الأندلسيين الذين مارسوا كتابة المقامات، فقد أورد صاحب «الإحاطة» جزءاً من مقامة له في وصف القلم، وطأ لها بثلاثة أبيات شعرية.^(١)

ولا بأس في الإشارة هنا إلى أن د. إحسان عباس جمع شعر ابن غالب الرصافي، وترجم له ترجمة مفصّلة في مقدمته لمجموع شعره، ولكنه لم يورد اسمه في قائمة المقاميين الأندلسيين الذين سرد أسماءهم في كتابه: «تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطوائف والمرابطين»^(٢). وسبب ذلك - في رأينا أنه لم يرجع إلى كتاب «الإحاطة»، الذي أورد جزءاً من مقامة الرصافي، بدليل أنه لم يذكره في المراجع التي اعتمد عليها في جمع أشعار الرصافي وتخريجها^(٣). ولا بأس في الإشارة أيضاً إلى أن دارسي المقامات الأندلسية من المحدثين^(٤) لم يذكروا ابن غالب الرصافي ضمن المقاميين الأندلسيين؛ لأنهم اعتمدوا دراسة د. إحسان عباس، ووقفوا عندها.

ويبدو لنا أن لابن غالب الرصافي مقامات أخرى غير تلك المقامة التي أورد صاحب «الإحاطة» جزءاً منها، نستدل على ذلك بما رواه صاحب «أدباء مالقة» من أنه «كانت بين ابن غالب الرصافي وبين أدباء مالقة مقامات أدبية، ومجالس شعرية، وارتجالات نبهة»^(٥).

(١) الإحاطة: ٢/ ص ٥١٤، وانظر هذه القطعة من مقامته ص ١٣٢ من دراستنا هذه.

(٢) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين): ص ٣٠٥-٣٠٨.

(٣) ديوان الرصافي البلسني: ص ٢٣.

(٤) من هؤلاء الدارسين: د. عباس حسن في كتابه: نشأة المقامة، ود. قصي الحسيني في: فن المقامات بالأندلس، ود. يوسف نور عوض في كتابه: فن المقامات بين المشرق والمغرب.

(٥) أدباء مالقة: ص ٨٥.

محمد بن خلف الهمذاني الغرناطي

(٤٩٣هـ - ٥٧٣هـ)

وهذا المقامي لم تورد مصادر ترجمته شيئاً من مقاماته، فصاحب «الذيل والتكملة» ترجم له قائلاً: «كان أديباً شاعراً فاضلاً زاهداً، جمع الله له محاسن جمّة من العلوم والمعارف والآداب والمقامات»^(١).

ولكونه من أهل اللغة والنحو فقد ذكره السيوطي (ت ٩١١هـ) في «بغية الوعاة» فقال: «محمد بن خلف الهمذاني يعرف بابن أقيلال، من بيت علم ودين، وكان عارفاً بالفقه والحديث والنحو واللغة والأدب والشعر والكتابة والطب مع كرم خُلُق»^(٢). ويضيف السيوطي قائلاً: «وكان من جملة الكتّاب والأدباء والشعراء، صنع مقامة حسنة في أهل بلده، وانتقل إلى مالقة، ثم عاد إلى بلده، وبها توفي سنة ٥٧٣هـ»^(٣).

وهذا الأديب صاحب المعارف الجمّة، لم تورد مصادر ترجمته شيئاً من نظمه ونثره، كما أن مقامته، التي وصفها السيوطي بأنها حسنة، لا نعرف عنها شيئاً.

أمّا د. إحسان عباس - عندما عدّد المقاميين والمقامات الأندلسية - فقد اكتفى بالقول: «مقامة في أهل غرناطة لمحمد بن خلف الهمذاني الغرناطي»^(٤).

(١) الذيل والتكملة: ١/ ص ٢١٠.

(٢) بغية الوعاة: ١/ ص ١٠١.

(٣) المصدر نفسه: المكان نفسه.

(٤) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين): ص ٣٠٦.

عبد الرحمن بن أحمد بن القصير

(ت ٥٧٦هـ)

ترجم له المقرئ في «أزهار الرياض»، فقال: «عبد الرحمن بن أحمد بن محمد الأزدي من أهل غرناطة من بيت شورى وجلالة، وكان صاحب رواية ودراية، وله تواليف وخطب ورسائل ومقامات...»^(١).

وكان كما يذكر صاحب «جذوة الاقتباس»: «من بيت وجاهة وعلم ونباهة، عارفاً بصناعة الحديث معتنياً بالرواية، فقيهاً، حافظاً للمسائل، أديباً بارعاً مولعاً بإنشاء الخطب والرسائل والمقامات...»^(٢).

واختلفوا في كنيته فهو أبو جعفر كما نقل المقرئ عند كتاب «صلة الصلة» لابن الزبير^(٣)، وأبو القاسم أو أبو زيد عند آخرين، ممن نقل عنهم المقرئ^(٤).

وعدد المقرئ كثيراً من شيوخ ابن القصير^(٥)، الذين روى عنهم وصحبهم، نذكر منهم: أبا عبد الله بن أبي الخصال (ت ٥٤٠ هـ)، وأبا الوليد بن رشد (ت ٥٢٠ هـ)، وأبا بكر بن العربي (ت ٥٤٣ هـ)، وأبا الفضل القاضي عياض بن موسى (ت ٥٤٤ هـ).

وينبئنا المقرئ عن وفاة ابن القصير بقوله: «... ثم ركب البحر قاصداً الحج، فتوفي شهيداً في البحر، قتله الروم بمرسى تونس، مع جماعة من المسلمين، صبح يوم الأحد في آخر سنة ست وسبعين وخمسمائة»^(٦).

(١) أزهار الرياض: ٣/ص ١٥.

(٢) جذوة الاقتباس: ص ٣٩٥.

(٣) أزهار الرياض: ٣/ص ١٥، وجذوة الاقتباس: ص ٣٩٤.

(٤) انظر أزهار الرياض: ٣/ص ١١-١٢.

(٥) أزهار الرياض: ٣/ص ١٥، وانظر أيضاً: جذوة الاقتباس: ص ٣٩٤.

(٦) أزهار الرياض: ٣/ص ١٥، نقلاً عن القسم الضائع من صلة ابن الزبير.

وإذا كانت المصادر قد أفاضت في الحديث عن سيرة ابن القصير، فذكرت شيوخه وتصانيفه وتلاميذه، فإنها لم تورد شيئاً من تلك المقامات التي كان بارعاً بإنشائها. ولا ندري إن كانت تلك المقامات التي ذكرها المقرئ وغيره قد ضلّت طريقها إلينا، أم أنها فقدت واندثرت. ولنا أن نتساءل لماذا انفرد المقرئ (١٠٤١هـ) صاحب «أزهار الرياض»، وابن القاضي (١٠٢٥هـ) صاحب «جذوة الاقتباس» وهما من المتأخرين بنسبة تلك المقامات إلى ابن القصير؟ أمّا سابقوهم ممن نقل عنهم المقرئ وابن القاضي ترجمة ابن القصير وأخباره من أمثال ابن الزبير (ت ٧٠٧هـ) في «صلة الصلة»، وابن عبد الملك المراكشي (ت ٧٠٣هـ) في «الذيل والتكملة»، فلم ينسبا لابن القصير مقامات، ولم يذكر ما يشير إلى ذلك.^(١)

ونجد الدكتور إحسان عباس يذكر ابن القصير في قائمة المقاميين الأندلسيين، ويكتفي بقوله: «مقامات لابن القصير عبد الرحمن بن أحمد»^(٢).

(١) ترجم ابن الزبير لابن القصير في القسم المفقود الذي لم يصل إلينا من كتابه «صلة الصلة» وقد نقل ما في صلة ابن الزبير المقرئ في أزهار الرياض: ٣/ص ١٥.

(٢) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين): ص ٣٠٧.

أبو بكر يحيى بن محمد الأركشي

(٥٠٧ - ٥٨٦هـ)

ترجم له ابن الزبير (ت ٧٠٧هـ) في كتابه «صلة الصلة»، فقال: «يحيى أبو جعفر، ويعرف بالأركشي، روى عن أبي الطاهر محمد بن يوسف التميمي، وكان كاتباً أديباً جليلاً»^(١). وترجم له صاحب «المغرب»، ولكن كنيته عنده أبو زكريا،^(٢) وذكر أيضاً أن الأركشي هذا أخذ عن أبي إسحق بن خفاجة شعره سنة ٥٢٦هـ.

أما ابن عبد الملك المراكشي فلم يترجم للأركشي، ولكنه ذكره في ترجمته لواحد من فقهاء الأندلس وهو علي بن عبد الله بن خلف (ت ٥٦٧هـ)، فقال: «وقد وصفه (أي ابن خلف) الكاتب الأبرع، أبو بكر يحيى بن محمد الأركشي في مقامته التي سمّاها «قسطاس البيان في مراتب الأعيان»^(٣).

ويذكر ابن الزبير أن هذا المقاميّ من تلاميذ محمد بن يوسف السرقسطي صاحب «المقامات اللزومية» المتوفى سنة ٥٣٨هـ. وقد يكون الأركشي في مقاماته التي وصلت إلينا قطعة منها، قد تأثر بأسلوب أستاذه في كتابة المقامات؛ فهو قد روى عن السرقسطي مقاماته اللزومية^(٤). ولكن هذا الأمر يبقى مجرد رأي، لا يمكن إصدار حكم قاطع بشأنه، ما دام لم يصل إلينا قدر كافٍ من مقامات الأركشي.

وذكر ابن الأبار في «المعجم» أن أبا بكر الأركشي من تلاميذ الفتح بن خاقان ومن روى عنه النوادر والأخبار^(٥).

(١) صلة الصلة: ص ١٨٤ (رقم الترجمة ٣٦٥).

(٢) المغرب: ١/ ص ٣١٦.

(٣) الذيل والتكملة: ق ١ (رقم الترجمة ٤٥٥).

(٤) انظر: صلة الصلة ص ١٨٤ (رقم الترجمة ٣٦٥)، ومقدمة المقامات اللزومية: ص ٢٥.

(٥) المعجم: ص ٣١٣. وانظر أيضاً: أزهار الرياض: ٥/ ص ٩٩.

وكان الأركشي من حفاظ الأدب، جرت بينه وبين ابن الزقاق البلنسي^(١)
(ت ٥٣٠هـ) مخاطبه بالشعر، ومن شعره قوله^(٢):

لا تبكيته لإخوان تفارقهم فلإني قبلك استخبرت إخواني
فما حمّذتهم في حال قربهم فكيف في حال إبعاد وهجران

وطال عمر الأركشي، كما يذكر صاحب «المغرب» إلى أن قتل بقرطبة في داره
سنة ٥٨٦هـ.^(٣)

(١) هو علي بن عطية أبو الحسن، ابن أخت بن خفاجة، له ديوان شعر مطبوع. انظر ترجمته في مقدمة ديوانه.

(٢) البيتان في: المغرب: ١/ ص ٣١٦، ونفح الطيب: ٤/ ص ٦٢.

(٣) المغرب: ١/ ص ٢٥٢.

ابن رضا الكاتب

(ت بعد ٥٩٠ هـ)

أبو عَمْرٍو رِضَى بن رِضا الكاتب، من أهل مالقة^(١)، وفي «الوافي بالوفيات» (أبو عَمْرٍو)^(٢)، وكنّاه صاحب «المغرب» أبا الحسن^(٣).

ولابن رضا مقامة احتفظ ابن الأَبّار بأبيات طريفة منها، وذكر الظروف التي أحاطت بكتابتها، فقال: «أنشد لبعضهم هذه القطعة، وهي:

أرادوا يعادي فَأَذْيَتْهُمْ	فقالوا: عجيبٌ عجيبٌ عجيبٌ
فَأَهْمَلْتُ دَمْعِي عَلَى وَجْنِي	فقالوا: مُريبٌ مريبٌ مريبٌ
فَنَادَيْتُ فِي الْحَيِّ يَا غُرْبِي	فقالوا: غريبٌ غريبٌ غريبٌ
فَقُلْتُ مَتَى الْوَصْلُ يَا سَادَتِي	فقالوا: قريبٌ قريبٌ قريبٌ
فَسَلَّمْتُ تَسْلِيمَ صَبٍّ بِهِمْ	فقالوا: حبيبٌ حبيبٌ حبيبٌ

واستغربتُ بمالقة، فصنع في ذلك مقامة تدلُّ على مكانه من الأدب، وقال

يعارضها:

كَسَبْتُ بِهَا فِي الْهَوَى مُعْلِنًا	بِذِكْرِي فَقَالُوا نَسِيبٌ نَسِيبٌ
وَأَغْرَبْتُ فِي حَبِّهَا طَالِبًا	رِضَاهَا فَقَالُوا غَرِيبٌ غَرِيبٌ
أَهَابَ التَّصَابِي فَلَبَّيْتُهُ	وَهَبْتُ فَقَالُوا مَهِيبٌ مَهِيبٌ
وَكَمْ قَدْ كُذِبْتُ فَلَمْ أَخْذَعْ	لِقِيلٍ فَقَالَتْ كَذِيبٌ كَذِيبٌ
أَرَابُوا وَإِنِّي لَذَو رِيَّةٍ	وَأَرَبٍ فَقَالَتْ أَرِيبٌ أَرِيبٌ
عَسَى وَطَنٍ سَمِعْتَ مَنْشَدًا	بِقَوْلٍ فَقَالَتْ حَبِيبٌ حَبِيبٌ ^(٤)

(١) ابن الأَبّار: تحفة القادم: ص ١١٠، والمقتضب من تحفة القادم: ص ١٣٢.

(٢) الوافي بالوفيات: ١٤/ ص ١٣١.

(٣) المغرب: ١/ ص ٤٢٦.

(٤) تحفة القادم: ص ١١٠.

ويبدو أنّ ابن رضا كان مولعاً بهذا اللون من الشعر الطريف، ومنه قوله^(١):

ولما التقينا نسيْتُ النسيبُ فقالت نسيبُ نسي بي النسيبا
وحَقَّقْتُ أُنِّي مُعْرِىُّ بها فقالت غريبُ غُري بي غريباً
كُنْتُ عن مُجِبِّ بغير اسمه فقالت مُنِيبُ مُني بي مُنيباً

أمّا تاريخ وفاته ومكانها ففيهما رأيان، أولهما: ما ذكره ابن الأَبَّار (ت ٦٥٨هـ) من أنه استشهد براية من نواحي بطليوس بعد التسعين وخسمائة^(٢)، وثانيهما: ما ذكره الصلاح الصفدي (ت ٧٦٤هـ) من أنه استشهد بدانة من نواحي مالقة بعد السبعين وخسمائة^(٣).

(١) وردت الأبيات في: تحفة القادِم: ص ١١٠ - ١١١.

(٢) تحفة القادِم: ص ١١١. لم يرد في معاجم البلدان موضع في الأندلس باسم (راية). أمّا بَطْلِيُوس فهي مدينة كبيرة بالأندلس غرب قرطبة، ينسب إليها خلق كثير، منهم أبو محمد البطليوسي صاحب التصانيف والشعر (معجم البلدان).

(٣) الوافي بالوفيات: ١٤ / ص ١٣١. ورد في معاجم البلدان دانية، وهي مدينة بشرق الأندلس، لها سور حصين، وهو من ناحية المشرق في داخل البحر، ومن هذه المدينة كان يخرج الأسطول إلى الغزو (الروض المعطار).

عبد الرحمن بن محمد السُّلَمي المالقي

(ت ٥٩١هـ)

ذكره ابن عبد الملك المراكشي (ت ٧٠٣هـ) بقوله: «كان شديد العناية بالآداب، وأحسن المشاركة في قرض الشعر، وله مقامات في أغراض شتى»^(١).

ويبدو أنّ هذا المقاميّ كان من اللغويين والنحاة، ولذلك ذكره السيوطي في كتابه «بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة»، وترجم له بقوله: «كان عارفاً بضروب الآداب واللغات، ذاكراً لأيام العرب وفرسانها، بارع الكتابة، جيد النظم ينشئ الرسائل اللزومية، وله رسائل جليّة، ومفاخرة بين السيف والقلم، مات بمراكش سنة ٥٩١هـ»^(٢).

وهذا الأديب صاحب الكتابة البارعة، والنظم الجيد، لم نعثر - في المصادر التي ذكرته - على شيء من نظمه ونثره. أمّا مقاماته التي تناولت أغراضاً شتى فلا ندري إن كانت قد ضاعت، وفقدت فيما ضاع وفقد من تراثنا الأدبي، أم أنها ما زالت في مصادر مخطوطة لم يتح لها رؤية النور بعد؟

(١) الذيل والتكملة: ٢/ ص ٩٠.

(٢) بغية الوعاة: ٢/ ص ١٠٢.

صفوان بن إدريس التّجيبى^(١)

(ت ٥٩٨ هـ)

يكنى أبا بَحرٍ، وهو من «فحول شعراء الأندلس، وأدبائها، شاعر مفلق وكاتب بارع، تُضرب ببراعة كتبه الأمثال، وله رسائل عجيبة، ومقامات غريبة، وأشعار رائقة»^(٢).

لم يصل إلينا شيء من مقامات ابن صفوان التي نعتها صاحب «كتاب أدباء مالقة»، بأنها غريبة. ولكن صاحب «نفح الطيب» أورد رسالته التي كتبها إلى الأمير عبد الرحمن بن يوسف بن عبد المؤمن، والتي تقوم فكرتها على أساس إعجاب مدن الأندلس وتنافسها في دعوته للإقامة فيها؛ لأن الله ألقى محبته حتى على الجماد، والحوار تبدأ به إشبيلية فقرطبة، فغرناطة، فمالقة، فمُرسية فبلنسية، ثم تُدمير، التي تكون آخر المتحدثات فتدعو للأمير بالتوفيق المؤزر، وتختتم الرسالة بالسلام^(٣).

والرسالة -بما قامت عليه من سجع، وما فيها من اقتباس كثير-، تقترب من المقامات، ولذلك أدرجها بعض الباحثين ضمن مقامات الأندلسيين^(٤)، ولكننا نرى أن أسلوب الرسالة تميز بالركة والسهولة، ولم ينجح كاتبها إلى التعقيد اللفظي، وتعمّد المحسنات البديعية المتكلفة بقصد إظهار البراعة اللغوية. يضاف إلى ذلك أن صاحبها لم يختار لرسالته أن تكون مقامة وإلا لصرّح بذلك، كما أن المقرري سمّاها «رسالة»^(٥) ولم يسمّاها «مقامة». وجعلها أحد الباحثين في المحاورات والمناظرات في الأدب الأندلسي، وسمّاها «مناظرة بين بلدان الأندلس»^(٦)، وهذا أقرب إلى الصواب.

(١) انظر في ترجمته: تحفة القادم: ص ١١٩-١٢٣، والمغرب: ٢/ ص ٢٦٠-٢٦١، ورايات الميرزين: ص ٢٠١، والإحاطة: ٣/ ص ٣٤٩-٣٥٩، ونفح الطيب: ٤/ ص ٥٧-٧٤.

(٢) كتاب أدباء مالقة: ص ٢٠٧.

(٣) انظر الرسالة في نفح الطيب: ١/ ص ١٧٠-١٧٥، وزاد المسافر: ص ١٤-١٨.

(٤) د. قصي الحسيني: فن المقامات بالأندلس، ص ٤٢.

(٥) نفح الطيب: ١/ ص ١٧٠.

(٦) د. مصطفى السيوفي: ملامح التجديد في الشر الأندلسي، ص ١٢٩-١٣٤.

الوزير الكاتب أبو عامر بن أرقم (من أدباء القرن السادس الهجري)

وهذا الكاتب من رجالات كتاب «القلائد»، فقد خصّه الفتح بن خاقان بفصل أورد فيه مختارات من شعره، ورسائله، وقطعة مبتورة من مقامة له^(١). وقد استهلّ الفتح هذا الفصل بأسلوبه المسجوع، فقال: «فريد وقته وابن فريده، وعميد الكلام وابن عميده، وكان أبوه الوزير الكاتب أبو الأصبع، قد أبرّ على أهل أوانه، واستقرّ كتابة زمانه، فنبت أبو عامر في تربة العلم ونشأ في حجره، وشدا بين سحر البيان ونحره، فلم يزل على كدّ طلب الأدب وتعبه، وأصبر من عودٍ قد عصّت جنباه بخلبه، حتى ارتوى من صافي الأدب وغيره»^(٢). وانتقل الفتح بعد ذلك إلى الإشادة بشعر أبي عامر ونثره، فقال: «... وله شعر ونثر يفصحان بسعة باعه، ورحب ذراعه، ويشهدان أنّه يغرف من عجّاج، ويدعُ محاربه يعمّه في عجّاج»^(٣).

أمّا ابن بسّام - وهو من معاصري صاحب «القلائد» فلم يترجم لأبي عامر ابن أرقم في «ذخيرته» وإنما ذكر اسمه، وأورد مختارات من نثره وشعره في سياق الفصل المطوّل، الذي خصّصه لذكر أبيه الوزير الكاتب بن أصبع بن أرقم^(٤). ولكن ابن بسّام لم يشر إلى مقامة أبي عامر التي أورد الفتح بن خاقان قطعة منها.

(١) قلائد العقيان: ص ٣٦٧ - ٣٧٦.

(٢) المصدر نفسه: ص ٣٦٧.

(٣) المصدر نفسه: ص ٣٦٨.

(٤) الذخيرة: ق ٣ ص ٣٦٠ - ٤٠٨. وأبوه هو عبد العزيز بن محمد بن أرقم الوادي آشي، ورزّ للمعتصم بن صُمّادح (ت ٤٨٤هـ)، ترجم له ابن بسّام، ونعته بقوله: «أخذ كتاب الجزيرة المهرة، والتقدة الشعرة، ممن نهض بالصناعة بالبّاع الأسد، وأخذ فيها بالسّاعد الأشدّ.....».

ولم يترجم المقرّي، صاحب موسوعة «نفح الطيب» للوزير الكاتب أبي عامر، وإنما اكتفى بذكر اسمه وإيراد بيتين من شعره، وهما^(١):

فتى الخيل يقتادها دُبلاً خفافاً تباري القنا الذابلاً
ترى كلّ أجرد سامي التليـ ل تحسبه غصناً مائلاً

وهذان البيتان كان الفتح بن خاقان قد ذكرهما بالرواية ذاتها ضمن سبعة أبيات من شعر أبي عامر في مقامته^(٢)، ولكن المقرّي لم يشر إلى تلك المقامة.

وقد عدّدنا أبا عامر بن أرقم في المقاميين الأندلسيين؛ لأن الفتح بن خاقان - كما ذكرنا - احتفظ بقطعة مبتورة من إحدى مقاماته، مهّد لها بالعبارة: «ومن كلامه في مقامة أنشأها ...»^(٣).

وكان أبو عامر كاتباً وشاعراً، فقد أورد له الفتح من خاقان، وابن بسام قطعاً من رسائله، ومختارات من شعره^(٤).

ولا نجد في المصادر تحديداً لسنة وفاة ابن أرقم، ولكننا نرجح أنه عاش في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، وأوائل القرن السادس، فقد مدح الأمير المرابطي تاشفين بن يوسف بن علي الذي توفي سنة ٥٣٩هـ.

(١) نفح الطيب: ٣/ ص ٤٩٩.

(٢) قلاند العقيان: ص ٣٧٤.

(٣) انظر هذه القطعة من المقامة في: قلاند العقيان: ص ٣٧٢ - ٣٧٤، وانظر دراستنا هذه ص ١٤٧.

(٤) انظر: القلاند: ص ٣٦٨ - ٣٧١، ٣٧٤، ٣٧٦، والذخيرة: ق ٣ م ١٣٣ - ٤٠٨.

محمد بن عياض القرطبي (القرن السادس الهجري)

لا تساعدنا المصادر التي ترجمت لهذا المقامي على تحديد سنة ولادته أو سنة وفاته، ولكننا ندرك أنه عاش في بداية عهد الموحدين، يدلنا على ذلك ما رواه ابن سعيد في كتابه «المغرب» إذ قال: «كان نحويّاً أديباً، مصدرّاً للإقراء في قرطبة في صدر دولة بني عبد المؤمن»^(١).

أمّا ابن الأثير فقد ذكر اسمه وكنيته، فقال: «محمد بن عيسى بن عياض، ويكنّى أبا عبد الله»^(٢). وصنّفه ابن سعيد في «المغرب» بين علماء (لبلة)، فقال: «اللّبلي»^(٣)، بينما جعله في «رايات المبرزين» في القسم المخصص لقرطبة، فقال: «القرطبي»^(٤)، وكان ابن الأثير قد تردد من قبل فأخذ بالنسبتين فقال: «القرطبي»، ويقال «اللّبلي»^(٥).

وعُرف ابن عياض بين المقاميين الأندلسيين بمقامته التي احتفظ ابن سعيد بقطعة منها، وسَمّاها «المقامة الدّوحية»^(٦)، وسماها صاحب «التكملة» المقامة «العياضية الغزلية»^(٧). وفي كتاب «كشف الظنون» لحاجي خليفة (ت ١٠٦٧هـ) تحريف اسم المقامة «الدوحية» إلى «الروحية» وتحريف «اللّبلي» إلى «الليثي»^(٨).

(١) المغرب في حُلّى المغرب: ١/ ٣٤٤.

(٢) التكملة لكتاب الصلة: ١/ ٥١٥.

(٣) المغرب: ١/ ٣٤٤. لبلة: مدينة في غرب الأندلس، تعرف بالحمراء (الروض المعطار).

(٤) رايات المبرزين: ص ٧٦.

(٥) التكملة: ١/ ٥١٥.

(٦) المغرب: ١/ ٣٤٤، والتكملة: ١/ ٥١٥، وانظر ص ١٣٠ من دراستنا هذه.

(٧) التكملة: ١/ ٥١٥.

(٨) كشف الظنون: ٢/ ١٧٩٢.

أبو الحسن سلام بن سلام المالقي (القرن السادس الهجري)

ذكره ابن سعيد في «المغرب» نقلاً عن أبيه فقال: «قال والدي: هو سلام بن سلام مخفف اللام، وكان أديباً، وله مقامات سبع مشهورة»^(١).

وذكره ابن خير الإشبيلي (ت ٥٧٥هـ)، وهو يعدد ما رواه عن شيوخه، فقال: «وكتاب المقامات السبع من إنشاء الوزير الأديب الفاضل أبي الحسن بن عبد الله بن سلام، رحمه الله، روايتي لذلك عنه، قراءة مني عليه بلفظي بمنزله أيام كوننا بمدينة شلب حرسها الله»^(٢).

وكرر ابن خير ذكر هذه المقامات في موضع آخر من «فهرسة ما رواه عن شيوخه»، مؤكداً أنه رواها عن صاحبها ابن سلام، فقال: «تواليف الشيخ الفاضل الأديب أبي الحسن بن سلام بن عبد الله بن سلام المقامات السبع وغيرها، وماله من منشور الكلام ومنظومه، وجميع ما رواه عن شيوخه - رحمهم الله - روايتي لذلك عنه»^(٣).

ورواية ابن خير -بالإضافة إلى ما فيها من الدقة والتوثيق- فإنها تدلنا على الفترة الزمنية التي عاش فيها هذا المقامي، فهو معاصر لابن خير، الذي كان من تلاميذه، ومن رواوا عنه مقاماته السبع، ولذا فقد سلكناه في أدباء القرن السادس الهجري.

(١) المغرب: ١/ص ٤٣٤.

(٢) ابن خير الإشبيلي: فهرسة ما رواه عن شيوخه، ص ٣٨٦. وشلب: مدينة بالأندلس، ميناها على نهر يمد من البحر المحيط، وهي مدينة مستحسنة مشهورة بالأدباء (المغرب: ١/ص ٣٨١).

(٣) المصدر نفسه: ص ٤٥٠.

أمّا المقرئ (ت ١٠٤١هـ) صاحب موسوعة «نفح الطيب» فلم يترجم لابن سلام، ولم يشر إلى مقاماته، ولكنه أورد بيتين من شعره، استجادهما ؛ لأن قائلهما اهتدى فيهما إلى معنى في لثم الخد ورشف رضاب الثغر لم يهتد إليه أحد غيره، وهما قوله^(١):

لَمَّا ظَفِرْتُ بَلِيلَةَ مِنْ وَصْلِهِ وَالصَّبُّ غَيْرُ الْوَصْلِ لَا يَشْفِيهِ
أَنْضَجْتُ وَرْدَةَ خَدِّهِ بَتْنَفْسِي وَطَفَقْتُ أَرْشُفُ مَاءَهَا مِنْ فِيهِ

وهذه المقامات السبع التي رواها ابن خير عن مؤلفها أبي الحسن المالقي، وذكرها صاحب «المغرب»، شأنها شأن غيرها من مقامات الأندلسيين التي وصلت إلينا أسماؤها دون نصوصها، ولا ندري إن كانت ما زالت في المصادر المخطوطة، التي لم يتح لها رؤية النور بعد، أم أنها ضاعت واندثرت.

(١) نفح الطيب: ٢/ ص ١٣٨، والبيتان في المغرب: ١/ ص ٤٣٤.

أبو البقاء الرندي

(ت ٦٨٤هـ)

وهذا الأديب ذو شهرة واسعة، فقد عُرف بقصيدة قالها في رثاء مدن الأندلس بعد توالي سقوطها في النصف الأول من القرن السابع، وتوالي نكبات المسلمين بعد ذلك.

والرندي - كما عرّف به صاحب «الذيل والتكملة» -: «هو صالح بن يزيد ابن صالح بن موسى بن أبي القاسم بن علي بن شريف من أهل رندة»^(١). وتختلف كنيته عند أصحاب المصادر، فهو أبو البقاء عند بعضهم^(٢)، وأبو الطيب عند آخرين^(٣).

وقد غطّت قصيدته المذكورة على كلّ ما عنده من آثار أخرى، وهي قصيدة طويلة، يقول فيها^(٤):

لכל شيء إذا ما تمّ نُقصانٌ	فلا يُغزّر بطيب العيش إنسانٌ
هي الأمور كما شاهدتها دُولٌ	من سرّه زمنٌ ساءته أزمانٌ
وهذه الدار لا تبقي على أحدٍ	ولا يدوم على حال لها شأنٌ
أينَ الملوك ذوو التيجان من يمن	وأين منهم أكاليل وتيجانٌ
وأين ما حازه قارون من ذهب	وأين عادٌ وشداد وقحطان
أتى على الكلّ أمرٌ لا مرّد له	حتى قضوا فكان القوم ما كانوا

(١) الذيل والتكملة: بقية السفر الرابع ص ١٣٦. ورندة: معقل حصين بالأندلس، بين إشبيلية ومالقة، وهي مدينة مبنية على نهر جار (معجم البلدان).

(٢) نفح الطيب: ٥/ ص ٢٣٢.

(٣) الذيل والتكملة: بقية السفر الرابع ص ١٣٧، والإحاطة: ٣/ ص ٣١٠، وأزهار الرياض: ١/ ص ٤٧.

(٤) وردت القصيدة كاملة في نفح الطيب: ٤/ ص ٤٨٦-٤٨٨، وأزهار الرياض: ١/ ص ٤٧، نقلاً عن الإحاطة:

وقد أعجب الناس بالقصيدة، فأضافوا لها زيادات مختلفة في عصور لاحقة، تصور سقوط مدن أخرى كانت إسلامية في عهد الرندي. قال المقرّي: «ويوجد بأيدي الناس زيادات فيها ذكر غرناطة وبسطة وغيرهما مما أخذ من البلاد بعد موت صالح بن شريف، وما اعتمدته منها نقلته من خط من يوثق به، فكأن بعضهم لما أعجبه قصيدة صالح بن شريف زاد فيها تلك الزيادات»^(١).

ولكن الكثيرين لا يعرفون أن أبا البقاء الرندي صاحب تآليف^(٢)، وكاتب رسائل، وله - كما ذكر ابن عبد الملك المراكشي (ت ٧٠٣هـ) - مقامات بديعة في أغراض شتى^(٣). وعبرة المراكشي لها أهميتها في موضوع دراستنا، فهو معاصر لأبي البقاء، وعندما ينسب له مقامات فهذا يعني أنه قد يكون سمع عن تلك المقامات، أو أطلع عليها.

أمّا ابن الزبير - وهو من شيوخ أبي البقاء وأساتذته - فلا يذكر شيئاً عن مقاماته، وإنما تحدّث عن مشاركته في أنواع متعدّدة من الثقافة فقال فيما نقله عنه المقرّي: «وعنده مشاركة في الحساب والفرائض، وله تواليف أدبية، وقصائد زهدية، وكان في الجملة معدوداً في أهل الخير، وذوي الفضل والدين، تکرّر لقائي إياه، وقد أقام بمالقة أشهر أيام إقرائي، وكان لا يفارق مجالس إقرائي، وأنشدني كثيراً من شعره»^(٤).

ومما تجدر الإشارة إليه أنّ لسان الدين ابن الخطيب خصّص فصلاً مطوّلاً في كتابه «الإحاطة» ترجم فيه للرندي، اعتمد فيه على كتابي «صلة الصلة» و «الذيل

(١) نفح الطيب: ٤/ ٤٨٨.

(٢) من كتبه التي بين أيدينا: الوافي في نظم القوافي منه نسخة خطية بخط مغربي قديم على ميكروفيلم، مركز الوثائق بمكتبة الجامعة الأردنية شريط رقم: ٩٦٥.

(٣) الذيل والتكملة: بقية السفر الرابع ص ١٣٦. انظر ترجمة الرندي في الإحاطة: ٣/ ص ٣٦٠-٣٧٤.

(٤) انظر نفح الطيب: ٤/ ص ٤٤٦ وما بعدها، وأزهار الرياض ١: ٤٧ وما بعدها.

والتكملة» ولكنه لم ينسب للرندي مقامات، ولم يشر إليها، وإنما أورد أبياتاً من شعره، وقطعة من إحدى رسائله.

ونجد المقرّي لا يترجم للرندي في أي من كتابيه «نفح الطيب» أو «أزهار الرياض»، ولا يشير إلى أن له مقامات، على الرغم من أنه -كما أشرنا - أورد قصيدته النونية كاملة في كلا الكتابين. أمّا الذين تصدّوا لذكر المقامات الأندلسية وكتّابها من الدارسين المحدثين فلا يشيرون إلى مقامات الرندي، ولم يذكروا اسمه ضمن كتّاب المقامات.

ابن المربع الأزدي

(ت. ٧٥٠هـ)

خَصَّصَ ابن الخطيب فصلاً مطوّلاً في كتابه «الإحاطة»، ترجم فيه لمعاصره ابن المربع الأزدي، استهله بقوله: «شأبَ في الأدب وشبَّ، ونشق ريح البيان لمّا هبَّ، فحاول رقيقه وجزله، وأجاد جدّه وأحكم هزله، فإن مدح صدَحَ، وإن وصف أنصف، وإن عصف قصف... حتى برز في أبطال الكلام وفرسانه، ودُعِرت القلوب بقوة لسانه»^(١).

وينبئنا ابن الخطيب عن اسم ابن المربع وكنيته، وسنة وفاته فيقول: «عبد الله ابن إبراهيم بن عبد الله الأزدي، يكنى أبا محمد، ويُعرف بابن المربع، توفي أواخر سنة ٧٥٠هـ بمدينة بلش بمالقة»^(٢).

ولابن المربع مقدرة على النظم والنثر، مما جعل ابن الخطيب يقول فيه: «وله اقتدار على النظم والنثر، وله مقامات تشهد باقتداره»^(٣). وعبارة ابن الخطيب (وله مقامات تشهد باقتداره) لها أهمية خاصة في هذه المقام فهو معاصر لابن المربع، وحديثه عن مقاماته إنما هو حديث عيان ومشاهدة، لا حديث خبر وسماع، فقد عاشا زمناً في بلاط سلاطين بني نصر بمملكة غرناطة في القرن الثامن الهجري وهذا يعني أنه اطلع على قدر كاف من مقاماته، مما جعله يشهد له بالاقتدار على كتابة المقامات. ولكنه لم يورد من مقاماته سوى مقامة واحدة، كتبها يستجدي أضحية

(١) الإحاطة: ٣/ ص ٤٢١.

(٢) المصدر نفسه: ٣/ ص ٤٢١.

(٣) المصدر نفسه: ٣/ ص ٤٢٤.

بمناسبة العيد. ^(١) وكان ابن المربع نفسه شاعراً مكدياً، عاش في مملكة غرناطة، وعرف البؤس، ومذلة السؤال.

ونحن نرجح أن لابن المربع مقامات أخرى، يدلنا على ذلك عبارة ابن الخطيب التي ذكرناها. هذا بالإضافة إلى أننا نجد في كتاب «الإحاطة» أبياتاً من شعر ابن المربع، وصفها صاحب «الإحاطة» بأنها مقطوعة سهلة، مما وقع له أثناء مقامات تشهد باقتداره ^(٢). وهذه المقطوعة ليست من نصّ المقامة التي بين أيدينا، مما يدلّ على أنها من مقامة أخرى لم تصل إلينا.

ولا بأس في الإشارة هنا إلى أن المقرئ ترجم لابن المربع نقلاً عن كتاب «الإحاطة»، ولكنه لم يذكر شيئاً عن مقاماته ^(٣)، كما أنه لم يشر إلى المقامة التي أسلفنا ذكرها والتي أورد صاحب «الإحاطة» نصّها.

(١) انظر الفصل الثاني من هذا البحث.

(٢) الإحاطة: ٣/ ص ٤٢٤.

(٣) نفح الطيب: ٦/ ص ٢٥٥. ونفح الطيب: ٦/ ص ٢٥٥.

(١) لسان الدين بن الخطيب

(ت ٧٧٦هـ)

أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد، أكبر كتّاب غرناطة والأندلس في القرن الثامن الهجري، وشخصية من أصحاب الثقافة الموسوعية المعروفة في ميادين العلم والسياسة. كان لمدة طويلة وزيراً ذا شأن، وشغل منصب كاتب، ثم صار رئيس كتّاب، وهو أحد شعراء الأندلس، وله موشحات كثيرة.

ولد لسان الدين بالقرب من غرناطة سنة ٧١٣هـ، عمل أبوه بدواوين غرناطة عند أمرائها بني الأحمر الذين ألحقوا لسان الدين بدواوينهم، فعمل عند السلطان أبي الحجاج يوسف (ت ٧٥٥هـ)، وابنه الغني بالله (ت ٧٩٣هـ) الذي نشبت ثورة ضده، اضطرت به إلى اللجوء إلى فاس، وصحبه لسان الدين، الذي استقر بمدينة «سلا» زمنًا، ثم عاد الغني بالله إلى سلطانه ثانية، فاستدعى لسان الدين، وألقى إليه بمقاليد الأمور، ولكن خصومه وفي مقدمتهم تلميذه ابن زمرك (ت ٧٩٦هـ) وقاضي غرناطة أبو الحسن النباهي (ت ٧٩٣هـ) حرّضوا عليه السلطان، ووصموه بالزندقة، فأودع السجن بفاس، وقتل في سجنه سنة ٧٧٦هـ.

لسان الدين مؤلفات في التراجم والتاريخ والأدب وغيرها، ومن أعماله المنشورة: «الإحاطة في أخبار غرناطة»، وديوان شعر، ومشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس، وغيرها مما عدّه ابن الخطيب نفسه في كتابه «الإحاطة».^(٢)

(١) انظر في ترجمة لسان الدين:

أزهار الرياض: ١/ ص ١٨٦، والجزءين الخامس والسادس من نفع الطيب، والتعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً: ص ٨٥.

وأصدر د. محمد عبدالله عنان كتاباً مفرداً عن (لسان الدين بن الخطيب) بعنوان: لسان الدين بن الخطيب، حياته وتراثه الفكري.

(٢) الإحاطة: ٤/ ص ٤٥٧.

والذي يعنينا من جوانب ثقافة لسان الدين وإنتاجه في بحثنا هذا هو أنه كان من كتاب المقامات. فقد ذكره د. إحسان عباس في المقاميين الأندلسيين، وعدّد من مقاماته^(١): «مقامة السياسة، ومقامة وصف البلدان، ومعيّار الاختبار في أحوال المعاهد والديار، وخطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف».

وفي رأينا أن اسم مقامة ينطبق على واحدة فقط من هذه المقامات الأربع وهي «مقامة السياسة»، أمّا «معيّار الاختبار» -وإن كانت مستهلة بذكر الراوي والبطل، وهما من عناصر المقامات- فهي عبارة عن وصف نشري مسجّع لأهم مدن المغرب الأقصى مع وصف (٣٤) مدينة من مملكة غرناطة، ويتخلّل هذا وذاك ذكر محاسن وعيوب لكل مدينة^(٢). و«خطرة الطيف» رحلة رسمية قام بها سلطان غرناطة أبو الحجاج يوسف ابن نصر، ومعه وزيره ابن الخطيب لتفقد أحوال الثغور الشرقية لمملكة غرناطة^(٣).

ونحن نوافق د. شوقي ضيف، الذي ذهب إلى أن «معيّار الاختبار» و«خطرة الطيف» أشبه بالرحلات منهما بالمقامات، ولذلك تحدّث عنهما بين رحلات الأندلسيين، ولم يتحدّث عنهما بين المقامات الأندلسية^(٤)، في حين عدّهما غيره من الباحثين في رسائل ابن الخطيب^(٥). ومقامات ابن الخطيب -كما ذكر د. إحسان عباس- تدور حول الرحلات ووصف البلدان، وليس فيها ما يشير إلى تطور ما في طبيعة المقامة أو موضوعها^(٦).

(١) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين): ص ٣٠٧.

(٢) انظر مشاهدات لسان الدين بن الخطيب: ص ٦٩-١١٥.

(٣) انظر المصدر نفسه: ص ٢٥-٥٣.

(٤) تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات: الأندلس): ص ٥٢٠، ٥٣٠.

(٥) انظر: د. أحمد مختار العبادي: مشاهدات لسان الدين بن الخطيب: ص ٧، ٢٥، ٦٩.

(٦) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين): ص ٣٢٦.

وإذا كان أسلوب ابن الخطيب في هاتين الرحلتين مليئاً بالصنعة اللفظية والمحسنات البديعية، فإن هذا الأسلوب كان سائداً في العالم الإسلامي في ذلك الوقت حتى في الكتابة التأليفية، وهذا ليس سبباً كافياً كي نعهما في المقامات.

ومقامة «وصف البلدان»، التي ذكرها د. إحسان عباس نقلاً عن المقرئ في «أزهار الرياض»^(١)، هي مجرد وصف في صفحتين لمدينة «سبتة»، فلا تلتزم أي شكل في مقامي، ومدلولها لا يعني أكثر من القيام بغرض الوصف، ولا ندرى من الذي سمّاها مقامة، أهو ابن الخطيب؟ أم المقرئ؟ الذي أوردها بعنوان «مقامة وصف البلدان»^(٢).

وبالتدقيق في هذه القطعة التي أوردها المقرئ بعنوان «مقامة وصف البلدان» تبين لنا أنها جزء من «معيّار الاختبار في أحوال المعاهد والديار»،^(٣) التي أشرنا إليها، وهذا يعني أنه لا توجد لابن الخطيب مقامة بعنوان «وصف البلدان»، اللهم إلا إذا كان المقرئ أراد بقوله «من مقامة وصف البلدان»، رسالة «معيّار الاختبار».

وبعد، فإن ما يصح أن نطلق عليه اسم مقامة من آثار ابن الخطيب هو مقامة «السياسة»، ومقامتان في أدب الوزارة وقدّر رتبتهما، بالإضافة إلى مقامة أخرى في المديح، جعل في كلّ كلمة منها حرف «السين» ولذلك أسميناهما «المقامة السّينية». وهذه المقامات الأربع سوف نورد نصوصها ونحلّلها في الفصل الثاني من هذه الدراسة.

(١) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين): ص ٣٠٧، نقلاً عن أزهار الرياض: ١/ ص ٣٠.

(٢) أزهار الرياض: ١/ ص ٣٠.

(٣) انظر أزهار الرياض: ١/ ص ٣٠، وقابل: مشاهدات لسان الدين بن الخطيب ص ١٠١-١٠٢.

أبو الحسن النباهي المالقي (٧١٣هـ - بعد ٧٩٢هـ)

وهذا المقامّي من رجال الدولة وأعيانها المرموقين في مملكة بني نصر بغرناطة في القرن الثامن الهجري. واسمه في صورته الكاملة: أبو الحسن علي بن عبد الله بن محمد بن الحسن الجذامي المالقي الثّباهي، ويُقتصر غالباً على تسميته بأبي الحسن النباهي.^(١)

ولد أبو الحسن بمالقة سنة ٧١٣هـ، وَوَلِيَ القضاء بغرناطة، وأُرسل مرتين في سفارة سياسية من غرناطة إلى فاس سنتي ٧٦٠هـ و ٧٨٨هـ. وكان صديقاً للسان الدين بن الخطيب (ت ٧٧٦هـ)، الذي عرّف به في كتابه الشهير «الإحاطة في تاريخ غرناطة»^(٢) أحسن تعريف، وترجم له ترجمة مطوّلة أثنى فيها عليها ثناءً، يكاد يكون إطرأً، وقد نقلها المقرئ بجملة تقريباً في كتابيه «نفح الطيب»^(٣) و«أزهار الرياض»^(٤).

ولكن العلاقات ما لبثت أن توترت بين الرجلين، وأظلم الجُرّ بينهما فانقلبا عدوين، ونال منه ابن الخطيب ولقبه بالجعسوس (أي القصير) ازدراءً به^(٥)، وخصّص له ترجمة قاسية في كتابه «الكتيبة الكامنة»^(٦)، ولم يكتف بذلك حتى ألّف رسالة خاصة في هجائه سمّاها «خلع الرسن في وصف القاضي أبي الحسن»^(٧)،

(١) تاريخ قضاة الأندلس: مقدمة المحقق (ح).

(٢) الإحاطة: ٤/ ص ٨٨ وما بعدها.

(٣) نفح الطيب: ٣/ ص ٤٩٦.

(٤) أزهار الرياض: ٢/ ص ٥ وما بعدها.

(٥) أزهار الرياض: ٢/ ص ٦، ونفح الطيب: ٥/ ١٢١.

(٦) الكتيبة الكامنة: ص ١٤٦-١٥٢.

(٧) ذكرها المقرئ في نفح الطيب: ٥/ ص ٣٨، ٦/ ص ١١٩، ٧/ ١٠١.

وقد أقذع في الهجاء، حتى وصفه المقرّي بأنه أشدّ من وقع النبال^(١). وليس من شأننا في هذا المقام أن نبحت عن أسباب الخلاف بين الرجلين.

والنباهي قاضٍ وأديب ومؤرخ، نعته المقرّي في «نفح الطيب» نقلاً عن لسان الدين بن الخطيب بأنه «عَفّ النشأة، طاهر الثوب، مؤثر للوقار والحشمة...حافظ مقيدٌ طُلعة، إخباري، قائم على تاريخ بلده، وهو حسن الخط، ناظم ناثر...»^(٢).

وأهم آثار النباهي المطبوعة كتاب «المراقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا» سمّاه ناشره: «تاريخ قضاة الأندلس»^(٣). وذكر له الزركلي كتاب «نزهة البصائر والأبصار»^(٤)، الذي تناول فيه تاريخ الدولة النصرية بغرناطة.

والذي يعنينا من جوانب نثر النباهي في بحثنا هذا هو أنه مارس كتابة المقامات، فقد وصلت إلينا مقامته في «تفضيل النخلة على الكرم»^(٥)، التي من أجلها عددناه في المقامين الأندلسيين.

(١) نفح الطيب: ٥ / ص ٣٨.

(٢) نفح الطيب: ٦ / ص ١١٩.

(٣) ليفي بروفنسال، القاهرة، ١٩٤٨.

(٤) الأعلام: ٤ / ص ٣٠٦.

(٥) حقّقها حسناء الطرابلسي ونشرتها مجليات الجامعة التونسية العدد ٢٧ ص ١٩٨٨، تونس. وانظر نصّ المقامة أيضاً في دراستنا هذه ص ٢٣٢-٢٤٠.

الفقيه عمر الزجال (القرن التاسع الهجري)

عاش هذا المقامي في أيام الأندلس الأخيرة، واشتهر أمره حوالى منتصف القرن التاسع الهجري.

قال فيه المقرئ: «أمّا الفقيه عمر فهو أشهر من نار على علم، وأزجاله ومنظوماته ومقاماته عند العامة محفوظة، وعند الخاصة مرفوضة»^(١). ويسميه عمر المالقي تارة^(٢)، والأديب الفقيه عمر تارة أخرى^(٣). ولا نجد المقرئ يفصل القول في نشأة هذا الأديب وحياته، كما أنه لم يحدد تاريخ وفاته، ولكنه ذكر أنه كتب واحدة من مقامتيه عام أربعة وأربعين وثمانمائة^(٤)، مما يجعلنا نقول: إنه من أدباء القرن التاسع الهجري.

ويبدو أن الفقيه عمر كان مشهوراً بأزجاله؛ لذلك نعتة المقرئ بـ « الزجال »، وقال: «أديب الأندلس، الفقيه عمر صاحب الأزجال، إذ هو من فرسان هذا المجال»^(٥).

وقد روى له المقرئ مقامتين أولاهما بعنوان «تسريح النصال إلى مقاتل الفصّال»^(٦)، وثانيتهما بعنوان «مقامة في أمر الرباء»^(٧). وأورد أبياتاً من شعره، منها قوله^(٨):

(١) أزهار الرياض: ١/ ص ١١٦.

(٢) المصدر نفسه: المكان نفسه.

(٣) نفع الطيب: ٥/ ص ٤٠، وأزهار الرياض: ١/ ص ١١٧.

(٤) أزهار الرياض: ١/ ص ١٢٥-١٣٢.

(٥) نفع الطيب: ٥/ ص ٤٠.

(٦) أزهار الرياض: ١/ ص ١١٦-١٢٤، وانظر أيضاً ص ٢٤٤-٢٥٠ من دراستنا هذه.

(٧) المصدر نفسه: ١/ ص ١٢٥-١٣٢، وانظر أيضاً ص ٢٥١-٢٥٦ من دراستنا هذه.

(٨) أزهار الرياض: ١/ ص ١٣٢.

عقيدة دين الحق أنّ محمداً
وإن سبقت رُسُلٌ بكتبٍ ويعتَكة
له الفضل إطلاقاً على كل مخلوق
فما هو في مجدٍ وفضلٍ يَمَسْبُوقِ
فهذا إذا ما عشتُ أولى عقيدتي
وهذا إذا ما متُ آخر منطوق

وقوله:

جئتُك يا ربُّ ولا عذر لي
أرجوك فيما أنتَ أهلٌ له
وهل لعبد السوء من معذرة؟
فأنتَ أهلُ العفو والمغفرة

وبالإضافة إلى هؤلاء المقامين، الذين ترجمنا لهم، فهناك مقاميون آخرون، تدفعنا الرغبة في الاختصار إلى أن نكتفي بذكر أسمائهم، منهم: عبد الرحمن بن عبد العزيز بن أبي العافية، المعروف بالكُتْنُدي^(١) (ت ٥٨٣هـ)، وأبو علي بن كسرى^(٢) (ت ٦٠٣ أو ٦٠٤هـ)، وكانا -كما يذكر صاحب كتاب «أدباء مالقة»- صاحبين لمحمد بن غالب الرصافي «وكان بينهم بمالقة مقامات أدبية ومجالس شعرية وارتجالات نبهة»^(٣). ومنهم أيضاً ابن خفاجة الأندلسي (ت ٥٣٣هـ)، فإنَّ له مقامة لم يبق منها إلا أبيات في ديوانه^(٤).

ومن المقامين الأندلسيين أيضاً ابن سيّد أمير، صاحب «المقامة الشَّليبيَّة»^(٥)، وهذا المقامي غفلت كتب التراجم الأندلسية عن ذكره، فندرت لذلك أخباره، وقلَّت التفاصيل عن حياته، وكلَّ ما نعلمه عنه ما انفرد بذكره ابن الأَبَّار من أنه عبد الله بن

(١) وردت ترجمته في: رايات المبرزين: ص ١٥٧، والمغرب: ٢/ ص ٢٦٤، وكتاب أدباء مالقة: ص ٨٥-٩٠.

(٢) هو أبو علي الحسن بن محمد بن علي الأنصاري ابن كسرى شاعر مشهور في زمن الخليفة الموحي يوسف بن عبد المؤمن، توفي بمالقة سنة ٦٠٣هـ أو ٦٠٤هـ انظر ترجمته في التكملة: ١/ ص ٢٦٤-٢٦٥، وتحفة القادم: ص ٩١، ومختارات من الشعر الأندلسي والمغربي: ص ٧٠، والإحاطة: ٤/ ص ٤٦٩-٤٧٢.

(٣) كتاب أدباء مالقة: ص ٨٥.

(٤) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والرايطين): ص ٣٠٦.

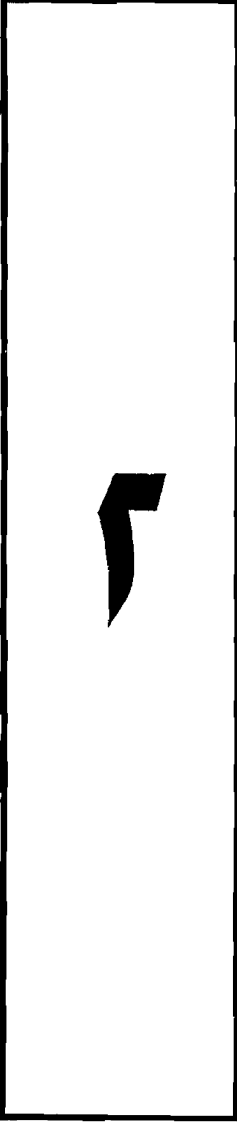
(٥) انظر نص المقامة ص ١٧٠-١٨٠ من دراستنا هذه، والشليبية نسبة إلى شلْب وهو حصن بقرب قرطبة (معجم

سيّد أمير اللخمي، يكنى أبا محمد، من مدينة شِلْب، برع في الحديث والنحو، وكانت له مشاركة في علم الطب^(١). ونرجح أنه من أدباء القرن السادس الهجري؛ لأنه صاغ مقامته وكتبها على نمط «المقامة القرطبية»، التي كتبت في القرن السادس الهجري، وقد ذكر المقامة القرطبية باسمها في مقامته.

أمّا ابن بُرْد الأصغر (ت بعد ٤٤٠هـ)^(٢)، فقد ألحق بترجمته في كتاب «الذخيرة» قطعة أدبية تتحدث عن النخلة، وهذه القطعة أقرب إلى المقامات من كثير من النصوص، التي أوردها ابن بسّام تحت هذا الاسم، ولذلك فقد أوردناها في نصوص المقامات الأندلسية.

(١) التكملة: ص ٨٦٢ (ترجمة رقم ٢٠٧٥).

(٢) هو أبو حفص أحمد بن محمد بن برد الأصغر، أقام بالمرية عند أميرها معن بن صمادح (٤٣٢هـ - ٤٤٣هـ)، الذي عرف له فضله، فاتخذه وزيراً له، ذكره ابن بسّام في «الذخيرة» وخصّص له فصلاً، استهله بقوله: «كان أبو حفص في وقته فلك البلاغة الدائر، ومثلها السائر، نفث فيها بسحره، وأقام من أودها بناصع نظمه وبارع نثره» الذخيرة ق ١ م ١ ص ٤٨٦. وانظر في ترجمته: جذوة المقتبس: ص ١٩٢، وبغية الملتبس: (ترجمة رقم ٣٥٥)، والأعلام: ١/ ص ٢١٣.



الفصل الثاني

المقامات الأندلسية

(نصوص وتحليل)

مقامة

لأبي المطرف عبد الرحمن بن فتوح^(١)

وَحَدَّثَ ابْنُ فَتُوحٍ عَنْ نَفْسِهِ قَالَ: كُنْتُ لَيْلَةً فِي رَمَضَانَ أَطُوفُ بِالْمَسْجِدِ الْجَامِعِ بِالْمَرْيَةِ سَنَةَ ثَلَاثِينَ، وَإِذَا فَتَى حَسَنُ الْمَنْظَرِ، فَسَلِّمْ عَلَيَّ سَلَامًا ارْتَاحَتْ لَهُ نَفْسِي، وَانْشَرَحَ لِي صَدْرِي، فَدَدْتُ عَلَيْهِ رَدًّا مِنْ تَوْسَمٍ فِيهِ سَمَةُ الْفَهْمِ، فَقَالَ لِي: بِحُرْمَةِ الْأَدَبِ إِلَّا مَا أَعَدْتَ عَلَيَّ الْبَيْتَ، فَأَعَدْتُهُ، وَأَنْشَدْتَ سَائِرَ الْأَيَّاتِ، فَقَالَ: الشُّعْرُ لَكَ؟ قُلْتُ: أَجَلْ، ثُمَّ قَالَ لِي: إِنَّمَا أَخَذْتَهُ مِنْ قَوْلِ الْعَبَّاسِ بْنِ الْأَحْنَفِ:

وَأَحْسَنُ أَيَّامِ الْهَوَى يَوْمُكَ الَّذِي تُرَوِّعُ بِالْهَجْرَانِ فِيهِ وَبِالْعَتَبِ
إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الْحُبِّ سُخْطٌ وَلَا رَضَى فَأَيْنَ حَلَاوَاتُ الرِّسَائِلِ وَالْكَتَبِ

فَقَالَ: وَرَيْتُ بِكَ زَنَادِي، فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّبَبِ الْمَوْجِبِ لَتَرْدِيدِكَ الْبَيْتَ، قُلْتُ لَهُ: مُنِيتُ بِخَلِّ مَوْلَعٍ بِالْخِلَافِ، مَائِلٍ إِلَى قِلَّةِ الْإِنْصَافِ، إِنَّ لَا يَنْتَهِي غَضَبٌ، وَإِنْ اسْتَعْتَبْتَهُ عَتَبَ، وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ شَفَقَةَ نَفْسِي لِفِرْقَتِهِ، فَقَالَ: قَلْبُ اللَّهِ لَكَ قَلْبُهُ، وَجَنَّبَكَ عَتَبَهُ. ثُمَّ وَلَّى عَنِّي وَقَدْ غَرَسَ فِي كَبْدِي ثَمَرَةً وَدَّهَ، فَبِتُ اللَّيْلَةَ مُسْتَأْنَسًا بِخِيَالِهِ، جَذْلَانِ بُوْصَالِهِ، حَتَّى رَأَيْتُ غُرَّةَ الْفَجْرِ تَلْمَعُ فِي كَفْلِ الدُّجَى، فَخَلْتُهُ بَحْرًا تَسْرَبُ فِيهِ جَدُولٌ، أَوْ عَجَاجًا سُلَّ مِنْ تَحْتِهِ مُنْصَلٌّ، فَقَمْتُ ثَابِتًا عَلَى قَصْدِهِ، فَلَمْ أَلْبِثْ أَنْ سَمِعْتُهُ يَنْشُدُ وَيَطْلُبُ مَنْزِلِي، فَقَرَعَ الْبَابَ وَأَذْنَتْ لَهُ فَدَخَلَ، فَرَحَّبْتُ بِهِ، وَقَمْتُ إِلَيْهِ، وَأَقْبَلْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ لِي: يَا ابْنَ الْكَرَامِ، إِنَّ هَذَا يَوْمٌ قَدْ بَكَى مَاءُ غَيْمِهِ، وَنَبْضُ عِرْقٍ بَرَقَ، وَخَفَقَ قَلْبٌ رَعَدَهُ، وَاغْرُورِقَتْ مَقْلَةٌ أُنْفَقَ، وَنَحْنُ لَا نَجِدُ الْخَمْرَ، فَبِمَ نَقْطَعُ تَأْوِيهِ؟ فَقُلْتُ: الرَّأْيُ إِلَى سَيِّدِي أَبْقَاهُ اللَّهُ، فَقَالَ لِي: كَيْفَ ذِكْرُكَ لِرِجَالِ مِصْرِكَ، وَوُقُوفُكَ عَلَى شِعْرَاءِ عَصْرِكَ؟ قُلْتُ: خَيْرٌ ذِكْرِي. فَقَالَ: مَنْ

(١) وَرَدَ نَصُّ الْمَقَامَةِ فِي الذَّخِيرَةِ: ق ١ م ٢، ص ٧٨٦-٧٨٧.

أعذبهم لفظاً، وأرجحهم وزناً؟ قلت: الرقيق حاشية الظرف، الأنيق ديباجة اللطف، أبو حفص ابن بُردٍ. قال: فمن أقواهم استعارات، وأصحهم تشبيهات؟ قلت: البحرُ العجاج، والسراج الوهاج، أبو عامر ابن شهيد. قال فمن أذكّهم للأشعار، وأنظمهم للأخبار؟ قلتُ: الحلو الظريف، البارع اللطيف، أبو الوليد ابنُ زيدون. قال فمن أكلفهم بالبدیع، وأشغفهم بالتقسيم والتتبع؟ قلتُ: الراجح في روضة الحسب، المستطيل بمرجة الأدب، أبو بكر إبراهيم بن يحيى الطنبني، فأنشد:

وخاطبَ قُصّاً في عُكاظ محاوراً على البُعد سحباناً فأفحمهُ قُصّاً

التحليل

أورد ابن بسام هذه القطعة في «الذخيرة» على أنها حديث من أحاديث ابن فتوح عن نفسه، ولم يسمّها مقامة، مع أنها لا تخرج عن المقامة في طابعها ورسومها، ولذلك عدّها الباحثون والدارسون ضمن مقامات الأندلسيين^(١).

في هذه المقامة يقصّ ابن فتوح حادثة وقعت له وهو يطوف بالمسجد الجامع بالمرية ذات ليلة من رمضان سنة ٤٣٠ هـ. وخلاصة الحادثة أنه كان أثناء طوافه يردّد بيتاً من الشعر، فسمعه فتى حسن المنظر، فسلم عليه سلاماً ارتاحت له نفسه، فردّ عليه ردّاً من توّسم فيه الفهم، فاستحلفه الفتى إعادة بيت الشعر، ثم سأله عن سبب ترديده البيت، فأخبره أن ذلك كان لفراق حبيب، فدعا له الفتى وانصرف، «وقد غرس في كبده ثمرة ودّه». وعاد ابن فتوح إلى بيته وذكرى ذلك اللقاء لا تفارقه. وفي فجر اليوم التالي جاء

(١) د. إحسان بن عباس في كتابه: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين): ص ٣٠٥-٣١٢، ونقل عنه آخرون، منهم: د. عبدالعزيز عتيق: الأدب العربي في الأندلس: ص ٤٨٥، ود. حسن عباس: نشأة المقامة في الأدب العربي: ص ٩٥.

الفتى وكان الجو ماطرًا، فلم يجدا خمرًا ليقطعا به يومهما فتسليا بتذاكر شعراء بلدهم وأدبائه، وهنا كان الفتى هو السائل وابن فتوح المجاوب، فوضّح رأيّه في أربعة من أدباء عصره وعصره. وتنتهي المقامة بإنشاد الفتى بيتاً من الشعر يعترف فيه بعلم ابن فتوح وتفوقه.

وقد بُنيت هذه المقامة على موضوع النقد الأدبي، ولكن النقد فيها مقصور على أربعة من شعراء الأندلس معاصرين لابن فتوح، وهم: أبو عامر بن شهيد (ت ٤٢٦هـ)، وأبو حفص بن برد (٤٤٥هـ)، وأبو بكر يحيى بن إبراهيم الطنبلي (٤٦١هـ)، وأبو الوليد ابن زيدون (ت ٤٦٣هـ).

وهكذا فإن حديث ابن فتوح قد اتخذ شكل مقامة نقدية، ألقى فيها أحكاماً نقدية عامة على الشعراء الذين ذكرناهم، محاولاً أن يميّز كل واحد منهم عمّن سواه بصفة غالبية عليه. فابن برد أعذبهم لفظاً، وابن شهيد أقواهم استعارات، وأصحهم تشبيهات، وابن زيدون أقدرهم على نظم الأخبار، وأبو بكر الطنبلي أكلفهم بالبدیع وفنونه.

وأهمية هذه المقامة تظهر في أننا نجد فيها اهتماماً بأدباء الأندلس، فقد تصدّى ابن فتوح -كما قدّمنا- لأربعة من أدباء عصره وبلده، في حين نجد السّرقسطي في «مقامة الشعراء» لا يجري للأندلسيين ذكراً.^(١)

ولابن فتوح أيضاً قطعة أخرى أوردها ابن بسام في «الذخيرة»، وقدّم لها كسابقتها بقوله: «وحدّث ابن فتوح هذا عن نفسه قال»^(٢)، وتدور كسابقتها في المسجد، حيث كان

(١) انظر المقامات اللزومية: ص ٣٥٣-٣٨٤.

(٢) الذخيرة: ق ٢م ص ٧٨٨.

ابن فتوح بصحبة غلام معذّر كان قديم الامتزاج به، فلقبه بعض إخوانه، وعاتبه على المضيّ في حبه، فما كان منه إلا أن دافع عن موقفه بقطعة بليغة من النثر، وأبيات من الشعر، ويبدو الطابع المقامي في هذه القطعة القصيرة من حيث ظهور الشخصيات، ووجود الحوار، والمراوحة بين الشعر والنثر، ولذلك رأينا أن نورد هنا:

«وحدّث ابن فتوح هذا عن نفسه قال: ماشيتُ غلاماً معذّراً كنتُ قديم الامتزاج به، والكلف بقربه، فلقيني بعض إخواني معه في جوف المسجد الجامع فسَلَّم عليّ مضمراً خبراً ثم قال لي: مثالك في عصرنا مثالُ ذي الرُّمة في وقته، تقنعك الأطلال، وما شخص من آثار الديار، ففهمت عنه، وأنشدته قبل أن يستتم كلامه:

ما ربعُ ميّة معموراً يطيف به غيلانُ أبي ربا من ربعها الخرب

فقال: إلى متى يدوم غرامك بهذا الغلام، وهذه بنود عزله قد رُفعت، وعُقدات خلعه قد عُقدت؟ فقلتُ: لا والله ما أرى بنود عزله، ولا عقدات خلعه، وإنما أرى لاماتِ مسكٍ في صحيفة كافور، وسُطور دجى في مهارق نور، فوَلَّى عَنِّي، وكتبت إليه:

أيّها العاند المفنّد جهلا في هوى من قِوام نفسي هواهُ
أنت تلحى على قضيب لجين عطفني عن غيره عطفاه
كان صبحاً لعاشقيه فلما بقلت صفحتاه أغشي سناه
مثل ضوء الهلال يزدادُ ضعفاً نوره إن دجث له أفقاه»^(١)

(١) الذخيرة: ق ٢١ ص ٧٧٨-٧٧٩.

المقامة النخيلية^(١) لأبي حفص بن بُرد

جعلك الله من المؤثرين على أنفسهم والموقّنين شُحّها، والمنجزين لمواعيدهم والمُعطين صدّقها، فقد علمت ما سلف لنا في العام الفارط من عتابك، ولبسنا شكته من ملامك، لما كَتَمْتَنّا صرام النّخلة التي هي بأرضنا إحدى الغرائب، وفريدة العجائب، هرباً من أن نلزمك الإسهام في رُطْبِها، وحرصاً على تمام لذة الاستبداد بها، وقلت - وقد سألتك من جناها قليلاً، ورجونا أن تنيلنا منها ولو فتيلاً -: لو علمتُ أنّ لكم به هذا الكلف، وإليه هذا النزاع، لأمسكته عليكم، وجعلت حكم جداده إليكم، ولكنها إن شاء الله في العام الآنف غلّتكم، عتاد نفيس لكم، وذخّر حيس عليكم.

فأمّا نحن فرسمنا تلك العدة في سويداوات قلوبنا، ووكلنا بها حفظة خواطرنّا، وأمّا أنت فهلت عليها التراب، وأسلمتها إلى يد البلى. حتى إذا أخذت الأرض زخرفها، وأزيت زيتها، وبلغت غايتها، وأشيع القمر صبغها، وأحكمت الشمس نضجها، دبّت إليها الضراء بصرامك، ومشيت نحوها الجهر بجرامك، على حين نام السّمار، وغفلت الجارة والجار، وأبّت بها إيابة الأسد بفريسته، وتحكّمت فيها تحكّمه في عزيزته.

ولما رأينا على ذلك طلائع الرُّطب في الأسواق، والجنّي من بكر النخيل على الأطباق، هزّت جوانحنا ذكّر العدة، وقلقل أحشاءنا حذر الخيبة، فركضنا الهماليج إلى حرمتك، وجعلنا نشدّ طمعاً في لقاءك، فلما غشنا الجهة تَلَقَّانا فتى وصّاح الجبين، أخذ بالعيون، في وجهه للأدب شاهد، وبين عينيه من الظرف رائد، فقال: بأبي أنتم، وعين الله تكلّوكم حيث كنتم، أراكم ناشدي ضالة أو مستدركي سَيِّبِ فائت، فاسألوا فربّما

(١) انظر نصّ المقامة في الذخيرة: ق ١ م ١ ص ٥٢٨-٥٣١.

سقطتم على الخير، وشاوروا فالمشورة تفتح غلق الأمور. فقلنا له: بآبائنا أنت، إنا لنرجو بئمن لقياك ظفراً بالمطلب، ونُجْحاً في المذهب. جارك وصديقنا الذي نحن تلقاء منزله، وفي حاشية محله، وعَدنا منذ عام بأن يُسهِم لنا في جنى نخلة لديه، لم تتفقاً تربة هَجَرَ عن مثلها، ولا أَوَتْ قهاريُّ بُصرى على شكلها، فجئناه لأكل منها وتطمئنّ قلوبنا، ونعلم أن قد صدقنا ونكون عليها من الشاهدين.

قال الفتى: يا لإخواني في الخيبة، وشركائي في فوت الأمل؛ أنا ساكن المحلة التي منبت هذه النخلة في ساحتها، وقد صرمها منذ خمسة عشر يوماً؛ ولقد كنت قبل صرامها أَمْنَحُهَا نظر العاشق إلى المعشوق، فإذا رأت الطير وهي على سعفها ما أوصل إليها من لحظاتي، وأتابع عليها من زفراقي، رَمَتْنِي بِأَفْرَادٍ مِنْ رُطْبِهَا أَحْلَى مِنْ شِفَاهِ الْعَذَارَى. وأنا اليوم أبكي منها رُبْعاً خالياً، وبعد ثلاثة أعادوا عنها جالياً.

فما هذا الخيس أبا عبد الله بعهدك، وما هذه الرُبْدَةُ في وجه عدوك، وما هذا الاستئثار على إخوانك المؤثرين لك؟ إن كنت لم تحضرنا يوم صرامها لنحتكم على قولك فيها، ونأخذ معك بأجزل الأقسام منها، فالعذر لا يضيق عنك، واللوم لا ينبسط إليك. هات مما ذخرت له لساعات تفكّكها، أسهِم لنا فيما اعتدته ليوم نوروزك. لم يكن جناها بنزر فيتَقَسَّمه الإهداء، ولا بدون فتطيب عنه النفس. ولا تحش منا ما أفسد به ابنُ الزبير عماله حين قال لهم: "أكلتم تمرّي وعصيتُم أمرّي"، إذا نحن أكلنا منها فمُرنا نناصب عنك أعداءك برّاً وبحراً، ولا نعص لك أمراً.

جعلنا الله فداك: نحن عصابة نتحلى بأدب، وننتمي إلى حفظ غريب وصياغة قريض. وربما لم تصدق في هذا الطريق مضاءنا، ولا قبلت يقيناً غناءنا؛ فأردنا أن نصف لك شيئاً من كلام العرب في التخل وبدء نباته، والتمر وتلون حالاته، فإن سَرَّكَ ما جئنا به، وراقك ما أفضنا فيه، جعلت جوائزنا تمرّاً، وكان ذلك لنا أجراً.

نعم، تقول العرب لصغار النخل: الجثيث، والودي، والهراء، والفسيل، والأشياء، والكافور، والضَّمْدُ، والإغريض. فإذا انعقد سمته السيَّاب، فإذا اخضَرَ قبل أن يشتدَّ سمته الجدال، فإذا عظم فهو البُسر، فإذا صارت فيه طرائق فهو المخطَّم، فإذا تغيرت البُسرة إلى الحمرة فهي شُقْحَة، فإذا ظهرت الحمرة فهي الزَّهو وقد أزهى، فإذا بدت فيه نقطة من الإרטاب قيل قد وكت، هي بسرة مُوَكَّتَة، فإذا أدرك حَمْلُ النخلة فهو الإناض، فإذا أتاها التوكيت من قبل ذنبها فهي مَذْبَبَة، فإذا بلغ الإרטاب نصفها فهو المجزَّع و المجزَّع، لغتان، فإذا بلغ ثلثيها فهي حُلْقَانَة، فإذا جرى الإרטاب فيها كلها فهي مُنْسَبَتَة.

فيا أبا عبد الله أمجدنا رُطْبًا، نُمجِّدُكَ خُطْبًا. هذا قليل من كثير، وشهاد من بحور، وليس يطيب وصفنا نظماً ونثراً لمناقب هذه النخلة إلا بعد اختيارنا منها، وفوز قداحنا بها. إذا أنت فَعَلْتَ فكلَّفنا فيها خاصة ما تكلفه عمرو بن بحر الجاحظ في نخل الدنيا عامة نأتك به، ونربي فيه عليه. ولعلك تحب أن تسمع شيئاً من منظوم الكلام في النخل يذيب من جمودك، ويولد عقيم جودك، فالمنظوم خَدَّاع بحسنه، مُسْتَمِيلٌ بِطَنِّهِ. أنشد الأصمعي لأبي غفار الرياحي:

عَدْتُ سلمى تعاتبني وقالت	رأيتك لا تريغُ لنا معاشا
فقلتُ لها أما تكفيكِ دُهمٌ	إذا أمحلتِ كُنْ لنا رياشا
بَوارِكُ ما يبالي الليلي	ضربن لها ولأيام جاشا
إذا ما القارياتُ طُلبنَ مَدَّتْ	بأسبابٍ نالُ بها انتعاشا
تري أمطاءها بالبُسرِ هُذلاً	من الألوان ترتعش ارتعاشا

هذا وإنا لنخشى أنك أزيدُ تمادياً في أمرك، وأعظمُ شُحاً على تمرّك، إراغة المعاش ومعالجة الاقتيات. فقال لها: في النخل التي رزقنا الله كفافاً من العيش كاف، وبُلغة من القوت مقنعة. ثم أعظمَ من أمرها بدنوّ طعامها في الجدوب، وصبرها لتصرف الليالي والأيام. وما ترى أرسل هذه الأبيات على ألسنتنا إلا شيطانٌ قد شكا إليك عسرة فأنتله بسرة، فهو يحب إبقاءنا عندك، ودفع متطفلي الإخوان عنك؛ فلعن الله الشيطان وأعاذنا منه، وصلى الله على محمد ولا صدنا عنه، فإنه يقول: «نعمت العمّة لكم النخلة»، والخطاب لجميع المسلمين. وأنت قد استوليت على عمّة من عمّاتهم، تستبد بخيرها دونهم، وتُمسك معروفها عنهم. ونحن رجالٌ من بني أخيها أتينا نعفيها، فإن أنت سويتنا مع نفسك فيما تدّرّ به عليك، وتملأ منه يديك، وإلا نافرناك إلى السلطان، وألبنا عليك أبناء الزمان. ونستغفر الله ونسأله أن يبدلنا من بخلك نوالاً، وبمطلقك إعجالاً.

تحليل المقامة النخلية

وهذه الرقعة لأبي حفص بن برد الأصغر، لم يسمّها ابن بسام مقامة، بل إنها لم ترد أصلاً في كتاب «الذخيرة» وإنما أُدخِلت على النص - كما قال محقق الكتاب -^(١) مع مجموع من الرقاع، عدّها من أضافها إلى نص كتاب «الذخيرة» من بدائع العقم، المستنزلة للعُصم، وارتأى أن أبا الحسن لم يتجاف عنها غاضاً منها، لكن قدر أعجله، أو زمن لم يسمح له...»^(٢).

ونحن نوافق أحد الباحثين حيث رأى أن هذه القطعة أكمل من الناحية الفنية، وأجمع لمقومات الفن المقامي من كثير من النصوص التي أوردها ابن بسام تحت عنوان

(١) الذخيرة ق ١ م ١، ص ٥٢٣.

(٢) المصدر نفسه: المكان نفسه.

«المقامة»^(١)، وستحدث عن خصائصها الفنية التي جعلتنا نضمها إلى المقامات الأندلسية في موضع آخر من هذا البحث.

تبدأ المقامة بدعاء موجّه إلى مخاطب لا نعرفه، لأن صدر الرقعة محذوف، يقول فيه: «جعلك الله من المؤثرين على أنفسهم، والموقين شُحها، والمنجزين لمواعيدهم، والمعطين صدقها». وهاتان العبارتان في الدعاء تتضمنان معنى الشح، ومعنى الوعد. ونهما يضعنا الكاتب في سياق القصة التي يبدأ بروايتها. وهي - بإيجاز - كما يلي:

جماعة من الناس تلوم أحداً لأنه حين جنى تمر نخلته - وهي نادرة عجيبة في البلاد - كتم ذلك الأمر حتى لا يطمع في نيل نصيب منه طامع. فيعتذر صاحب النخل بأنه لم يكن يعلم بكلفهم هذا بتمرها. وأنه في العام القادم سيذل لهم قسماً منه. وتحل السنة المضروبة موعداً، فتأتي الجماعة مستنجرة للوعد، ولكنهم يلقون فتى يبلغهم أن من يقصدونه قد صرم نخلته منذ خمسة عشر يوماً. وهذا الفتى نفسه كان من المغرمين بالتمر، ولم يكن يحظى منه وهو الذي يراقبه صباح مساء، ويتطلع بشوق إلى النخلة في كل وقت إلاّ بما تشفق به عليه العصافير، حين تساقط عليه تلك الرطب الجنية.

ويقبل الجماعة على أبي عبد الله وهو صاحب النخلة يلومونه على عدم الوفاء بوعد، وعلى الشح المتمكن من نفسه، والاستئثار الراسخ فيها. ثم يناشدونه أن يجعل لهم نصيباً مما استبقاه لنفسه، مقابل إمتاعه بما لديهم من غريب اللغة، وأبيات الشعر، ويقترحون عليه أن يسمعه شيئاً من كلام العرب في التمر والنخل، على أن يجعل جوائزهم من التمر إذا راق له كلامهم وأعجبه إنشادهم...

(١) د. علي بن محمد في كتابه: الشر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس، ص ٥٨٠.

ويبدأ الكاتب، من هنا، في عرض كلام العرب عن النخل والتمر: فهي تُسمي صغار النخل «الجثيث، والوديّ، والهراء، والفسيل... فإذا انعقد سمّته السيّاب، فإذا اخضَرَ قبل أن يشتد سمّته الجدال، فإذا عَظُم فهو البسر...».

وكأنّهم يعدّون هذا الكلام مجرد إغراء لأبي عبد الله، وطُعْم يستدرجونه به إلى شباكِهم، وهم يقولون له: «أعْجَدْنَا رُطْبًا نُمَجِّدُكَ خُطْبًا»... ويزيدون في تشويقه بقولهم: «ولعلك تحب أن تسمع شيئاً من منظوم الكلام في النخل يذيب من جهودك، ويولّد عُقْمَ جودك...».

وربما لم يشاهدوا بواد الإقبال على كلامهم، والانسياق إلى مخططهم، فلذلك ينتقلون إلى الترهيب بعد الترغيب، ومخاطبته بالتهديد الصريح: إما أن يعطيهم حقهم وإمّا لم يبق لهم إلا أن ينافروه إلى السلطان، ويؤلبوا عليه الناس... وتنتهي المقامة بالاستغفار والدعاء: «نستغفر الله ونسأله أن يبدلنا من بخلك نوالاً، وبمطلقك إعجالاً».

هذه هي مقامة أبي حفص وهي عمل رصين، يدل على نضج أدبي، وإحساس بالجمال، أتاح له أن يتناول غرضاً تعليمياً بحثاً: وهو الحديث عن النخلة، وأوصافها، وبعض ما قيل فيها من أشعار، في إطار خيال بسيط جذاب.

فصول من مقامة^(١) لعمر بن الشهيد

قال في صدرها: إنَّ صناعة الكتابة مَحَنَةٌ من المحن، ومهنة من المهن، والسعيدُ مَنْ خَدَمَتْ دولة إقباله، والشقيُّ من كانت رأس ماله، والعاقل من إذا أخرجها من مثالبه لم يُدخلها في مناقبه، لا سيما وقد تناولها يد كثير من السُّوق، وباعوها بين الخَلْق، فسلبوها تاج بهائها، ورداء كبريائها، وصيَّروها صناعة يكاد الكريم لا يعيرها لحظه، ولا يفرغ في قالبها لفظه، إذ الحظُّ أن يعثرُ الكرامُ إذا وَلِيَ الأَعلاج، وأن تَسْتَنْجِعَ الآساد إذا استأسدت النَّعاج، غير أنَّه من وُسِمَ بِسِمَتِها، وظهر في وُسْمَتِها، فغيرُ مجهول مكانه، ولا مُسَلَّم له كتبائه، وما عسى أن يصنع بذي مكانة وحَسَب، إذا اتفق يومُ سرور وطرب، ورغب رغبة كريم، أن يُورِّخ له بمنثور ومنظوم؟ أُقْسِمُ لو كان وجه الإنسان في صفاقة نعله، أو وقاحة حافر بغله، لما وَسَّعَهُ غير الإسعاف، على حُكْم الإنصاف وإلا لَزِمَهُ اسم التبريد والجمود. وبهذا السبب دُفِعنا إلى النَّصب فيها تسمعه، وربما تستبدعه. ولئن مرت بك كلمات مُحالِيَّات، تنظمها سلوك هَزَلِيَّات، فإنما هي أوصاف طابقت موصوفاتها، وحُلِيَّ على أقدار محلِّيَّاتها، والبليغ كالجوهرى واجد التعب، في نظم الدر أو المخشَلَب، وكالصائغ واجد العناء، في سَبْك الصُّفَر أو الفضة البيضاء، وكالعقاب واجد الانهواء، على الصقر أو المُكَّاء، والعاقل من برز يوم السرور في زِيِّ الأعياد، ويوم الحزن في ثياب الحداد، وسيان في الفجاجة والبرد، من جدَّ عند الهزل أو هزل عند الجد، ولا أوضح في القياس، من حركات الناس، كحركات الشَّمُوس والأقمار، في الفَلَك الدَّوَّار، كلما انتقلت في المنازل والبروج، عُدَّتْ بالأسطرلاب والزَّيْج، ووُوقِفَ على حقائقها، بثوانيتها

(١) انظر نص المقامة في: الذخيرة ق ١ م ٢ ص ٦٧٤ - ٦٨٥ .

ودقائقها، محصورة بالحدود، في القريب والبعيد، كحركات الفقيه ابن الحديد، فإن أيامه على مناكب الأيام أردية شباب، وفي مفارقتها تيجان نخوة وإعجاب.

وفي فصل منها: فدُونَكها عذراء، مُحجَّلة غراء، كما رُفِع عنها سَجفُ الإبداع، وأبرزت من كِناس الاختراع، تنظر بعين الغزال رُوع، وأويس بعدما أطمع. نعم، اتَّفَقَ من الربيع وقتُ حلول الشمس في الحَمَل، وقام وزن الزمان واعتدل، وأخذ آذاً على ما اعتاد، فحلَّى الوهاد والنَّجاد، وخلع على ظهور المروج، ضروب الدبابيج، وأثقل صدور الأشجار، بحلَى النُّوار وأطبى نفوس الأطيار، بنضارة الشار، فبعثت أشجانها، تُرجع ألحانها، فما شئت من رمان تملأ كف العميد، من أمثال النُّهود، تحت القلائد والعقود، وتفتق عن أمثال الجمر، إن وُصِفَت فكالثلث الحُمر، أو ارتُشِفَت فكالرُّذ. باب الحَصِر أو الحُمر. ولما انتظمت للزمان هذه المحاسن، حَتَّ نفسُ الفقيه بسيادتها، إلى كَرَم عاداتها، من الإحسان إلى الأتباع، والتسلية لنفوس الأَلاَف والأشياء، فلما صَعَق^(١) الدِّيْك وصاح، واستغفر كلَّ عبدٍ منيبٍ ربَّه وسبَّح، وهمَّ بشن الغارة كمينَ الصبح من المشرق، واهتز الفجر اهتزاز الرُّمح في يمين الأفق، أطلق لسانه الفصيح، بالتهليل والتسبيح، ثم دعا بهاء طهور، وأفرغه نوراً على نور، فوضَّأ وجهاً وضَّاء، يملأ العيون بهجةً وسناء.

وفي فصل منها: وملنا إلى منزل بدوي، ذي هيئة وزيّ:

له منزلٌ رَحْبٌ عريضٌ مُزَرَّبٌ بأعوادٍ بَلُوطٍ وَطُوجٍ مُفَتَّلٍ^(٢)
"تري بحر الأرام في عَرَصَاتِهِ وقيعانِهِ كأنَّهُ حَبٌّ فُلْفُلٍ"

(١) صَعَق: أتى بصوت شديد.

(٢) مَزَرَّب: محاط بزرائب. الطُوج: الخلفاء.

فهشّ وبشّ، وكنس منزله ورشّ، وصيّر عياله إلى ناحية، وجمع أطفاله في زاوية، وجعل يدور كالخُذروف أمام الصفوف، يتلقى الواحد منا بعد الواحد، يأخذ بركابه، ويكشر عن نابه، ويتمثل:

أخذي كذا بركاب الصّيف أنزلّه ألدّ عندي من الإسفنج بالعسل^(١)
أو من رغائف كانون ملهوجّة أو رائب بقري جيّد العمل
أو من خوار عجولٍ في مسارحها أو من ركوب الحمير الفرّه في الكفل

ثم مال بنا إلى بيت مكنس، منوع مجنّس، قد جلّله حُصراً بلدية، وغشاه بسطاً بدوية، ومدّ فيه شرائط وحبالاً، كأنّه يريد أن يخرج خيالاً، وعلّق منها غلائل وملاءات، وهمايين وسراويلات، وكم شئت من خرق معصرة، وعصائب مزعفرة، حتى المقنعة والخمار، والدلال المستعار، وقد اتخذ في الحائط كُوةً وثانية، وملأها حقائقاً وآنية، وأودعها من عتاد العروس فاخره، ومن طيب البادية أوّله وآخره، مثل حراقة الورد بالبان، وعصارة العصفر بالزعفران، وشيء من الإثمد والإسفيداج، ومرارود الزجاج، وحبّات المصطكي واللبان،، وغبار العفص وقشور الرمان، وكثير من سنون ذلك المكان، فقلتُ: يا صاحب المنزل، هيئت وهيت، لقد أوتيت وأوتيت، وجعلتُ أرقق عن صبح^(٢)، وأقول:

«متى كان الخيامُ بذِي طُلوح»^(٣)

من أين للبداوة، بهذا الرونق والطلاوة، وكيف حتى أغرت على حانوت العطار، ومتى نُقل سوق البزّ إلى هذه الدار؟ لقد قرّرت بك الأعين، وسُرت الأنفس، هذا زي العروس فأين العُرس؟ فضحك البدويّ ملء فيه، وتوسّمتُ الازدراء فيه، وأنشد:

(١) الإسفنج: عجّين لدن راب بالتخمير، يلقى بالزيت ويفرك بالبيض ثم يحشى بالجوز أو ما أشبه.

(٢) من المثل «أعنّ صبح ترقق» يُضرب مثلاً لمن كنى عن شيء، وهو يريد غيره.

(٣) صدر بيت لجرير وعجزه: {سُقيت الغيث أيتها الخيام}.

يا أخـي نـحـن عـلى آتـ	اَتَّـاجُ بـدوئـي
سـادـةُ نـاسٍ لـنا فـي	هـذـه الـدنيا دَوِي
عـندنا إـن جـاءَ ضـيـفٌ	شـبَعُ جـمِّ وريـي
وسـريـرٌ حـشـوه رـيـ	شُـ الفـراريـجِ وَطـيـي
وكرامـاتٌ كـثـيرا	تُ وهينـاتٌ وزـيـي

ثم قام من مكانه، ودعا بصبيانَه، وأغراهم بديك له هَرَم، ليزبحه في طاعة الكرم، فأَجْرَوه لأمهم الهاوية، من زاوية إلى زاوية، حتى سقط الديك سقوط طليح، جسماً بلا روح، فأقبلوا إليه، متهافتين عليه، وهو يضطرب اضطراب المخلوق، ويستغيث بالخالق والمخلوق، واتفق لفرط حنقه، ومؤلم تقلقه، أن عَضَّ على أيديهم عَضَّة، وانتفض منهم نفضة، وصعد في بعض الجوائز^(١)، وحمد الله حمدَ الفائز، وتمثَّل:

إذا غَرِقَتْ بـيـحـر	مـن الـرَدَى فـيـاض
فـلا يَكُنْ بـهـلاك	عـليـك ظَنُّـك قـاض
فـلـيـسَ فـي كـلِّ وُقـتٍ	سـيـفُ المِئـتـة مـاض

وحان وقتُ الظَّهيرة، فصَفَّقَ بجناحيه ثُتَيْن، وصرخ صرختين، واقتدى به المؤذنون، وتجمهر المؤذنون، حتى إذا قُضيت الصَّلَاة استصرخهم فأصرخوه، وتواثبت إليه السادة والوجوه، فقال لهم الديك: أيها السادة الملوك، فيكم الشاب مُتَّع بالشباب، والأشيب نور شيبه مع الكواعب والأتراب، وقد صَحَبْتُم مدة، وسَبَحْتُ الله تعالى على رؤوسكم مراراً عَدَّة، أوقظكم بالأسحار، وأؤذِّن بالليل والنهار، وقد أحسنتُ لدجاجكم سفاداً، وربَّيتُ لكم من الفراريج أعداداً، فالآن حين بلي في خدمتكم تاجي،

(١) الجوائز: جمع جائزة وهي خشبة السَّقْف.

أُنْعَى إِلَى دَجَاجِي، وَتُنْحَى الشَّفَرَةُ عَلَى أوداجي؟ وَحِينَ أَدْرِكُنِي الشَّيْخُ، يُمَزَّقُ لَحْمِي
وَيُطْبَخُ؟ يَاللِّكْرَامَ، مِنْ ذُلِّ هَذَا الْمَقَامِ! وَجَعَلْتُ دُمُوعَهُ تَسْفَحُ مِنْ دَمِهِ، وَالْحُزْنَ يُطَبِّقُ عَلَى
فَمِهِ، ثُمَّ غَشِيَ عَلَيْهِ، فَاجْتَمَعَتِ الْبِدَاوَةُ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ إِلَيْهِ، يَضْرِبُونَ وَجْهَهُ بِالْمَاءِ،
وَيُخْلَصُونَ لَهُ فِي الدَّعَاءِ، ثُمَّ أَفَاقَ مِنْ غَشِيَتِهِ وَأَنشَدَ:

عَلَامٌ يَقْتُلُ شَيْخٌ	مَنْ كُلِّ ذَنْبٍ بَرِيٌّ؟
مُحَقَّقٌ مُتَحَرِّرٌ	مُؤَخَّرٌ شُؤْنِي
هَلْ نَصَّ هَذَا كِتَابٌ	أَوْ قَالَ هَذَا تَبِيٌّ
لَا ذَنْبَ لِي غَيْرَ أَنِّي	مَوْذَنٌ بِدَوِيٍّ

فَرَقَّتْ لَهُ أَنْفُسُ الْقَوْمِ، وَأَقْبَلُوا عَلَى صَاحِبِ الْمَنْزِلِ بِاللُّومِ، فَقَالَ: وَيَحْكُمُ، إِنَّ هَذَا
الْدِّيكَ ذُو فَخْذٍ وَصُدْرَةٍ، وَقَدْ أَصَابَتْنِي عَلَيْهِ ضَجْرَةٌ، وَلِي فِي ذَبْحِهِ سِرٌّ، وَلَا بُدَّ أَنْ تَزِينَ بِهِ
قُدْرَ، وَتُضْرَمَ تَحْتَهُ النَّيْرَانُ، وَيَشْبَعُ مِنْ لَحْمِهِ الضَّيْفَانُ، أَمَا تَرَوْنَهُ قُرَّةَ الْعَيْنِ وَالْقُلُوبِ،
سَبِيكَةً لَجَيْنِ مُحْكَمَةِ التَّذْهِيْبِ؟ وَتَمَثَّلَ:

وَمَنْ شِيمَتِي مَهْمَا تَزِينَ مَنْزِلِي	بَضِيفٍ أَنْ أَقْرِبَهُ بِأَحْسَنِ مَا عِنْدِي
لَوْ أَنَّ دَمِي خَمْرٌ كَرَوَيْتُهُ بِهِ	وَلَوْ صَلَحَتْ كَبْدِي شَوِيَتْ لَهُ كَبْدِي
بِذَلِكَ أَوْصَانِي أَبِي مُذْ عَقَلْتُهُ	وَقَدْ كَانَ أَوْصَاهُ بِذَا قَبْلَهُ جَدِّي

فَقَالَ الدَّيْكَ: لَا أَكْذِبُ، الْحَقُّ طَرِيقٌ مُسْتَبِينٌ، وَاتَّبَاعُهُ مَرْوَةٌ وَدِينٌ، أَمَا إِنَّهُ لَعَلَى
خَلْقٍ عَظِيمٍ، كَرِيمِ ابْنِ كَرِيمٍ، غَيْرَ أَنَّهُ لَوْمْ فِي أَمْرِي وَأَفْرَطَ، وَغَلَطَ مَا شَاءَ أَنْ يَغْلُطَ، أَمَا
عِلْمُ أَنَّ هَرَمَاتِ الدِّيُوكِ، لَيْسَتْ مِنْ مَطَاْعِمِ الْمُلُوكِ، وَأَنَّهَا بِالْأَدْوِيَةِ، أَشْبَهُ مِنْهَا بِالْأَغْذِيَةِ؟
وَأَقْسَمُ لَوْ اتَّخَذَ بُرْمَةً مِنْ فَوَادٍ مَهْجُورٍ، وَوَضَعَنِي مِنْ مِثْلِهِ عَلَى تَنْوَرٍ، لَا قَضَى بِي حَاجَةٌ،
وَلَا عَدِمَ مِنِّي نُيُوءٌ وَفَجَاجَةٌ، وَإِنَّ لَهُ فِي بَنِي مَا لَا يَجِدُهُ فِيَّ، مِنْ طِيبِ الْمَشْمِ. وَلَذَةُ الْمَطْعَمِ،

والتوليد لأحر ما يكون من الدّم. وأنى كالفرّوج اسفيدباجاً^(١)، لمن أراد أن يعدل مزاجاً؟
فركى قوله، كلّ من حوله، لم يألوه تعظيماً، واتخذوه من ذلك اليوم حكياً. وصرف
البدوي من الطافه، ما أحسن به قرى أضيافه، وختّم نوبة برّه، بالرغبة في بسط عُذره،
فسمعنا منه، ورجلنا سحراً عنه.

وفي فصل منها: ولم تزل الجياد تمعج بكلماتها، والشمس تنتقل في درجاتها، حتى
أشرفنا على عين كالدينار، كأنها هندست بالبركار، ذات ماء ريان من الشنب والخصر،
وحصباء كالأسنان ذوات الأشر، وقد حف بها النبات حفيف الشارب بفم الأمرد،
وترينت بخضرة كالمرأة الصقيلة طوقت بالزبرجد.

ومنها: فأصغيت فإذا بصوت ناقوس، في دير قسيس، وقرية آنة، كلّها حانة، دار
البطاريق، وملعب الكأس والإبريق، سائمتها الخنازير، وحياضها المعاصير، ومياهها
الأنبذة والخمور، وشكلها مثلث مسطوح، هندسته حواريو المسيح، نباتها غصون من
قدود، تهتز في أوراق من برود، وتثمر رماناً من نهود، وتفاحاً من خدود، وعقارب من
أصداغ، وأفاعي من أسورة وعقود، وفيها مدام من رصاب، وسقاة من كواعب أتراب،
وغيد لمهوى قرط، وارتجاج لكثيب في مرط، وجولان لنطاق، وغصص لخلخال في
ساق، وخنث في ألفاظ، ومواعيد بالحافظ، وقلوب تكلف وتشفغ، ونفوس تنشأ
وأخرى تتلف. فلما أكثر محدثنا بحضرة الفقيه، من هذا التشبيه، ومن هذه المحاسن،
المحركات لكثير من السواكن، قطبنا له وجوة الاستكراه، وعضضنا له على الشفاه، فبينما
نحن كذلك نكثر لغطاً، ونرى الحلول بالمسيحيين غلطاً، إذ نظرنا إلى أطراد صفوف، من
أعطاف خنثة وخصور هيف، وشموس وأقمار، على أفلاك جيوب وأزرار، لا سيوف إلا

(١) الاسفيدباج: نوع من الطعام، قطع من لحم الضأن تقطع قطعاً صغيرة، وتخلط ببعض التوابل واللوز المقشر، وتنضج على نار لينة.

من مُقَلٍّ، ولا دَرَقَ إِلَّا من خَجَلٍ، ولا عارضَ إِلَّا من خَلوقٍ، ولا صناعة غير تَخْلِيقٍ، ولا أسم غير عاشق ومعشوق، فَتَشَفَّعَ الْقَسِيسُ بحسن خدودهم، وأقسم بنعمة قدودهم، إِلَّا أَجْزَلْتُمُ الْمَنَّةَ، وَثَنَيْتُمُ الْأَعْنَةَ. تعريجاً إلينا، وتحكماً في المال والولد علينا، فكرمت الشفاعة، وقلنا السمع والطاعة، وجُلنا جولان الزنانير، على هيف الخصور، نغصُّ بما بقي من الطريق، غصَّ الدماليج بخدال السوق، حتى وافينا الباب، وأنخنا الركاب، وتولَّى تَوَلَّى الحُرَّ، ضروباً من البرِّ، غير أنه قَنَعَ بالذن وجه مدامه، تقنَّع الورد بأكمامه، وقضانا من الإكرام نافلة وفرضاً، وشددنا الجياد عنه ركضاً، وسرنا حتى رُفِعَ لنا في طريقنا جُدْرٌ، فإذا كنيسة عارية الأطلال من الجمال، إِلَّا تَعْلَةُ الْمُتَوَسِّمِ، للتخيُّل والتوهُمِ، كالثوب الكريم أَخْلَقَهُ ابتذاله، أو كخَدَّ الأُمرد تغشاه سِبَالُهُ، فهَيَّجَ ذِكْرًا، وأجَدَّ فِكْرًا، فأنشدتُ:

أَبْصَرْتُ فَيْئاً فِي مُغَارٍ يُنْهَبُ
مِنْ مَاءِ كَزَمٍ كَانَ فِيهَا يُسْكَبُ
مِنَّا بَرِيءٌ وَالْأَمَانِي تَكْذِبُ
كُلُّ بِهَا مَتَحَيِّزٌ مُتَعَجَّبُ
حَتَّى اسْتَقَامَ وَتَمَّ ذَاكَ الْمَنْصَبُ
كَسَوَاعِدِ الْغَزْلَانِ فِيهَا يُجْلَبُ
بِحَبَائِلِ الْقَيْ بِهِنَّ تَرْهَبُ
مِنْ جَوْدِرٍ وَبَدَا عَلَيْهِ يَخْطُبُ
فِيهَا كَرِيمٌ بِالْمَلَّاحِ مُعَذَّبُ
فِيهَا بِأَفْوَاهِ النَّدَامَى تَغْرُبُ
فِيهِ وَلَكِنْ كَانَ نِعَمَ الْمَشْرَبِ

وَكُنَيْسَةٍ أَخَذَ الْبَلَى مِنْهَا كَمَا
تَمَّتْ عَلَيْنَا فِي السَّفَارَةِ نَفْحَةٌ
أَهْوَى إِلَيْهَا بِالْمَطِيِّ تَخِيلُ
فَتَوَاقَفَ الرُّكْبَانُ فِي عَرَصَاتِهَا
أَتَى تَأَتَّى لَابْنِ آدَمَ قُدْرَةٌ
وَمِنْ أَيِّ أَرْضٍ كَانَ رَائِعَ مَرْمَرٍ
كَمْ صَادَ إِبْلِيسُ بِهَا مِنْ تَائِبٍ
وَكَمْ ابْتَنَى الْقَسِيسُ فِيهَا مَنْبَرًا
سَقِيًّا لَهَا مِنْ دَارِ غَيٍّ لَمْ يَزَلْ
كَلًّا وَمَا زَالَتْ نَجْوُومُ مُدَامَةٍ
بِئْسَ الْمُصَلَّى إِنْ أَرَدْتَ تَعْبِدًا

ثم أَغَذَّذْنَا سِيراً، وكأنا نُنفِّرُ طيراً، حتى نظرنا من السائمة تسرح في مروجها، كالعذراى تيس في دبائيجها، كلاً نضير، وماء نمير، وما زلتُ أروى هناك بالرائب والميس^(١)، حتى كاد كياني ينقلب إلى كيان التيس، ثم رحلنا وتذكّرنا الطراد، فمشت الجياد، وتواثبت آساد، واستعدَّ بباز وكلاب، فإذا بحر من بركٍ، يخرقه سفين من بُرك^(٢)، وفي السيور صقور إذا نظرت، وليوث إذا جُرِّدت، تنظر من أمثال الدنانير، وتتخطّف بأشباه المرفهة الذكور، فأرسلناها إرسال سهام الأحداق، إلى قلوب العشاق، فلم ترَ إلّا ريشاً مخلوجاً، ومِسرّاً يُخسِنُ توديجاً^(٣)، ووردنا ماءً في رقة النسيم، ولذاذة بنت الكروم، فشربنا وطعمنا، وقَرِينَا سباع الفلاة، ممّا فضل عن الكُماة، ونقشتُ على مِرْمرة بيضاء، ساعة وردنا ذلك الماء:

يَارَبِّ مَاءٍ عَازِبٍ مَجَّهْ	مُزَنٌ هَزِيمُ الْوَدُقِ فِي سَبَسِبِ
زَبْرَجَدْ جَلَّاهُ مُكْثُهُ	غِشَاءٌ دِيْبَاجٍ مِنَ الطُّحْلُبِ
إِنْ كَانَ فِيمَا قَدْ مَضَى مَوْزِدَاً	فَلِلْعَطَاشِ الْأَسَدِ وَالْأَذُوبِ
بَاكَرْتُهُ مَعَ كُلِّ ذِي هِمَّةٍ	لَا يَرْضِي الْأَفْلَاكَ عَنْ مَرْكَبِ
وَلَغَطَ الطَّيْرُ بِأَرْجَائِهِ	كَلْغَطِ الصَّبِيَّةِ فِي الْمَكْتَبِ
فَانْقَضَ مِنْ أَيْهَانِنَا كَوْكَبٌ	ذُو نَاطِرٍ أَنْوَرُ مِنْ كَوْكَبِ
مُكَحَّلِ الْأَمَاقِ ذُو مَنْسِرِ	يَسْتَرْزِقُ الرَّحْمَنُ مِنْ مَخْلَبِ
فَاسْتَشْعَرَ الطَّيْرُ هَرُوباً وَهَلْ	عَنْ نَازِلِ الْمَقْدُورِ مِنْ مَهْرَبِ
فَصَادَ مَا أَوْسَعَ صَخْبِي قَرَى	وَفَاضَ فِي الْأَبْعَدِ وَالْأَقْرَبِ
صَيْدٌ لِعَمْرِي لَمْ يَعْبهُ سِوَى	أَنْ لَمْ يَكُنْ ثَقْلاً عَلَى مَشْرَبِ

(١) الميس أو الميص: مصالة اللين.

(٢) البرك:: جمع بركة، طائر مائي صغير أبيض.

(٣) التوديج: الفصد.

ثم لم نزل نسري سُرَى النجوم في الدياجي، إذ تَلَقَّانا شاب كما ذُهِبَ عقيق خَدَّيه،
ونَمَّ شاربه بالتذكير عليه، متقلِّد حسامٍ كأنها طُبِعَ من لَحْظِهِ لا من لَفْظِهِ، على جواد ظمآن
الأسافل كَخَصَرِيه، رِيَّان الأعالي كردفيه، تستعيدُ عيون البررة من النظر إليه، وتزدحمُ
أطماع الفجرة حواليه:

ذو مقلّة شهلاء روميّة	وذو لسان عربيّ مُبِينُ
قلتُ وقد عيَّبَ بثليثه	مقالَ ذي رأيٍ وعقلِ رصين
طلعتْهُ الدنيا ويا قلما	يُجمَعُ للإنسان دنياً ودين

فلما بلغنا، قَبَّلَ عُرْفَ جواده، وعبراته تنسكب على نجاهه. قلنا: مالك لا أبالك؟
فقال: مُنِفِلْتُ من السجن، وأَبَقَ من أهل الحصن، وعائذُ من ظلمات الغواية، بنور
الهداية، ومن ذُلِّ عبادة الأوثان، إلى عزِّ عبادة الرَّحمن، ولي خبرٌ أريد أن أَقْصَهُ، ويمتَنُّ
الفقيه وفقه الله أن يسمع نصّه، فخرج إليه الإذن، وقيل له اذُنْ، ففَضَى فرض التحية
ونافلتها، ثم قال: أيها الفقيه، للأشياء غايات تنتهي إليها، ومقادير تجري عليها، أما
الخلّاق العليم، والفاطر الحكيم، الذي أسعد قومًا بالهداية، وأثابهم عليها، وأشقى
آخرين بالضلالة وعذبهم بها، لقد أَنَحَلْتَنِي عبادة الطواغيت فعبدتُ الصليب وقرعت
الناقوس، وفعلتُ كل ما قَرَّت به عينُ إبليس، قَدَرْتُ لم يكن ليُخطئني ولا يتخطّاني، إلى أن
استنقذني ربِّي وهداني، وأنا أشهدُ أيها الأشهاد أن الله إله واحدٌ، ليس له ولدٌ ولا والد،
كان ولم تكن الأكوان، لا أرضٌ ولا ماءٌ ولا دُخان، مخترَعُ الكل ومنشئُهُ، ومعيده
ومُبدئه، له المثلُّ الأعلى، والأسماء الحسنَى.

تحليل لمقامة

تدور هذه المقامة حول وصف رحلة قام بها ابن الشهيد وبعض إخوانه في رفقة الفقيه ابن الحديد، وهذه المقامة لم تصل إلينا كاملة، فقد اكتفى ابن بسّام، كما ذكر، ببعض فصولها، وحذف بعضها الآخر لطولها، وقد جاءت بعد الحذف في إحدى عشرة صفحة. تحدّث ابن الشهيد في صدر مقامته عن صنعة الكتابة الديوانية، وكيف أن ثَقْلَب الأيام جعل كثيراً من السّوقة الضعاف يتبؤون هذا المنصب، فزال عن الصنعة رونقها. وعرض في فقرة أخرى إلى ما تتطلبه صنعة الكتابة، فيشبه البليغ بالجوهرى والصائغ، ويصف ما يعانيه الكاتب البليغ من الجهد في إخراج عمل فني جيد، فيقول: «والبليغ كالجوهرى واجد التعب، في نظم الدر أو المَخْشَلَب، وكالصائغ واجد العناء، في سَبْكِ الصُّفَر أو الفضة البيضاء، وكالعقاب واجد الانهواء، على الصقر أو المَكَّاء، والعاقِل من بَرَزَ يومَ السرور في زي الأعياد، ويوم الحزن في ثياب الحداد، وسيان في الفجاجة والبرد، من جدَّ عند الهزل أو هَزَلَ عند الجد».

وخرج أبو حفص إلى غرضه الأصلي من المقامة، وهو وصف الرحلة فينبئنا أنها كانت في زمن الربيع الذي فيه «قام وزن الزمان واعتدل، وأخذ آذارُ على ما اعتاد، فحلّى الوهاد والنَّجاد، وخلع على ظهور المروج، ضروب الدبابيج، وأثقل صدورَ الأشجار، بحلّى النّوّار واطّوى نفوس الأطيّار، بنضارة الثمار، فبعثت أشجانها، ترّجع ألحانها، فما شئت من رمان تملأ كف العميد، من أمثال النّهود، تحت القلائد والعقود، وتفتق عن أمثال الجمر، إن وُصفت فكاللّثات الحُمَر، أو ارتشفت فكالرُّضاب الخصر أو الخمر».

وتبدأ الرحلة في وقت الفجر، وفي المرحلة الأولى منها طالعهم «منزل بدوي، ذي هيئة وزى، فهشّ وبشّ، وكنس منزله ورش، وصيّر عياله إلى ناحية، وجمع أطفاله في زاوية». ثم يصف المنزل على بساطة ما فيه، وصفاً يُشعر بأنه قَصْر، فيقول: «ثم مال بنا

إلى بيت مكس، منوع مجنس، قد جلّله حصراً بلدية، وغشاه بسطاً بدوية، ومدّ فيه شرائط وحبلاً، كأنّه يريد أن يخرج خيلاً، وعلّق منها غلائل وملاءات، وهمايين وسراويلات، وكم شئت من خرق معصفرة، وعصائب مزعفرة، حتى المقنعة والخمار، والدلال المستعار، وقد اتخذ في الحائط كُوةً وثانية، وملأها حقاقاً وآنية، وأودعها من عتاد العروس فاخره، ومن طيب البادية أوّله وآخره». ثم يذكر أن البدوي دعا صبيانه ليمسكوا بديك هرم، فيستغيث بهم الديك ويتشفع بهرمه، وأنه أصبح - لضعفه ونحوه - أشبه بالأدوية منه بالأغذية، فيرقّون له، ثم قام من مكانه، ودعا بصبيانه، وأغراهم بديك له هرم، ليذبحه في طاعة الكرم. فأجروه لأهمم الهاوية، من زاوية إلى زاوية، حتى سقط الديك سقوط طليح، جسماً بلا روح، فأقبلوا إليه متهافتين عليه، وهو يضطرب اضطراب المخنوق، ويستغيث بالخالق والمخلوق. فقال لهم الديك: أيها السادة الملوك، فيكم الشاب مُتّع بالشباب، ولأشيب نور شبيهه مع الكواعب والأتراب، وقد صَحبتكم مدة، وسَبَحْتُ الله تعالى على رؤوسكم مراراً عدّة، أوقظكم بالأسحار، وأؤذّن بالليل والنهار، وقد أحسنتُ لدجاجكم سفاداً، وربّيتُ لكم من الفرائيج أعداداً، فالآن حين يلي في خدمتكم تاجي، أنعى إلى دجاجي، وتُنحى الشفرة على أوداجي؟ وحين أدركني الشيخ، يُمزّق لحمي ويُطبخ؟ ياللكرام، من ذلّ هذا المقام! وجعلتُ دموعه تسفح من دمه، والحزن يُطبّق على فمه، ثم غشي عليه». وبعد هذا الحوار الطويل يقدّم البدوي لهم عذره، فيرحلون عنه وقت السحر.

وينزل أبو حفص مع صحبه قرية مسيحية، فيأخذ في وصفها بقوله: «فأصغيتُ فإذا بصوت ناقوس، في دير قسيس، وقرية آنة، كلها حانة، دار البطاريق، وملعب الكأس والإبريق، سائمتها الخنازير، وحياضها المعاصير، ومياها الأنبيذة والخمور، وشكلها مثلت مسطوح، هندسته حواريو المسيح، نباتها غصون من قدود، تهتز في

أوراق من برود، وتثمر رماناً من نهود، وتفاحاً من خدود، وعقارب من أصداغ،
وأفاعي من أسورة وعقود، وفيها مدام من رضاب، وسُقاةٌ من كواعب أتراب». فنزلوا
في القرية وشربوا من الدّنان ما أسكرهم، ثم شدّوا الجياد فمروا بكنيسة متهدمة، فيبكي
ابن الشهيد على أطلالها، وينشد أبياتاً من الشعر. ويفضي مع صحبه إلى مروج بها قطعان
من السائمة، ويصيدون كثيراً من طير البرك، وينقش على صخرة بيضاء مقطوعة شعرية،
يصوّر فيها البركة وماءها، وما صادوه من طيورها.

ويستأنفون السير ليلاً، فيلقاهم شاب فارس ممتطياً جواداً، ومتقلداً سيفاً، وهو من
أهل حصن النصرى، فأعلن إليهم أنه عبّد الصليب، وقرع الناقوس، إلى أن أسعده الله
بهداية الإسلام، ويشهد أن الله إله واحد، ليس له ولد ولا والد، « ثم لم نزل نسري سري
النجوم في الدياجي، إذ تلقانا شاب كما دُهب عقيق خديّ، وتَمَّ شاربه بالتذكير عليه،
متقلداً حسام كأنما طُبع من لحظه لا من لفظه، على جواد ظمآن الأسافل كخصريه، ريان
الأعالي كردفيّه، تستعيذ عيون البررة من النظر إليه، وتزدحم أطباع الفجرة حواليه».
وبذلك تنتهي المقامة.

فصول من مقامة^(١)

لأبي محمد بن مالك القرطبي في مدح المعتصم بن صُمّاح

يقول في فصل منها: إِنْ تَطَلَّعَ - لا زال طالِعاً نجمُ سعوده - إلى نَبَأٍ من أنباء عبيده،
فإِنِّي أَنبئُهُ، ولا أَنبئُ إلا حقاً، وأُخِيرُهُ، ولا أُخَبِّرُ إلا صِدْقاً، أما الأَفْنَدَةُ من بعده فمفؤودة،
وأما الأكباد لبُعْدِهِ فمكبودة، والدَّهْرُ من بعده ليلةٌ ليلاء، والنَّاسُ جِبَلَةٌ دهماء.

وفي فصل: بُشِّرْ لَنَا وَلِدَوْلَتِهِ الْغَرَاءَ، وَهَنِيئاً لَنَا وَلِحَضْرَتِهِ الزَّهْرَاءَ، فَتُحُّ تَفْتَحَتْ لَهُ
أَزَاهِيرُ النَّجَاحِ، وَبِشْرٌ تَبَاشَّرَتْ بِهِ تَبَاشِيرُ الْفَلَاحِ، وَرَوَاءُ أَشْرَقَ مِنْهُ جَبِينُ الصَّبَاحِ، وَخَبَرٌ
تَضَوَّعَتْ بِهِ نَوَائِجُ الرِّيحِ^(٢)، يَوْمٌ هَزَّ لَهُ الزَّمَانُ ثِنْيِي عِطْفِهِ، وَشَمَخَ عِزَّةً بَأَنَفِهِ، فَالآنَ حِينَ
انْصَدَعَ جَوْنُ الْهَزِيعِ، عَنْ جَوْنِ الصَّدِيعِ^(٣)، فَوَجَّهُ الزَّمَانُ ضَحِياناً مُشْرِقاً، وَعُودُ الدَّهْرِ
فَنِيانٌ مُورِقٌ، وَالْعَيْشُ غَضَّةٌ مَكَايِرُهُ، عَذْبَةٌ مُوَارِدُهُ وَمَصَادِرُهُ، طَابَ كَمَا لَذَّتْ لَشَارِبِهَا
الشَّمُولُ، وَتَضَوَّعَ كَمَا خَطَرَتْ عَلَى الرَّوْضِ الْقَبُولُ.

وفي فصل: فَلِلَّهِ يَوْمُنَا بِالْأَمْسِ، مَا أَجْلَبَهُ لِالْطَافِ الْأَنْسِ، حِينَ طَلَعَ عَلَيْنَا مَنْ كَانَ
طُلُوعُهُ أَلَدَّ إِلَى الْأَعْيُنِ مِنْ وَسْنِهَا، وَأَوْقَعَ فِي الْقُلُوبِ مِنْ سَكْنِهَا، طَلَعَ طُلُوعُ الصَّبَاحِ
الْمُتَهَلِّلِ، وَجَاءَ مَجِيءَ الْعَارِضِ الْمُسْبِلِ، دَلَفْنَا إِلَيْهِ كَالْقَطَا الْأَسْرَابِ، فَبَهَرْنَا الْأَمْرُ الْعُجَابِ،
وَكَادَتْ الْأَفْنَدَةُ مِمَّا وَجَفَتْ، وَالْأَلْبَابُ مِمَّا رَجَفَتْ، أَلَا يَرْجِعُ نَافِرُهَا، وَلَا يَقَعُ طَائِرُهَا.

(١) وردت هذه الفصول من المقامة في الذخيرة: ق ١ م ٢ ص ٧٤١-٧٥٢.

(٢) النوائج: الرياح الشديدة المروور والهبوب.

(٣) انصدع جون الهزيع عن جون الصديع: انشق سواد الليل عن بياض الصبح، والصديع: انصدع الصبح.

وفي فصل: لا تسمعُ إلا همهمةً وصهيلًا، وقعقةً وصليلاً، فخلتُ الأرضَ تميلُ ميلاً، والجبالُ تكونُ كثيباً مهيباً، لا تعلمُ لأصوات تلك الغمام، وَصَوَاضة تلك الهمام، مِنْ وَهْوَاهِ صَهِيل، وَدَرْدَابِ طُبُول، أَرْثِيرُ لِيُوْثِ بَاجَام، أم قعقة رعدٍ في ازدحام غمام؟ فتزاحم في الأفق الهميمُ والهديد^(١)، وتلاطمُ في الجوّ النّيمُ والوئيد^(٢)، فكادت الدنيا بنا تميد، لا تُبصرُ غيرَ ململمةٍ جأواء^(٣)، وموارةٍ شهباء، قد ضعفت التلال، ودكدكت القلال، إذا فرعت من ذات نيق، أو صوبت من فج عميق، أو تطالعت من أفقٍ سحيق، حسبته تَجِيْشُ على البلاد بحاراً، أو تَسْحُ على الوهاد مدراراً، قد نسجت فوقها من القتام، ظلاً كَثَرَاكُمُ الغمام، فكأنتها رفعت سماءً من عجاج، وأطلعت نُجوماً من رُجاج.

ومنها: حتى لاحَ لنا من مَلِكِ الأملاك، وثالث القمرين في الأفلاك، وجهٌ جلّ هبوة ذلك العثير، والعجاج الأكر، فحين جَلَّتْ غرّته الغراء جلابيب الغبار، لم ندرِ أبدُ الليل، أم شمس النهار. فله ما ضَمَّتْ أطنابُ ذلك السرادق، وما أظَلَّتْ أفياء تلك الخوافق، من مال المُسيفِ وعنبر المُستاف^(٤)، وليث العرين وبحرٍ الاغتراف، ومن نزال الهواجر، وبذال الجواهر، فلما جَلَّتْ غرّة وجهه المُتهلل، غيابةً ذلك القسطل، جعلتُ أتأمل ضراغم فوق قُبِّ صلام، فَمِنْ كُمْتِ تسبُح بَكْمَاة، ومن حمّ تَرْدِي بحماة، قد تحلّت بحلي لبّاتها وألجمها، تحلّى الغياهب بأنجمها، يرفلن في العبقريّ ويحملن جنة عبقر، ويسفرن عن مثل الصبح إذا أسفر، من الجياد اللواتي تضمن أقوات النسور القشاعم، وتقري سراحين الفلاة بالطلّ والجهاجم، أنجادُ كأنها أسنّتها، وجيادُ كأنها أعنّتها، فما ترى غير محارب يهزُّ حراباً، وأعاريب تُركِضُ عراباً.

(١) الهميم: الصوت الخفي. والهديد: الدوي.

(٢) النّيم: الصوت الضعيف الخفي. الوئيد: الصوت العالي الشديد.

(٣) الكتيبة الجأواء: التي يعلوها السواد لكثرة الدروع.

(٤) المسيف: الذي ذهب ماله. المستاف: الشام، يقال: ساف الطيب يسوفه، واستافه يستافه.

وفي فصل: كلُّ قد أخذ عتاد اليوم للباس الشديد، يُظاهرُ بالحديد على الحديد، تلبَّب بالسابرية وتدرَّع، وتعصَّب بالصقال وتقنَّع، حتى اليلامق والدروع سواء، وحتى المقلة النجلاء والحلقة الخوصاء، من كلِّ مسرود الدَّخارص، متألِّق دُلامص، كأنها جلَّلته بحبكتها السَّحاب، أو خَلَع بُرده عليه الحُباب، أو غُمس في ماءٍ فجمد عليه الحُباب، وكأنها باض على رؤوسهم نعام الدَّو، وبرقت في أكفهم بوارقُ الجَو، لكنها إذا هُزَّت فبوارق، وإذا صُبَّت فصواعق، من كلِّ ذي شُطْب كأنها أهل قرى نملٍ، علون منه قرا نصلٍ، فإذا أصاب فكلُّ شيء مقتل، وإذا حَزَّ فكلُّ عضوٍ مفصل، أمضى في الأشباح، من الأجلِ المتاح، عَضِبُ الحَدِّ صقيل، يكادُ إذا انتضى يسيل، ويكادُ مُبصره يغنى عن الورد، إذا اخترط من الغمد، ما لم يخله ريعانَ سرايٍ، في صحصحان يياب، لاشتباه فرنده بحباب في شراب، أو حُبابٍ في شراب، فلما رأيت جفنه قد انطوى على جهر الغضا، وماء الأضا^(١)، وانضمَّ على خضرة الجنح، وروثُ الصُّبح، قلت: سبحان مكور الليل على النَّهار، والجامع بين الماء والنار.

وفي فصل: ومن كلِّ مثقف الكعوب، أصم الأنبوب، كأنها سَلَب من الروم زُرقتها، واجتَلَب من العرب سمرتها، وأخذ من الذَّئب عَسَلانته، ومن قلب الجبان خَفَقانته، ومن رقراق السراب لمعانه، أو استعار من العاشق نحوله، ومن العليل ذبوله.

فكررتُ الطَّرف خلال تلك الجياد، فرأيتُ مُقربَات خيلٍ يتخايلن تحايلُ العذارى الرُّود، ويتهادين تهادي المهارى القود، فكأنها يتوجسن عن أطراف أقلام، ويتشاوسن عن مُقَلِّ آرام: فَمِنْ مُبَيِّضٍ شَطِرٍ كابيضاض المهرق، ومسود شَطِرٍ كاسوداد العوهق^(٢)، كأنها اختلس نصفهُ الفَلَق، واحتبس بنصفه الغسق، مُقابلُ الخلق بين الشمس والقمر،

(١) الأضا: جمع أضاة وهي البركة.

(٢) العوهق: الخطاف الأسود. وقيل: الصيغ شبه اللازورد.

وَمُقَسَّمُ السَّرْبَالِ بَيْنَ الْجُنْحِ وَالْفَجْرِ، إِذَا تَوَجَّسَ عَنْ رَقِيقَتَيْنِ، كَأَنَّمَا صَيَغَتَا مِنْ لُجْنِ،
حَسْبَتَهُ مِنْ شَهَامَةِ نَفْسٍ، وَلَطَافَةِ حَسٍّ، يُحَسُّ وَطْءَ الرِّزَايَا، وَيَعْلَمُ مَغْيِبَاتِ الْخَفَايَا، وَمَنْ
وَرَدِ كَأَنَّمَا جُلُّلَ بورد، أَوْ خُلِعَتْ عَلَيْهِ مِنَ الصَّبَاحِ الْمُسْفَرِ، حُلَّةٌ فَجَرَهُ الْمُعْصِفَرُ، أَوْ شُقَّتْ
عَنْهُ كِمَائِمُ شَقِيقٍ، أَوْ سُلَّتْ عَقِيقَتُهُ مِنْ أَدِيمٍ عَقِيقٍ، أَوْ كَسِي خُدُودَ الْغَانِيَا، فَرَمِي بَعْيُونِ
الرَّانِيَا فَأَخْجَلْنَهُ حَيَاءً، وَصَرَّجْنَهُ دِمَاءً، وَاسْتَعَارَ بُرْدَ الْأَفْقِ، فِي حُلَّةٍ أَصِيلٍ، أَوْ كَأَنَّمَا
كَسَفَتْ فِي أَدِيمِهِ الشَّمْسُ، أَوْ ذَرَّ عَلَى نُقْبَتِهِ الْوَرَسَ، حَتَّى لِيكَادَ الْجَادِيُّ، يَجْرِي مِنْ مَاءِ
عُطْفِيهِ، وَيُجْنِي الْخُودَانُ مِنْ رَوْضٍ مَتْنِيهِ، وَمَنْ ذِي كَمْتَةٍ قَدْ نَازَعَ الْخَمْرَ جُرْيَالَهَا، فَسَلَبَهَا
سَرْبَالَهَا، وَمَنْ مَحْجَلٍ هَمَلَا، كَأَنَّمَا سَوَّرَ بَوَاقٍ عَاجٍ، أَوْ شَكَّلَ بِشْكَالَيْنِ، صَيَغَالَهُ مِنْ
نَاصِعِ لُجْنِ، أَوْ مِنْ خَوَاقٍ بَرْقٍ وَشِيحٍ، تَسِيرُ بِهَا مَتُونُ عَنَاجِيحٍ، إِذَا أَهْوَتْ بِهَا سَرَاعَا،
خَلَّتْهَا سَفْنًا تَحْمِلُ شَرَاعَا، تَتْنِي مَتُونَهَا هَبَّاتُ الرِّيَّاحِ، كَمَا تَتْنِي أَعْطَافُ النِّشَاوَى نَشْوَةَ
الرَّاحِ، فَكَانَ أَعْطَافُهَا أَعْطَافَ سَكَارَى، وَكَأَنَّ قُدُودَهَا قُدُودُ عَذَارَى.

وفي فصل منها: وَعَلِمَ - لَا زَالَ مُؤَيَّدًا - أَنَّ الدَّاءَ يَبْرَأُ إِذَا حُسِمَ، وَالْخَطْبَ يَسْتَشْرِي
كَلَّمَا قَدَّمَ، وَأَتَمَّ إِنْ تُرَكُوا فِي الْيَوْمِ كِرَاعًا، صَارُوا فِي الْغَدِ ذِرَاعًا، فَرَمَاهُمْ بِبِدِيهَاتِ عِزِّ
كَالنَّجُومِ الْعَوَاتِمِ، وَمَاضِيَاتِ رَأْيٍ كَالسِّيُوفِ الصُّوَارِمِ، وَآرَاءَ تَصَدَّعَ صَفَا الْجِلْمُودِ،
وَعِزَمَاتِ تَنْقُبُ فِي الصَّخْرَةِ الصَّيْخُودِ^(١)، فَغَدَّتْ أَمَانِيهِمْ نَقْمًا وَكَانَتْ نِعْمًا، وَعَادَتْ
أَرَاغِيهِمْ هُمُومًا وَقَدْ كَانَتْ هَمًّا، فَفَرَعَ السَّنَّ مِنَ النَّدَمِ، «وَزَلَّةُ الرَّأْيِ تُنْسِي زَلَّةَ الْقَدَمِ»،
وَأَيُّقِنَنَّ أَنَّ مَنْ خَطَبَ بَنَاتِ النَّصْرِ بِالسَّعْدِ زُوجٍ، وَمَنْ أَلْقَحَ الرَّأْيَ بِالْعِزِّ أُنْتَجَ.

ومنها: وَلَمَّا عَلِمَ أَنَّهُ إِمَّا شَرَقٌ أَوْ غَرَقٌ، وَعَايَنَ الْمَوْتَ مُحْمَرَّةً أَظَافِرَهُ، مُوفِيَةً مَوَارِدَهُ
وَمُصَادِرُهُ، وَوَصَلَتْ لَهُ دَوْلُولُ ابْنَةِ الرَّقْمِ^(٢)، فِي أَعْلَى تِلْكَ الْقِمَمِ، فَحِينَئِذٍ انْجَلَتْ عِمَائَتُهُ

(١) الصخر الصيخود: الصخر القاسي، الذي لا تعمل فيه المعاول.

(٢) الدؤلول: الداهية، والرقم كذلك.

وغياطله، واستخذى لحقّ مولاه باطله، وكان حرياً أن تقيم حلائله، وأوهم أنه لو ظلت بين منازل النجوم نوازله، لرأى أنها عقالاته لا معاقله^(١)، فرمى بيده صاغراً إلى السلم ثقةً بعفو كظلّ المزنّة الممدود، وكرم كشط اللّجة المورود. فلولا حلم كالجبال رصين، وجود كالسحاب هتون، لبادوا خلال تلك الديار كما بادت جديس في وبار، ولنّغلت تلك المنازل نغلّ الجلد، ومحتّ كما محتّ وشائع من بُرد^(٢). وما دلائهم في غدرهم الذي غدروا، وغرّهم في خترهم لذي ختروا، إلا العلم بأن سوف يعفو حين يقتدر، فقد اعتصموا بحبل معتصم بخالقه، وتوكلوا على رزق متوكلٍ على رازقه، واستوثقوا من عقد من لا عقاله بأنشوطه، ولا ميثاقه بأغلوطه.

وفي فصل: فيا أيها المغترون بخُلُقهِ الفضفاض، وكرمه الفيّاض، لا يُجهلنكم تحلّمه، ولا يغرّنكم تكرّمه فالبحر قد تردي غواربه وليس بطام، والعارض قد تُصيب صواعقه وليس برُكام، والنصل قد يبري وهو غير مؤلّل^(٣)، وأين نار ليس لها شرار، وأين خمر ليس لها حُمار؟ فهو جذبٌ وريعٌ مُعرق، وليلٌ ونهارٌ مُشرق، فيه الصابُ والعسل، وفيه السهل والجبل، له خاطرٌ على خواطر الحوادث مُرسل، وطرفٌ بأطراف البلاد مُوكل. فأتى بعناد من تميم الأرض إذا وجم، ويرقُ نسيم الهواء إذا ابتسم؟ فلم يجتمع للملك -حاشاه- خضابُ الصوارم، واجتنابُ المحارم، قَسَمَ العدلُ بين البدو والحضر، كقسمة الغيث بين النبت والشجر، فلا غرو أن يفوق جميع الأنام وهو من الأنام، فإن

(١) نثر هنا أحياناً لأبي تمام.

(٢) الوشائع: خيوط الثوب. محتّ: أخلقت وبلّيت.

(٣) مؤلّل: محدّد.

المسك بعض دم الغزال^(١)، وإنَّ معدِنَ الذَّهَبِ الرَّغَام^(٢). فهو الأبلج المتدفق، والأزهر المتألق، من جوهرة المجد وهو مأوها، ومن مُهجة العلياء وهو سويداؤها، ولا يقتدي في سؤدد بغريب، بل يجري على سننٍ منه وأسلوب، كالغيثِ شؤبوباً بشؤبوب، والرُّمَحِ أنبوباً على أنبوب^(٣).

وفي فصل: فله أيُّ مراد أردُّته، وأي موردٍ ورَدُّته، لم أكن ممن غرَّه السراب، حين أعوزَّه الشراب، ولا كنتُ كمن زجر الطير بالنجم والدبران، ولا ممن سقط العشاء به على سرحان، ولا كمن قال مرعى ولا كالسَّعدان، كلاً، إنَّ مملوكك ألقى أرواقه، حيثُ مدَّ المجدُ رواقه، بحيثُ يُعْتَصِرُ الندى من عوده، ويُرتشفُ صِرْفُ الجودِ من ناجوده، فانتقيتُ الجارَ قبل المنزل، وبوّأتُ رَحلي في المحلِّ المُبْقِل، ورتعتُ في أثرِ الغمامِ المُسْبِل^(٤).

وفي فصل: ولولا ذلك لكان لي في الأرض العريضة مسارح، وفي أبناء الكرام منادح، غيرَ آني عن أكثر المراتع عَزوف، ولأكثر المشارع عيوف، وآني لكالسيف لا يحمد كلَّ من حمّله، وكالرُّمَح لا يُسرُّ بكلِّ من اعتقله، وما كل عَجيبٍ في عيني بعجيب، ولا كلُّ غريبٍ في نفسي بغريب. أنساني الله رشدي يومَ أنساه، وأبدلني يومَ أستبدل سواه، ما وصل أو قطع،

(١) من قول المتنبي:

فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال

(٢) من قول المتنبي:

وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام

(٣) ينثر قول البحرري:

لا يحتذي خلق القصي ولا يرى متشبهاً في سؤدد بغريب

شرفٌ تتابع كابرأ عن كابر كالرمح أنبوباً على أنبوب

(٤) نثر قول أبي تمام:

بوّأتُ رحلي في المراد المُبْقِل فرتعتُ في أثر الغمام المُسْبِل

من مبلغ أبناء يعرب كلّها آني ابتنيْتُ الجار قبل المنزل

ورفض أو اصطنع، وما ضرَّ أو نفع، ولئن أعقب يوماً من الدهر بحرمانٍ -وحاشاه- فلقد سبق بمعروف، وإن ساءني منه يوماً فعلةٌ -وخلاه- فإن اللواتي قد سررن ألوف. ولقد ألفي وذه صدرى خلاء من غيره فاستوطن، وصادف قلبي فارغاً فتمكَّن^(١).

وفي فصل: ما رأيتُ وجهاً أسمح، ولا حلماً أرجح، ولا سجية أسجح، ولا بشراً أبدى، ولا كفاً أندى، ولا غرةً أجمل، ولا فضيلةً أكمل، ولا خلقاً أصفى، ولا وعداً أوفى، ولا ثوباً أظهر، ولا سمناً أوقر، ولا أصلاً أطيّب، ولا رأياً أصوب، ولا فظاً أعذب، ولا عرضاً أنقى، ولا ثناءً أبقى، مما خصَّ الله به ثالث القمرين، وسراج الخافقين، وعماد الثقلين، المعتصم بالله ذي الرياستين، دامت راياته منصوره، وآياته منظوره، ومقاصير ملّكه بالسعد معموره، ما هبت صباً وجنوب، وما أقام يذبل وعسب. وإنّي وإن أطنبت فأطيت، وأسهبْتُ فأعذبت، لخجلُ أن يكون مثلي يثيرُ غباراً على جبينه، وينظمُ سواراً عن يمينه. فإنّ فكري بعدُ كالسيف الخشب، والقدح المخشوب^(٢)، فهذا لم تُذلق طُباته، وذاك لم يُخلّق حقواه، فإنّه أوّل استعمال القريحة، ورياضة السجiche، وأوّل الضرام سقط ثم يلتهب وأول الغيث طلّ ثمّ ينسكب.

وفي فصل: فإنّي غادرتُ بعدي لحماً على وضم، وجرحى بين عقبان ورّخم، ستعلمُ أيّ خبر أنمنم وأحبر، وأي دُر أنظم وأنثر، فإنّي وإن كنتُ الأخير زمانه، والسكيت أوانه، لدلالة على الدلائل، ومخيلة على المخايل، أني آتي بما لم تستطعه الأوائل^(٣)، فأفصّد. كتفصيل الجواهر في العقد، وأقدرُ تقدير داودَ في السرد.

(١) ينثر أبياتاً من الشعر.

(٢) السيف الخشب: الحديد الصنعة أو الذي برد ولم يصفل. المخشوب: الذي بُري البري الأول.

(٣) من قول المعري:

وإنّي وإن كنتُ الأخير زمانه لآتي بما لم تستطعه الأوائل.

وفي فصل: ويا لهفي ألا تكون معونتي له إلا باللسان، دون السنان، أطاعنُ أمامه دراكاً، وأزاحمُ قُدَّامه الأقران لكاكاً^(١)! ولولا أفرُخُ كزُغِبِ القطا، يدبّون في نائِلِه عندي ديب الكرى، فيستشفّون علالي، ويستنزفون بلالتي، لامتطيتُ من جدواه السّابح اليعسوب^(٢)، وتقلدْتُ من نذاه الصّارمَ الرّسوب^(٣)، واعتقلتُ من عطائه الصّعدة السّمرء، وادّرعْتُ من حباه الفضفاضة الجدلاء^(٤)، فيبصر هنالك، مملوكه ابن مالك^(٥)، يلاعب الأسنة كعامر بن مالك^(٦)، فينظرُ أحسن منظر، ويبلو أفضل مخبر، ربّ القصائد والقنا المتقصد، فطوراً طعنأ بالنبيل، وضرباً بالمنصل، وطوراً ارتجالاً بالخطبة الفيصل، كخطبة قيس بن سنان^(٧)، في حمالة عبسٍ وذبيان، حُطبةٌ تباري الريح في هبوبها، من لدُن طلوع الشمس إلى غروبها، حضاً على السلم والمحاجة، ونهياً عن الحرب والمناجزة، فلو شهد هنالك لشهد أمراً معجباً، وأبصر خطيباً مُسهباً فيرى شقشقةً وقرماً مصعباً، يجنحهم إلى السلم لما وثباً ثباً.

(١) اللكالك: الزحام.

(٢) اليعسوب: الفرس الطويل الكثير الجري.

(٣) الرسوب: السيف الماضي الذي يغيب في الضريبة.

(٤) الجدلاء: الدرع المحكمة النسج.

(٥) ابن مالك: صاحب المقامه محمد بن مالك القرطبي.

(٦) عامر بن مالك شيخ بني عامر، وكان يلقب ملاعب الأسنة، لمهارته في التصرف بالرمح.

(٧) المشهور هرم بن سنان الذي قام بالحمالات بين عبس وذبيان.

تحليل المقامة

هذه أجزاء من مقامة طويلة، ولكن صاحب «الذخيرة» - كما قال - اقتضبها لطولها، واختار فصولاً منها.^(١) والفصول المختارة كلها مدح وثناء على أحد ملوك الطوائف وهو المعتصم بن ضُهادح (ت ٤٨٨ هـ) عقب عودته منتصراً على أعدائه.

استهل ابن مالك مقامته بالدعاء للملك، ووصف البشرى التي عمت سائر المملكة بهذا الانتصار، فقال: «بُشرى لنا ولدولته الغراء، وهنيئاً لنا ولحضرتة الزَّهراء، فتحٌ تفتحت له أزاخير النجاح، وبشرٌ تباشرت به تباشير الفلاح...»

وينتقل ابن مالك إلى وصف معركة من معارك ممدوحه، وهو يصف لنا جوَّ المعركة وصفاً تفصيلياً، يدلُّ فيه على مقدرته اللغوية، فيقول: «لا تسمع إلا همهمة وصهيل، وقعقة وصليل، فخلتُ الأرض تميلُ ميلاً، والجبال تكون كثيراً مهيلاً، لا تعلم لأصوات تلك الغماغم، وضوضاة تلك الهماهم، من وهواه صهيل، ودرداب طبول، أزيز ليوث بآجام، أم قعقة رعدٍ في ازدحام غمام؟».

وينتقل إلى وصف ممدوحه بقوله: «حتى لاح لنا ملك الأملاك، وثالث القمرين في الأفلاك، وجهٌ جلِّي هبوة ذلك العثير، والعجاج الأكدر، فحين جلت غرته الغراء جلابيب الغبار، لم ندرِ أبدُر الليل أم شمس النهار».

ويواصل وصفه للجيش وعتاده من سيوف ورماح وخيول، فيقول: «كلُّ قد أخذ عتادَ اليوم للباس الشديد، يُظاهِرُ بالحديد على الحديد، تلبَّب بالسابريَّة وتدرَّع، وتعصَّب بالصقال وتقنع، حتى اليلامق والدروع سواء، وحتى المقلة النجلاء والحلقة الحوصاء، من كل مسرود الدخارص، متألِّق دلامص، كأنها جللتها بحبكتها السحاب، أو خلع برده

(١) الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٧٤١.

عليه الحُباب، وكأنها باض على رؤوسهم نعام الدّو، وبرقت في أكفهم بوارق الجو، لكنها إذا هُزّت فبوارق، وإذا صُبّت فصواعق...»..

ويستفرد في مديحه لابن صمادح، ويقف مؤنباً للذين ينالون من فضل جوده، فيخاطبهم ناعياً عليهم هذا السلوك المعيب، فيقول: «أيها المغترون بخُلُقهِ الفضفاض، وكرمه الفياض، لا يجهلنكم تحلّمه، ولا يغرنكم تكرمه، فالبحر قد تردي غواربه وليس بطام، والعارض قد تصيب صواعقه وليس بركام...».

ويعود إلى وصف ممدوحه بقوله: «ما رأيتُ وجهاً أسمح، ولا حلماً أرجح، ولا سجية أسجح، ولا بشراً أبدي، ولا كفاً أئدي، ولا غرةً أجمل، ولا فضيلة أكمل، ولا خلقاً أصفى، ولا وعداً أوفى، ولا ثوباً أظهر، ولا سمتاً أوقر، ولا أصلاً أطيّب، ولا رأياً أصوب، ولا لفظاً أعذب، ولا عرضاً أنقى، ولا ثناءً أبقى، مما خصّ الله به ثالث القمرين، وسراج الخافقين، وعماد الثقلين، المعتصم بالله ذي الرياستين، دامت رايته منصوره، وآياته منظوره».

ويختتم ابن مالك مقامته، على الصورة التي رواها ابن بسام، بفصل يعرض فيه حاجته، ويشكو فاقته، معذراً عن عدم اشتراكه في الحرب لمسؤوليات الحياة التي تلاحقه، ويتحدث عن عوزه وحرمانه وزوجته وأولاده فيقول: «ولولا أفرخُ كزُغبِ القطا، يدبّون في نائله عندي ديب الكرى، فيستشفون علّالتي، ويستنزفون بلالتي، لامتطيّت من جدواه السابح العيوب، وتقلدّت من نداه الصّارم الرّسوب».

فصول من مقامات

لأبي الوليد محمد بن عبد العزيز بن المعلم

قال في أولها: سقى عَهْدَكَ أيتها الدمنةُ الزهراءُ كلَّ عهد، وجاد قُطْرَكَ أيتها
الرَّوضة الغنَّاءُ كلَّ قَطْر، وسال عليك من أدمعي كلُّ مُلْتِ هَطَّال، وتناوحتُ عليك من
أَضْلَعِي كلَّ جنوب وشمال، منشِرةً أنوارك، لا مُعَفِّيةً آثارك، ومهديةً أَرْجَكَ ونسيمك،
لا مُغَيِّرةً أطلالك ورسومك، فكم لنا في واديك من بُلْهَنِيَّةِ زمانٍ أُنِيق، وفي مغانيك من
رفاهية عيشٍ رقيق، نُعَلُّ بِكَاسِي عَنَابٍ وإِعتاب، ونرتعُ في جنبتي صَباً وتصابٍ، عُذُّونا
من عشيق إلى صديق، ورواحنا من صَبوح إلى غَبوق، وخليلنا مساعد، وعدُّونا مباعِد،
ورقيينا أعمى، وزماننا أعشى، حتى إذا استيقظ الدهرُ من هجعتِه، وهبَّ من غطيظ
رقدته وسكرته، ضرب فوقنا بِجِرَّانه، وصرف إلينا لَهْدَمَ سَنانه، ولبس لنا جِلْدَةَ النَّمِر،
وَقَلَبَ لنا ظهر المِجَنِّ، وألقى علينا بَعَاعَهُ، وطمس دوننا شِعَاعَهُ، مسترداً ما وهب
وأعطى، ومكدرًا ما منح وأصفى:

أبدأ تستردُّ ما تهبُّ الدنـ يا فيا ليت جودها كان بخلا^(١)

فما لبث أن صدعَ مَرَوَتَنَا، وفصمَ عُروَتَنَا، وحلَّ عَقْدَنَا، ونثرَ عِقْدَنَا.

وفي فصل منها: وكان لي أليف، وعقيد شريف، من صرحاء الإخوان وصُيَّابة
الفتيان، ومُصاصي أعيان الزمان، وحين سَوَّلَتْ لي همتي ما سَوَّلَتْ، وخيَّلَتْ لي أمنيَّتي ما
خيَّلَتْ، أَجَلْنَا قِداح الرأي، وأسهمنا بين القرب والنأي، شاور في أمري قريحته، ونخل
لي نصيحته، وقال: أرى أن لا تريم يَبْضُتَكَ وأرومَتَكَ، وأن توطن أرضك ولا تفارق

(١) البيت للمتنبي.

عشيرتك، وأزبأ بك عن مُضَلَّاتِ المنى، وأُعِيدَكَ من تُرَّهَاتِ لَعْلٍ وعسى، فتحسب كلَّ
بيضاء شحمة، وتظنُّ كلَّ سوداء تمرة^(١)، وربما سقط العشاء بك على سِرْحان^(٢)، وكلُّ
الناس بكر، وفي كل وادٍ بنو سعد: ^(٣)

والرفقُ يُمنُّ والأناةُ سعادةٌ فاستأن في رفيقٍ تلاقٍ نجاحاً^(٤)

وإن أبيتَ إلا التحولَ، فعليك من الرؤساء، بأحلمَ الحلما، ومن القرباء بأشرف
الشرفاء، ولا تغرَّنك المناصب، دونَ المناسب، ولا المقولُ دونَ المعقول، ولا الدراهم
دون المكارم، وازهد في أكثر كلِّ عين، واذكر قول ابن الحسين:

وما رغبتني في عَسَجَدٍ أَسْتَفِيدُهُ ولكنَّها في مَفَخَرٍ أَسْتَجِدُّهُ

فلما سمعتُ ووعيتُ، ارتكنتُ وتولَّيتُ، ثم أبيتُ قبولا، ليقضي الله أمراً كان
مفعولاً، وناقضتُ نُصَحَهُ بقول حبيب:

وإنَّ صرِيحَ العزمِ والرأيِ لامرئٍ إذا بلغته الشمسُ أن يتحوَّلَا

ومغترأ بقول الثاني:

تلقى بكلِّ بلادٍ أنتَ نازلها أهلاً بأهلٍ وجيراناً بجيرانٍ

وفي فصل منها: وصرَّح لي الدهرُ عن أهله، ووجدت الناسَ اخبرُ تَقْلَهُ^(٥)، من أميرٍ
لا أسميَّه، ووزيرٍ أَقْحَمَتِ الواوُ فيه، وكاتب أمي، وقاضٍ جَبْلِي^(٦)، وأمة مبورة، في قرية
مصورة، وإذا اختلفوا أنشدوا:

(١) من أمثال العرب، انظر مجمع الأمثال للميداني.

(٢) انظر المثل وقصته في مجمع الأمثال.

(٣) انظر مجمع الأمثال للميداني.

(٤) بيت الشعر للنابغة الذبياني.

(٥) هذا من الحديث، والهاء في "تقله" هاء السكت، ولفظ الحديث لفظ الأمر ومعناه الخبر، أي من خبرهم أبغضهم

(٦) نسبة إلى جبل، وقاضيه يضرب به المثل في الجهل (نثار القلوب: ص ٢٣٦).

ومن تكن الحضارة أعجبتُه فأني رجالٍ بادية ترانا^(١)

فبينا أقرع السنن، وأعض الكفين، وأخضب بلا حناء، وأنشد في الأمراء:

وإذا نظرتُ إلى أميري زادي كلفاً به نظري إلى الأمراء^(٢)

إذ قرع البشيرُ بابي، وطَرَقَ المستأذنُ حجابي، قائلاً: رسولُ مولاك، وكتابهُ وافيك،

فقمْتُ أتساقطُ من الجدَل، وأعثرُ في دعاثرِ العجل، مقبلاً فاه، وصائحاً: زاه.

وفي فصل منها: وأفضنا في وصف معاليه، واستنشدني فأنشدته ما قلته فيه، فقال:

بزاعة الفصحاء، وبراعة الشعراء، دعني من زُخرفِ شعرك، وصِفْهُ لي بمنصفِ نثرك،

فللمنظوم رونق، وأنت فيه طَوَلَق، فقلت: على الخير سقطت، وأنا الكفيل بما سألت

وشرطت، وأسمعته سجعاً لا نظماً، ونثراً لا شعراً، فقلت: هو الإمام الطاهر، والكوكب

الزاهر، والأسدُ الخادر، والبحرُ الزاخر، أُوهِبُ الملوكة للذخائر، وأعفاهم عن الجرائر،

وأرفعهم قدراً، وأوسعهم صدرًا، وأطيبهم ذكراً، أعطر من العنبر، في كل منبر، وأفوح

من المسك الذكي، في كل ندي، الحليمُ فما يغضب، والجوادُ وما يرغب، والشجاعُ وما

يرهب، والقوي وما يعنف، واللين وما يضعف، والرفيق إذا ساس، والمصيب إذا قاس،

ينبوع كل جدل، ودافع كل وجل، وحسبك بي عنده من جليسٍ رئيس، أكلّم منه

سحبان، وأخذ عن لقمان، وأستزل كيوان:

له كبرياء المشتري وسعودُه وسطوة بهرام وظرفُ عطارد^(٣)

(١) البيت للقطامي.

(٢) البيت لعدي بن الرقاع العاملي.

(٣) البيت لأبي تمام.

وقمر إلا أنه بشر، وجبل إلا أنه رجل، بحرٌ علمٍ، وطوؤُ حلمٍ، وعالم في عالم،
الأصمعيّ عنه ناقل، والجاحظ عنده باقل، إذا ركب ضاق عنه الأفق، وإذا تبدّى وسع
الدهر ندى، وإن نطق بيّن وصدق، وإن كتب أبدع وأغرب، نداه سحائب، وكتبه
كتائب، مشرفياته من لسانه وبيانه، وخطياته من أقلامه وبنانه، تمشق فيها جياذ فهمه،
ويمري درر أشوالها من آدابه وعلمه، ويسحب لها من فكره مضماراً، ويثير من مداده
قسطلاً وغباراً، ويرتب به الحروف، ترتيب الصفوف، ويمشق بها في المهارق، مشقه في
الطلى والمفارق، هذا إلى روحانية ملك، في تجلّة ملك، فاستطير فرحاً، وازدهى مرحاً،
وخفّ فقام إلى، ورفّ يقبل بين عيني، وكأنه إنما نُشِرَ من قبر، أو صحا من سُكر، وقال:
أصبت والله القرطاس، وبنيت على أساس، وفُرت بالقدح المعلى، وتحلّيت من الجلى،
والحديث ذو شجون: متى الحركة؟ وفيم التلوّم والمقام؟ وكنت شاكياً فقلت: رويد
الإبلال، وبعيد الإقلال، قال: فسِر في كنف السلامة إلى وطن الكرامة.

تحليل مقامة ابن المعلم

هذه المقامة لأبي الوليد بن المعلم، وقد وردت في كتاب «الذخيرة» في الفصل الذي خصّصه ابن بسام للحديث عن نثره وشعره^(١)، ووردت تحت عنوان «فصول له من مقامة»^(٢). فابن بسام لم يورد المقامة كاملة، بل اختار فصولاً منها، دون أن يعلل سبب اختياره.

وابن المعلم، كما ذكر ابن بسام، كان أحد وزراء المعتضد بن عباد^(٣)، ولذا فقد رجح د. إحسان عباس أن هذه المقامة قيلت في المعتضد، أمير إشبيلية^(٤).

افتتح ابن المعلم مقامته بالحنين إلى ماضي نعيم فيه برفاهية العيش، فقال: «سقى عهدك أيتها الدمنة الزهراء كل عهد، وجاء قطرك أيتها الروضة الغناء كل قطر، وسال عليك من أدمعي كل مُلث هطال، وتناوحت عليك من أضلعي كل جنوب وشمال، منشرة أنوارك، لا معفية آثارك...».

وانتقل في فصل منها إلى استشارة أحد أصحابه في السفر والارتحال، فأشار عليه ألا يترك داره، ولا يهجر موطنه، فإن كان ولا بد فليختر من الرؤساء أحسنهم، ولكنه ركب رأسه، ولم يستمع لنصح صديقه، يقول: «وكان لي أليف، وعقيد شريف، من صرحاء الأخوان، وصيابة الفتیان، ومُصاص أعيان الزمان، وحين سولت لي همتي ما سولت، وخيلت لي أميتي ما خيلت، أجلنا قداح الرأي، وأسهمنا بين القرب والنأي، شاور في أمري قريحته، ونخل لي نصيحته، وقال: أرى أن لا تريم بيضتك وأرومتك، وأن تُوطن أرضك ولا تفارق عشيرتك، وأربأ بك عن مُضلات المنى، وأعيذك من

(١) الذخيرة: ق ٢م ١ ص ١١٢-١١٧.

(٢) المصدر نفسه: ص ١١٣.

(٣) الذخيرة: ق ٢م ١ ص ١١٢، وانظر ص ٢٣ من دراستنا هذه.

(٤) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين): ص ٣١٤.

تُرّهات لعلّ وعسى، فتحسب كل بيضاء شحمة، وتظنّ كلّ سوداء تمرة... وإن أُيِّتَ
إلا التحوّل، فعليك من الرؤساء، بأحلم الحلما، ومن القرباء بأشرف الشرفاء، ولا
تغرّنك المناصب، دون المناسب، ولا المقول دون المعقول، ولا الدراهم دون المكارم...».
ولم يظفر من اغترابه وتنقله بغير الشقاء والندم، فصدمته الأيام، وخيّبت أمله، بعد
أن رأى فساد الحكّام والمحكومين، يقول: «وصرّح لي الدهر عن أهله، ووجدت الناس
أخبرُ تنقله، من أمير لا أسميه، ووزير أقحمت الواو فيه...».

وبينما هو على هذه الحال من الندم، بعد أن دار به الدهر من نعيم إلى شظف شديد،
رسول مولاه، فسارع إليه، فاستنشد ذلك الرسول في مدح مولاه، فأنشده مدحه فيه،
ثم طلب إليه أن يسمعه المشور بعد المنظوم، فأسمعه سجعا هو بين النثر والشعر، وكان
مما قال فيه: «هو الإمام الطاهر، والكوكب الزاهر، والأسد الخادر، والبحر الزاخر،
أوهبُ الملوك للذخائر، وأعفاهم عن الجرائر، وأرفعهم قدراً، وأوسعهم صدرأً وأطيبهم
ذكرأً، أعطر من العنبر، في كل منبر، وأفوح من المسك الذكيّ، في كلّ نديّ، الحلیم فما
يغضب، والجواد وما يرغب، والشجاع وما يرهب، والقوي وما يعنف، واللين وما
يضعف...».

ومضى في مثل هذا الثناء حتى استطير الأمير فرحاً، وازدهى مرحاً، وقام إليه فقبّل
بين عينيه. وبذلك تنتهي المقامة.

وهذا الجزء من المقامة إنما هو قطعة مدحية، مهّد لها صاحبها كما يمهد الشاعر
بأساليب مختلفة للوصول إلى غرضه المدحي في القصيدة. وكأن الجزء الأصيل من المقامة
إنما يتبدئ من قدوم رسول ذلك المولى حاملاً إليه كتاب مولاه، وطالباً إليه أن يمدحه
شعراً ونثراً.

مَقَامَةٌ صَنَعَهَا الْفَتْحُ بْنُ خَاقَانَ عَلَى الْأَسْتَاذِ أَبِي مُحَمَّدٍ الْبَطْلِيِّوسِي^(١)

قال عليُّ بْنُ هِشَامٍ:

قَدِمْتُ الْأَنْدَلَسَ مِنْ أَرْضِ الشَّامِ، أَجُوبُ الْبِقَاعَ، وَأُفْرِي الْأَصْقَاعَ، وَأَصَاحِبُ
أَهْلَ الْأَدَبِ وَالسُّنَنِ، وَأَجَانِبُ أَهْلَ الْأَهْوَاءِ وَالظُّنَنِ، حِرْصاً عَلَى الثَّلَاثِ الَّتِي تَزِينُ
الْغَرِيبَ، وَتَنْفِي التَّأْنِيبَ وَالتَّثْرِيبَ، وَقَدْماً كُنْتُ يَشُوقُنِي الْأُدْبَاءُ، وَأَقُولُ: هُمْ فِي
الْأَوْطَانِ غُرَبَاءُ، فَلِي فِي الْبِلَادِ مِنْ هَوَاهُمْ نَصِيبٌ، وَالْغَرِيبُ لِلْغَرِيبِ نَسِيبٌ^(٢)، وَقَبْلَ مَا
وُصِفْتُ لِي بِلَنْسِيَّةٍ بِبِهَاءٍ وَوَسَامٍ، وَقِيلَ لِي: هِيَ فِي ثَغْرِ الْجَزِيرَةِ ابْتِسَامٌ، فَأَنْخْتُ بِهَا الْجَمَلَ،
وَقَدْ وَافَتْ الشَّمْسُ الْحَمَلَ^(٣)، وَصَدَحَ الْقُمْرِيُّ^(٤) وَهَدَلَ، وَقَامَ وَزْنَ النَّهَارِ فَاعْتَدَلَ،
فَرَأَيْتُ أَرْضاً عَلِيلَةَ الْأَرْوَاحِ، ظَلِيلَةَ الْأَدْوَاكِ، صَقِيلَةَ الْجَوَانِبِ، مُثْرَعَةً الْمَذَانِبِ^(٥)، يَفَاوُحُ

(١) انظر نصّ المقامة في رسائل أندلسية: ص ٩٣ - ١٠٠. والبطليوسي هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي، وصف في كتاب المغرب (١/ ٣٨٥) بأنه «أحد من تفخر بهم جزيرة الأندلس من علماء العربية وهو من شلب، ولازم مدينة بطليوس فعرف بالبطليوسي» وترجم له ابن بشكوال في الصلة ص ٢٨٧ وقال: «كان عالماً باللغات والآداب يجتمع الناس إليه يقرؤون عليه». ومن مؤلفاته: كتاب الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، وشرح كتاب الجمل. وتوفي سنة ٥٢١هـ.

(٢) ينظر إلى قول امرئ القيس:

وَكُلُّ غَرِيبٍ لِلْغَرِيبِ نَسِيبٌ

أَجَارَتَنَا إِنَّا غَرِيبَانِ هَاهُنَا

(٣) الحمل: برج من بزوج السماء، هو أول البروج.

(٤) القُمري: طائر يشبه الحمام، وقيل: هو ضرب منه.

(٥) المذانب (جمع مذنّب): وهو مسيل الماء في الأرض.

بها المسك الدَّمَن، ويُجَاوِبُ بها الظنر^(١) الرَّمَن، تُسْلِي عَنْ أَهْلِ وَأَوْطَانٍ، وَتَجْتَذِبُ الْقُلُوبَ لها بِأَشْطَان^(٢)، تُذْهِلُ بِتَمَائِلِهَا ذَوَاتَ الْأَطْوَاقِ عَنْ هَدِيلِهَا، لَوْ رَأَى حَسَّانُ^(٣) قَطَرَهَا الْمُتَأَلَّقَ لما ذَكَرَ الْبَرِيقَ وَلَا جُلَّتْ^(٤)، أَوْ مَرَّ غِيلَانُ^(٥) بِمِيَاهِهَا الزُّرْقَ لما أَلَمَ بِحَزْوَاءٍ وَلَا الرَّوْقَ^(٦)، فَقُلْتُ أُخِيمُ بها الْعَامَ وَأَرْبِعَ، وَأَقْفُو أَثَرَ هَوَايَ وَأُتْبِعَ، فَسَأَلْتُ حِينَئِذٍ عَنْ حَمَلَةِ الْأَدَبِ، وَنَقَلَةِ كَلَامِ الْعَرَبِ، فَقِيلَ لِي: هُنَا الشَّيْخُ السَّرِيُّ أَبُو مُحَمَّدٍ الْبَطْلِيُّوسِي، غُلَّةُ الْعِلَلِ، وَشِفَاءُ الظَّمَانِ الْعَلَلِ، مَطَافُ الطَّلَبَةِ، وَإِمَامُ الْحَالَةِ الْخَلْبَةِ، فَاتَّبَعْتُ أَشْوَاقِي إِلَيْهِ، وَالْغَرِيبُ مُعْطًى عَلَيْهِ، فَخَرَجْتُ فِي قَصْرِ النَّهَارِ، مُتَنَزِّهًا عَلَى تِلْكَ الْأَنْهَارِ، فَإِذَا فَتًى لَهُ لَأْلَاءٌ وَرِوَاءٌ، عِمَامَتُهُ بَيْنَ الرِّجَالِ لَوَاءٌ، فَرَعُهُ أَفْرَعُ^(٧)، وَجِيدُهُ أَتْلَعُ^(٨)، وَأَنْفُهُ مَمْطُولٌ، وَخَلْقُهُ مَجْدُولٌ^(٩)، مَقْرُونٌ بَاخِرَ وَاضِحِ بَسَامٍ، تُقْرُنُكَ صَفْحَتُهُ أَقْسَامَ الْكَلَامِ، تُعْلِنُ سِرَّ الْحُسْنِ أَسِرَّتَهُ، وَتَطْلُعُ بَدْرَ التَّمِّ أَرِزَّتَهُ، وَقَدْ نَزَلَا بِفَنَاءِ صَرْحٍ، وَاسْتَظَلَّأَ بِأَفْيَاءِ سَرْحٍ، فَازْدَوَجَا اِزْدَوَاجَ الْفَرَقْدِينَ، وَحَكِيَا الظَّبْيَيْنِ، وَتَوَسَّدَا الْأَبْرَدِينَ، فَتَوَسَّمْتُ مِنْهَا النَّبْلَ، وَيَمَّمْتُ نَحْوَهُمَا الْمَسَالِكَ وَالسُّبُلَ ثُمَّ قَعَدْتُ مَعَهُمَا أَتَنَاشَدُ الْأَشْعَارَ، وَنَشَحَذُ بِالْمَذَاكِرَةِ الْأَفْكَارَ،

(١) الظنر: العاطفة على غير ولدها، المرضعة له من النوق وغيرها.

(٢) الأشطان: (جمع شطن) وهو الجبل الشديد القتل، يُسْتَقَى بِهِ.

(٣) هو حسان بن ثابت الأنصاري، شاعر الرسول (ﷺ)، توفي سنة ٥٤ هـ، ويتردد في شعره ذكر البريق وجلت.

(٤) جلّت (بكسر تين مشددة اللام): اسم لكورة الغوطة أو هي دمشق نفسها. والبريق: موضع.

(٥) غيلان: هو غيلان بن عقبة من بني عدي، لقب بذي الرمة وكان يسلك مذهب شعراء البدو في قصائدهم. وقيل إنه

توفي سنة ١١٧ هـ

(٦) موضعان ذكرهما ذو الرمة في شعره.

(٧) الفرع: الشعر التام، وأفراع: كثير الشعر طويله.

(٨) الأتلع: الطويل العنق.

(٩) الجدل: شدة القتل وإحكامه، ويقال: مجدل الخلق: أي حسن التكوين.

حَتَّى إِذَا وَرَسَ الْأَصِيلُ^(١)، وَحَانَ مِنْ يَوْمِنَا الرَّحِيلُ، سَأَلْتُهُمَا عَنِ الشَّيْخِ الْجَلِيلِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا - وَهُوَ أَفْعَلُ مِنْ فَعِيلٍ - قَبِحَ شَيْخٌ دَيْنُهُ خَبْءُ الْعَصَا، وَأَوْرَثَنِي إِيَّائَهُ دَاءُ الْحَصَى^(٢)، لَبَسَ الْأَيَّرَ فَمَا رَشَدَ، وَعَبَّ فِي خَمْرَةِ الْغَيِّ فَعَرَبَدَ. يَأْتِي الْمَنَاكِرَ فِي كُلِّ نَادٍ، وَيَسِيمُ مِنَ الْعَمَةِ^(٣) فِي كُلِّ وَادٍ لَا يُرْجَى لَهُ ارْعَوَاءُ^(٤)، وَلَا يَأْسُو جَرْحَهُ دَوَاءً، تَسْوُدُ أَعْمَالُهُ، كُلَّمَا اسْوَدَّ سِبَالُهُ^(٥)، وَيَشْتَدُّ قَرْمُهُ^(٦) كُلَّمَا زَادَ هَرَمُهُ، يَرُومُ الزَّاجِرُ قَمْعَهُ فَتَمْتَلِكُ الشَّهْوَةُ نَاضِرَهُ وَسَمْعَهُ، وَيَجِدُ فِي صَرْمِهِ وَقْلِيهِ، مَا يَجُولُ بَيْنَ فِكْرِهِ وَوَلْبِهِ، قَدْ جَعَلَ الدَّفَاتِرَ شَرَكَا، وَقَالَ: أَنَا الْبَحْرُ لَا أَعْدَمُ حَرَكََا، رَاكِبُهُ رَاكِبُ الْبَحْرِ وَالْمَحِيطِ، وَجَالِبُ صَحْرَاءِ الْغَبِيطِ^(٧)، يَعْجَزُ إِقْلِيدُسُ^(٨) عَنْ مِسَاحَتِهِ، وَيَضِلُّ الثَّقْلَانِ^(٩) فِي سَاحَتِهِ، وَلَا يَشْفِي جَذْبُهُ الْجُذُوعُ^(١٠)، وَلَا يَفَارِقُهُ الظَّمَا وَالْجُوعُ، فَقُلْتُ: سَيَدِي مَهْلًا! وَكِدْتُ أَقُولُ: مَهْلًا مَهْلًا!! حَاشَى لِمِثْلِكَ حَاشَى، وَمَا حَسِبْتُكَ فَحَاشَا^(١١)، فَقَالَ: يَا هَذَا إِنَّكَ لَحَدِيثُ الْعَهْدِ، دُونَكَ صَبِيَانُ الْمَهْدِ،

(١) وَرَسَ الْأَصِيلُ: اصفر لونه كناية عن الغروب.

(٢) الْحَصَى: داء يقع بالمثانة، وهو أن يَخْرُ البولُ فيَشْتَدُّ حتى يصير كالخِصَاءِ.

(٣) الْعَمَةُ: التَّخِيرُ والتردد في الضلالة، وَالْعَمَةُ في البصيرة كالعمى في البصر.

(٤) الْارْعَوَاءُ: الرجوع والكف.

(٥) السِّبَالَةُ: الشارب، والجمع السِّبَال، وقيل هو ما على الذفن إلى طرف اللحية.

(٦) الْقَرْمُ (بالتحريك): شدة الشهوة.

(٧) الْغَبِيطُ: اسم واد، ومنه صحراء الغبيط (اللسان: غبط).

(٨) إِقْلِيدُسُ: عالم رياضيات يوناني نشأ في الإسكندرية، وقد اشتهر في الهندسة والمساحة خاصة، وكتابه (الأصول) أساس

دراسة الهندسة.

(٩) الثَّقْلَانِ: الجن والإنس.

(١٠) الْجُذُوعُ (جمع: جذع) وهو جذر النخلة وأصلها، وقيل: ساقها.

(١١) فَحَاشَى: كثير الفحش.

سَيَسْرُونَ الْخَفَاءَ، وَيُعْطُونَ الشَّفَاءَ، وَيَصْدَعُونَ الشَّكَّ بَاقِينَ، وَيَأْتُونَكَ بِسُلْطَانٍ مَبِينٍ^(١).
ثم أقبل كالمُحِيلِ، على صَاحِبِهِ ابن خَلِيلٍ فَأَرْعَيْتُ سَمْعِي فَحَوَاهُ، رَجَاءَ تَكْذِيبِ دَعْوَاهُ،
فَقَالَ: اسْتَفْتَشْتُ الْعَالِمَ مِنْ وَرَاءِ الزَّنَادِ، وَاسْتَفْتَيْتَ حَافِظَ الْمَتْنِ وَالْإِسْنَادِ، لِأَقُومَنَّ بِشَرْحِ
الْحَدِيثِ وَنَصِّهِ، وَلَا تَيْنِكَ بِالْأَمْرِ مِنْ فَصِّهِ^(٢)، الشَّيْخُ عَلَّمَنِي الْكِتَابَةَ، وَأَمْصَعَنِي الْكُتَابَةَ^(٣)،
وَوَصَلَ مَعِي مِنْ حُسْنِ التَّرْبِيَةِ وَالْإِحْتِضَانِ، أَنْ مَسَحَ إِخْلِيلِي بِلسَنِ الضَّانِ، ثُمَّ آوَانِي
بِالضَّرْبِ وَالضَّرِيبِ^(٤)، وَرَوَّانِي حَسْنَ الشَّعْرِ وَالْغَرِيبِ، وَأَرَانِي طُرُقَ الظَّرْفِ فَسَلَكْتُهَا،
وَزَفَّ إِلَيَّ أَبْكَارَ مَعَانِيهِ فَمَلَكْتُهَا، حَتَّى إِذَا تَمَّ جَهْلُ النَّطَافِ^(٥)، وَقَالَ الْوَصْلُ: حَيَّ عَلَى
الْقُطَافِ، وَعَدْتُ لَهُ كَالصَّقْرِ عَنْ لَهُ الْخَرْبِ^(٦)، أَوْ الْفُحَالِ نَفَى عَنْ مَتْنِهِ الْكَرْبِ، قَالَ لِي:
قَدْ بَلَغْتَ أَشَدَّكَ، فَامْخُضْ لِي حُبَّكَ وَوَدَّكَ، وَأَدْرَكَتْ اسْتَوَاكَ^(٧)، فَأَلَّفَ عَلَيَّ مُوَافَقَتِي
هَوَاكَ، الْآنَ تَعْمُ مُؤَاوَزَكَ، حِينَ أَحْضَرْتَ مَا زَرَكَ، وَعَذَّبْتَ مَشَارِبَكَ، إِذْ لَاحَ عَارِضُكَ،
وَطَرَّ شَارِبُكَ^(٨) لِيَقْطِفْنَا غُصْنُكَ جَنَاهُ، فَقَدْ كُنَّا نَظِيرِينَ أَنَا^(٩)، وَلَيْشَفِ مَاؤُكَ مَا فِي الْفُؤَادِ،
فَلَقَدْ شَفَّنَا طَوْلَ الْجَوَادِ^(١٠)، وَجَعَلَ يُكْثِرُ عَلَيَّ، وَيَصَوِّرُ لَدَيَّ، أَنَّ الْمَجْدَ لَا يُجْتَنَى مِنْ كِبَامِهِ،

(١) من قوله تعالى ﴿وَأَنْ لَا تَقْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ (الدخان: ١٩).

(٢) فَصُّ الْأَمْرِ: أَصْلُهُ وَحَقِيقَتُهُ، يُقَالُ: (أَنَا آتَيْتُكَ بِالْأَمْرِ مِنْ فَصِّهِ) أَيِ مِنْ مَخْرَجِهِ الَّذِي قَدْ خَرَجَ مِنْهُ.

(٣) الْمَصْعُ: الْحَرَكَةُ وَالضَّرْبُ، وَالْمَعْنَى مَجَازِي.

(٤) الضَّرْبُ: الْعَسَلُ الْأَبْيَضُ، وَالضَّرِيبُ: الشَّهْدُ (اللسان: ضرب).

(٥) النطاف (جمع: نطفة وهو المني).

(٦) الْخَرْبُ: الْحَبَارَى (الطيور البرية).

(٧) اسْتَوَاكَ: اسْتَوَاءُكَ، وَقَدْ خَفَفْتَ الْهَمْزَةَ لِمُرَاعَاةِ السَّجْعِ.

(٨) طَرَّ شَارِبُكَ: طَلَعَ وَنَبَتَ.

(٩) الْأَنَاءُ: التَّوَدُّةُ وَالتَّمَهُّلُ.

(١٠) الْجَوَادُ (بالضم): جَهْدُ الْعَطَشِ. (اللسان: جَوَد).

حَتَّى يَسْمَحَ الْمَرْءُ مِنْ وَرَائِهِ وَأَمَامِهِ، وَأَنَّ السُّودَدَ مِنْ عَهْدِ جَدِيس^(١)، لَا يَنَالُهُ إِلَّا مَنْ دَاسَ^(٢) وَدِيسَ، زَخَارِيفُ مُحَنَّثِ يُنَالِ، لَا يَحْطُرُ مِثْلُهُ فِي بَالِ، وَأَسَاطِيرُ شَيْخِ خَرِب^(٣)، طَبِينِ^(٤) بِالْإِسْتِشْرَاءِ ذَرِبِ^(٥). فَلَمَّا أَكْثَرَ الْخِلَابَةَ^(٦) وَالْحَتْلَ، وَأَطَالَ فِي الذَّرْوَةِ وَالْغَارِبِ الْفَتْلَ، وَرَآنِي فِي مَنَاطِ النَّجْمِ، وَالْفَنَائِي صُلْبًا عَلَى الْعَجْمِ^(٧) سَعَى فِي تَسْكِينِ النَّفَارِ^(٨)، بِيَذِلِ النَّضَارِ^(٩) وَالْأَسْفَارِ، وَحَاوَلَ إِصْلَاحَ ذَاتِ الْبَيْنِ، وَإِدْغَامَ الْأَلْفِ فِي الْعَيْنِ، بِإِهْدَاءِ الدَّفَاتِرِ وَاللُّجَيْنِ^(١٠)، ثُمَّ طَفِقَ أَثْنَاءَ ذَلِكَ يَلِينُ الْبُرْسَ^(١١)، وَيَتَزَيَّنُ تَزَيَّنَ الْعِرْسِ، وَيُلْحُ بِالطَّرْسِ بَعْدَ الطَّرْسِ، بِمَا شَتَّ مِنْ كُتُبِ لِطَافٍ، وَمُبَالِغَةِ اسْتِرْحَامٍ وَاسْتِعْطَافٍ، تَأْنَفُ مِنْهَا الْمُؤَمَّسَةُ الْعَاهِرُ، وَيُسَاوِي الْبَاطِنُ فِيهَا الظَّاهِرَ، أَدْنَى أَلْفَاضِلِهَا تَمْوِيلَ، وَأَيْسَرُ مَعَانِيهَا تَسْوِيلَ، وَقَضَائِحُ لَيْسَ فِيهَا تَأْوِيلَ.

فَلَمْ يَزَلْ يَلْطَفُ وَيَكِيدُ، وَيُبْدِي فِي الْمُرَوَّادَةِ وَيُعِيدُ، حَتَّى أَسْعَفَتْهُ مِرَارًا، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِمَّا أَقُولُ، وَأَسْأَلُ الْعَفْوَ عَمَّا اجْتَرَمْتُ وَاقْتَرَفْتُ، وَأُوصِي أَهْلَ الْغَرَارَةِ^(١٢) مِنْ بَعْدِي، وَأَعْلَمُ أَنَّ قَرِينَ السَّوْءِ يُعْدِي.

(١) جدیس، وأختها طسم: من قبائل العرب البائدة، كان موطنها باليماة، ولها خبر مشهور في تاريخ الجاهلية.

(٢) يقال: خرب الشيء: إذا ثقبه أو شقه.

(٣) رجل طبن: فطن، حاذق.

(٤) ذَرِب: مُجَرَّب.

(٥) الْخِلَابَةُ: المخادعة، وقيل: الخديعة باللسان.

(٦) العجم: من: عجم الشيء: إذا عَضَّه ليعلم صلابته من صَعْفِهِ.

(٧) النفار: التفرق والمجانبة.

(٨) النضار: الذهب.

(٩) اللُّجَيْن: الفضة.

(١٠) البرس: القطن، والمراد هنا: الفراش.

(١١) أهل الغرارة: أهل المعصية الذين يُخدعون بالباطل ويغرهم الشيطان.

ولمَّا سُقي ثراه، واستمرَّ مامَرَاه، كَلَّفَنِي فَوْقَ الطَّاقَةِ، وَسَامَنِي سُرْعَةَ الْإِنْعَاظِ^(١)
والإِراقَةِ، وذمَّ الكَسْلَ شِيَمَهُ، وأحبَّ العَمَلَ دِيَمَهُ، ثُمَّ جَعَلَ يَدُبُّ الضَّرَاءَ^(٢)، ويحبُّ العَوْدَ
فِيهَا فَأَاءَ، فارتجع الديوان بعد الدِّيوان، ونعوذُ بالله من كَيْدِ النَّسْوان، فعندَ ذلك كَفَرْتُ
بزيْدٍ وضارِبِهِ^(٣)، وطرحْتُ حَبْلَ الموفِّ على غارِبِهِ، وعدلتُ عن العَسْبِ والضَّرَابِ^(٤)،
ورددتُ الصَّارِمَ والقِرَابَ^(٥)، ورأيتُ اللَّحْنَ أَسْلَمَ مِنَ الإعرابِ، فاهتَزَّ لذلك الوصل
النَّيْلُ، صاحِبُهُ ابْنُ الطَّوِيلِ، وَرَأَى أَنَّهُ قد سَلِمَ مِنْ وَضْمَةِ الْقَذْفِ، وأجرى مِنْ كلامِهِ
على التَّخْفِيفِ والحذفِ، ثُمَّ أَقبلَ يوسُفُ بْنُ خَلِيلٍ، على صاحِبِهِ ابْنِ الطَّوِيلِ، فقال:
سألتُكَ بِحقِّ الجِوارِ، أَلَا ذَكَرْتَ حَدِيثَ يَوْمِ الدَّارِ، فالحديثُ ذو شُجون^(٦)، والكَلَامُ ذو
إِفْكِ وعَفْون، فقال: أُخْبِرْكَ بِغريبٍ، وأجْلُو عَنْكَ كُلَّ شَكٍّ مُريبٍ، فقدني الشَّيْخُ الفاجِرُ
في شَهْرِ ناجر^(٧)، وقد لَفَحَتِ الهَواجِرُ، وسَجَرَ الرَّمْضاءُ ساجِر^(٨)، وقد خَلَا المَكَانُ، وانفرد
بالأهلِ البُسْتانِ، فَطَفَقَ يَخْضَعُ وَيَضْرَعُ، وَكَانَهُ مِنْ شِدَّةِ الشَّبَقِ يُضْرَعُ، فَقُلْتُ لَهُ: تَبًّا
وأوسَعْتُهُ سَبًّا، فقال: وأدْهَشَهُ الدَّاءُ العَيَاءُ: أَخَالَكَ يَضْعُكَ الحَيَاءُ، سَأَتْرُكُكَ إِلَى المَسَاءِ،
وَأَتَزَيُّ لَكَ بِزَيِّ النِّسَاءِ، وَأَحْضِرْ لَكَ الحُمَيَّا، وأَسْتَرِ عَنْكَ المَحْيَا، وَأَعِزِّ لَكَ الأَرْدافَ،

(١) الإنعاز: الشَّبَقُ واشتهاء الجِلاء، وإنعاز الرجل: انتشار ذكره.

(٢) يقال للرجل إذا ختل صاحبه ومكر به هو يدبُّ الضراء.

(٣) إشارة إلى قول النحاة: ضرب زيداً عمرو.

(٤) العَسْبُ: طرق الفحل أي ضربه، وقد يستعار للنَّاسِ.

والضَّرَابُ: النِّكاح. يقال: ضرب الفحل الناقة يضربها ضراباً: نكحها.

(٥) القِرَابُ: مقاربة الشيء والقِرَابُ أيضاً: إذا قارب أن يمتلئ الدلو.

(٦) هذا مثل مشهور (الميداني ١: ٢٠٦) وذو شجون: طرق، الواحد: شجن (بسكون الجيم)، والشواجن: أودية كثيرة،

ويضرب هذا المثل في الحديث يتذكر به غيره.

(٧) كل شهر في صميم الحر يقال له: شهر ناجر، لأن الإبل تنجر فيه، أي يشتد عطشها حتى تبيس جلودها.

(اللسان: نجر).

(٨) السَّجَرُ: إيقادك في التنور تسجره بالوقود، والرَّمْضاءُ: شدة الحر والرَّمْضُ: حر الحجارة من شدة حر الشمس.

وأوطىء لك الأكناف، وأنشدك من الشعر الرقيق، وأحكي لك من أخبار العقيق، ما يستميل نفوس الوعاظ، ويبعث النفس على الإنعاظ^(١)، ويندب إلى الآثام، ويقيم العرد^(٢) أي قيام، فعند ذلك عمرت التين بالجزر، ورمت الحجر بالحجر، وظن شراً، ولا تسأل عن الخبر^(٣)، ثم ندمت على غشيانه، وخشيت الله في عصيانه، وأكثرت لعن الشيخ الضليل، واستشعرت حجارة من سجيل^(٤)، ورفضت القراءة إلى الآن، وذمت باب «إن» و«كان».

قال علي بن هشام:

فلما ولج ما ولج، وانبلج من أمر الشيخ ما انبلج، بالغت في الطعن، وأمعت في السباب واللعن، واستخرت الله في الظعن، ويممت حضرة ابن معن^(٥)، ثم قلت إن أَرْضاً يُقَطَّمُ^(٦) شيوخها وأدباؤها، لجديرة أن لا يُشرب مأؤها، وأن لا يُلَمَحَ أرضها ولا سمائها، ثم أنشدت بلنسية وقد وليت، وأقسمت ألا أعاودها وآليت:

مما أضرب أهل العشق أنهم هؤوا وما عرفوا الدنيا ولا فطنوا^(٧)
تفنى عيونهم دمعاً وأنفسهم في إثر كل قبيح وجهه حسن

(١) الإنعاظ: الشيق.

(٢) العرد: ذكر الرجل، وقيل: هو الذكر الصلب الشديد، وجمعه: أعراد.

(٣) يقتبس من قول الشاعر مع عكس المعنى «فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر».

(٤) من قوله تعالى ﴿وَأَرْسَلْ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ، تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِيلٍ﴾ (الفيل: ٤) وحجارة من سجيل: حجارة من طين طبخت بنار جهنم. (اللسان: سجل).

(٥) هو أبو يحيى محمد بن معن به صيادح ملك المرية عي عصر الملوك الطوائف، وقد خلف أباه معن بن صيادح.

(٦) القطم (بالتحريك) شهوة اللحم والضراب والنكاح، ويقطم: يحتاج ويريد الضراب.

(٧) البيتان لأبي الطيب المتنبي.

تحليل مقامة

هذه مقامة صنعها الفتح بن خاقان على شيخه أبي محمد البطليوسي، وبطلها يسمّى (علي بن هشام) قدم من أرض الشام إلى الأندلس، للتعرف على الأدب والأدباء، ومصاحبهم، فيقول: «قدمتُ الأندلس من أرض الشام، أجوب البقاع، وأفري الأصقاع، وأصاحب أهل الأدب والسّنن، وأجانب أهل الأهواء والظّنن...».

ويصل بطل المقامة (ابن هشام) إلى مدينة بلنسية من بلاد الأندلس، فيعدّد أوصافها الجميلة، فيقول: «وقبل ما وُصِفْتُ لي بلنسية ببهاء ووسام، وقيل لي هي في ثغر الجزيرة ابتسام، فأنخت بها الجمل، وقد وافت الشمس الحمل... فرأيت أرضاً عليلة الأرواح، ظليلة الأدواح...» ثم يسأل عن الأدباء فيها، فيقال له: «هنا الشيخ السري أبو محمد البطليوسي، غُلَّةُ العَلَل، وشفاء الظمآن العَلَل، مطاف الطلبة، وإمام الخالة الخلبة...». ويذهب للقاء البطليوسي، فإذا به يلتقي في طريقه بفتى «له لألاء ورواء، عِمَامته بين الرجال لواء، فَرَعُهُ أفرع، وجيده أتلع...»، ومع الفتى صديق له، فقعد معها ابن هشام يتناشدون الأشعار، ويشحذون بالذاكرة الأفكار، ثم سألهما عن الشيخ الجليل، فأخذ أحدهما بزمه، فهو «يأتي المناكر في كل ناد، ويهيم من العمه في كل واد، لا يرجى له ارعواء، ولا يأسو جرحه دواء...». ويتبارى الفتیان في إصااق تهم الفسوق والفجور بالبطليوسي. وحَدَّثه كل واحد منهما بمنكرة من فعلاته الشائنة في أسلوب فاضح مكشوف، وهنا يثور ابن هشام ويستخير الله في الطعن قائلاً: «فلما ولج ما ولج، وانبلج من أمر الشيخ ما انبلج، بالغتُ في الطعن، وأمعنتُ في السباب واللّعن، واستخرتُ الله في الطعن، ويممّتُ حضرة ابن معن...». (يعني المعتصم بن صمّاح).

وقد تشكك د. إحسان عباس في نسبة هذه المقامة إلى الفتح بن خاقان ؛ «لأن الفتح ألف كتاباً مستقلاً في ترجمة ابن السيد، أثنى عليه فيه كثيراً، ولا نعلم أن الخلاف دبّ بينهما قبل ذلك أو بعده»^(١).

ورجح آخرون^(٢) صحة نسبة هذه المقامة إلى الفتح بن خاقان، الذي عُرف بشدة تبذله وبطبيعته المتقلبة «وإساءة الأدب على أهل الأدب، وتحليه من الخلاعة بما تعزف عنه نفس كل رصين، وإسفافه من الدنيا إلى ما يرضاه أهل المروءة والدين»^(٣). فليس من المستبعد أن ينقلب الفتح على شيخه لسبب أو دونها سبب، تمشياً مع مزاجه المتقلب، وينشئ فيه هذه المقامة، لا سيما وأن البطلوسي نفسه عرف بتبذله، ووجه للغلمان^(٤).

وإذا صحّت نسبة هذه المقامة إلى الفتح، فإن صنيعه في هذه المقامة يمثل عقوقاً لشيخه من جهة، كما أنه يناقض نفسه من جهة أخرى، فقد ترجم للبطلوسي في كتابه «قلائد العقيان» ونعته «بأنه شيخ المعارف وإمامها ومن في يديه زمامها»^(٥)، وألف فيه كتاباً خاصاً، أثنى عليه فيه ثناءً عطرأً.^(٦)

(١) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين): ص ٣١٥.

(٢) د. فوزي سعد عيسى: رسائل أندلسية (مقدمة المحقق)، ص: ٣٩.

محمد الشوابكة: مطمح الأنفس (مقدمة المحقق): ص ٨٣.

د. مصطفى السيوفي: ملامح التجديد في النثر الأندلسي، ص ٢٩٥.

(٣) خريدة القصر (قسم شعراء المغرب والأندلس): ٢/ ص ٦١٠، وانظر مطمح الأنفس: ص ٤٠ (مقدمة المحقق).

(٤) المغرب: ١/ ص ٢٤٣، وبغية الوعاة: ٢/ ص ٥٥، وإنباه الرواة على أنباه النحاة: ٢/ ص ١٤٣.

(٥) قلائد العقيان: ص ١٩٣.

(٦) أزهار الرياض: ٣/ ص ١٠٣.

ونحن نرجح نسبة هذه المقامة إلى الفتح بن خاقان ؛ لأن صاحب مخطوطة «رسائل أندلسية» نصّ في تصديره للمقامة على أنها من صنع الفتح، وليس في عبارته ما يحتمل الشك، إذ قال: «مقامة صنعها الفتح بن خاقان على الأستاذ أبي محمد البطلوسي»^(١).

وقد اختلط أمر هذه المقامة لدى الباحثين، فخلطوا بينها وبين «المقامة القرطبية»، فالدكتور إحسان عباس، عندما علّق على هذه المقامة قال: «تسمّى أيضاً المقامة القرطبية»^(٢)، والصحيح أن المقامة القرطبية مقامة أخرى غير هذه تماماً. يضاف إلى ذلك أنّ مقامة الفتح هذه ليس فيها أية إشارة إلى قرطبة أو علمائها.

(١) رسائل أندلسية: ص ٩٣.

(٢) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمراطين): ص ٣١٤.

المقامات اللزومية للسرّ قسطي

وهي خمسون مقامة عارض بها السرّ قسطي مقامات الحريري، وتأثر في طبيعة سجعها بطريقة أبي العلاء المعري إذ بناها على لزوم ما لا يلزم، فعرفت بالمقامات اللزومية.^(١)

ومقامات السرّ قسطي مبنية على السجع مثل مقامات الحريري، غير أنه اقتدى --كما قدّمنا-- بأبي العلاء، فالتزم في نسجه ما لا يلزم من تعدد قوافي السّجع أو نهاياته مشروطاً على نفسه أن تكون على حرفين أو أكثر، بدلاً من حرف واحد كما هو مألوف، وربما التزم ثلاثة أحرف كالذي نجده في المقامة السادسة عشرة. وسمّى المقامة الثامنة عشرة «المدبّجة»، لأنه جعل الكلمات في كل سجعيتين تتقابل في نهايتها وتتعاذل، كقوله في أولها: «قال: كنتُ في رِيّان الحداثة والشباب، وريعان الدّماء والحباب، قد خلعتُ الرّسن والعذار، وقطعتُ اللّسن والاعتذار.....»^(٢). والتزم في الثانية والثلاثين أن يختم سجعاتها بحرف الهمزة، وفي الثالثة والثلاثين أن يختم السّجعات بحرف الباء. ولكن سجعه في غير ذلك «تشيع فيه العذوبة والسهولة والقدرة على التّفنّ في الوعظ والوصف ونسج الكلام»^(٣).

والشخصيتان الرئيسيتان في المقامات هما: السائب بن تمام، والشيخ أبو حبيب، وهو رجل سدوسي محتال أصله من عُمان، وأحياناً يذكر في بعض المقامات شخص ثالث اسمه «المنذر بن حمام» ولادخل له في أحداث المقامة، وإنما هو راوية يتلقى حديث المقامة

(١) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) : ص ٣١٧.

(٢) المقامات اللزومية : ص ٢٣.

(٣) عصر الدول والإمارات (الأندلس) : ص ٥٢٤.

عن السائب بن تمام الذي يكتنّى بأبي الغمر، وقد يشترك في قصة المقامة أحياناً فتیان هما ابنا الشيخ أبي حبيب: غريب وحبيب.

وإذا استثنينا المقامتين الثلاثين والخمسين، وهما في الشعر والشعراء وفي النظم والنثر، وجدنا أن العقدة في أكثر المقامات الأخرى تقوم على تنكّر الشيخ المحتال، وعلى مهارته في الوعظ والتذكير بالآخرة والموت، ثم انكشاف حال الشيخ للسائب بن تمام. وكثيراً ما يفترّ هذا الشيخ بعد أن يفوز بما يريد، لكنه في كل مرة يترك رقعة، فيها شعر يشرح فيها حاله وحيله.

تلك هي شخصيّة المكذّي التي استغلّها الحريري وبديع الزمان، لم يغيّر السّرقسطي في طبيعتها شيئاً، وإنما غيّر في الحيل والأساليب، وجعل المقامة معرضاً للبراعة الأسلوبية كما فعل الحريري والبديع من قبل.

وقد جاء السّرقسطي بمقاماته مرقّمة من واحد إلى خمسين^(١)، إلا أنه اتخذ لبعضها عناوين تدل على موضوعاتها (البحرية ٧، الفارسية ١٢، الخمرية ١٩، والنجومية ٢٦، مقامة القاضي ٢٧، الحمقاء ٢٨، مقامة الشعراء ٣٠، مقامة الدب ٤١، الفرسية ٤٢، الحماقية ٤٣، العنقاوية ٤٤، الأسدية ٤٥، البربرية ٤٦، في النظم والنثر ٥٠) واتخذ لبعضها الآخر عناوين تدل طريقة السجع التي سار عليها المثلثة ١٦، المرصعة ١٧، المدبّجة ١٨، الهمزية ٣٢، البائية ٣٣، الجيمية ٣٤، الذليّة ٣٥، النونية ٣٦، على نسق الحروف ٣٧، على نسق الحروف أيضاً ٣٨، على نسق حروف أبجد ٣٩، على حروف أبجد أيضاً ٤٠) واكتفى في الأربع والعشرين مقامة الباقية بمجرد ذكر أرقامها الترتيبية في المجموع (المقامة الأولى، المقامة الثانية، والمقامة الثالثة، ...).

(١) انظر المقامات اللزومية (مقدمة المحقق): ص ٣٧.

وليس من شأن هذه الدراسة أن تحلل مقامات السّر قسطنطيني الخمسين وتخصّصها بالدراسة الموضوعية والفنية، فذلك قد يحتاج إلى أكثر من بحث متخصص، ولكننا سنتناول موضوعات تلك المقامات وسأتها الفنية بالقدر الذي يفيدنا في حديثنا عن المضامين والخصائص الفنية للمقامات الأندلسية، في الفصل الثالث من هذه الدراسة. وهذه مقامةٌ من مقامات أبي الطاهر، نقدمها تامّةً ليظهر للقارئ أسلوبه وثقافته الواسعة.

المقامة الثانية^(١)

حَدَّثَ الْمُنْذِرُ بْنُ مُحَامٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا السَّائِبُ بْنُ تَمَامٍ، قَالَ: لَمَّا فَارَقْتُ جُرْجَانَ، أُرِيدُ أَرْجَانَ^(٢) بَرَّحَ بِي الشَّقُوقُ، فَسِرْتُ أَسْتَصْحِبُ الرَّفَاقَ، وَأَجُوبُ الْآفَاقَ، حَتَّى فَارَقْتُ الْمَأْهُولَ، وَرَكِبْتُ الْمَجْهُولَ، وَإِذَا أَنَا بِلَمَّةٍ رِجَالٍ^(٣)، عَلَى نَجَائِبٍ^(٤) عِجَالٍ، يَحْبُونُ^(٥) فِي أَرْضِ نَطِيَّةٍ^(٦)، وَيَنْطَوُونَ عَلَى عِزْمَةٍ وَطِيَّةٍ^(٧)، فَعَطَفُوا عَلَيَّ الزَّمَامَ، وَبَذَلُوا التَّحِيَّةَ وَالذَّمَامَ^(٨)، ثُمَّ قَالُوا: «مَنِ الرَّجُلُ الْوَحِيدُ؟ وَإِلَى أَيْنَ عَنِ الْمُهَيِّجِ^(٩) تَحِيدُ؟» فَقُلْتُ: «مَنْ قَذَفْتُهُ الْمَسَارِبُ،

(١) المقامات اللزومية: ص ١٦ - ٢٨، وأفدنا في شرح معاني المفردات من كتاب {في الأدب الأندلسي} للدكتور محمد رضوان الداية: ص ٢٦١ - ٢٦٦.

(٢) جرجان مدينة بين طبرستان وخراسان، وأرجان: مدينة قريبة من شيراز والأهوار بفارس.

(٣) لَمَّة: جماعة.

(٤) النجائب جمع النجبة: الإبل الخفيفة السريعة.

(٥) يَحْبُون: من الخبب وهو نوع من السير السريع.

(٦) نَطِيَّة: بعيدة.

(٧) الطِيَّة: النية.

(٨) الزمام: حبل الدابة تُقاد منه. والذمام: العهد.

(٩) الْمُهَيِّج: الطريق الواضح الراسع.

ورمَتْ بِهِ الْمَشَارِقُ وَالْمَغَارِبُ». فقالوا: «رُزِقْتَ الْمُنَى، وَوُفِّقْتَ الْمُنَى»^(١)، وَيُسَّرَ لَكَ الطَّرِيقُ،
وَبَشِّرْ بِكَ الْمَعَشَرُ وَالْفَرِيقُ، هَلْ لَكَ عَهْدٌ بِالْعُذِيبِ وَالْغَمِيمِ^(٢)؟ وهل لَا قَيْتَ حَيِّي أَسَدٍ
وَتَمِيمٍ؟ وهل مررتَ بِالْوَعْسَاءِ^(٣)، وَعُجَّتَ عَلَى الْأَجَارِعِ وَالْأَحْسَاءِ^(٤)؟ فَقُلْتُ: «وَسَقَطَ
السَّائِلُ عَلَى الْحَبِيرِ»^(٥)، وَأَتَاهُ بِالْقَبِيلِ وَالذَّبِيرِ^(٦)، تَرَكْتُهَا وَالْكَلاَ جَمِيمٌ^(٧)، وَالنَّبْتُ عَمِيمٌ، مِنْ
أَرْضٍ صَفَتْ مِنْهَا الْمَشَارِعُ، وَضَفَتْ^(٨) الْأَبَاطِخُ وَالْأَجَارِعُ، فَتَضَاكَتِ الْأَزْهَارُ
وَالْأَنْوَارُ، وَتَأَلَّفَ الْفِزْرُ وَالصَّوَارُ^(٩). وَتَضَاكَبَ الْآيِسُ وَالنَّوَارُ^(١٠)، وَتَغَايَرَتِ الْأَنْجَادُ
وَالْأَغْوَارُ. يَا لَهُ مِنْ مَرْتَعٍ خَصِيبٍ، وَحِظٍّ لِرَائِدِهِ مُصِيبٍ، غَيْرَ أَنَّ بَهَا مِنْ أَسَدٍ وَسُلَيْمٍ^(١١)،
كُلَّ أَسَدٍ وَأَيْمٍ^(١٢)، فَقَدْ تَقَصَّدَتْ عَلَيْهَا الذَّوَابِلُ^(١٣)، وَتَفَانَّتِ الْقَبَائِلُ وَالْقَنَابِلُ^(١٤)، فَجُدَّدَتْ
عَلَيْهَا الذُّحُولُ^(١٥)، وَهَانَتْ عِنْدَهَا الْمُحُولُ^(١٦)، وَتَأَكَّدَتْ الْأَحْقَادُ، وَتَابَّدَتْ

(١) المنى: القدر والموت.

(٢) الْعُذِيبُ: ماءٌ بَيْنَ الْقَادِسِيَّةِ وَالْمَغِيثَةِ أَوْ هُوَ وَادٍ فِي بِلَادِ بَنِي تَمِيمٍ، وَالْغَمِيمُ مَوْضِعٌ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ.

(٣) الْوَعْسَاءُ: مَوْضِعٌ.

(٤) الْأَجْرَعَانُ: مَوْضِعٌ بِالْيَمَامَةِ وَالْأَحْسَاءُ مَوَاضِعٌ كَثِيرَةٌ، وَمِنْهَا مَدِينَةٌ مَشْهُورَةٌ بِالْبَحْرَيْنِ (شَرْقُ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ).

(٥) فِي أَمْثَالِ الْعَرَبِ: (عَلَى الْحَبِيرِ سَقَطْتُ).

(٦) أَيُّ أَتَاهُ بِظَاهِرِ الْأَمْرِ وَبِاطْنِهِ.

(٧) جَمِيمٌ: مَجْتَمِعٌ كَثِيرٌ.

(٨) ضَفَّتْ: كَثُرَتْ.

(٩) الْفِزْرُ: الْقَطِيعُ مِنَ الْغَنَمِ، وَالصَّوَارُ: الْقَطِيعُ مِنَ الْبَقَرِ.

(١٠) النَّوَارُ: مَا يَنْفِرُ مِنَ الظُّبَاءِ وَالْوَحْشِ.

(١١) أَسَدٌ وَسُلَيْمٌ: مِنَ الْقَبَائِلِ الْعَدْنَانِيَّةِ.

(١٢) الْأَيْمُ: الْحَيَّةُ.

(١٣) تَقَصَّدَتْ: تَكَسَّرَتْ، وَالذَّوَابِلُ: الرَّمَاخُ.

(١٤) الْقَنَابِلُ: الطَّائِفَةُ مِنَ النَّاسِ وَالْحَيْلُ.

(١٥) الذُّحُولُ جَمْعُ الذَّحْلِ: الثَّأْرِ.

(١٦) الْمُحُولُ جَمْعُ الْمُحَلِّ.

الأحْقَاف^(١) والأَعْقَادُ، وأُذِيلَ عَلَيْهَا الْمَصُونُ^(٢)، وأَتَّخَذَتِ الصِّيَاصِي^(٣) وَالْحُصُونُ، ففَارَقَتْ
نَمِيمَ حِمَاهَا، وَرَمَاهَا بِالصَّغَارِ مَنْ رَمَاهَا، فَتَمَيَّيزَ مِنْهُمْ فَتَى يَرْفُلُ مِنْ هَمَّتِهِ فِي كَرَمِ^(٤)، وَيَأْوِي
مِنْ بَأْسِهِ إِلَى حَرَمٍ، فَهَلَّلَ وَكَبَّرَ، وَأَقْبَلَ وَأَدْبَرَ، وَقَالَ: لَأُمَّ الرَّائِدِ الْهَبْلِ^(٥)، وَلَا جَادَ الْقَطْرِ
وَلَا السَّبْلِ^(٦)، اللَّهُ إِنَّ الْفَوْزَ لِأَسَدٍ، وَمَا الْقَوْمُ مِنْ لَيْفٍ وَلَا مَسَدٍ. لَقَدْ أَهْدَيْتَ الْعَجَبَ
الْعَجِيبَ، وَبَعَثْتَ الشَّجْنَ وَالْوَجِيبَ، لَقَدْ أَتَى الزَّمَانُ بَعَجَبَهُ، وَأَطْلَعَهُ قَبْلَ رَجَبِهِ^(٧)،
فَعَوَّضَ مِنَ الرَّأْسِ بِالرَّجْلِ، وَمِنَ التَّاجِ بِالْحَجْلِ^(٨)، وَغَلَّبَ الْوَشِيطَ عَلَى الصَّمِيمِ^(٩)،
وَالْحَمِيدَ عَلَى الذَّمِيمِ، وَالْمَجْعَ عَلَى الزَّمِيعِ^(١٠)، وَالْفَذَّ^(١١) عَلَى الْجَمِيعِ، وَالتَّوَالِي عَلَى
الْهُوَادِي^(١٢)، وَالْعَيْرِ^(١٣) عَلَى الْجَوَادِ، وَالْفِدَانَ عَلَى الْبَاسِلِ^(١٤)، وَالنَّابِاحَ عَلَى الْعَاسِلِ^(١٥)،

(١) الأحقاف: مكان، وأصله جمع حقف: ما اعوجَّ من الرمل، وتأبدت: توحشت. والأعقاد جمع العقد:

المتراكم من الرمل.

(٢) أُذِيلَ: امتهن.

(٣) الصِّيَاصِي بمعنى الحصون.

(٤) أصله من رَفَلَ في ثوبه جَزَهُ (لطوله) وفي الكلام استعارة.

(٥) الرائد: الذي يسبق القوم لمعرفة الطريق، والهبْل: الثكل.

(٦) السَّبْل: المطر.

(٧) إشارة إلى المثل: عَشَ رَجَباً تَرَعَجَباً.

(٨) الحجل: الخلخال.

(٩) الوشيط: الدخيل، والصميم: الأصل.

(١٠) المجع: الأحمق، والزميع: الشجاع القدام.

(١١) الفذ: الفرد.

(١٢) التوالي: الأعجاز، والهوادي: الأعناق. والعرب تقول: ليس هوادي الخيل كالتوالي.

(١٣) العير: الحمار.

(١٤) الفدان: الثور. والباسل: الأسد.

(١٥) العاسل: الذئب.

والأنزل على الطَّامِح^(١)، والأعزل على الرَّامِح^(٢)، وابن اللَّبُون^(٣) على العَوْدِ، والسَّيْلَ عَلَى الْجَوْدِ^(٤)، والشَّاحِجَ عَلَى الصَّاهِلِ^(٥)، والظَّامِئِ عَلَى النَّاهِلِ^(٦)، وفاضِلَ النَّبْعِ بِالْعَرَبِ^(٧)، والعَجَمَ بِالْعَرَبِ.

فانبرى سَيِّدُ الْقَوْمِ، فَقَالَ: لَقَدْ ثَنَيْتَ الْعِزَائِمَ، وَبَهَّتَ النَّوَائِمَ، وَأَبْنَيْتَ الْأَحْيَاءَ، وَذَمَرْتَ الْقَبَائِلَ وَالْأَحْيَاءَ^(٨). ثُمَّ أَشَارَ إِلَى شَيْخٍ كَالْعُرْجُونِ^(٩)، يَمْزُجُ صَفَوًا بِأُجُونِ^(١٠)، وَوَقَارًا بِمَجُونِ، فَقَالَ: وَأَنْتَ يَا أَخَا اللَّسَنِ، وَالْبَيَانِ الْحَسَنِ، فَمَا رَأَيْكَ وَقَدْ طَرَحْنَا الطَّوَارِحَ، فِيمَا جَرَتْ بِهِ السَّوَانِحُ وَالْبَوَارِحُ؟ فَقَالَ: أَرَى أَنْ تُحْمِلَنِي جَوَادًا، وَتَرْقُبَ مِنِّي عَوَادًا، وَتَقْدَحَنِي وَارِيًا، وَتَرْسِلَنِي سَارِيًا، وَأَنْتَابُ الْقَوْمِ، وَأُطِيلُ الْحَوْمَ، وَأُخَلِّلُ الْقَبَائِلَ وَالشُّعُوبَ، وَأُسْتَخْبِرُ الصَّادِحَ وَالنُّعُوبَ، وَآتِيكَ بِالْخَيْرِ مِنْ فَصِّهِ^(١١)، وَبِالْحَدِيثِ عَلَى نَصِّهِ، وَأَوْشِكُ نَحْوَكُمْ إِيَابًا، وَلَا أُطِيلُ عَنْكُمْ غِيَابًا، فَتَعْلَمَ أَيْنَ اسْتَقَلَّتْ بَعْشَائِرُكَ الْمَنَازِلُ، وَعَمَّا انْقَلَبَ الْعَدُوُّ الْمَنَازِلُ، فَقَالَ: إِنَّ الرَّأْيَ رَأْيُكَ، وَإِنْ شَاقْنَا بُعْدَكَ وَنَأْيُكَ، قَالَ: فَاْمَتَطَى

(١) الأنزل: المنخفض. والطَّامِح: العالي.

(٢) الرامح: ذو الرمح، وفي الكلام تورية بأسماء النجوم.

(٣) ابن اللَّبُون من الإبل: الفتي. والعود: المسن.

(٤) السَّيْل: المطر والحدود الكثير منه.

(٥) الصَّاهِل: الحصان، والشَّاحِج: الحمار.

(٦) النَّاهِل: الذي ارتوى.

(٧) النَّبْع: شجر تتخذ منه السَّهَام والقسي، والغرب: شجر أضعف منه.

(٨) ذمَّره: حَضَّه وشَجَّعه.

(٩) العُرْجُون: عذق النخلة إذا يبس وَاغْوَجَ.

(١٠) الأُجُون: الماء المتغيَّر الطَّعْم واللَّوْن.

(١١) أَي من أصله. وفي أمثال العرب: يَأْتِيكَ بِالْأَمْرِ مِنْ فَصِّهِ.

الْيَعْبُوبَ^(١)، وَنَفَضَ الْجُيُوبَ، وَتَقَلَّدَ الْحُسَامَ، وَتَوَفَّرَ الْجَسَامَ، وَمَلَأَ الْمَزَادَ،
وَاحْتَقَبَ الزَّادَ^(٢)، وَقَالَ: أَسْتَدْعُ اللَّهَ مِنْكُمْ كِرَامًا، وَأَسْأَلُهُ أَنْ يُيَسِّرَهُ مَرَامًا.
فَتَبِعْتُهُ مُوَادِعًا، وَحَسِبْتُهُ مُحَادِعًا، فَأَرَابَهُ مِنِّي مُرِيبٌ، وَقَالَ: خَانِيكَ يَا غَرِيبُ
وَأَنْشَدَ:

أَمَّا تَرَى الْأَلَّ وَالسَّرَابَا	وَالدَّهْرَ بِالْحُرِّ قَدْ أَرَابَا
إِذَا أَرَاكَ الزَّمَانُ وَجْهًا	فَسِرْ عَلَى وَجْهِكَ انْسِرَابَا
وَلَا تُبَلِّغْ عَنْ مَلَامِ قَوْمٍ	قَدْ أَرْسَلُوا نَحْوَكَ الْخِرَابَا
وَلَا تَكُنْ عَاجِزَ الْمَسَاعِي	وَأَمَّا إِذَا أَمَكَّنَ الْجُرَابَا
وَرِدَ بِسَمَاءٍ غَدِيرُ خُمٍ	تَسْتَغْذِبُ الْمَاءَ وَالشَّرَابَا
وَكُنْ بِأَنْبَائِهِا عَلِيمًا	وَالْقَى بِهَا الذُّنْبَ وَالْغُرَابَا
وَلَا تَهَبْ مِنْهُمْ جُمُوعًا	وَإِنْ بِهَا بَلَقَعًا خِرَابَا
كُلُّ عَلَى ظَهْرِهَا غَرِيبٌ	فَكَيْفَ تَشْكُو بِهَا اغْتِرَابَا؟
وَكُلُّ مَا فَوْقَهَا تُرَابٌ	فَمَا لَنَا نُمْسِكُ التُّرَابَا؟

فقلت: «الشَّيْخُ، وَاللَّهِ، أَبُو حَبِيبٍ، وَمَنْ لَكَ بِذَلِكَ التَّشْبِيبِ أَوْ التَّسْبِيبِ؟ وَكَمَا
رَاجَعْتَكَ الْفُتُوَّةَ، هَلَّا عَاوَدْتَكَ الْمُرُوءَةَ، لَشَدَّ مَا دَارَيْتَ النُّصُولَ^(٣)، وَأَزْدَرَيْتَ الذَّوَابِلَ
وَالنُّصُولَ^(٤)، فَمَضَى عَنِّي وَهُوَ يَقُولُ:

(١) اليعبوب: اسم فرس مشهور، وهو في الأصل: الطويل السريع.

(٢) ملأ حقيقته.

(٣) نصل الشعر: زال عنه خضابه.

(٤) الذَّوَابِل: الرَّماح، والنُّصُول: السُّيُوف.

وَالدَّهْرُ جَمُّ الْعَوَادِي
بِكُلِّ شِغْبٍ وَوَادِي
رَوَائِحٍ وَغَوَادِي
ظَاهِرٍ وَبَوَادِي
وَقُلْ لِأَهْلِ السَّوَادِ
بِكَيْدِ أَهْلِ الْبَوَادِي
خَدَعْتُهُ بِسَوَادِي
رَزَأْتُهُ بِجَوَادِي
وَعَرَّطُوهُ سَوَادِي^(١)
رِيَّ النَّفْسِ الصَّوَادِي؟
شَكْوَى الْجَوَى وَالْجَوَادِي

هِيَ هَاتِ مِنْكَ عَوَادِي
وَذُو الْحِزَامَةِ غَوَادِي
وَالْمَرْزُوقِينَ سَوَادِي
وَاللَّعَوَائِقَ بِرَوَادِي
قُلْ لِلْعَرَّاقِينَ عَنِّي
مَا لِلْحَوَاضِرِ تُغْرِي
لِلَّهِ أَبْيَضُ حَرَرٌ
وَرُبُّ سَمَحٍ جَوَادِي
كَمْ صَرَّ قُرْبُ وَسَادِي
هَلْ يَمْنَحُ الدَّهْرُ يَوْمًا
فَقَدْ أَطَالَتْ إِلَيْهِ

(١) السَّوَاد: المسَاة، وفي أمثال العرب: (قُرْبُ الْوَسَادِ وَطُولُ السَّوَادِ). وله قصة انظرها في أمثال الميداني .

تحليل مقامة ابن أبي الخصال في معارضة الحريري^(١)

في رسائل ابن أبي الخصال مقامة واحدة مطوّلة، كتبها في معارضة مقامات الحريري. وقد استهلها ابن أبي الخصال بعبارة: «قال الحارث بن همام». فهو يتخذ الحارث بن همام وأبا زيد السروجي بطلين لمقامته، أي أنه - في معارضته للحريري - لم يغير الاسمين اللذين أجراهما الحريري في مقاماته.

وتجري حوادث المقامة في الريف؛ فقد كان الجو ماطرًا، والفلاحون يستشعرون السرور بنزول الغيث. ويمرُّ بيت قد تحلّق فيه الناس، وصاحب البيت قد هَشَّ للمجتمعين، وقام يخدمهم بنفسه، وإذا الشيخ يتوسط الحلقة، يبهر الجمع بفصاحته، ويدعوهم لعطائه، ويستثير دوافع السخاء فيهم بفصاحته ونحيبه: «أيها الجُمع الأريض، والسُّودد العريض، والنفر البيض، والنائل المستفيض، والهمم السامية والحفاظ الدامية، والسيوف الماضية، والليوث الضارية. حقًا إنكم لقطب الرجاء، وَرَحَا الهيجاء، وكَشَفُ الغماء، وجلاء العمى والعماء، أما والذي كَلَأكم وأنبت كَلَأكم، وملاً بالخيرات مَلَأكم، إِنَّ لِلنَّعَمِ لَشُكْرًا هو أوسع غاية، وأرفع راية، وأرقُّ أنفاسًا، وأضفى لباسًا، وأعلى مظاهر، وأزكى بواطن وظواهر»^(٢).

(١) انظر نصّ المقامة محققًا وتحقيقًا علميًا دقيقًا ونشرًا في: رسائل ابن أبي الخصال، تحقيق د. محمد رضوان الداية، ص ٤٢٠-٤٤٩.

والحريري هو أبو محمد القاسم بن علي الحريري البصري (٤٤٦-٥١٦هـ)، أديب كاتب مشهور، له عدد من المؤلفات منها درة الغواص في أوام الخواص، ومقاماته التي طبعت مرارًا، وشرحها لغويون وأدباء كثيرون. وكان لتلك المقامات صدى كبير في الأندلس، فدرسها الأندلسيون، وشرحوها. وعارضها السرقسطي في مقامات، وهذا ابن أبي الخصال يعارضها أيضًا.

(٢) انظر رسائل ابن أبي الخصال: ص ٤٢٣. الأريض: أرض فلان، صار خيرًا متواضعًا فهو أريض.

ثم أخذت الصُّرر تُفتح، وأمطروا الشيخ منها بالدرهم: «فطلع سَعْدُه الغائب، واثالت عليه الرغائب، فما شَبَّهَتْ مطر عطائهم إلا بمطر سمائهم، والشيخ يتلَقَف ولا يتوقَّف، ويلتقط ما يسقط، ويدّخر ولا يؤخر، ويصطفي ما يعتفي، ويحتوي ولا يحتوي، ويلتوي طوراً ثم يستوي»^(١).

وبعد انصراف الناس يتعرف الشيخ على الحارث بن همام، فيطلب إليه الحارث أن يبيت الليلة معه درءاً للصوص، فقال له: «إنك بمنزلة لصوص وفي خصاصة وخصوص، وبأعينهم ما قَنَفَشْتَ، وتحت تحصيلهم ما جمعت وقمشت، ولا آمن هجومهم، ولا أضمنُ رجومهم، فحوّل إلى منزلي رحلك، وأنزل بي محلّك، فعندي خصب يملأ لهواتك، وصِرْفٌ تأتي على شهواتك»^(٢).

ويبدو أن الحارث كان يزعم سرقة السروجي، ولكن السروجي ليس ممن يقع فريسة لغيره، فلم يقبل أن ينام في الفراش الوثير، بعد أن أكل الطعام الطيب، وقال للحارث: «السُّهاد ولا هذا المهاد! والأرق ولا تلك السَّرَق! والمحاش ولا ذلك الفراش! كلني للبدَاوة وحمل الإداوة، ما عرف جفني إلا الخطفة العجلى، ولا عهد جنبي إلا الحرّة الرّجلى»^(٣).

وفي الصباح استيقظ الحارث ليجد صاحبه قد غادر مرقده وقد ترك رقعة كتب عليها فيها ثلاث قصائد، فخفّ الحارث للسؤال عنه فوجده مرتبها عند أحد الخمارين؛

(١) رسائل ابن أبي الخصال: ص ٤٢٥.

(٢) رسائل ابن أبي الخصال: ص ٤٢٧. قنفش الشيء: جمعه سريعاً. وقمش الشيء: جمعه من ههنا وههنا. ما يرجم به من حجارة وغيرها.

(٣) انظر رسائل ابن أبي الخصال: ص ٤٣٠-٤٣١.

المهاد: الفراش. السَّرَق: الحرير (الواحدة سرقة). المحش: ما يوضع فيه الحديد كالكيس ونحوه.

لأنه شرب ولم يدفع النقود «وأنه بعد الصيانة ممتهن، وبما شرب مُرَّتَهْن، فخرجت أبوعُ
الفضاء، وأبادر القضاء، فلم يُرْع الخمار إلا هجومي، وانكدأُر رجومي، فثار إلى الكلام،
وألقى بالمودة والسلام»^(١).

وتتحول المقامة بعد ذلك إلى وصف الحان والشاربين، ومن في الحان من غلمان
وجوارٍ، وكيف ظل يتحيل على الخمار حتى عرف موضع صاحبه وعندئذ ذهب إليه
واستخرجه، وجلسا معاً في الحان، فقضيا يوماً جميلاً طلب الحارث على أثره من أبي زيد
أن يخلده في شعره «يا أبا زيد ! إن هذه الأيام أوابد كأوابد الوحش فقيدها بالسهام،
وخلدها في الأوهام، واعقلها بالمأثور، ووكل المنظوم بالمشور، ليُعرف يومنا بسيماه، ولا
يشتبه به سواه». وتختتم المقامة بمقطوعة من الشعر لأبي زيد السروجي.^(٢)

(١) رسائل ابن أبي الخصال: ص ٤٢٦. أبوع الفضاء: أقيسه بالباع. انكدُر في سيره: أسرع وانقص. الرجوم: جمع رجم، ما

يرجم به من حجارة ونحوها.

(٢) رسائل ابن أبي الخصال: ص ٤٤٨.

مقامتان لابن قزمان الزجال

١ - مقامة في استهلال شهر رمضان^(١)

«سلام على أنس المجتهدين، وراحة المتَّهَجِّدين، وقرّة أعين المهتدين، والذي زين الله به الدنيا، وأعزّ به الدين. شَرَّف الله به الإسلام، وجعل أيامه رُقوماً في عواتق الأيام، وشهوره غُرراً في جباه الأعلام، وحلّ به عن رقاب الأمة قلائد الآثام، ونزّه فيه الأسماع عن المكاره، وصان الأفواه من رَفَثِ الكلام. أشهد أن الله أثنى عليك، وأدخل من شاء الجنة على يديك، وخصك من الفضائل بما يمشي فيه التفسير حتى يَكَلَّ ويسأم، ذلك اللسان ويملّ، وأبادت ذنوب الأمة بمثل ما أبادت الشمس الظلّ، ذلك الذي يتهلل للسماء هلاله، ويهتزُّ العرش لجلاله، وترتج الملائكة في حين إقباله، وتدخل الحُور العين في زيتها تكريماً، وتلتزم إجلاله وتعظيماً، ويهتدي فيه الناس إلى دينهم صراطاً مستقيماً، وتُغَلُّ الشياطين على ما خُيِّلَتْ، وتذوق وبال ما كادت به وتخيلت، وثمر التقى لعبادة ربه ذيلاً، وتهبط الملائكة إلى سماء الدنيا ليلاً، وينتظم المتّقون في ديوانه انتظام السلك، ويكون خُلوْفَ قَم الصاييم عند الله أطيب من ريح المسك، وتفتح الجنة أبواباً، ويُغفر لمن صامه إيماناً واحتساباً، جزاءً من ربك عطاء حساباً، وبها فضلك الله على سائر الشهور، وقضى لك بالشرف والفضل المشهور، فَرَضَكَ في كتابه، ومدحك في خطابه، حيث قال ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾. يعني تكبيرُ الناس عليك، وتقليبُ أحداقهم بالنظر إليك، حين لُثِّمَ بالسحاب، ونظرت من تحت ذلك النُّقاب، وقد يمتاز الشَّيب وإن استتر بالخضاب،

(١) ورد نصّ المقامة في كتاب الإحاطة: ٢/ ص ٤٩٨-٥٠٠.

حتى إذا وقف الأئمة منك على الصَّحيح، وصرَّحوا برؤيتك كلَّ التصريح، نظَّرت كل جماعة في اجتماعها، وتأهبت القراء لإشفاعها، واندفعت الأصوات باختلاف أنواعها، وتضرعت الألباب، وطلبت الموقف أواخر الأعشار والأحزاب، وابتدئت آثم ذلك الكتاب، عندما أوقدت قناديل كأنها قد بدَّت من الصباح، ورقصت رقص النواهد عند هبوب الرياح، والله نُور السموات ولأرض، مثلُّ نوره كِمَشكاة فيها مصباح، فأَمَلَّك المسلمون في سرِّ وجهه، وحُطَّت أثقال السيئات عن كل ظَهْر، والتُئِمت الليلة التي هي خيرٌ من ألف شهر، فنشط الصالحون لك صوماً، وهجر المُتَهجِدُونَ في ليلك نوماً، وأكْمَلْنَاكَ إن أذن الله ثلاثين يوماً، فيا أيها الذي رَحَلَ. رحل بعد مُقامة، وقام للسفر من مقامه، ورأى من قضى حَقَّه، ومن قَصَّر في صيامه، فمشى الناس إلى تَشْييعه، وبكَّوا لِإفراقه وتوديعه، ونَدِم المُضَيِّع على ما كان من تَضْييعه، ولم يثق بدوام العيش إلى وقت رجوعه، فعَضَّ على كفه ندماً، وبكت عينه ماء وكِبدته دماً، رويدا حتى أَمرح في ميدان فراقك، وأنضرع إلى حَنانك وإشفاقك، وأشفى من تَقْبِيلِكَ وعناقك، وأسألُ منك حاجةً إن أراد الله قضاها، وشاء نفوذها وإمضاها، إذا أنت وقَّفت لربِّ العالمين، فَقَبْلِكَ من قوم، وردَّكَ في وجوه آخرين، إن تُثني جيلاً، فعسى يصفح لعهدده وإن أسأ، فعَلِمَ الله أي نويت التوبة أولاً وآخرأ، وأمَلْتُ الأداء باطنا وظاهراً، وكنتَ على ذلك لو هدى الله قادراً، وإنما عُلِمَ من تقصير الإنسان ما عُلِمَ، وللمرء ما قُضِيَ عليه به وحُكِمَ، وإن النفس لأَمارةٌ بالسوء إلا من رَحِمَ، فإن غَفَرَ فبطَّوله وإحسانه، وإن عاقب فيما قَدَّمتَ يدُ العبد من عصيانه، فيا وَحْشَةً لهذه الفرقة، ويا أسفا على بعد الشُّقة، ويا شَدَّ ما خلَّفْتَهُ لنا بفراقك من الجُهد والمشقة، ولطالما هَجَرَ الإنسان بك ذنبه، وراقب إعظاماً لكربه، وشَرَحْتَ إلى أعمال البرِّ قلبه. ومع هذا أتراك ترجع وتُرى، أم تُضَمُّ علينا دونك أطباق الثَّرى، فيا ويلتنا إن حل الأجل، ولم أقضِ دينك، ورجعت وقد حال الموت بيني وبينك، فأغْرَب، لا جعله الله آخر التوديع، وأيِّ قلب يستطيع.

٢- مقامة في استهلال شهر شوال^(١)

الله أكبر هذا هلال شوال قد طلّع، وكرّ في منازلّه وقطّع، وغاب أحد عشر شهراً،
ثم رَجَعَ، مالي أراه رقيق الاستهلال، خَفِيَ الهلال، وروحاً تردّد في مثل أغلال، ما باله
أمسى الله رُسْمَه، وصحّح جسمه، ورفع في شهور العام اسمه، على وجهه صُفْرَةٌ بَيِّنَةٌ،
ونارٍ إشراقه لَيِّنَةٌ، وأرى السحاب تعتمده وتَقِف، وتغشاه سُويعة وتنصرف، ما أراه إلا
يَطُول ذلك المقام، وتوالي الأهوال العظام. إصابة مرض في فضلٍ من فصول العام،
فعادته كما يُعاد المريض، وبكته الأيام الغُرّ والليالي البيض، وقُلْنَ كلاك الله وكفاك،
وحاطك وشفاك، وقُلْ كيف نجدك، لا فُضَّ فاك، هذا على الظن لا على التحقيق، ومجازٌ
لا يَحْكُم التّصديق. وإنه لَيَبْعُدُ مثل هذا المقدار، أن يَقْدَح فيه طول الغيب، وتواتر
الأسفار، أليس هو قد أَلِفَ مجالي الرّياح، وصَحِبَ بَرْد الصّباح، وشاهد الأهوية مع
الغدو والرّواح، وطواها بتجربته طَيّ الوشاح، وذاك إلا أنّه رأى الشمس في بعض الأيام
ماشيةً، والحُسن يأخذ منها سَطَلاً وحاشيةً، ودلائل شبابها ظاهرةً فاشيةً، فوقع منها في
نفسه ما وقع، وثَبَّت على قلبه من النّظر ما زرع، ووقع في شَرَكها، وحقّ له أن يقع، فرَثَتْ
هي لحاله وأشفقت، ونَهَجَتْ بوصالها وتأنّقت، وقطعت من معدن نيلها وأنفقت، ورأت
أنها له شاكلةٌ يبلّغ أَمَلُها، وتبلغ مَأْمَلَه، ولذلك ما مدّت لذيذ السّباح، فتعرّضت بالعشيّ،
وارتصدها في الصّباح، مع ما أيقنّا به من الانقطاع، ويَمَسُّنا من الاجتماع، كما نَفِدَ القَدَر،
وصدر الخبر، وقال تعلن لا الشمس ينبغي لها أن تُدْرِكَ القمر، فَوَجَدَ لذلك وجداً
شديداً، وأذاقه مع الساعات شوقاً جديداً، وأصبح بها دنفاً وأمسى عميداً، حتى سَلَبَ
ذلك بهاء، وأذهب سناه، وردّه النحول كما شاه، ولقي منها مثل ما لقي غَيْلانٌ من مَيَّتَه،
وجمِلٌ من بُيُوتِه، وحنّ إليها حنين عُرْوَة إلى عَفْراء، وموعدهما يوم وهَبَ ناقته الصّفراء،

(١) ورد نصّ المقامة في كتاب الإحاطة ٢/ ص ٥٠٠-٥٠٤.

على رِسْلِكَ أنى وَهَمْتَ، وَحَسِبْتَ ذَلِكَ حَقًّا وَتَوَهَّمتْ، والآن وقد فَطِنْتَ، وَأَصِبتَ
 الفَصَّ فيما ظننت، إنه لقي رمضان في إقباله، وَصَمَّه نقصان هلاله، وصامه فجأة ولم يَكْ
 في باله، فأثَّرَ ذلك في وجهه الطَّلَقُ، وأضعفه كما فعل بسائر الخلق، وهاهو قد أقبل من
 سفره البعيد، فَقُلْ هو هلال الفِطْرِ أو قُلْ هو هلال العيد، فَلَقَّه صباح مَشَى الناس فيه
 مَشْيَ الحباب، ولبسوا أفضل الثياب، وبرزوا إلى مُصَلَّاهم من كل باب، فارتفعت هِمَّةُ
 الإسلام، وشُرِفَت أمة محمد ﷺ، وَخَطَبَ بالناس ودعا للإمام، عندما طلعت الشمس
 بوجه كدُورِ المرأة، ولونِ كصفا المهراة. وخرج لا يُنْسِيها ريمُ الفلاة. وقضوا السُّنَّةَ،
 وبذلوا الجهد في ذلك والمِنَّة، وسألوا من الله أن يُدْخِلهم الجنة، ثم خطبوا حمداً لله
 وشكراً، وذكروه كذكرهم آبائهم أو أشدَّ ذكراً، ثم انصرفوا راشدين، وافترقوا حامدين،
 وشبَّكَ الشيخ بيديه، ونظر الشاب في كَفَّيه، ورجعوا على غير الطريق الذي أتوا عليه،
 فلقد استَشَفَى من الرُّؤية ذو عينين، وتذكَّرَ العاشق موقف البَيْن، وشقَّ المُتَنَزَّه بين
 الصَّفَين، فنقل عينيه من الوشي إلى الديباج، ووجوه كضوء السَّراج، وعيونُ أَقْتَلَ من
 سيف الحجاج، ونظرات لا يُدْفَع داؤها بالعلاج، وقد زُيِّنَت العيون بالكحيل،
 والشعور بالتَّرجيل، وكرَّرَ السَّواك على مواضع التَّقْييل، وطَوَّقَت الأعناق بالعقود،
 وَضُرِبَ الفِكر في صفحات الخدود، ومُدَّ بالغالية على مواضع السجود، وأقبلت صَنَعاً
 بأوشيتها، وعنت بأرديتها ودخلت العروس في حِلِّيَّتها، ورُقِمَت الكفوف بالحناء،
 وأُثْنِيَ على الحُسْن وهو أحقُّ بالثناء، وَطُلِّقَت التَّوبَةُ ثلاثاً بعد البناء، وغَصَّ الذَّرَاع
 بالسَّوار، وَتُخِّمَ في اليمين واليسار، وأمسكت الثياب بأيدي الأَبكار، ومشت الأُماء أمام
 الأحرار، وتقدمت الدَّايَات بالأطفال الصَّغار، إذ امتلأت الدُّنيا سروراً، وانقلب الكلُّ
 إلى أهله سروراً، وبينما كانت الحال كما نَصَصْتُ، والحكاية كما قصَّصْتُ، إذ تَلَأَلَّت
 الدنيا برقاً، وامتدَّت مع الأفقَين غرباً وشرقاً، وَرَدَّ لمعانه عيون الناظرين رُزْقاً، ولولا أنه
 جَرَّبَ حتى يَدْرَا، لَقِيلَ قد طلعت مع الشَّمْسِ شمسٌ أخرى، حتى أقبل من شَرُفَتِ

العربُ بنسبه، وفَخَرُ الإسلام بسببه، من انتَسَبَ إلى زَهْرَةٍ وَقَصِيٍّ، وازدانت به آل غالب وآل لُؤي، من إذا ذُكر المجد فهو مُمَسِّكُ بَنَدِهِ، أو الفضل فهو لابسُ بُرْدِهِ، أو الفخر فهو واسِطَةُ عِقْدِهِ، أو الحُسْنُ فهو نسيج وحده، الذي رفع لواء العليا، وعارضت مكارمه صوب الحيا، وحَكَّتْ محاسنه زهرة الحياة الدنيا. فأما وجهه فكما شَرَقَت الشمس وأشرقت، وعَرَبَت كواكب سماءها وشَرُقت، وتفتَّحت أطواق الليل عن غرر مجده وتشقَّقت، ولولا حياً يغلب عليه، وخَفَرٌ يصحبه إذا نظرت إليه، لاستحال النهار، وغارت لنوره كواكب الأسحار، ولكاد سَنَا بَرَقُهُ يذهب الأبصار، لا يحفل بالصبح إذا انفلق، ولا بالفجر إذا عمَّ آفاق الدُّجَا وطَبَّق، ولو بدا للمسافر في ليله لَطَرَق، قد عجم الأبنوس على العاج، وأدار جَفْنًا كما عَطَفَ على أطفالها النِّعَاج، يَضْرِبُ بها ضرب السيف، ويُلْمُ بالفؤاد إمام الطِّيف، ويتلقَّاها السَّحَرُ تلقِّي الكريم للضيف، لو جرَّدها على الرِّيمِ لوقف، أو على فِرْعَوْنَ ما صرف من سِحره ما صرف، أو على بَسْطَامِ بن قَيْسٍ لألقى سِلاحه وانصرف، وأما أدواته فكما انشَقَّت الأرض عن نباتها، وأخذت زُخْرُفَها في إنباتها، ونَفَحَ عَرَفَ النَّسِيمِ في جباتها، يتفنَّنُ أفانين الزهر، ويتقلب تقلُّب الدهر، وتَطْلُعُ له نوادر كالنجوم الزُّهر، لو أبصره مُطَرِّفٌ ما شهر بخطه، ولا جرَّ من العُجْبِ ذيل مِرْطِه، ولا كان المخبر معه من شَرَطِه، وأما أنه لو قُرئ على سحبان كتابه، وانحدر على نهره عُبَابِه، وملأت مسامعه أطنابه وأسبابه، ما قام في بيانه ولا قَعَد، ولنزل عن مقامه الذي إليه صَعَد، ولا خَلَفَ من بلاغته ما وعد، لعمرُك ما كان بشر بن المعتمر يتفنَّنُ للبلاغة فنونا، ولا يتقبَّلُها بطوناً ومُتُوناً. ولا أبو العتاهية لِيُشْرِطُها كلاماً موزوناً، ولا نَمَقَ الحسن بن سهل الألفاظ، ولا رفع قَسَ بن ساعدة صَوْتَه بعكاظ، ولا أغاظ زيد ابن علي هشاماً بها أغاظ. وأما مكارمه فكما انْسَكَبَ الغيث عن ظلاله وخرج الودقُ من غلاله، فتدارك النِّعْمَةُ عن فوتها، وأحيا الأرض بعد مَوْتِها، ذلك الشريف الأجلُّ، الوزير الأفضَل، أبو طالب ابن القُرشيِّ الزُّهري، أدام الله اعتزازه، كما رَقَمَ في حُلِّ الفخر

طِرازه، فاجتمعت السادة بعد افتراقها، وأشرق وجه الأرض لإشراقها، والتفت الثياب بالثياب، وضمَّ الرّكّاب بالرّكّاب، ولا عهدٌ كأيام الشباب، فوصل القريب البعيد، وهنّوه كما جرت العادة بالعيد، فوقف مع رِكابه وسلّمت، وجرت كلاماً وبه تكلمت، فقلت تقبّل الله سعيك، وزكّى عملك، وبلغك فيما توده أملك، ولا تأملتَ وجهاً من السُرور إلا تأمّلك، ونفعك بها أوليت، وأجزل حظّك على ما صُمت وصليت، ووافقتك لعلّ وساعدتك ليّت، وهناك عيد الفطر وهنّاتة، وبداك بالمسرات وبدأته، وتبرّأ لك الدهر مما تحسد وبرّأته. وهكذا بحول الله أعياد واعتياد، وعمرٌ في دوام، وعزٌّ في ازدياد، والسنة تفصح بفضلك إفصاح الخطباء من إياد، وأقرأ عليك سلام الله ما أشرق الضحا، ودام الفطر والأضحى.

من المقامة الدوحية^(١)

لابن عياض اللبلي

«قال ميزان الأشواق، ومعيار المحبين والعشاق:

نَبَتْ بي معاهدُ الأحباب، في ريعان الشباب، لِقَيْنَةٍ أذكت نيرانها، وألقت بمسقط
الرأس جرانها، فامتطيتُ الليل طَرْفًا، ومَزَقَتِ السنان طَرْفًا، وجعلتُ أَمْسَحُ الأرض
نَجْدًا وَوَهْدًا، وأستطعم الآمال صابًا وشهدًا، كالعز لا يستقر بمنزل، ولا وَجِدَ عن
رحلة بمعزل، أصعد من خصور القيعان، إلى روادف الرِّعان، وأنحدرُ من متون
الهضاب، إلى بطون اللياب، حتى عجمتني أنيابُ النوائب، وتقاذفت بي صدورُ المشارق
إلى أعجاز المغارب، وقد حللت من الاغتراب بين الذروة والغارب، وكنت أكلف
بالبلدة الحمراء، كلف الكميّ بالصَّعدة السمراء، وأَحْنُ إلى جوارها، حنين الناقة إلى
حوارها، للذي اشتُّهر من حُسْنِها وطيبها وخصبها، واختيالها في حُلل شربها وعُصْبها،
نهداني إليها حادي الاغتراب، وتطاوحت بي إليها طوائح الاضطراب، ولا أمل إلا
اعتلاقُ خِلِّ ظريف، والإصغاء إلى نبأ طريف. وأنشد فيها:

عَزَبَدَ بالهجر والعتاب	نَشَوَانُ من كَمَرَةِ الشبابِ
طفأ على ريقه حَبَابُ	فاحتجب الحَمَرُ بالحَبَابِ
أنكرتُ إلا سَقَامَ طَرْفِ	وأيّ سيفٍ بلا ذبابِ
إن أنا لاحظْتُه تُوارى	من دمعة العين في حجابِ
أبصرته جَذولاً وورقاً	من دمع عيني وانتحاي
لم تستبق سَلوَةً وُحْبُ	إلا وطَرْفُ السِّلْوِ كاي

(١) المغرب في حُلَى المغرب: ١/ ص ٣٤٤.

التحليل:

هذه هي القطعة التي احتفظ بها ابن سعيد من هذه المقامة، مع أنه ترجم لكتبتها أبي عبد الله محمد بن عياض اللبلي في كتابيه «المغرب»، و «رايات المبرزين»^(١). وهذا الجزء الذي أورده صاحب «المغرب» وهو المقدمة التي يبدأ بها الراوي عادة موضوع مقامته، يقول:

«قال ميزان الأشواق، ومعيار المحبين والعشاق...». ثم انتقل إلى وصف تنقله محمولاً على جناح القلق، منحدرًا أو صاعدًا، وكان يكلف بالبلدة الحمراء، لما عُرف من طيبها وخصبها....».

ويبدو أن المقامة العياضية اقتصر موضوعها على الغزل فحسب، ولذلك سمّاها ابن الأبار في كتابه «التكملة»: «المقامة العياضية الغزلية»^(٢). وقد اختلف الباحثون حول موضوعها: فرأى أحدهم أنّ موضوعها اشتمل على الغزل فقط^(٣)، بينما اقتصر موضوعها عند د. إحسان عباس على التنقل^(٤)، ونرى أن هذه القطعة التي بقيت من مقامة ابن عياض اللبلي تجمع بين الغزل والاغتراب.

(١) انظر ص ٤٦ من دراستنا هذه.

(٢) التكملة: ١/ ص ٥١٥.

(٣) د. يوسف نور عوض: فن المقامات بين المشرق والمغرب، ص ٣٠١.

(٤) تاريخ الأدب الأندلس (عصر الطوائف المرابطين): ص ٣٢٥.

من مقامات^(١)

لابن غالب الرصافي البُلنسي

قال من مقامة يصف القلم:

قصير الأنابيب لكنه يطول مضاء طوال الرّماح
إذا عبّ للنفس في دامسٍ ودبّ من الطّرس فوق الصّباح
تجلّلت له مُشكلاتُ الأمور ولأنّ له الصّعب بعد الجّراح

فلَوْلَا لَغَدَت أغصانُ الاكتسابِ ذاوية، وبيوت الأموال خاوية، وأسْرَعَت إليها
البوسى، وأصبحت كفؤاد أم موسى، فهو لا محالة تَجَرُّها الأريخُ، وميزانها الأرجح. به
تُدْرُ ألبائها، وتثمرُ أفنانها، وَيَسْتَمِرُّ إفضاها وإحسانها، وهو رأس مالها، وقطبُ عمّالها
وأعمالها. وصاحب القلم قد حوى المملكة بأسرها، وتَحَكَّم في طيّها ونشرها، وهو قُطْب
مدارها، وجُهيته أخبارها، وسرُّ اختيارها واختبارها، ومظهر مجدها وفخارها، يعقد
الرّايات لكل والٍ، ويمنحهم من المبرّة كلّ صافية المقيّل، ضافية السربال، يُطْفئ جمره
الحرب العوان، ويكأبِدُ العَدُوَّ بلا صارم ولا سنان، يقدُّ المفاصل، ويتخلّل الأباطح
والمعاقل، ويقمع الحواسِدَ والعواذل.

(١) وردت الأبيات والقطعة الثرية في: الإحاطة ٢/ ٥١٤-٥١٥، وديوان الرصافي: البُلنسي ص ٥٣-٥٤، وكتاب أدباء

التحليل:

هذه القطعة جزء من مقامة لابن غالب الرصافي، وقد جاءت في تسعة أسطر مُهّدها بثلاثة أبيات من الشعر. موضوعها - كما ذكر ابن الخطيب - في وصف القلم^(١). وقد أورد صاحب كتاب «أدباء مالقة» هذه القطعة، دون أن يذكر أنها جزء من مقامة، ولكنه مهّدها بعبارة «وله رحمه الله في قلمٍ نظماً ونثراً»^(٢).

عدّد الكاتب فوائد القلم ومناقبه، وأشار على أن أثره وفعله يوافق فعل السيف والرمح، وهو هنا يتحدث طبعاً عن الكتابة الديوانية. وانتقل بعد ذلك إلى الحديث عن صاحب القلم وفضائله، وهو يقصد كتاب الدواوين. وكيف أن الكاتب هو المصرف الحقيقي لشؤون الدولة، «وصاحب القلم قد حوى المملكة بأسرها، وتحكّم في طيها ونشرها، وهو قطب مدارها، وجهينة أخبارها، وسر اختيارها واختبارها، ومظهر مجدها وفخارها».

ولا بأس في الإشارة هنا إلى أن موضوع المفاخرة بالقلم، والمقارنة بينه وبين السيف من الموضوعات التي تناولها الأندلسيون. وذكر صاحب «المطرب» أن أبا حفص أحمد بن محمد بن برد أول من سبق إلى ذلك في الأندلس^(٣)، وذلك في رسالة كتبها، واتخذت شكل المناظرة بين السيف والقلم^(٤).

(١) الإحاطة في أخبار غرناطة: ١/ ص ٥١٤.

(٢) أدباء مالقة: ص ٨٤.

(٣) المطرب: ص ١٢٧.

(٤) انظر رسالة ابن برد في المفاخرة بين السيف والقلم في الذخيرة: ق ١/ م ١/ ص ٥١٨، ونفح الطيب: ٣/ ص ٥٤٦.

من مقامات

«قسطاس البيان في مراتب الأعيان»^(١)

ليحيى بن محمد الأركشي

قال يصف الفقيه علي بن عبد الله بن خلف^(٢) : «فقيه عارف، وحاملُ أدوات ومعارف، وما هو إلا زبدةُ زمانٍ تمَخَّصَ العصرُ عنها، وروضةُ علومٍ تَصَوَّعَ القطر منها، تَلْتَمَسُ أَشْتَاتُهَا من عبده وتُقْتَبَسُ، ويُفَرَّغُ إليه في كُلِّ ما أَشْكَلَ منها والتبس، ذهب في اقتنائها أهدي مذهب، وامتطى إلى حاملها صهوة الهجير الملهب، حتى انتهجت له شعابها، وانقادت إلى فهمه صعايبها، وما زال متتبعاً مساقط أثرها، حتى رَوَى من سلسيلها وكوثرها، فشيّد ما عُني به تشييداً، وجوّدَه إتقاناً وتقييداً، فطالבו العلم والأدب، يَنْسُلُون إليه من كل حذب، فيقتبسون عيونه من عنده، ويقتدحون فيه وَارِي زنده، والله تعالى يبقيه مُعْتَنِيّاً بالعلم وأهله، متلقياً لهم بِرُحْبِهِ وسهله، ولا يزال موصوفاً بالنبالة والذكاء، كما لم يزال مجبولاً على الجلالة والذكاء، ولا يبرح الدهر بإقباله خاطباً، والسعد في حباله حاطباً».

(١) انظر هذه القطعة من المقامة في الذيل والتكملة : ق ١ / ص ٢٢٨ (ترجمة ٤٥٥).

(٢) ذكره ابن عبد الملك المراكشي، فقال: «كان خاتمة العلماء بشرق الأندلس في عصره. متفتناً في معارف جمّة، راسخاً في العلم، مقرئاً، مجوداً، مُفَسِّراً، مُحَدِّثاً، راوية، حافظاً، أمّ في الفريضة زماناً طويلاً، توفي سنة ٥٦٧ هـ (الذيل والتكملة: ق ١ / ص ٢٢٦).

مقامة^(١)

محارب بن محمد الوادي آشي

وصرتُ أكلُفُ البريَّة، بحضرةِ المريَّة^(٢)، فنبذتُ عن غيرِ وزديها كُلَّ نيَّة، وأخذتُ على قُعودِها كُلَّ ثنية، وسِرْتُ أَعْمَلُ السَّيْرِ والسُّرى، ولا أذوقُ إلا على الأكوار^(٣) الكرى، وأَكِلُ العيس^(٤) إلى نهجِ البرى^(٥)، وأحُتُ إليها ركابي، وأركبُ من أجلها طِرْفاً^(٦) غيرِ كابي، وأطوي نَحْوَهَا المراحِلَ، وأطوف البيداء والسواحل، إلى أن وَرَدْتُ مدينةَ سَبْتَةَ، وقد هجرتُ طاغوتَ الصِّبا وجِبَّتَه، وطلَّقتُه ثلاثاً البتَّة، وحللتُ الجزيرة^(٧)، ولم أعبأ بغوير ولا غويرة^(٨)، حسبما يقتضيه سَنِينُ السَّنِّ، ويرتضيه حَالُ الرَّجُلِ المُسِنَّ، فامتطيتُ منها ثَبَجَ العَزَمِ، وتخطَّيتُ من وسادِ الكَسَلِ إلى فِجَاجِ الحَزَمِ، وأدخلتُ على نونِ الإقامةِ حروفَ الجَزَمِ^(٩)، فشحذتُ نَصْلَ حَزَمِي لِلرَّحْلة، ونبذتُ لانتحالِ الاغترابِ كُلَّ نِحلة، وظلَّتُ أُسيرُ، والقلْبُ بيدَ الاشتياقِ أسير، حتى وصلتُ إلى مدينةِ وادي آش^(١٠)، وجسمي

(١) ورد نصّ المقامة في رسائل ومقامات أندلسية: ص ٨٢ - ٩٢.

(٢) المريّة: مدينة في جنوب شرق الأندلس، بناها الخليفة عبد الرحمن بن محمد الناصر لدين الله سنة ٣٤٤هـ، وكانت أعظم قواعد الأسطول الأندلسي في عصر الخلافة الأموية، وكان لها دور سياسي وحضاري عظيم في عصر الطوائف (انظر: الروض المعمار ص ١٨٣).

(٣) الأكوار: جمع كُور، وهي الإبل الكثيرة العظيمة.

(٤) العيس: الإبل.

(٥) يقال: بريت البعير إذا حسرته وأذهبت لحمه، فأصابه الهزال من السفر والترحال.

(٦) الطَّرَف (بالكسر) من الخيل: الكريم العتيق.

(٧) أي جزيرة الأندلس.

(٨) الغوير والغويرة: ماء لكلب معروف بناحية السماوة، والمقصود أنه لم يخش المخاطر.

(٩) كناية: عن تصميمه وعزمه على الرحيل.

(١٠) وادي آش: مدينة في جنوب الأندلس، قرية من غرناطة بنحو ستين كيلو متراً، وقد نُسب إليها محارب صاحب هذه

المقامة، وقد سقطت وادي آش سنة ٧٩٥هـ (الروض المعمار: ص ٦٠٤).

لَا يُتَبَيَّنُ نَحْوَلًا فِي فِرَاشٍ، وَفِرَاشِي فَوْقَ أَجْنَحَةِ الْفَرَاشِ، فَمَثَلْتُ فِي حَيْطَانِهَا، وَحَصُلْتُ بَيْنَ رُبَايَاها
وَعِيطَانِهَا،^(١) فَرَأَيْتُ لِلْحُسَيْنِ مَقَرَّ إِيْرَادٍ وَإِصْدَارٍ، وَجَمَالَ قَطَرٍ لَا يَجْرِي عَلَى مَقْدَارٍ:

بَلَدٌ حَيْثَمَا تَوَجَّهْتَ مِنْهُ قَابِلَتَكَ الْحَسَانَ مِنْ كُلِّ دَارٍ

فَأُظِلَّتْنِي أَفْيَاءُ تِلْكَ الْأَنْشَامِ، وَأُضِلَّتْنِي عَنِ الْمَسِيرِ حُرُجَاتُ^(٢) الْأَيْكِ بِهَا وَالْبَشَامِ^(٣)،
وَخَلَصْتُ إِلَى دَوْحَةِ فِرِصَادٍ^(٤)، وَجَلَسْتُ لِإِطْلَالٍ مُرْشِدٍ بِالْمِرْصَادِ، فَبَيْنَمَا أَنَا أَنْتَظِرُ الرَّفِيقَ،
وَالْمُنْجِدَ عَلَى مَعْرِفَةِ الطَّرِيقِ، إِذْ نَجَمَ^(٥) لِي رَاكِبٌ، يَسْرِي سُرَى الْكَوَاكِبِ، قَدْ اعْتَقَلَ أَكْمَلَ
لَأَمَةٍ^(٦)، وَصَوَّلَ فِي خَدِّهِ لَأَمَهُ^(٧)، وَاعْتَمَّ بِأَجْمَلِ عِمَامَةٍ، وَجَعَلَ الْحَذَرَ وَرَاءَهُ وَأَمَامَهُ، جَلِيلٌ
لَهُ هِمَّةٌ مُجَلُّةٌ، قَلِيلٌ عَلَى ظَهْرِ الْمُطَيَّةِ ظِلُّهُ^(٨)، قَدْ تَنَكَّبَ فِرْسًا عَرَبِيَّةً، وَكُنَانَةً^(٩) غَرَبِيَّةً، لَهُ عِمَّةٌ^(١٠)
تَشْهَدُ لَهُ بَعْلُوهُ الْهَمَّةَ، وَلِثَامٌ^(١١) يَحْذَرُ عَنِ ارْتِكَابِ الْإِثَامِ، وَقَدْ ضَوَى^(١٢) مِنْهُ أَطْرَافُ الْمَطَارِفِ
^(١٣)، حَمَائِلُ سَيْفٍ وَصَفَهُ ذُووُ الْمَعَارِفِ.

وَفِي الْغَمْدِ مَوْتُورُ الْهُوَى طَالَ حَبْسُهُ عَنِ الثَّأْرِ حَتَّى كَادَ يَفْتَكُ بِالْغَمْدِ

(١) الغيطان: الأماكن المتسعة السهلة.

(٢) الخرجات: الشجر المتلف.

(٣) البشام: شجر طيب الريح يُستاك به.

(٤) الفِرصاد (بالكسر): الثوت الأحمر خاصة.

(٥) نجم: ظهر ولاح.

(٦) اللأمة: الدرع.

(٧) يشبه عذاره بحرف اللام.

(٨) من قول عمر بن أبي ربيعة: قَلِيلٌ عَلَى ظَهْرِ الْمُطَيَّةِ ظِلُّهُ

سوى مانفى عنه الرِّدَاءُ المحبَّرُ

(٩) الكنانة: جعبة السهام.

(١٠) العِمَّة: ما يُتَعَمَّ به، ويكنى بها عن البيضة أو السيف أو لبس ثياب الحرب.

(١١) كان فرسان المرابطين يضعون لثاماً على وجوههم.

(١٢) الضوى: دقة العظم وقلة الجسم خلقة، وقيل: الضوى: الهزال والضعف.

(١٣) المطارف: جمع الثياب، وقيل إنها أردية من خز مربعة لها أعلام.

وقد تَمْطَى فوق شِمْلَةٍ^(١)، حَسَنَةِ القَدِّ مُشْمَعَلَةٍ^(٢)، مصقولة الأديم، مُصْفَرَّةٌ في لون العرجون^(٣) القديم، لها أَدْنُ مؤَلَّةٍ^(٤) كَبْرِيَةِ القَلَمِ أو كأطراف الجَلَمِ^(٥)، وَيَشْرَةُ عَسْجَدِيَّةٌ، وحوافر زبرجدية، وتَطْلُعُ شَيْحَانِ^(٦)، وتقريبُ تنفل^(٧). وإِرْخَاءُ سِرْحَانِ^(٨)، ضَامِرَةٌ طَمْرَةٍ، غير ساكنة الجأش ولا مُسْتَقَرَّةٌ، تَمْرُحُ باللَّجَامِ مَرَحِ الأشبالِ في الآجامِ، وتَسْرِي فتبرح بالبُعدِ أعظمَ تبريحٍ، وتجري فتحسدها خطفةُ البرقِ، وهَبَّةُ الرِّيحِ، تَصِلُ شَأَوَ الطُّولِ، بوعدٍ غير مَمْطُولِ، وتتلقى الأرضُ بهمةَ حيَّةٍ، وتركضُ ظهرها بيدِ جانٍ لَامَسَ حَيَّةً، تجذُّ أديم الأرضِ جُذْذًا^(٩)، وتخطو فتولى الحصى مِنْ وَطئِهَا بُذْذًا، تُسَايرُهَا عن يمينِهِ أَحْسَنَ مُسَايرَةٍ، وتُساورها إِنْ هَمَّتْ بمساوره، سَلْقَةً^(١٠) طريفةَ الحَلْقَةِ، ذاتُ ذَنْبٍ مستديرٍ كالحَلْقَةِ، تَوُرُّ الحِزَانِ أَرَا^(١١)، وتورثُ الفتیانَ حِرْصًا وَعِزًّا، عَرِيَّةُ الشَّكْلِ كما وصفَ ابنُ مرْعَزَا^(١٢)

محبوكَةُ الظَّهْرِ لم يُحْنِهَا	لصوقُ بَطْنٍ مِنْهَا خَمِيصِ
كالقوسِ في شكلِها ولكنْ	تَنْفُذُ كَالسَّهْمِ للقنْصِ
إِنْ تَخَذَتْ أَنْفَهَا دَلِيلًا	قَادَ إِلَى الكَامِنِ العَوِيصِ
لَوَأْتَهَا تَسْتِثِيرُ بَرْقًا	لم يجد البرقُ مِنْ محيِصِ

(١) الشمْلَةُ (بالتشديد) : الفرس أو الراحلة الخفيفة السريعة المشمزة.

(٢) مشمعلة: صفة للفرس أي : خفيفة سريعة نشيطة.

(٣) العرجون: العذق عامة، وقيل: هو العذق إذا بيس واعوج، وهو أصفر عريض .

(٤) مؤللة: حادة منتصبة.

(٥) الجلم: المقرض الذي يُجْرُبه الشعر والصوف ونحوهما .

(٦) الشيحان: السريع أو الطويل الحسن الطول.

(٧) التقريب: وضع الرجلين موضع اليدين في العدو، والتنفل: ولد الثعلب.

(٨) الإرخاء: ضرب من عدو الذئب يشبه خبب الدواب، واليرحان: الذئب وهو ينظر إلى قول امرئ القيس في وصف فرسه:

له أَيْطَلَا ظبي وساقا نعامٍ وإِرْخَاءُ سِرْحَانٍ وتقريبُ تَنْفُلٍ

(٩) الجُذْذُ: كسر الشيء الصُّلْبِ.

(١٠) السَلْقُ: شدة الصوت، أو الماضية في سيرها. (اللسان: سلق).

(١١) الأَرُ: الحركة الشديدة، ويقال: أَرَّت القدر أَرًا: إذا اشتدَّ غليانها، والحِزَانُ: أي تختزن الطريق من سرعتها.

(١٢) ابن المرعزي النصراني الاشبيلي: من نصارى إشبيلية، ظهر في دولة المعتمد بن عباد، وكان من مدّاحه (المغرب ١/

صلاحها في أكمة توافيها، وسلاحها مجموعة في فيها. قد قد من الأديم قدّها،
وحكى الغزال لحظها وقدّها، وقد احتمل فوق شماله أجل جارح^(١)، تميل إليه النفوس
والجوارح. قد أتقنت حلاه أي إتقان وكأنا خضبت رجلاه باليرقان، يعقد بمنقاره عقد
سبعين، ويشد على الفريسة بثلاثة وتسعين، قد احتمل أحسن درع وأحسن برود، ونضر
في عطفه تيهًا كما تنضر الغادة الرود^(٢)، وحلي بدرع أبدع في تصفيفها، وحلي بالخلخل
وتصنيفها، فإذا خلا له الجو، باض وصفر^(٣)، وإن أبصر جارحاً غيره قلق ونفر، وإن
أحفته غيوم النور^(٤)، وأبصر عقاباً في الجو شد إلى الرجوع زيمه^(٥)، وأمطر من الخضوع
ديمه، فيخضع خضوع غريب، ويلتفت التفات مريب، ويهدأ هدوء العلجوم^(٦)، وينظر
كأنها ينظر في النجوم.

قال فتح: فدنوت من مطيته، لأعلم كنه طيته، وسلمت وسلم، وتأوه وتألم، وقال:
الحمد لله الذي علم الإنسان ما لم يكن يعلم^(٧)، ورشق يمنة وشمالاً، واستنشق صباً
وشمالاً^(٨)، فشغلت عن استرشاده، لعدوبة إنشاده^(٩):

(١) أي أن الفارس كان يحمل معه صقراً للصيد.

(٢) الرود: الناعمة اللينة.

(٣) ينظر إلى قول طرفه.

خلا لك الجو فيضي واصفري

يا لك من قبرة بمعمر

(٤) النور: مخفف النوء (المطر

(٥) العقاب: النسر.

(٦) الزيم: المتفرق، وتزيمت الإبل والدواب تفرقت، والمعنى مجازي.

(٧) العلجوم: الظلمة الشديدة، أي أنه يهدأ كهدهو الليل، ومن معاني العلجوم كذلك: الماء الكثير، والصفدع، والبط ذكره
وأثاء (اللسان: علجم).

(٨) يقتبس من قوله تعالى ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق ٥)

(٩) شمالاً: رياح الشمال. وقيل إنها تهب من قبل الشام عن يسار القبلة.

(١٠) والصبا: ريح معروفة تقابل الدبور.

ظَلَّتْ تُرِيدُ سَبِيلَ الْعَدْرِ تَسْلُكُهُ قَتَانَةٌ زَانِمَا الْإِدْلَالُ وَالْحَقْفَرُ
قَالَتْ: أَتَرْحَلُ مُخْتَاراً فَقُلْتُ لَهَا: إِنَّ الْمَقَامَ عَلَى ذَلِكَ هُوَ السَّفَرُ

وظَلَّتْ أُمَاشِيهِ لِرَقَّةِ حَوَاشِيهِ، وَأَلَازِمُهُ مِلَازِمَةُ الظِّلِّ لِلأَشْبَاحِ، وَأُمَازِجُهُ مُمَازِجَةُ
النَّفُوسِ لِلأَرْوَاحِ، فَمَا سَأَلْتُهُ عَنْ حَدِيثٍ إِلَّا ذَكَرَهُ بِنَصِّهِ، وَلَا عَنْ أَمْرٍ إِلَّا جَاءَ مِنْ فَصِّهِ.

وَسَرْنَا إِلَى خِنْدَقِ أَوْسٍ^(١)، وَدُسْنَا نَوَاحِيَهُ أَيَّ دَوْسٍ، وَرَمِينَا غَرَضَ الرِّحْلَةِ عَنْ كُلِّ
قَوْسٍ، وَتَصَدَّيْنَا بِتِلْكَ الْأَحْوَازِ^(٢)، وَحَكِينَا نَخْوَةَ وَلَاَةِ الْأَهْوَازِ^(٣)، وَوَصَلْنَا عَبْلَةَ الرِّيحِ،
وَقَدْ أَبْدَى عَنِ الرَّرْغَوَةِ الصَّرِيحِ^(٤)، فَبِتْنَانِهَا أَحْسَنَ مَبِيتٍ، نَتَجَاذِبُ عَنِ الزَّرَوَاءِ وَمِلَيْتِ^(٥)،
وَنُرْسِلُ بَيْنَنَا عَوَارِفَ الْأَدَبِ، وَنُنْسِلُ الْبَلَاغَةَ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ.

وَلَمَّا قَرُبَ حِينُ السَّفَرِ وَحَانَ، وَتَعَرَّضَ فِي الْأَفْقِ ذَنْبُ السَّرْحَانِ^(٦)، بَعَثَ اللَّهُ النَّسِيمَ
عَلِيلًا، وَهُوَ يَجْرُ ذَيْلُهُ بَلِيلًا^(٧)، وَالظَّلَامُ مُوَلِّيًّا كَلِيلًا، وَالْبَرْقُ يَصْدَعُ^(٨) جِلْبَابَ الظَّلَامِ،
وَالرِّيَّاحُ تَقْتَادُ أَزْمَةً الْغَمَامِ، وَسُلَّ سَيْفُ الْبَرْقِ مِنْ غَمْدِهِ، وَسَبَّحَ الرَّعْدُ^(٩) وَلَاحَظَ شَيْءٌ

(١) الخندق: الوادي، وخندق أوس: موضع.

(٢) الأحواز: النواحي والحوُز من الأرض أن يتخذها رجل ويبيّن حدودها فيستحقها، فلا يكون لأحد فيها حق معه.

(٣) الأهواز: سبع كور بين البصرة وفارس، لكل واحدة منها اسم، وليس للأهواز واحد من لفظه (اللسان: هوز).

(٤) في المثل: «تحت الرغوة اللبن الصريح» أو «الصريح تحت الرغوة» أي أن الأمر مغطى عليك وسيبدو لك. (مجمع الأمثال
للميداني ١/ ٤٢٨).

(٥) الزوراء: مدينة ببغداد في الجانب الشرقي، ودجلة ببغداد تسمى الزوراء، والزوراء: دار بالخيرة بناها النعمان بن المنذر.
ومليت: موضع.

(٦) كناية عن طلوع الفجر.

(٧) البليل: ريح يادرة مع ندى.

(٨) يصدع: يشق ويمزق.

إِلَّا يَسِيحُ بِحَمْدِهِ ﴿١﴾، فَأَهْمَلَتِ السَّمَاءُ دُمُوعَهَا، وَأَرَوَّتِ الْأَرْضُ مَعَاهِدَهَا وَرَبُوعَهَا، وَعَمَّ
المطرُ بالبرى، وسالَ واديه فَطَمَّ على القرى، وأصبح وكُلُّ في لَجَّةٍ يَسِيحُ، وركبنا خائضينَ
في أحوال، حامدينَ لله على كُلِّ حال، فانقشع الغمامُ وانجَابَ، والشمسُ تنظرُ من رواءِ
حجاب، وانتثرَ عن الشمسِ السَّحابُ في خَبْها، «وأشرقَتِ الأرضُ بنور ربِّها» ﴿٢﴾،
وخدت نارُ القرى وَخَبَتْ، وأُنْزِلَ الماءُ على الأرضِ فاهتزت وربتُ ﴿٣﴾. وغدونا نركضُ
مطَّيِّ الارتياح، ونقبضُ هدايا الرُّوض من أكفُ الرِّياح، وننحاشُ عن السَّفَرِ، ونقطعُ
بمُلَحِ الحديثِ المهامه والفقْر، حتى وصلنا الكَثيبَ المهيل ﴿٤﴾، وأَجَزْنَا سَاحَةَ التَّكْبِيرِ
والتهليلِ، واللَّيْلُ قَدْ مُدَّتْ أَنْسَاعُهُ ﴿٥﴾، والوقتُ قد ضاقَ اتساعُهُ، وأوانُ النَّهَارِ قد أَزِفَ،
وماؤه قد نَزَفَ، وعبءُ العشى قد قُذِفَ، وَحَرِفُ الْأَضْوَاءِ قد حُذِفَ، وألويةُ الوادي قد
نُشِرَتْ، وسطورُ الضِّيَاءِ قد بُشِرَتْ، وأممُ الحَنَادِيسِ قد حُشِرَتْ، ومُدَّتْ مِنَ اللَّيْلِ
مَسْوَحُهُ ﴿٦﴾، وأحيا ميتَ الظَّلَامِ مَسِيحُهُ ﴿٧﴾، والسَّنَةُ ﴿٨﴾ تُلَازِمُ الْجَفُونَ، مُلَازِمَةُ النُّصُولِ
لِلْجَفُونَ ﴿٩﴾، فَمِلْنَا إِلَى خِيَمَةِ مِنَ الْخِيَامِ، وَوَصَلْنَاهَا وَالنَّاسُ نِيَامٌ، فَطَفْنَا بِأَسْبَابِهَا ﴿١٠﴾، وانتهينا

(١) الإسراء ١٧، والآية ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسِيحُ بِحَمْدِهِ﴾

(٢) الزمر: ٦٩.

(٣) يقتبس من قوله تعالى ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ (الحج ٥)

وقوله تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَائِبَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ (فصلت: ٣٩)

(٤) الكثيب المهيل: الرمل الذي لا يثبت مكانه، فينهال ويسقط.

(٥) الأنساع: الحبال، والسير الذي يُضَفَّرُ وتشدُّ به الرحال.

(٦) مسووحه: ذوائبه، والمعنى مجازي.

(٧) يقتبس هذه الصورة الجميلة من معجزة المسيح عليه السلام في إحياء الموتى، ويشخص الظلام تشخيصاً جليلاً.

(٨) السنة: النعاس، ومنه قوله تعالى ((لا تأخذه سنة ولا نوم)).

(٩) الجفون الأولى: جفون العين، والثانية: غمد السيف.

(١٠) أسباب الخيام: حبالها أو أوتادها

إلى بابها، وقرعنا قرعاً حثيثاً، وهتك المصباح لنا ستراً رثيثاً^(١)، وناديننا: بأن هلم إلى الباب، فلبى صاحب الخيمة واستجاب، وخرج ينساب انسياب الفرات، وقال: مرحباً بالسارة السراة^(٢)، وبالوجوه الوجوه^(٣)، انزلوا في رحب وفي سعة، وبالجزع لا تحلفوا فأنتم في أمن وفي دعة، فدخلنا في خيمة ذات منير ومنار، ومصباح نور وقبس نار، وبثنا تحت جود وندى، وبات على النار المحلق والندى^(٤). ولما اطمأن مجلسنا وطاب، وبلغ بُسر^(٥) الأنس إلى حد الإرتاب، ولنا من لذة الوصول، كل أمنية وسؤل^(٦)، ظلت أسائل عن الحضرة ونعيمها، وأنقب عن سيدها وزعيمها، ومشيد مبانيها، وحامي دمارها ومغانيها، وساحب ذيل برها، وصاحب بحرها وبرها، ذي الرأي السديد، والبأس الشديد، والحكم المأمون، والنجاح المضمون، القائد الأجل أبي عبد الله بن ميمون^(٧)، سيف هذه الملّة، وحنف الطائفة الضالة المضلة، فقال: ذلك رجل ماجد، له على الكفرة قلب واحد، من الذين يشكون المشكاة، ويقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة^(٨)، ويأدرون من الفضل إلى السبيل الأهد الأشكر، ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ

(١) رثيث: ضعيف.

(٢) السراة: الأشراف، ذوو الشرف والمروءة والسخاء.

(٣) الوجه: المحيّا. ووجوه القوم: سادتهم وأشرافهم، وهو المراد.

(٤) يقتبس من قول الأعشى في مدح المحلق بن شداد بن ربيعة:

نُسِبَ لقرورين يصطيلانها وبات على النار الندى والمحلق

(٥) البُسر: التمر قبل أن يوطب لغضاضته، (واحدته: بُسرة).

(٦) سؤل: مخففة الهمزة لمراعاة السجع: مطلب.

(٧) هو قائد أسطول أمير المرابطين، تاشفين بن علي (ت ٥٣٩هـ).

(٨) يقتبس من قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ ذِكْرُونَ﴾ (المائدة: ٥٥).

وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴿٣١﴾، وَمِنَ الَّذِينَ صَبَرُوا وَجَاهَدُوا ﴿٣٢﴾، وَمِنَ الْمُؤْمِنِينَ بَعَثَهُمْ إِذَا عَاهَدُوا ﴿٣٣﴾، لَا يَضْرِبُ قَدَمًا إِلَّا فِي سَبِيلِ صَلاَحٍ، وَإِصْلَاحِ سَلاَحٍ، أَوْ هَمٍّ مِنْ أَمْرِ الْعَدُوِّ يَهْمُهُ، أَوْ رَمٍّ فِي ذَاتِ اللَّهِ يَرْمُهُ، حَزَمٌ مِنَ الصَّوَارِمِ أَصْرَمٌ ﴿٣٤﴾، وَكَفٌّ مِنَ الْغَمَامِ أَكْرَمٌ:

إِنْ شَامٌ ﴿٣٥﴾ طَرَفَكَ كَفُّهُ أَوْ سَيْفُهُ وَعَرْنَكَ مِنْهُ أَبْوَسٌ أَوْ أَنْعَمٌ
أَبْصَرْتَ أَجَالًا تَحُلُّ وَتَنْتَهَى وَرَأَيْتَ أَرْزَاقًا تَعْدُ وَتُقَسِّمُ
إِنْ حَابَى فِكْرُكَ لِلْمَالِ مُبِيرٌ، أَوْ احْتَبَى فَيَكْمَلُ أَوْ ثَبِيرٌ ﴿٣٦﴾، وَسَلْنِي ﴿٣٧﴾ وَلَا
يُنَبِّئُكَ مِثْلَ خَبِيرٍ ﴿٣٨﴾.

قلتُ : قد وصفت بعضَ حليته وأدواته، فصِف لي بعضَ غزواته ! قال : هُنَّ سُلُوكٌ
لَا يُطَاقُ لَهَا نَفَرٌ، وَسَلْنِي عَنْ أَيْمَنَ فَهِنَّ كَثُرَ ! قلتُ : القريبَةُ العهدِ، المربعَةُ لأطفالِ
المشركين في المهد. قال : أُنْبِئُكَ بغزوةِ رُمَّانةَ، ونَاهِيكَ مَنْ مَكَانٍ لِلشُّرْكِ وَمَكَانَةٍ. لَمَّا بَلَغَ
مِنَ الْعَزِيمَةِ أَقْصَاهَا، وَجَمَعَ جِيوشَ الْقَطَائِعِ وَأَخْصَاها، وَنَسِيَ طِيبَ لَذَّةِ الْوَسَنِ،
وَأَنَسَاها، ﴿٣٩﴾ وَقَالَ أَرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ بِحَبْرٍ نَهَا وَمُرْسَهًا ﴿٤٠﴾، وَسَنَى اللَّهُ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ مَا يُسَّرُ
وَيُسِّرُ، وَرَكَبَ عَلَى ذَاتِ الْوَاحِ وَدُشْرٌ ﴿٤١﴾، وَسَارَ يَلْجُ مِنَ الْبَحْرِ فِي كُلِّ لُجَّةٍ، وَيَحْجُجُ مِنْهَا إِلَى

(١) اقتباس من قوله تعالى: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (التوبة: ٧١).

(٢) اقتباس من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَاءَهُمْ أَصْحَابُكَ رَبُّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَنْ نَقُودَ رَجِيئًا﴾ (النحل: ١١٠).

(٣) يقتبس من قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بَعَثَهُمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ (البقرة: ١٧٧).

(٤) أصرم: أقطع، والصارم: السيف القاطع.

(٥) شام: تطلع ونظر، وشام السحاب والبرق: نظر إليه: أين يقصد، وأين يمطر

(٦) ثبير: جبل بمكة.

(٧) فاطر: ١٤

(٨) هود: ٤١

(٩) يقتبس من قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْوُجْهِ دُشْرًا﴾ (القمر: ١٣).

والدُشْر: خيط من ليف يسدُّ به ألواح السفينة، وقيل هو: مسارها، ويقال: دسرت السفينة الماء بصدورها: عاندته.

كُلُّ مُحِجَّةٍ^(١)، لتكونَ له بذلك عند الله حُجَّةٌ، وظلَّ يُريدُ وَجْهَ الله بأنجدِ أصحابِ، وألويةِ نَصْرِ خَافِقَةٍ في السَّحابِ، قد التحفَتْهم الرِّياحُ والبُحُورُ، ولا يَحَارُ لمسلمٍ فيحور^(٢)، والنُّفُوسُ على نَفَاسِتها مهوَرُ الحُورِ^(٣)، فوصل رُمانةً بالفُلكِ، ويدُ النَّصْرِ تقضي على الشُّركِ بالتدميرِ واهلُك، ولسانُ الحقِّ يتلو ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾^(٤).

وحيْنَ وصلَهم بالأسطُولِ، وعمرٍ من نادِهم العرضَ والطُّولِ، علا نحيبُهم وصياحُهم^(٥)، ونزلَ بساحتِهم فَسَاءٌ صباحُهم، فأوقفهم الله الموقفَ الصَّعبَ، «وقذَفَ في قلوبهم الرُّعبَ»^(٦)، وأذاقَهُم في بَرْدِ الغدوِّ حرَّ الهَواجرِ، وبلغتِ القلوبُ منهمُ الحَنَاجِرَ^(٧)، وتشاجرتِ السَّيُوفُ والحَنَاجِرُ، ولا تحاكمُ إلاَّ لأطرافِ الرِّماحِ الشَّواجرِ^(٨)، فأباح حَرَمَها، واستباح حُرَمَها^(٩)، وأكملَ من غَزَوها فرائضَها ونوافِلَها، وردَّ ديارَ الشُّركِ عاليها سافلَها، وانصرفَ على خيولِ السَّعادةِ، وأضمرَ بحولِ الله غَزَوةَ مُعادةٍ.

(١) المحجَّة: الطريق.

(٢) يحور: يرجع.

(٣) الحور: نساء الجنة.

(٤) الملك (١) والآية «تبارك الذي بيده الملك وهو كل شيء قدير».

(٥) أي نحيب الكفار وصياحهم.

(٦) الأحزاب: ٢٦ والآية بنهاهما: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَنَأْسٍ شُرَكَاءَ قُرَيْشًا﴾.

(٧) يقتبس من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ لَلْأَبْصَارُ وَلَئِنْ زَاغَتْ أَلْأَبْصَارُ لَلْأَبْصَارُ﴾ الأحزاب: ١٠.

(٨) الرماح الشواجر: المتداخلة المختلفة.

(٩) الحرم (بالفتح): كل ما حُرِّم فلم يُمس، والحرم (الضم): النساء يقال: حُرِّم الرجل أي عياله ونساؤه وما يُحمى، وهي

المحارم.

ولما انصرف مسروراً بحُسن يقينه، ووصل محبوراً إلى خَيْسِهِ وعَرِينِهِ^(١) ما بَدَل ثوباً لَيْسَهُ، ولا فَرَّق خَوْلَهُ^(٢) وحرَّسه، حتى تلا قُرْبَنَا: «واعلموا أنَّها غنمتم مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ مُحْسِنٌ»^(٣) فَهَضَّ وهو الحفيظ الأمين، نحو أمير المسلمين^(٤)، فلَقَاهُ بِشْراً ورُحْباً، وَصَدْرًا مُلِئاً حُبًّا، وفاكهة مِن التَّحْفِي وَأَبَّا^(٥)، وأراه وَجَهَ أَمَلِهِ غُلَامًا، ولقاه تَحِيَّةً وسلاماً^(٦)، وشيَعَهُ عِنْدَ انفصالِهِ أُمِيالاً، وجعل سِمةَ التَّنْوِيهِ فِي نِجَادِهِ نِيالاً^(٧)، وَمَعَ مَا يُنِيلُهُ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ - أَيُّدُهُ اللَّهُ - من الجَاهِ والبرِّ، والإِكْرَامِ المُبَرِّ، لا يَزَالُ يُوَالِي مِنَ التَّوَاضُّعِ مَا بِهِ اللَّهُ قَدْ نَفَعَهُ، وَمَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ.

قَالَ فَتَحُ: فَلَمَّا سَمِعْتُ تِلْكَ الْأَلْفَاظَ الْإِيَادِيَّةَ^(٨)، وَالْأَغْرَاضَ الزِّيَادِيَّةَ^(٩) تَأَمَّلْتُهُ، وَلِلتَّائِيْسِ أَتَمَّلْتُهُ، وَرَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ صَاحِبِي بِصُورٍ، سَعْدَ بْنَ مَنْصُورٍ، فَحَدَّرَ الْقِنَاعَ^(١٠) عَنْ صَبْحٍ مَلُثٍ^(١١)، وَنُطِيقَ غَيْرِ لَكْنٍ وَلَا مُتْلَعْتُمْ، فَشَمَنْتُ رِيَاءَهُ، وَشَمْتُهُ فَلِذَا هُوَ إِيَاءُهُ، وَقُلْتُ: سَعْدُ؟ قَالَ: سَعْدُ، جَمَعْتَنَا اللَّيَالَى عَلَى غَيْرِ وَعَدٍ،

(١) الخيس والعرين: موضع الأسد.

(٢) الخَوْل: العبيد والخدم.

(٣) الأنفال: ٤١.

(٤) أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين

(٥) من قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّهِمْ وَأَنَا﴾ سورة عبس: ٣١ والأب: كل ما أخرجت الأرض من النبات.

(٦) من قوله تعالى: ﴿وَيُلْقَوْنَ فِيهَا حَيَّةً وَمَلَكًا﴾ (الفرقان: ٧٥).

(٧) النجاد: حائل السيف، ويكنى بطول النجاد عن طول القامة.

(٨) الألفاظ الإيادية: نسبة إلى إياد بن نزار بن معد، وإياد: حي من معد باليمن.

(٩) نسبة إلى زياد بن أبيه (؟)

(١٠) حدر القناع: رفعه وأسقطه.

(١١) إشارة إلى اللثام الذي كان يضعه المرابطون على وجوههم.

﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾^(١)، غَبْتُ وَشَبْتُ وَصِرْتُ أَبَا الْبَنَيْنِ. قال: ﴿الْعَرْ
 نُزَيْكَ فِينَا وَلَيْدًا وَلَيْشْتَ فِينَا مِنْ عُمَرِكَ سَيْنِ﴾^(٢)، فَعَانَقْتُهُ مُعَانَقَةَ الْأَدِيبِ
 لِأَحْبَابِهِ، وَكَلَفْتُ بِهِ كَلْفَ عُمَرَ بَرَابِهِ^(٣)، فَصَحَبْتُ ذَلِكَ الذِّكَاءَ^(٤)، إِلَى طُلُوعِ
 ذُكَاءٍ، وَاسْتَوَى عَلَى ظَهْرِ الْمَطِيَّةِ، وَلَا أُدْرِي لِأَيِّ طِيَّةٍ، وَأَتَّبَعْتُهُ مِيلًا، فَمَا رَأَيْتُ لَهُ
 زَامِلَةً وَلَا زَمِيلًا^(٥). وَاللَّهُ يَصْنَعُ لَنَا وَلَهُ صُنْعًا جَمِيلًا.

كَمَلْتُ بِحَمْدِ اللَّهِ وَحُسْنِ عَوْنِهِ.

(١) يقتبس من قوله تعالى ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ (الروم: ٤).

(٢) الشعراء: ١٨.

(٣) هو عمر بن أبي ربيعة المخزومي، وقد تغزل في غير امرأة، منهنَّ الرِّبَاب التي جرى ذكرها في شعره.

(٤) الذِّكَاء (بالفتح) سرعة الفطنة، وَذُكَاء (بالضم) اسم الشمس.

(٥) الزَّامِل من الدواب: النشيط في سيره.

تحليل المقامة:

هذه المقامة في مديح القائد عبد الله بن ميمون، وبطلها اسمه «فتح بن ميسور»، ومكانها مدينه «صور». والشخص الثاني فيها يدعى «ابن منصور» وهو شاب فصيح جميل، نشأت بينه وبين فتح بن ميسور علاقة صداقه، ثم حكم الدهر بفراقهما، فإذا ابن ميسور يبلغ مدينة سلا، ثم تشوّق إلى اللّحاق بمدينة المريّة، «ووصلت إلى مدينة وادي آش، وجسمي لا يتبيّن حولاً في فراش، وفراشي فوق أجنحة الفراش». وهنالك بينما كان فتح ينعم بالراحة ظهر له أحد الفرسان «قد اعتقل أكمل لأمة، وصولج في خدّه لامة، واعتمّ بأجل عمامة، وجعل الحذر وراءه وأمامه، جليل له همّة تجلّه، قليل على ظهر المطيّة ظلّه، وقد تنكّب فرساً عربيّة، وكنانة غربية.....».

ويطيل «فتح» في وصف هذا الفارس الذي حمل معه صقراً للصيد، ويسير مع هذا الفارس يقطعان الصحاري والقفار بملح الحديث إلى أن غشيهم الظلام، وأمطرت السماء «فلما إلى خيمة من الخيام، ووصلناها والناس نيام»، ويستقبلهما صاحب الخيمة وينزلهما في رحب وسعة، ويسأل «فتح» عن سيد هذه الحضرة، فيعرف أنّه القائد الأجلّ أبو عبد الله بن ميمون «سيف هذه الملة وحفّ الطائفة الضالّة المضلّة»، ويصف الرجل ما يتميز به ابن ميمون من صفات، فهو «رجل ماجد، له على الكفرة قلب واحد، من الذين يشكون المشكاة، ويقىمون الصلاة ويؤتون الزكاة». ويطلب «فتح» من الرجل أن يصف له بعض غزوات ابن ميمون، فيحادثه عن بلائه في غزوة «رمانة» وهي غزوة بحريّة، انتصر فيها «وسار يلج من البحر في كل لجة، ويحجّ منها إلى كلّ محجة، لتكون له بذلك عند الله حُجة....»، فلما سمع «فتح» تلك الألفاظ تذكّر فصاحة صاحبه الذي رآه بمدينة صور، والمسمّى سعد بن منصور «فحدر القناع عن صبح ملثم، ونطق غير لكن ولا متلعثم، فشمت رياه، فإذا هو إياه، وقلت: سعد، قال: سعد جمعنا الليالي على غير وعد، والأمر لله من قبل ومن بعد».

وواضح أن الغاية من المقامة هي مدح القائد ابن ميمون، وذكر شجاعته في الحروب البحرية.

من مقامات للوزير الكاتب أبي عامر بن أرقم^(١)

ومن كلامه في مقامة أنشأها في الأمير تميم بن يوسف - أيده الله تعالى - ووصلها بالقرطبية، أولها، قال «فلان بن فلان»: ولما اجتليت ما نصّه، واستوفيت ما قصّه، قلت: أحق منزل ببرك، فعجت الرّواحل، لأطوي المراحل، أمل كعبة الآمال، وقبلة الأمال، فبينما أنا أسير، وقد لطي الهجير، ولا قعيد ولا ناطح، إلا الآكام والأباطح، ولا سانح ولا بارح، إلا الآل والبارح، إذ رُفع لي شخص، يقربه ذميل ونص، إذا فتى عليه بزة، تشهد له بالعزة، يركب وجناء كأنها سبيكة لجين، قد أخلصتها يد القين، ويحث دهماء تسبح سبحا، وكأنها ليل يباري صبحا، فلما دنا وقف، فطرف، ووضع من لثامه، وأوجز في سلامه، فرددت كما يرد العجل، وتوقعت فوته، فقلت: من الرجل؟ فقال:

إني امرؤ لا يغتري خلقي	دس يفتنه ولا أفن
من منقر في بيت مكرمة	والفرع ينبت حوله الغصن
فصحاء حين يقول قائلهم	بيض الوجوه مصانع لسن
لا يفطنون لعيب جارهم	وهم لحفظ جواره فطن

قلت: في كل عود نار، واستمجد المرح والعفار، لله أنت! فما أضون جارك، وأكرم نجارك، لم تدب الضراء، ولم تمس الحمراء؟! فالتفت نحوي قائلا: النبع يقرع بعضه بعضا، ثم أذاه الاهتبال، إلى السؤال، فقال: أين أمك؟ وما همك؟ قلت: غرناطة، فقال: حيث اللمة المشفقة المحتاطة، والسدى والندى، والأجاد ولأنجاد والإصراخ والأنجاد،

(١) ورد هذا الجزء من مقامات أبي عامر بن أرقم في كتاب فلان العقيان: ص ٣٧٢ - ٣٧٤.

وَالْعَوْرُ وَالنَّجَادُ، أُكْرِمَتْ، فَارْتَبَطُ، قلت: وما عملك بها؟ قال: هي المَطْلَعُ، وإليها بِحَوْلِ
اللهِ الْمَرْجِعُ، قلتُ: دَنَا مُرَادُكَ، وَأَجْنَى مُرَادُكَ، وتمثلتُ: قتلتُ أَرْضَ جَاهِلَهَا،، وَقَتَلَ
أَرْضاً عَالِمُهَا^(١)، ففهم النَّزْعَةُ، فقال: سَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ، على الخبير سَقَطَتْ^(٢):

فَأَقْبَلْتُ فِي السَّاعِينَ أَسْأَلُ عَنْهُمْ سَوَالَكَ بِالشَّيْءِ الَّذِي أَنْتَ جَاهِلُهُ

قُلْتُ: فَسَطَاطُهَا؟ فقال: قصور تُقَرُّ لها إِرْمٌ^(٣) بالقصور وسور؟ أَعَيْنُ
الحوادثِ عنه صور^(٤)، كأنَّه الثَّغَرُ المبتسَمُ، والسلك المنتظم. ومن شعره فيها^(٥):

فَتَى الْحَيْلِ يَفْتَادُهَا ذُبْلًا	خِفَافًا تَبَارِي الْقَنَا الذَّابِلَا
تَرَى كُلَّ أَجْرَدَ سَامِي التَّلِي	لِ تَحْسَبُهُ غُصْنًا مَائِلَا
وَجَرْدَاءَ إِنْ أَوْجَسَتْ صَارِحًا	تُذَكِّرُكَ الظَّيْبَةَ الْخَاذِلَا ^(٦)
إِذَا شَنَّهُنَّ بِأَرْضِ الْعِدَى	يُصَيِّرُ عَلَيْهَا سَافِلَا
وَلَمْ أَرِ بَذَرَ تَمَامِ سَوَاهُ	يُسْمُوْنَهُ الْأَسَدَ الْبَاسِلَا
أَقَامَ الْعَجَاجَ سَمَاءَ عَلَيْهِ	وَأَقَسَمَ أَنْ لَا يُرَى آفِلَا
وَلَمْ يَضْرِبِ الْهُوْلُ هَمَاتِهِ	وَمَنْ يَضْرِبُ الْقَدَرَ النَّازِلَا؟

(١) القتل: التذليل. يضرب في مدح العلم، ويقال في ضده: قتلت أرض جاهلها، (الميداني: ١٠٨/٢).

(٢) سقطت: عثرت. وانظر المثل: (الميداني: ٢٤/٢).

(٣) إرم ذات العباد، وهي إرم عاد، باليمن بين حضر موت وصنعاء، من بناء شداد بن عاد. (معجم البلدان: ١٥٥/١)

(٤) صور: مائلة.

(٥) القرطبية: هي المقامة القرطبية (انظر ص من دراستنا هذه).

(٦) الظبية الخاذل: المقيمة على ولدها.

تعليق:

هذه قطعة من مقامة في مدح مدينة غرناطة، ويدور الحوار فيها بين شخصين أحدهما يدعى «فلان بن فلان» وهو الرواي، والآخر: من أبناء الجاه والخواص، وهو البطل. وتبدأ المحاور، وأول سؤال يدور فيها حول غرناطة نفسها، فيسأل الفتى: أين أمك؟ وما همك؟ قلت: غرناطة.....» وختمها بأبيات شعرية.

ولكن ماصلة هذه المقامة بالمقامة القرطبية؟ لقد صدّرت هذه المقامة بعبارة «وصلها بالقرطبية». وهي عبارة تحتل أكثر من تفسير، فالمقامة القرطبية في هجاء قرطبة وأعيانها، ومقامة أبي عامر في مدح مدينة غرناطة وأحوالها. أمّا عبارة «وصلها بالقرطبية» فيبدو أنها رد على المقامة القرطبية ونقض لما فيها، وهذه مديح لمدينة غرناطة. ونظراً لتفرد «قلائد العقيان» بإيراد هذا الجزء من المقامة، وعدم ورودها في أي مصدر آخر، فإنه لا يمكننا القطع بمدلول عبارة «وصلها بالقرطبية».

والمقامة التي منها هذا الجزء من مقامات المديح، أنشأها صاحبها - كما ذكر الفتح ابن خاقان - في مديح تميم بن يوسف بن تاشفين^(١)، ولكن صاحب «القلائد» لم يورد المقامة كلّها، ولم يورد شيئاً من عبارات المديح، التي نعت بها ابن أرقم ممدوحه. وبهذا فوّت علينا فرصة الوقوف على نموذج مكتمل من نماذج مقامات مدح المدن وأهلها.

(١) من أبناء يوسف بن تاشفين، أمير المسلمين، وملك المثلثين، سلطان المغرب الأقصى، وباني مدينة مراكش، توفي سنة

٥٠٠ هـ، ولم نثر على ترجمة لابنه تميم فيها بين أبدينا من مصادر.

المقامة القرطبيّة^(١)

عنوانها: ميزانُ الأعيان بحكم الزّمان إنشاء فلان بن فلان

قال فلان بن فلان: لما اختللت في سفرتي هذه مدينة كُدَيّ، لأقتني بأسبابِ نشأتها، وشئونِ هيأتها، وحينَ أذنَ اللهُ بالانفصالِ عنها، لم أبعُدْ كثيراً منها، حتّى لقيتُ وقد متعَ النَّهارُ^(٢)، فتى حديثَ السنِّ في أطمار^(٣)، ينقُذُ أثناءها وسامة، ويتقَدُّ شهامة، فقلتُ في نفسي: زميلٌ فيه خيرٌ وخبر، ويشهدُ له عينٌ وأثر، فسلمتُ فأحسنَ الردَّ وأثنى الحدَّ، فأشددتُه:

تحميه لألاؤُهُ وَلَوْ ذَعِيَّتُهُ عن أن يُقالَ: بمن أو مِن الرَّجُلِ^(٤)

فقال: اللهمَّ غُفْراً، بَدَاذَةُ الرَّوَاءِ^(٥)، تمنعُ من الاعتزاء، فاستجمعتُ وحرصتُ على ماكان قبله، ولم أزلُ آخذُ به في أساليبِ الحديثِ حتّى أعلنَ بعد التحيث، فإذا به قرطبي الدّار، يقضي له النُّبلُ بكرمِ النّجار، فقلتُ: طال بالحضرة عهدي، وحدثتُ بها الحوادثُ بعدي، فما عندك من أخبارها؟

فقال: أنا ابنُ بجْدَتِها^(٦)، فسَلُ عَمَّا شئتَ فيها، فقلتُ: قاضيها^(٧)! فقال: حوّل القضاءَ رياسة، ووسعَ الأمورَ سياسة، فتألَّفَ الدّهْمَاءَ، وكفَّ العدد والأعداء، من رجلٍ

(١) ورد نصّ المقامة في: رسائل ومقامات أندلسية، ص ١٣٩ - ١٥٦.

(٢) متع النَّهار: ارتفع وبلغ غاية ارتفاعه قبل الزوال (اللسان: متع).

(٣) أطمار: (جمع: الطَّمْرُ): وهو الثوب الخلق، والكساء البالي.

(٤) البيت لأبي تمام من قصيدة في مدح المعتصم (ديوانه ٢٠٢).

(٥) البذاذة: رثاءة الهيئة. والرّوَاء: المنظر.

(٦) يقال: هو ابن بجْدَتِها، للعالم بالشيء المتقن له.

(٧) المراد هنا هو محمد بن علي بن حمدين قاضي الجماعة بقرطبة، والذي يؤكد ذلك إشارته لابنه أبي قاسم، وقد ذكره ابن

بشكوال في الصلة (٢: ٥٧٠ ت ١٢٥٤).

له صَبَابَةٌ بِالشَّرِّ، لَا يَصْحَوُ عَنْ الْمَطَالِبَةِ فَوْاقًا^(١)، وَلَا يُرْسِلُ السَّاقَ فِيهَا إِلَّا مُمَسِّكًا سَاقًا،
يَفْزَعُ مِنْ ذَا إِلَى ذَلِكَ، وَيَضْرِبُ هُنَا وَهَنَالِكَ، وَهَبُهُ قَدْ اسْتَضْلَعَ وَاكْتَفَى، أَيْعَلُمُ كَيْفَ
تَكُونُ الْعُقْبَى؟ وَأَنْشُد: «وَالشَّرُّ أَخْبَثُ مَا أَوْعَيْتَ مِنْ زَادٍ»^(٢)

قُلْتُ: صَدَقْتَ، وَحَقَّقْتَ!

قُلْتُ: فَأَبُو الْقَاسِمِ ابْنُهُ؟^(٣)

قَالَ: ثَانِي يَحْيَى بْنُ زَكَرِيَّا، أُوتِيَ الْحُكْمَ صَبِيًّا^(٤)!

قُلْتُ: فَكَيْفَ حَالُهُ فِيهِمْ؟

قَالَ: يَعْرِفُ الْمَقَائِيسَ وَالْأَشْبَاهَ، وَيَمْلَأُ الْمَسَامِعَ وَالْأَفْوَاهَ.

قُلْتُ: فَأَبُو بَكْرٍ ابْنُ عَمِّهِ؟

فَقَالَ: وَلِيٌّ أَيْتَامَ، وَمَوْضِعُ كَلَامٍ!

قُلْتُ: وَاهَا لَكَ، أَيُّ إِيْمَاضٍ مَا أَحْلَاهُ، وَأَمْرَاصٍ^(٥) مَا أَجْلَاهُ!.

قُلْتُ: فَالْقُرْشِيُّ صِهْرُهُ؟

فَقَالَ: بَنَى دُنْيَاهُ، وَهَدَمَ أُخْرَاهُ، وَقَدْ فَدِمَ^(٦) فَعَلِمَ، وَلْتَمَسْكَ عَنْ ذِي قَرَمٍ^(٧)!

قُلْتُ: فَمَا عِنْدَكَ فِي كَاتِبِهِ ابْنِ أَبِي السَّدَادِ^(٨)؟

(١) الفواق (بالضم والفتح): ما بين الحلبتين من الوقت، والفواق (بالضم: ترديد الشهقة العالية.

(٢) عجز بيت لعبيد بن الأبرص، وصدره الخير يبقى وإن طال الزمان به (العمدة ١: ١٨٨).

(٣) هو أبو القاسم أحمد بن محمد بن علي بن حمدين صاحب أحكام القضاء لقرطبة (الصلة ٢: ٥٧٠ ت ١٢٥٤).

(٤) يقتبس من قوله تعالى: «يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتِنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا» مريم: ١٢.

(٥) المرص: الغمز.

(٦) القَدَم من الناس: العَيَّ عن الحجة والكلام مع ثقل ورخاوة وقلة فهم، وهو أيضا: الغليظ السمين الأحمق الجافي.

(٧) القرم: شدة الشهوة إلى اللحم وغيره.

(٨) ستأتى إشارة فيما بعد إلى أبي السَّدَاد. وفي الإحاطة (٢/ ١٣٩) إشارة إلى من يُسمى أبا محمد ابن أبي السداد الباهلي.

فقال: نصراني الأعراق، يهودي الأخلاق، اختيار حار فيه الناس، حتى وجد

النص والقياس، فوأييه لقد استجليتها فيه!

قلت: فما عندك في أبي الوليد بن طريف^(١)؟

قال: مكفوف الأذى، مغلول الشبا^(٢).

قلت: فكيف حاله معهم؟

قال: تعب كثير، ونفع يسير!

قلت: فما عندك في أصبغ بن محمد^(٣)؟

قال: رجل اغتر بحاله، ولم ير المطالب من رجاله، وأشهد له بجهله إلا أنه في السر

أجود بصراً، وأبعد أثراً، أما هذا الرجل فحاله حالة، وخصاله خصالة^(٤)، لا يدفع النهار،

ويرد المثل السيّار، إلا أن للشر عصابة حلوبه أشرأ، وجربوه عرفاً ومكراً^(٥)، فجاءوا

كنضاض لا يبل سليمهم، وشياطين لا يفل رجيهم.

وإن للحرب أقواماً لها خلقوا وللدواوين حساب وكتاب

قلت: فصاحبه أبو الوليد؟

فقال: نزا نزو القرار واستجهل القرار^(٦)، أو كما قال:

(١) هو أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن طريف . وصفه ابن بسام بأنه «أحد كُتّاب العصر . وفرسان النظم والنثر»

(الدخيرة ق ٢ م ٢ ص ٨١٨ .)

(٢) الشبا: (جمع: الشبابة) وشبابة كل شيء : حدّ طَرَفه، وقيل: حدّه.

(٣) هو أصبغ بن محمد بن أصبغ الأزدي، كبير المفتين بقرطبة، يعرف بابن المناصف، ويكنى أبا القاسم، روى عن أبيه

قاضي الجماعة أبي عبد الله، وعن أبي محمد بن عتاب، وأبي مروان بن سراج وغيرهم. (التكملة: ترجمة رقم ٥٥١)

(٤) الخصالة: (بالضم): الكُناسة.

(٥) العرف: ضد النكر.

(٦) القرار (الأول): ضرب من الغنم قصار الأرجل، قباح الوجوه. والقرار (الثانية): القاع المستدير يستقر فيه الماء.

وهل أنا إلا من غُزِيَّةَ إن عَوَتَ غويْتُ وإن ترشُدْ غُزِيَّةُ أرشد^(١)

وإني مع هذا أقول: وا أسفا عليه من علقِ بيعٍ وفَتَى أضيع!

قلتُ: فالشَّيْخُ ابن عَتَّاب^(٢)؟

فقال: يقول كما قال البغواء، وأنشد:

عُزِيْتُ حلومهم وما من معشِرٍ إلا وهم منه ألبٌ وأحزَمُ^(٣)

وإنا لله على زمانٍ سعى في فسادِ أحوالهم، وأماتهم قبل حلول آجالهم.

قلتُ: فما عندك في الفقيه أبي عبد الله بن الحاج^(٤)؟

فأنشد^(٥):

خلتِ الدِّيَارُ فسدتُ غيرَ مسوَدٍ ومن الشَّقَاءِ تفرُّدي بالسُّودِ

فقلتُ: فكيف حاله فيهم؟

فقال: أشفقُ من رسمِ الأغفال، وتقويمِ الجهَّال «كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ

فَمَنْ بَلَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ»^(٦).

(١) البيت لدريد بن الصَّمَّة، (الأصمعيات: ١٠٧)

(٢) هو محمد بن عَتَّاب بن محسن، من أهل قرطبة، وكبير المفتين بها، يكنى أبا عبد الله، كان فقيهاً عالماً، عاملاً ورعاً عاقلاً بصيراً بالحديث وطرقه... متفتناً في فنون العلم، حافظاً للأخبار والأمثال والأشعار، صلياً في الحق، مؤيداً له (المغرب: ١/ ص ١٦٥).

(٣) البيت لأبي تمام من قصيدة يمدح فيها مالك بن طوق (ديوانه ٢٤٢) وألب: أعقل وأحزم وأضبط للأمور. عزبت: غابت.

(٤) هو محمد بن أحمد بن خلف بن إبراهيم التجيبي، المعروف بأبي عبد الله بن الحاج، قاضي الجماعة بقرطبة.

(٥) البيت لحارثة بن بدر (البيان والتبيين ٤٩٤).

(٦) النساء: بعض آية ٩٤.

قلتُ: فما عندك في أبي جعفر ابن سفير^(١)؟

فقال: لا في العير ولا في النَّفير^(٢)، معزى مكيرة، عليها قشعريرة!

قلتُ: فما عندك في أبي الوليد بن عواد^(٣)؟

قال: قَيْدَتُهُ الزُّمَانَةُ لَا الدِّيَانَةُ، ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾^(٤)!

قلت: ففي أيِّ حَيِّزٍ هو؟

قال: اعتزل النَّاحِيَتَيْنِ، واحتجز الطَّائِفَتَيْنِ، فهو يشتم هنا وهنا، ويقول: أنا وأنا!

قلتُ: فما عندك في أبي الإصبع بن حزمون^(٥)؟

قال: ابنُ لبون^(٦)، لا ظَهَرَ قِيْرَكَبٌ، ولا لَبَنٌ فيحلب،

«رَأَى السَّلَامَةَ مِنْهَا تَرَكَ مَا فِيهَا»^(٧)

(١) لم أعثر له على ترجمة.

(٢) مثل مشهور، قال المفضل إنَّ أول من قاله أبو سفيان بن حرب، وله خبر في (الميداني ١٧٢ / ٢).

(٣) هو هشام بن أحمد بن سعيد، يعرف بابن العواد، ويكنى أبا الوليد، من أهل قرطبة، وكان من جلة الفقهاء وكبارهم، وعلمائهم وخيارهم، حافظاً للرأي، بصيراً بالفتيا... مع دين وفضل وورع... ودعي إلى القضاء بغير موضع فامتنع من ذلك، وتوفي سنة ٥٠٩ هـ (الصلة ٢ / ص ٣٧ ترجمة رقم ١٤٣٩).

(٤) الأنفال: بعض آية ٢٣.

(٥) هو عبد العزيز بن عبد الله بن محمد بن أحمد بن حزمون، من أهل قرطبة، يكنى أبا الأصبع، كان فقيهاً مشاوراً في الأحكام بقرطبة، صدرأ في المفتين بها، وتولى الصلاة بالمسجد الجامع بقرطبة، وتوفي سنة ٥٠٨ هـ (الصلة ٢ / ص ٣٧ ترجمة رقم ٧٩٧).

(٦) اللبون: الناقة ذات اللبن

(٧) عجز بيت ورد في مجمع الأمثال للميداني (١: ص ٢٠) أما رواية صدره فهي (والنفس تكلف بالدنيا وقد علمت).

فربض حجراً، وابتغى من عشيقته وَطْراً، واستردَّ صباه، وخطَّ في هواه، مُطَرَّحاً
للرياء، نابذاً للحياء، يُنشد في سَكينة، بيتي عروة بن أذينة: ^(١)

قالت وأبشَّتها شجوي فبحثُ به قد كنت عندي تحبُّ السَّتر فاستترِ
ألسَتْ تُبصر من حولي فقلتُ لها غطى هواك وما أبقى على بَصري

قلتُ: فما تقولُ في الوزير أبي الحسن بن سراج ^(٢)؟

قال: رأسُ الجلسة، ورئيسُ المعتزلية، ثارت الثَّورات، وجالت الجولات، حُلِّل
من العين والأثر، وتمثَّل الكلاب على البقر!

قلتُ فصاحبه أبو عبد الله بن مكِّي ^(٣)؟

قال: ساكن القدر، قريب الغور..

قلتُ: فثالثُهما أبو الحسن بن المصحفي ^(٤)؟

قال: مصدور لا يملك أن ينفث ^(٥)، ويخلف ألا فرج رجاء أن يحنث!

(١) هو عروة بن أذينة بن الليث، عاش في عصر بني أمية، ووفد على هشام بن عبد الملك كان عالماً شاعراً حاذقاً. معجم الشعراء: ص ٥٤. وقد ورد البيتان في الشعر والشعراء ص ١٣٨.

(٢) هو سراج بن عبد الملك بن سراج، من أهل قرطبة، يكنى أبا الحسين، وهو من أسرة قرطبية مشهورة، وكانت له عناية كاملة بكتب الآداب واللغات والتقييد، وكان حسن الخلق، كامل المروءة، من بيئة علم ونباهة وفضل وجلالة وكانت وفاته سنة ٥٠٨ هـ.

(٣) هو الوزير الفقيه أبو عبد الله جعفر بن محمد بن مكِّي بن أبي طالب القيسي، جده مكِّي بن أبي طالب المقرئ المشهور. أما هو فكان عالماً باللغات والآداب، ضابطاً، جماعة للكتب في هذا الشأن، وتلمذ عليه ابن دحية وابن بشكوال، وتوفي سنة ٥٣٥ هـ [الصلة ١: ١٢٩، التكملة ت ٢٩٤، المغرب ١: ١٠٨، بغية الوعاة رقم ٦١٧].

(٤) لعله حفيد أبي جعفر المصحفي الذي اشتهر في فترة الحجابة.

(٥) في المثل: «لا بد للمصدور أن ينفث» والمصدور: الذي يشتكي صدره، والنفث: البزق «اللسان: نفث».

قلت: فما عندك في أبي الحسن بن الصفار^(١)؟

قال: عاطٍ بغير أنواط^(٢) وسكيت^(٣) يتعاطى السباق، ومتأخّر يدّعي اللّحاق!

قلت: فما يعتقّد النَّاسُ فيه؟

قال: كُلُّ يَعْلَمُ تَخْلُفَهُ، وَيَبْغِضُ حَدَّثَهُ وَتَصْلُفَهُ، حَاشَى قَوِيمٍ مِنْ جِيرَانِهِ، فَإِنَّ مِنْ أَمَاهِمِهِمْ، لَوْ اشْتَرَوْا لَهُ لَحِيَةً بِأَنْصَافِ أَمْوَالِهِمْ!

قلت: فصاحبه أبو القاسم بن بقي^(٤)؟

قال: يساويه في التخلّف، وَيَفْضُلُهُ فِي كَثَرَةِ التَّكْلُفِ!

قلت: فأخوه صاحب الأحكام؟!

قال: حمارٌّ في مسخ^(٥) إنسان!، الاشتغال: بذكره مُضَيِّعٌ لِلزَّمان!

قلت: فأبو عامر بن فلفل؟!

قال: غادر داءً ونحا صحصحاً^(٦)، بعد ما توجه الحكم عليه، وتلمّظ الخصم إليه!

قلت: فهو مع ذلك كيف؟

(١) هو أبو الحسن علي بن الصفار، من أسرة قرطبية مشهورة، ذُكِرَ أَنَّ لَهُ تَارِيخًا فِي جَزِيرَةِ الْأَنْدَلُسِ (المغرب: ١ / ١٦٥).

(٢) عاطٍ بغير أنواط: مثل يضرب لمن يدّعي ما ليس يملكه. (اللسان: نوط).

(٣) السكيت: آخر ما يبحى من الخيل في الحلبة.

(٤) هو أحمد بن محمد بن أحمد بن بقي، من أهل قرطبة، يكنى أبا القاسم، وتوفي سنة ٥٣٢ هـ (الصلة: ١: ص ٧٩ - ٨٠،

ترجمة رقم ١٧٤).

(٥) المسخ: تحويل صورة إلى صورة أقبح منها.

(٦) الصّحَصَح: الأرض المستوية، ورجل صحصح: يتبع دقائق الأمور فيحصيها ويعلمها.

قال: لحمٌ على وضم، لولا ما ذبَّ عنه^(١)!

قلتُ: فما عندك في الشَّيخ أبي عمران بن أخطل^(٢)؟!

فأنشد^(٣):

لا قُدُسْتُ نَعْمَى تَسْرِبْلَتَهَا كَم حَجَّةٍ فِيهَا لَزْدِيقِ

قلتُ: فما عندك في أبي جعفر بن أبي^(٤)؟!

قال: هو شيطانٌ في كل طريق ومع كل فريق، تيمياً مرّةً، وقيسياً أخرى، يسلم على

اختلاف الدول، مع التقحُّم في القول والعمل، وأظنُّه من المنظرين إلى يوم الدين!

قلتُ: فقريبه أبو الحسن؟!

قال: ذَنَّبٌ من ذنوبه، وعَيْبٌ من عيوبه، في حماه يرتع، وإلى يومه يرفع!

قلتُ: فأخوه عيسى؟!

قال: هو منه كهرون من موسى، وأنشدني ساخرأ:

خُذْ ما تَراهُ وَدَعْ شَيْئاً سَمِعْتَ بِهِ فِي طَلْعَةِ الشَّمْسِ ما يُغْنِيكَ عن رُحْلٍ^(٥)

(١) في حديث عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أنه قال: إِنَّا النِّسَاءُ لَحَمٌ على وضم، إلّا ما ذبَّ عنه» أي هنَّ في الضعف مثل ذلك اللحم لا يمتنع من أحدٍ إلّا أن يذبَّ عنه ويدفع. والرضم: الحشبة أو البارية التي يوضع عليها اللحم (اللسان - وضم).

(٢) لعله أحمد بن عبد الله بن أخطل، قرطبي، وكنية أبو عمر، وكانت له رحلة إلى المشرق، (الذيل والتكملة ١: ١٣٧ ترجمة رقم ٢١١).

(٣) البيت لابن الرومي (ديوانه ٤: ١٧٠٤).

(٤) هو أحمد بن أبي الحسن عبد الرحمن بن ربيع الأشعري، قرطبي، ويلقب بدي الوزاتين، وذكر عبد الملك المراكشي أنه «كان من بيت علم وجلالة، ذا عناية بالعلم» (الذيل والتكملة ١: ١٩٣ - ١٩٤).

(٥) البيت للمتنبّي، (ديوانه: ٣: ٢٠٥).

قلت: فابنا أخيهما أبيّ وربع؟

قال:

أعن سعدٍ تُسائلُ أم سعادةً كلا الكلبين في الهيجا جرادة

قلت: فما عندك في صاحب السكة وأخيه؟!

فقال: القرّازُ والخزّازُ؟!

نسبٌ كأنّ عليه من شمس الضحى نوراً ومن فلق الصباح عموداً^(١)

قلت: فما عندك في أبي عبد الله الحضرمي^(٢)؟!

فقال: طلب الزيادة فنقص، ومشى الغد منه فنكص، وتلك عادة الله فيمن تجاوز حدّه، ولم ينظر قصده.

قلت: فما عندك في أبي عليّ بن كامل^(٣)؟!

فقال: ارتجع بعد التطبيق، ورقع بعد التمزيق!

قلت: فما عندك في الموزوري^(٤) أبي عبد الله^(٥)؟

قال: سفيه زمانه، والله أعلم بشانه، فاستملحت طنزته^(٦)!

قلت: فما تقول في أبي بكر بن المرعزي^(٧)؟

(١) البيت لأبي تمام من قصيدة في مدح خالد بن يزيد الشيباني. (ديوانه ٨٠ ط. بيروت)

(٢) هو عبد الله بن عمر بن هشام الحضرمي، أصله من إشبيلية، ونزح أهله إلى قرطبة، وبها ولد ونشأ، وكان مقرئاً نحويّاً، أديباً شاعراً، وله تصانيف عدة، وتوفي بعد سنة ٥٥٠ هـ (التكملة رقم ٣١٧٢).

(٣) لم أعثر له على ترجمة.

(٤) نسبة إلى موزور: كورة بالأندلس تتصل أعماها بأعمال قرمونة (معجم البلدان).

(٥) هو محمد بن عبد العزيز بن أبي الخير بن علي الأنصاري: أبو عبد الله، المعروف بالموزوري، من أهل (سرقسطة)، سكن قرطبة، وكان قاضياً، توفي بقرطبة سنة ٥١٨ هـ.

(٦) الطَّنَز: السخيرة والاستهزاء.

(٧) لعله حفيد بن المرعزي كاتب المنصور بن أبي عامر: انظر الإحاطة (١: ص ٤٦٦).

فقال: ضعيفٌ أضاقَ الحَسَدُ عَطَنَهُ، وأَجْرَى السَّفَهُ رَسَنَهُ، فَالَتْ بِهِ الحَالُ إِلَى أَنْ
فَارَقَ الْأَهْلَ وَالْوَلَدَ، وَسَرَى سُرَى الْأَبَدِ.

قُلْتُ: فَمَا تَقُولُ فِي ابْنِي مَلَامَسُ^(١)؟!

فقال: قَبَّحَهَا اللَّهُ مِنْ خَبِيثِينَ مُحْتَشِينَ، أَسَدِيَا الشَّرَّ وَالْحِمَاهُ، فَلَمَّا انْتَهَى الْبَلَاءُ مُنْتَهَاهُ،
وَفُغِرَ الْعَدُوُّ عَلَيْهِمَا فَاهُ، لِأَذَا بِالْفَرَارِ، وَتَرَكَ الْعَارَ لَصَاحِبَةِ الدَّارِ؟!

قُلْتُ: فَمَا عِنْدَكَ فِي أَبِي الْحَسَنِ بْنِ عَبْدِ الصَّمَدِ^(٢)؟!

قال: مَوْسَمَةٌ تَعْصِفُ أَثْوَابَهَا، وَتُحَاسِنُ أَتْرَابَهَا!

قُلْتُ: فَمَا عِنْدَكَ فِي الْهَرَاءِ^(٣) أَبِي الْقَاسِمِ بْنِ النَّخَاسِ^(٤)؟

فصاح: آهَ آهِ لِكِتَابِ اللَّهِ بِشَيْخٍ مَعَ صَبِيَّانٍ، فِي تَبَارِيحٍ مِنَ الْوَصْلِ وَالْهَجْرَانِ، يُهَانُ
شَيْئُهُ، وَيُذَاغُ عَيْبُهُ.

قُلْتُ: فَمَا عِنْدَكَ فِي ابْنِهِ؟

فقال: لَمْ يَسْعُدْ فِي الزَّوْجِ، وَهُوَ يَمْنُ مُلْسٌ بِالْعَاجِ.

قُلْتُ: فَمَا تَقُولُ فِي أَبِي الْعَبَّاسِ بْنِ جُرْجِ^(٥)؟!

فقال: مُحَبَّاةٌ مُحَدَّرَةٌ^(٦)، «وَعَلَى الْغَانِيَاتِ جُرُّ الذُّيُولِ^(٧)»!

(١) في الذيل والتكملة (٤: ص ٦٠). ترجمة لمن يدعى سليمان بن إبراهيم بن ملاس، وأشار إلى أن له أخوين هما (أحمد وعمر)، وذكر أنه روى عن شريح المتوفى بعد سنة ٥٣٤هـ.

(٢) لم أعثر على ترجمة له.

(٣) رجل هراء: كثير الكلام، والهراء: اسم شيطان موكل بقبيح الأحلام (اللسان: هراء).

(٤) هو أبو القاسم خلف بن إبراهيم النخاس - بالحاء معجمة - من أبرز علماء قرطبة في القراءات، وقد أخذ عنه كثيرون (الذيل والتكملة: ١/ ص ١٠٧).

(٥) أترجم عبد الملك المراكشي في الذيل والتكملة (١: ٨١) لابنه أحمد بن جرج.

(٦) يشبهه بالمرأة والمخدرة، أي التي لزمت الخدر.

(٧) هذا عجز بيت لعمر بن أبي ربيعة، وصدره: {كُتِبَ الْقَتْلُ وَالْقِتَالُ عَلَيْنَا}

قلتُ: فعمُّه أبو الوليد؟!

قال: في عداد الموتى وفي غابر الدنيا!

قلتُ: فأبو جعفر ابنه^(١)؟!

فأنشد^(٢):

ويخطو على الأيمن خطوَ الظَّليمِ — مِ يَعْلُو الرِّجَالِ بِجِسْمِ عَمَمِ

فاستغربت ضحكاً، وقلت: فما عندك في أبي محمد بن أخطل^(٣)؟!

فقال: وزيرٌ غَوَان، وزيرٌ دنان، وهو من شَرِّ الغُلَمَةِ^(٤) في أمان وهذا لأبي محمَّد كثير.

قلتُ: فأبو العباس بن عبدوس؟

قال: لُكْع بن لُكْع، فخذ في غيره أو فدع!

قال: فما تقولُ في الشَّيخ أبي الوليد بن عامر^(٥)؟!

فروى وجهه وأنشد^(٦):

ألا حيَّ أطلالَ الرُّسومِ البواليَا — لِبَسَنَ لِبِلِي مِمَّا لِبَسَنَ اللَّياليَا

وفهمت أنَّه يكره المسألة، عن تلك السَّفلة، فأضربتُ عن ذكره!

(١) هو أحمد بن جرج القرطبي، أبو جعفر، ابن أبي العباس بن جرج، كان أديباً شاعراً، من بيت علم وجلالة، وتوفي بعد

سنة ٥٧٠هـ (الذيل والتكملة ١: ٨١)

(٢) البيت لشاعر يقال له العماني في مدح هارون الرشيد، وكان الرشيد إذا طاف بالبيت جعل لإزاره ذنين عن يمين وشمال

ثم طاف بأوسع من خطو الظليم (البيان والتبيين: ٨١).

(٣) لعله قريب أبي عمران بن أخطل.

(٤) الغلطة (بالضم): شهوة الضراب.

(٥) هو أحد علماء قرطبة المبرزين في الفقه والحديث، وقد اعتمد عليه الضبي في رواية بعض أخباره (بغية الملتبس:

ص ٥١٦ - ٥٢١).

(٦) البيت لأبي حية النميري (البيان والتبيين ٣٢٧).

قلتُ: فما عندك في أبي العباس البيّاس^(١)؟! فأنشد^(٢):

وما أدري وسوف إخال أدري أقومُ آل حِضْنٍ أم نساء

قلتُ: فما عندك في أبي حفصٍ صاحبِ أحكامِ كدنة؟!

فقال: السَّيفُ والقلم، والحُكْمُ والحِكْم، ما كان أحوجَ ذلك الكمالِ إلى

عيبٍ يوقيه من العين!

قلتُ: فما عندك في ابن فرج^(٣)؟!

قال: أعبد الله؟

قلتُ: نعم!

فأنشد:

أما ابنُ قروّةٍ يوسفُ فكأنه من كبره أيرُ الحمارِ القائمُ

ما النَّاسُ عندك غيرُ نفسك وحدّها والنَّاسُ عندك - ما عداك - بهائمُ

قلتُ: هذا هو عندَ نفسه، فما هو عند النَّاسِ؟

قال: قالس^(٤) مشثوم، وأمسك مُبتسماً، فقلتُ: مبادراً: وأسفل محجوم.

(١) لم أقف له على ترجمة .

(٢) البيت لزهير بن أبي سُلمى (ديوانه: ٩٧).

(٣) ابن فرج، من علماء قرطبة المبرزين في الفقه، كان يحدث بالموطأ، وأخذ عنه ابن بشكوال. وصحبه كثيراً، ولازمه طويلاً (الصلة ٢: ص ٣٦٦).

(٤) القالس: الذليل الخاضع، مأخوذ من التقليل: وهو وضع اليدين على الصدر خضوعاً والتقليل أيضاً: استقبال الولاية عند قدومهم بأصناف اللهو واللعب بين أيديهم. (اللسان: قلس).

فقال: أرى شيطاننا واحداً، فقلتُ: كذا وجبداً!

قلتُ: فما عندك في ابن شَمَاح^(١)؟!

قال: الصَّيِّحُ الفصيحُ!

قلتُ: لا، العكلي^(٢)، ذاك الفتى القبذاقي^(٣) صاحبنا!

قال: سيما لا تشقُّ على البصر:

كَأَنَّ الثَّرِيَّاءَ عُلِّقَتْ فِي جَبِينِهِ وَفِي أَنْفِهِ الشَّعْرَى وَفِي جِيدِهِ الْقَمَرُ^(٤)

قلتُ: فما تقول في أبي الحكم بن المطرّف^(٥)؟!

فأنشد^(٦):

لَوْ كَانَ يَخْفِي عَلَى الرَّحْمَنِ خَافِيَةٌ مِنْ خَلْقِهِ خَفِيتُ عَنْهُ بَنُو أَسَدٍ

قلتُ: فما تقول في القرشي أبي عبد الله^(٧)؟

(١) هو الوزير الكاتب أبو مروان عبد الملك بن محمد بن شَمَاح، كان وزيراً لسيف الدولة أحمد بن عبد الملك بن هود بقرطبة، وعندما ثار أهل قرطبة على ابن هود سنة ٥٣٩هـ هاجموا قصره وقتلوا ابن شَمَاح وعدة من أصحابه، وفرَّ ابن هود ناجياً بنفسه. (الحلة السراء ٢: ص ٢٠٧).

(٢) العكلُ: اللثيم من الرجال.

(٣) نسبة إلى القبذاق وهي قرية من قرى أشبونة (المغرب ١: ص ٤١٣).

(٤) البيت لأسيد بن عتقاء الفزاري (الإيضاح للقرطبي: ١٩٥).

(٥) وهو يحيى بن محمد بن أبي المطرّف، من أهل قرطبة، ويكنى أبا الحكم، روى كثيراً من كتب الأدب واللغة، وتوفي سنة ٥٢٦هـ (الصلة ٢/ ٦٧٣).

(٦) البيت للطرماح بن حكيم (عيار الشعر: ٤٥).

(٧) هو محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن حكم، القرشي، المرواني، الناصري، ويعرف بابن الأحمر، كان حافظاً للفقهاء، متفنناً في المعارف، وتلمذ على أبي مروان بن سراج وتوفي سنة ٥٢٦هـ.

قال: أحيمر عاد^(١)! قلت: نعم

قال: لحاه الله، وعاء خبائث وفسوق، ولص في ضجّة سُوق، لو لم يكن بمصطبجه

ذنبٌ سواه لكفاه!

قلت: فما عندك في ابن مديد^(٢)!

قال: أكايتُ أبي السداد^(٣)؟

قلت: نعم، قال: حنّ قدح ليس منها^(٤).

قلت: وكيف حاله مع هذا؟

قال: وقاح يغيظُ الأحرار، ويغضُّ الأبصار:

ولو أن عبد الله مولى هجوته ونكنّ عبد الله مولى مواليا^(٥)

قلت: فما تقول في أبي بكر بن سكرون^(٦)!

فقال: لحيّة تهوء^(٧)، ومشية تنوء، وفي أسفله داءٌ بعيدٌ عنكم السوء!

قلت: فما تقول في ابن جابر^(٨)؟

(١) المألوف أن يقال: أحر نمود وهو لقب قدار بن سالف عاقر ناقة صالح، وهو هنا يتهمكم بالقرشي لأنه عرف بابن الأحمر.

(٢) لم أعثر له على ترجمة.

(٣) أبو السداد: أحد ولاية المرابطين، شارك في معركة ميورقة سنة ٥٠٩ هـ وأُسند إليه علي بن يوسف ولايتها ولكنه لم

يحسن السيرة في أهلها (عصر المرابطين والموحدين - عنان ص ١٥٢)

(٤) مثل يُضرب للرجل يفتخر بقوم ليس منهم أو يتمدح بما لا يوجد فيه. والقده: أحد قداح الميسر، وإذا كان أحد القداح

من غير جوهر أخواته ثم أجاله المفيض خرج له صوت يخالف أصواتها فيعرف به أنه ليس من جُملة القداح. (الميداني

١/ ١٠٠).

(٥) البيت للفرزدق في هجاء عبد الله بن إسحاق الحضرمي، وله خبر طريف (الشعر والشعراء: ١٢)

(٦) لم أعثر له على ترجمة.

(٧) الهوء: الهمة، وهاء بنفسه إلى العلى يهوء هُوءاً: رفعها وسما بها.

(٨) ابن جابر (٩)

فقال: أعن أخيل الذنب^(١)، وعيان المحتسب، تسأل؟!

فقلت: أجل!

فقال: فيه ديدنٌ وشرطٌ. تفقد أكبر همّه، إذاعةً قطمه!

قلت: فما تقول في الكريم أبي عامر بن شهيد^(٢)؟!

فأطرق حيناً، ثم قلت له: ما بالك، فقد تغيرت حالك؟!

فأنشد:

تفرقتِ الطباء على خدashi فما يدري خدashi ما يصيدُ^(٣)

ثم قال:

واعلم بأن من السكوت إبانةً ومن التكلم ما يكونُ خبالاً^(٤)

فقلت: لاها الله! ما رأيتُ كالיוםِ معضلة، وتذكرتُ ما ذهب إليه في أبي

عامرٍ من قولٍ بعضهم^(٥):

(١) العرب تقول: أشأم من أخيل، والأخيل: هو الشفراق، وهو مشنوم. قال ثعلب: وهو يقع على دبر البعير، يقال إنه لا ينقر دبرة بعير إلا خزل ظهره وهم يتشاءمون به لذلك. (اللسان: خيل).

(٢) لا أظن أنه يقصد أبا عامر بن شهيد الشاعر الكاتب لأنه توفي سنة ٤٢٦هـ بينما أحداث المقامة تدور بعد ذلك بكثير.

(٣) ورد هذا البيت في الأغاني (١٢ - ص ٢٢٧) وقد ذكره أبو الفرج في سياق خيرٍ عن خارجي يقال له ابن معاوية ظهر بالكوفة ودعا لنفسه في عهد يزيد بن معاوية، فخرج إليه عاملها عبد الله بن عمر وقتله، فانهزم من معه ولم يبق غير ابن معاوية، فجعل يقاتل وحده ويقول: تفرقت الطباء.... البيت.

(٤) ورد هذا البيت في (البيان والتبيين ٨٥) منسوباً لبعض الكلابيين.

(٥) البيتان لأبي نواس، قالهما في رجل هجاء وهو بمصر يعرف بالحسن بن عمر وكان كما تصفه رواية ابن خلكان من أقبح الناس صورة، فقال له أبو نواس: بم أهجوك؟ وبأي شيء أصفك؟ وقد سبقني الله تعالى إلى توحش منظرِكَ، وتقبيح خبرِكَ؟ فقال له بعض الجالسين: أهجه لثلاً يقال إنه أفحمك، فهجاء باليتين المذكورين (وفيات الأعيان: ٢/ ص ١٠٠).

بما أهجوك لا أدري لسانى فيك لا يجري
إذا فكَّرتُ في عِزِّكَ ————— ك أشفقتُ على شعري

قلتُ: فتلك الطائفةُ المروعةُ عندكم سجنًا وتشريدًا، ما صنعتُ؟

فقال: أعن هؤلاء تسأل! لقد تتبعْتُ المسألةَ، فللَّهِ زعنفةٌ^(١) بعدتْ أطوارُها،

فعرِّفتْ أقدارُها!

قلتُ: فما صنَّعَ في كتابِ الغزالي^(٢)؟

قال: قيلتُ فيه أقوال، وعُملتُ به أعمال، ولبئس ما عمل، ولبئس ما قيل، أساءوا الفهمَ فأساءوا التَّأويل، وويلٌ للشَّعْرِ من الرواةِ السَّوء، وأحسبه قد استحقَّ الذى عملوا، وصحَّ فيه ما قالوا وتأولوا إذ ليس اللهُ تعالى يُرضيه إلا ما اعتمدَ رضاه فيه.

قلت: إيه يا الله، فواليك ين رنغى فقد نسيناه!

قال: خَلِيقٌ أن يُنسى «وَحَقِيقٌ أن يُقلى، حديثُ أمتين، كذبٌ ومين، لولا عَفافُ إِزارِهِ، وَكَرَمُ غَطَّى على عَوَارِهِ، لما كانت له حَسَنَةٌ تُتلى، ولا خَطَّةٌ تُسْتَنى، ومثلها تكونون يُوَلَّ عليكم».

قلتُ: فكاتبه ابنُ أبي؟

(١) الزعنفة: أسفل الثوب المتخَرَّق وطرفه، والزعنفة: القصير، وسُمى رذال الناس زعانف على التشبيه بزعانف الثوب والأديم.

(٢) المراد: كتاب الإحياء لأبي حامد الغزالي. ويذكر المراكشي في المعجب (٢٣٧) أنه «لما دخلت كُتُب أبى حامد الغزالي - رحمه الله - المغرب، أمر أميرُ المسلمين - على بن يوسف بن تاشفين - بإحراقها، وتقدم بالوعيد الشديد، من سفك الدماء، واستئصال المال، إلى من وجد عنده شيء منها، واشتدَّ الأمرُ في ذلك».

قال: بائس مغترّ، وفقيرٌ مضطرّ، حصل على ما لم تطمح هِمَّتُهُ إليه، فهو يحملُ من صاحبه ما صبرَ لأحدٍ عليه!

قلتُ: لله أنت، فما أحسنَ بيانك، ولو علمت المقصد، ليَمَّمت نحوك اليد، فتنفَّس الصُّعداء، وأنشد^(١):

وسائلةٌ بالغيبِ عني وسائلٍ ومن يسأل الصُّعلوك أين مذهبُه

فقلتُ في نفسي: لقد ألطفَ الاستمناح، هذا أبو فتح زماننا لا محالة، ولم أجد ما عندي يفني لمكانه من نفسي، فتغايبتُ له وأنشدته^(٢).

اللهُ جارُك في انطلاقك

تلقاء شامِك أو عراقك

لنِّي بكيث على فراقك

أذهبُ مُصاحباً، صنعَ الله لك الصَّنْعَ الجميل.

(١) البيت لأبي الشَّناش، وهو شاعر إسلامي كان لصاً من لصوص بني تميم بين الحجاز والشام أيام مروان بن الحكم. وقد ورد في الحماسة (بشرح التبريزي: ١/ ص ١١٦).

(٢) الشعر للبحري (عدا المصراع الأخير) وقد قاله في وداع أبي جعفر بن سهل المروزيّ والي الخراج بقنسرين والعواصم، حين أراد البحري الخروج إلى منبج، وكان معه بحلب، فخرج ولم يودعه، وروايته في الديوان:

تلقاء شامك أو عراقك

الله جارُك في انطلاقك

سري يوم سرت ولم ألاقك

لا تعدلني في مسيب

تحليل المقامة

هذه المقامة مجهولة المؤلف، واكتفى صاحبها بأن يوقعها بهذه العبارة: «إنشاء فلان ابن فلان» وتدور أحداثها في مدينة «قرطبة» في القرن السادس الهجري، وتتناول قضاتها وعلماءها وأدباءها بالسبّ والطعن والتجريح.

تبدأ المقامة بحديث للرواية «فلان بن فلان»، يذكر فيه أنه قابل في أثناء سفره «فتى» حديث السن في أطمار، ينقّد وسامة، ويتّقد شهامة....، ويدور بينهما حوار يسأل الراوي فيه الفتى عن أخبار قرطبة «بعد أن طال بها عهدي، وحدثت بها الحوادث بعدي...، فيقول الفتى: «أبا ابن بجدها، فسّل عما شئت فيها... ويسأله الراوي عن قاضيها، فيجيبه بقوله: «حوّل القضاء رياسة، ووسّع الأمور سياسة، فتألف الدهماء، وكفّ العدد والأعداء، من رجل له صباة بالشر، لا يصحو عن المطالبة فواقا، ولا يرسل الساق فيها إلا ممسكاً ساقاً...».

وعلى هذا النحو تمضي المقامة، فالراوي يسأل والفتى يجيب إجابات تطعن أهل قرطبة في أخلاقهم وسيرتهم، ولم يدع أحداً من كبار علمائها وشيوخها إلا وتناوله بالتجريح، كأبي الوليد بن طريف، والفقير أبي عبد الله الحاج، وأبي الحسن بن سراج... وغيرهم من علماء قرطبة المشهورين بالقضاء والإقراء والفتيا.

وقد نُسبت هذه المقامة إلى أبي عبد الله بن أبي الخصال فتبراً منها في رسالة كتبها إلى صديقه الوزير الكاتب أبي الحسين بن سراج -وهو أحد من تناولتهم المقامة بالطعن- ينفي عن نفسه هذه المقامة، يقول في رسالته: «ما هذه المقامة لإقامة حشرت الكرام وحاشت، وما استثنت ولا حاشت، أصابت وأشوت، وصابت وأخوت، وعمّت لتخصّ، وناحت لتعلن وتغصّ، والمناجي لبيب، وقد يؤذي من المقة الحبيب... اللهم

طهرها من دنس الدعوة، واجعلني فيها مستجاب الدعوة، حتى ندعوها لأبيها، ونتبع الأقسط عندك فيها...^(١).

وردّ الوزير أبو جعفر بن أحمد برسالة سمّيت «الانتصار في الرد على صاحب المقامة القرطبية»، وجاء فيها: «تبّاً لمن جعل رأس ماله الخسران، وأنفس خلاله البهتان، يهرف بالمحال، ويقرف على الرجال، وينسب إلى الجلّة النقصان، ويغضب في أهل الملة الرحمن، ويرضي الشيطان، فيقع في لحم أخيه سبّاً، ويرتع فيما يخزیه صنعا، كلامه زور، ونظامه فجور، ونثاره كذب، ومضمّاره لعب. إذا ذكر العلماء أفحش، أو وصف الفقهاء أوحش،..... وما كان أولاه أن يتأمل حال نفسه قبل يتأمل سواه، وينظر في خاصة أمره، دون من سمّاه، وأحرّاه أن يبدأ بتأديب أخلاقه، ويأخذ في تهذيب إطرّاقه، ولا يركب مثل هذه الشنّعاء في أهل الزمان، ويرغب عن هذه العوراء في الجماهير والأعيان....»^(٢).

وقد اختلط أمر هذه المقامة على الباحثين، فالدكتور إحسان عباس تصوّر أنّ مقامة الفتح بن خاقان في ذم شيخه البطلّيوسي هي «المقامة القرطبية»، وظنّ أنّ رسالة «الانتصار» ردّاً على مقامة الفتح،^(٣) والصواب أنّها رد على المقامة القرطبية. وتابعه في هذا الخلط د. حسين خريوش، الذي ذكر «أن المقامة القرطبية تُنسب إلى الفتح بن خاقان، قالها في أبي محمد البطلّيوسي»^(٤) ونحن لانجد ذكراً للبطلّيوسي في المقامة القرطبية. ووقع

(١) انظر نص الرسالة كاملاً في: رسائل أندلسية: ص ١٠٦-١٣٣، ورسائل ابن أبي الخصال: ص ٣٥٥-٣٦١.

(٢) انظر نص الرسالة كاملة في: رسائل أندلسية، ص ١٠١-١٠٥، ورسائل ومقامات أندلسية: ص ١٥٧-١٥٩. أبو جعفر بن أحمد ذكره ابن بّسّام في الذخيرة (ق ٣ م ٢ / ص ٧٥٧)، وأشار إلى أنه من مدينة دانية، وأنه تبوّأ مكانة كبيرة عند ملوك الطوائف.

(٣) انظر تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين): ص ٣١٤.

(٤). فلانّد العقيان: ١ / ص ٣٧٤ (الحاشية).

في الوهم أيضا بروكلمان حين زعم أن رسالة «الانتصار» قد تكون في الرد على إحدى المقامات القرطبية التي عملها أبو الطاهر محمد بن يوسف السرقسطي، صاحب المقامات اللزومية.^(١) وزعم في موضع آخر أن رسالة الانتصار للوزير أبي جعفر كتبت في الرد على المقامة التي صنعها الفتح بن خاقان على شيخه ابن السيد البطليوسي.^(٢) أمّا د. قُصَيّ الحسيني فقد قطع بصحة نسبة المقامة القرطبية إلى أبي عبد الله بن أبي الخصال، دون أن يعتمد في ذلك على سند أو دليل.^(٣)

(١) تاريخ الأدب العربي: ٣/ ص ٣٥١.

(٢) تاريخ الأدب العربي: ٣/ ص ٤٧١.

(٣) فن المقامات بالأندلس: ص ٣٧.

المقامة السليبية^(١) وتُعزى لأبي الوليد بن سيدّ أمير - رحمه الله -

حدّث سمان بن زمان، أو أبان بن شيبان، عن حيّان بن عيان، وليس يُعرف ابن من كان، صاحب فلان بن فلان، الذي أنشأ «ميزان الأعيان بحكم الزّمان»، قال:

قذفت بي غربه النّوى إلى الغرب^(٢)، فأشلتُ النّعام^(٣) على ابن النّعام إلى شلب^(٤)،
مسقط رأسي، ومكان أنسي، ومعني غدي من الدّهر وأمسي، فلما قاربُ الإشراف عليها،
وقد أبرح الشّوق إليها، لقيتُ وقد انتصف النّهار، شيخاً في أطمار، على حمار، وهو يسيرُ
الهويني، ويقدمُ يديه، أمام عيّنه، ليوهم أنّه أبو العينا، فقلتُ في نفسي: بقيّة عينٍ تحيلُ
على آثارهم،

«شيمُ الزّمان عداوةُ الأحرارِ»

فلما ولّاني قفاه، رفعتُ عقيرتي مُنشدّاً، كأني أريدُ سواه:

دارَ الزّمانُ مخاتِلاً في كُلِّ حالٍ
مُذْ راحَ هذا الدّهرُ أشعثَ ذا مُحالٍ
لا بدّ يرتادُ الحقيقةَ بالخيالِ

(١) ورد نصّ المقامة في: رسائل ومقامات أندلسية: ص ١٦٠-١٧١.

(٢) الغرب: غرب الأندلس.

(٣) شالت نعامته: خف وغضب ثم سكن، وشالت نعامتهم: تفرقوا وذهب عزّهم، والنّعام: الجماعة.

(٤) شلب: من مدن غرب الأندلس، وقد حكمها بنو عباد ثم خضعت للإمبراطين والموحدين حتى سقطت سنة ٦٤٠هـ.

(صفة جزيرة الأندلس: ١٠٦ و المغرب ١: ٣٨١).

فقال: إِنِّي عَرَّضْتُ، أَمْ لِيَا نِي تَعَرَّضْتُ؟! فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، نَفْسِي عَنَيْتُ، وَحَنِيناً إِلَى أَوْلِيَّةٍ حَالِي غَنَيْتُ، فَعَطَفَ بَجَنَانٍ، وَحَيًّا بَلْبَانٍ، وَقَالَ: يَا ابْنَ الْكِرَامِ أَرَى عَلَيْكَ أَثَرَةَ السَّرْوِ، أَمِنْ بُلْخٍ أَمْ مَرُو^(١)؟ فَقُلْتُ: أَجَلٌ، مِنْ أَحَدِهِمَا، فَقَالَ: نَسِيبٌ أَوْ خَلِيلٌ؟ أَوْ فِرَاسَةٌ الْمُؤْمِنِ لَا تَخِيلُ؟ أُنَشِدُكَ اللَّهَ وَالرَّحِمَ، أَلَا مَا قَصَصْتَ عَلَى عَمِّكَ، أُفَرِّجُ عَنْ غَمِّكَ، وَأَوْصِلُكَ إِلَى أَقْصَى هَمِّكَ؟ قُلْتُ: أَهْلُ هَذَا الْقَطْرِ^(٢)! فَقَالَ: أَصْرَعَهُمُ الْخَذْلَانُ، وَتَمَلَّكَهُمْ الْحِرْمَانُ، حَتَّى كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ مَا كَانَ، فَرَعَاهُمْ ابْنُ كَيْلَةَ سَهْلاً وَحَزْناً، وَأَبَادَهُمْ كَيْلاً وَوَزْناً. ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ^٣ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾^(٤).

قُلْتُ: غَيْرَ هَذَا أُرِيدُ!

فقال: سَقَطَتْ عَلَى الْخَيْرِ، فَسَلِّ عَنِ الصَّغِيرِ مِنْهُمْ وَالْكَبِيرِ.

قُلْتُ: قَاضِيهَا ابْنُ حَبِيبٍ^(٥)؟

فقال: أَلَّ وَجَلال، وَمَالٌ وَجَمال، رَأْسَ فَقَادٍ، وَتَعَلَّمَ فَسَادٍ، وَأَرْضَى الْآبَاءَ وَالْأَجْدَادَ، مَعَ أَنَّهُ جَمَعَ الرِّوَايَةَ مَعَ الدَّرَايَةِ، وَلَمْ يَعدِمِ الرِّضَا بَعِينَ النِّهَايَةِ، غَيْرَ أَنَّهُ ظَاهِرِي النُّخْلَةِ، قَدْ اطَّرَحَ الرِّحْلَةَ، وَأَقَامَ بِأَرْضِهِ مَقَامَ أَبِي الطَّيِّبِ بِأَرْضِ نَخْلَةٍ^(٦) يُزَيِّفُ الْأَقْوَالَ، وَيُنْشِدُ إِثْرَ كُلِّ مَقَالٍ:

(١) بلخ ومرو مدينتان من أشهر مدن خراسان.

(٢) يعني أهل شلب.

(٣) الرعد: ١١

(٤) هو عبد الله بن عيسى بن عبد الله بن أبي حبيب، من أهل شلب، وقاضياها، يكنى أبا محمد، كان من أهل العلم والدين والخير والزهد. (التكملة ترجمة رقم ٢٠٣١ ص ٨٣٤).

(٥) يشير إلى قول أبي الطيب المتنبي:

مامقامي بأرض نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهود

ألم تر آتى ظاهريّ وأنا نبي على ما بدا حتى يقوم دليل^(١)

وعلى حاله ، فوا أسفأ عليه، وواهاً لدهرٍ أساقَ الحقوق إليه:

فإن تنج منها تنج من ذى عزيمة وإلا فإني لا إخالك ناجياً^(٢)

قلت: فأخوه؟!

قال: رياش رائق، وريش خافق، سعيّ مضلّ ، وظلّ لا يُظَلّ!

قلت: فأصهاره بنو فندلة^(٣)؟

فقال: عبءٌ من أعبائه، وقذاةٌ في مائه، لا يُحسنون صنعاً، ولا يملكون دفعاً.

قلت: لا إله إلا الله، أحاسدٌ أم واجد؟ فما هذا الصيّت المسموع، والشرفُ

المرفوع؟! فأنشد: ^(٤)

رأيتُ الغنى في أهله يُوردُ الفتى
بغير لسانٍ ناطقاً بلسانٍ

قلت: فما تقول في أبي القاسم بن الطَّلّاع^(٥)؟

فقال: رجلٌ سمعَ فعَلِمَ، وسكتَ فسَلِمَ، وخافَ مهانةَ الرِّجال، وأنشد:

(١) البيت لأبي محمد بن حزم (الدخيرة ١/ ١: ١٧٥، المغرب ١: ٣٥٦).

(٢) البيت للأسود بن سريع (البيان والتبيين ١٩٢).

(٣) بنو فندلة: أسرة مشهورة بشلب، ومنهم علماء مبرزون على شاكلة أبي بكر بن فندلة (التكملة ص ٦٩٥ ت ١٧٤٨).

وأبو القاسم محمد بن عبيد الله بن محمد بن فندلة (الذيل والتكملة ٥/ ٥٢٦).

(٤) ورد البيت في (البيان والتبيين ١٣٠) منسوباً لأعرابي من باهلة.

(٥) كذا بالأصل، ولعل المراد (أبو الحسين بن الطلاء) وهو عبد الملك بن محمد بن هشام بن سعد القيسي، شلبي، كان محدثاً متسع الرواية عارفاً بالفقه وأصوله وعلم الكلام، واختلف إليه العلماء من شتى بقاع الأندلس للأخذ عنه وتوفي

ولستُ بسائلٍ الأعراب شيئاً حدثُ الله إذ لم يأكلوني

قلتُ: فما تقول في أبي محمد بن حُيٍّ؟!

فقال: رجلٌ جمعَ ذهبه، فحرَّكَ ذنبه!

قلتُ: فكيف هو في جيرانه؟

فقال: بغِيضٌ مقيت، وحجرٌ كبريت، إن صادف شراراً، أضرمَها ناراً!

«وموقدُ النَّارِ لا ينجو من الشرِّ»

قلتُ: فما تقولُ في أبي القاسم بن جَسَّاس^(١)؟

فقال: ما به من باس، قد سالم النَّاسَ فسَلِمَ من النَّاسِ، فليس في العير يوم يحدون

بالعير، ولا في النَّفيرِ يومَ النَّفيرِ^(٢)!

قلتُ: فما تقولُ في أبي بكر بن سعيد^(٣)؟!

فقال: فلَّتْ الثُّوبُ شَبَاهُ، وكَفَّ الجَزَعُ أذَاهُ، حتَّى عادَ عيرا مركوباً، وريداً

مضروباً.

«وما المرءُ إلّا حيثُ يجعلُ نفسه»^(٤)

(١) لم أعثر على ترجمة له.

(٢) من المثل: لا في العير ولا في النفير.

(٣) هو محمد بن إبراهيم بن سعيد العامري، يكنى أبا بكر، من أهل شلب، كان واسع الأدب، مشهوراً بمعرفته، وتولى الخطبة ببلده مدة طويلة، وتوفي سنة ٥٣٢ هـ. (الصلة: ٥٨٢ ت ١٢٨١)

(٤) صدر بيت لمنقر بن فروة المنقري، وعجزه «ففي صالح الأعمالِ نفسك فاجعل» (البيان والتبيين ٤٩٨).

قلتُ : فما تقولُ في أبي بكرِ الخولاني^(١)؟

فقال: واصل رواحَه وابتكارَه، حتَّى حطَّ بباجَّة^(٢) أوزارَه، وقضى من تهامة^(٣) أوطارَه، وأنشد^(٤):

غريبُ دعاه الشَّوقُ واقتاده الهوى كما قيل عود بالزَّمام أديبُ

قلتُ: فما تقولُ في الوزير أبي القاسم بن الملح^(٥)؟

فقال: شاعِرٌ قُطِرَه، وحِجَا عَصِرَه!

قلتُ: فأخوه عبد الملك^(٦)؟

فقال: خبيثٌ مخبثٌ، إن حلفَ نكرَ وحَنَثَ، أو عاهدَ مكرَ ونكثَ، وأقسِمُ إنَّه ليحقدُ على أخيه، ولا يصغي لأبيه!

قلتُ: فما تقولُ في أبي عبد الملك بن الملاح^(٧)؟

(١) ذكره الضبي في (البغية: ٥١٧-٥١٨ ت ١٥١٥) فقال: «أبو بكر الخولاني الباجي، من أهل باجة، سكن إشبيلية، من الشعراء المشهورين» وفي (الخريدة ٢: ٥٨٤): «أبو بكر الخولاني المنجّم (٢) وقال: إنه منجّم المعتمد بن عباد، كما ذكره ابن بسّام واعتمد عليه في رواية بعض الأخبار وأود كتّابين لابن الحداد وابن القزاز في مخاطبته [الذخيرة ١/ ٢: ٧٩٧-٨٠٢]»

(٢) باجّة: من أقدم مدن الأندلس، بُنيت في أيام الأقالسة، وبينها وبين قرطبة مائة فرسخ، ومنها أبو الوليد الباجي (سليمان بن خلف) [صفة جزيرة الأندلس: ٣٦]

(٣) تهامة: أرض واسعة بالجزيرة العربية (معجم البلدان ١: ٦٣).

(٤) ورد هذا البيت في أمالي القالي (١: ٢٨) منسوباً للعلاء بن حذيفة الغنوي.

(٥) هو أبو القاسم أحمد بن محمد بن الملح، والده أبو بكر بن الملح أحد ندماء المعتضد بن عباد ثم تزهد وصار خطيب شلب، وقد ذكرهما ابن سعيد في (رايات المبرزين: ٩١) في أعيان المائة السادسة، كما ترجم لهما ابن سعيد في (المغرب ١: ٣٨٤).

(٦) هو عبد الملك بن محمد بن الملح، له ترجمة في التكملة رقم ١٧٠٥، الذيل والتكملة (٥: ٣٢).

(٧) يعرفون ببني الملح أو الملاح، الذخيرة ق ٢م ص ٤٥٢.

قال: صَلَفٌ بَادٍ، وَتَوَكُّ^(١) مَتَادٍ!

قلتُ: فأبو بكرٍ بن عمّه^(٢)؟!

قال: صَبِيحٌ فَصِيحٌ، إِنْ نَطَقَ فَلِيَطْلُعَ، وَإِنْ اخْرَبَقَ فَلْيُبْعَ!

لَهُ حَقٌّ وَلَيْسَ عَلَيْهِ حَقٌّ وَمَهْمَا قَالَ فَالْحَسَنُ الْجَمِيلُ^(٣)

قلتُ: فأبو الحسن أخوه؟

قال: تَنْفَسُ وَأَنَّ، وَذَكَرَ فَحَنٍّ، وَكَيْثَرًا مَا تَلْقَاهُ يَشْنَى عَطْفِيهِ، وَيَصِفُّ بِكَفِّيهِ، وَيَقُولُ:

كَانَ وَكَانَ، وَرَحِمَ اللَّهُ الزَّمَانَ، وَمَا النَّاسُ الْآنَ!

قلتُ: فأبو الحسن بن حبيب^(٤)؟

فقال: رَجُلٌ سَعِدَ بِأَيِّرِهِ، وَرَقَصَ بِكَمِّي غَيْرِهِ، وَقَدْ قَالَ ﷺ «مَنْ سَعَادَةِ الْمَرْءِ خِفَّةٌ

عَارِضِيهِ^(٥)».

قلتُ: فما تقولُ في أبي الحسن بن شبطيل^(٦)؟

فقال: أَأَنْصِفُ أَمْ أَتَعْصِفُ؟ فَقُلْتُ: بَلْ أَنْصِفُ!

(١) التَّوَكُّ: الحمق.

(٢) انظر في بني الملاح، المغرب ١: ٣٨٣ - ٣٩٤، القلائد: ١٨٧، رايات المبرزين: ٩١، الذيل والتكملة ٥: ٣٢.

(٣) البيت لمحمد بن حمزة السلمي في الحسن بن زيد بن الحسن بن علي (جواهر الكثر: ٣٠٥).

(٤) بنو حبيب: من أعيان شلب، ومنهم قاضيه ابن أبي حبيب الذي سبق التعريف به، ومنهم أبو الوليد بن أبي حبيب

(المغرب ١/ ص ٣٨٣) ومنهم أيضاً ابن أبي حبيب الوشاج. (المغرب ١/ ص ٣٨٧).

(٥) ورد هذا الحديث في (اللسان - عرض) وعارضة الإنسان: صفحتا خدييه، وقولهم: فلان خفيف العارضين يراد به

خفة شعر عارضيه، وخفتها كناية عن كثرة الذكر لله تعالى وحركتها به.

فقال: عَشَقَ المدادَ لسواده، فكانَ سببَ مُطالعتِهِ واجتهاده، فليس بقصير اللسان، ولا منقوص البيان، وأنشد:

أحبُّ لِحَبِّهَا السودانَ حتَّى أحبَّ لِحَبِّهَا سودَ الكِلاب^(١)

فقلتُ، أنصفتَ، فصديقه أبو مهدي بن الشرشالة.

فأنشد:

إذا ما اجتمعنا في مجلسٍ دعوتُ له الله أن يسكتا

قلتُ: فما تقولُ في ابن حفصون^(٢)؟

قال: ضرْسٌ أَكَلَةٌ، ونَفْسٌ وَكِيلَةٌ، وأنشد:

إذا كنتُ في رَغَدٍ من العيشِ لم أبُلْ على أيِّ وجهٍ عارضتني النوائِبُ

قلتُ: فما تقولُ في بنى المنذر؟ فمطَّ حاجبيه، ونفَضَ يديه، وأنشد^(٣):

ويهلكُ وسطُهَا المرثى لغواً كما ألغيتَ في الدَّيَةِ الحوَارَا

قلتُ: فأبو الوليد منهم؟!

فقال: أخٍ بخٍ إنَّ فيما سمَّعتَ به على أخيك، ما يكفيك!

قلتُ: فما تقولُ في أبي القاسم بن زكريا؟! فتنهَّد وأنشد:

ذهبَ الجودُ والجنيذُ جميعاً فعلى الجودِ والجنيذِ السَّلامُ^(٤)

(١) ورد هذا البيت في عيون الأخبار (٤/ ص ٤٤) بدون نسبة.

(٢) ابن حفصون (٩).

(٣) المرثي: أحد بني امرئ القيس بن زيد مناة.

(٤) البيت لأبي الجويرية العبدي (أمل القالي ١/ ص ١٠٤، أمل المرتضى ٤/ ص ٩).

فقلتُ: يرحمك الله أبا القاسم!

قلتُ: فما تقولُ في ابن عمِّه أبي بكر؟

فقال: أكلَ زرع الغَضَا فريكا^(١)، فأل به التقشُّفُ والإلحاح، إلى الإراحة والاطِّراح،
«كذاك من لا يسوسُ الملكَ يخلَعُهُ».

قلتُ: فما تقولُ في صاحبِ الأحكام ابن سوار^(٢)؟

فقال: يغصُّ بأهل المجلس، ويكره خصومة المُفلس!

قلتُ: فما قوله في الحال؟!

فقال يُظهِرُ الجُرْحَ، ويدعو إلى الله ألا فرح!

قلتُ: فما تقولُ في أبي محمد بن بدرون^(٣)؟

قال: هو حفيدُ بن مكنون، ادَّعى الانتساب، فأنكره سام، وأثبتَ نسبَه في حام؟!

قلتُ: فما تقولُ في فقيهِ سُوراهَا، وعاطِفِ أولاهَا على أخراها، أبي الحسين بن نهيك^(٤)؟

فأطبق أذنيه، والتفت حواليه، وأنشد^(٥):

خَفَضِ الصوتَ إن نطقتَ بليلاً وتلفَّتْ بالنهارِ قبلَ الكلامِ

فقلتُ: عهدَ الله لتقولنَّ!

فقال: سبحانَ الله، ما رأيتُ كالِيومِ معضلة، أخافُه إن صدقتَ، وأخافُ الله إن كذبتَ،

فعذرته، واستكتمته ما استخبرته.

(١) يقال أفرك السَّنِيل: صار فريكا، وهو حين يصلح أن يفرك فيؤكل.

(٢) لم أعثر إلا على ترجمة لشخصين يحملان هذا اللقب ولكنهما من قرطبة، أحدهما أحمد بن محمد بن سوار، استقضى بقرطبة وقتاً، والآخر عبد الرحمن بن سوار قاضي الجماعة بقرطبة (الصلة ١/ ص ٣٢٣).

(٣) هو عبد الله بن بدرون الحضرمي الشلبي، وهو والد عبد الملك بن بدرون الحضرمي الكاتب المشهور شارح قصيدة ابن عبدون في رثاء المتوكل وتوفي ابن بدرون (الإبن) بشلب في سنة ٦٠٨.

(٤) هو عبد الملك بن أحمد بن سعيد بن نهيك، الزهري، الشلبي، كان محدثاً ورواية، وكان حياً حتى سنة ٥٨٠ هـ (الذيل والتكملة ١/٥: ص ٩).

(٥) ورد هذا البيت في البيان والتبيين ١٤٥.

قلتُ: فما تقولُ في أبي الحسين بن اللَّبلي^(١)؟

قال: حنَّ قَدْحٌ ليس منها^(٢)!

قلتُ: على ما به؟!

قال: أسألكَ الإعفاء، ولقائلٍ أن يقولَ ما يشاء:

« فظنَّ خيراً ولا تسأل عن الخبر »^(٣)

قلتُ: إيه بالله، فعبُدُ الله بن عائشة^(٤)؟!

فقال: خِلْقَةُ الشَّيْطَانِ، وعقلُ الصَّبِيَّانِ، وهو بالجملة منتهى عار، ومقرَّر شَنَار^(٥)، وقد

أحلَّتْكَ فيه على بيت ابن عَمَّار^(٦):

قَصَارُ الْقُدُودِ وَلَكِنَّهُمْ أَقَامُوا عَلَيْهَا قُرُوناً طَوَالاً

قلتُ: فما تقولُ في أبي القاسم بن درامة^(٧)؟!

فقال: تَلَوْنِ تَلَوْنِ الْحِرْبَاءِ، وركض حتى كبا، فتفرَّقت مذهبُه أيادي سبا^(٨)، فهو يُرى كما

تري، فقيهاً مرَّةً، وطبيباً أخرى:

(١) هو محمد بن خلف بن صاعد الغَسَّاني، ويُعرف بأبي الحسين اللَّبليّ، من أهل شلب وولي قضاء «شلب» (التكلمة - ت ١٣١٤).

(٢) مثل يضرب للرجل يتمدَّح بها ليس فيه (الميداني ١: ٢٠٠).

(٣) عجز بيت، وصدرة: «قد كان ما كان مجاً لست أذكره».

(٤) المشهور بهذا الاسم هو عبد الله محمد بن عائشة البلنسي، كان صديقاً لابن خفاجة الشاعر، ولم أجد في تراجم أهل شلب من يحمل هذا الاسم.

(٥) الشنار: العيب والعار.

(٦) ابن عمار: هو ذو الوزارتين أبو بكر محمد بن عَمَّار، صاحب المعتمد بن عباد ووزر له إلى أن داخله العُجْبُ، وسمت به نفسه إلى مجاذبة رداء المُلْك، فوثب حل مرسية، وانفرد بها لنفسه، وهجا المعتمد بقصيدة ذائعة الصيت، منها هذا البيت، وقتل ابن عمار سنة ٤٧٧هـ، وله ديوان مطبوع. (المغرب: ١٦٩ - المعجب: ٧٧ - الحلة السراء ٢: ١٣١)

(٧) ذكره ابن خير في الفهرسة ص ٤١٨ ووصفه بـ«الشيخ الأديب الموثق أبي القاسم محمد بن أبي درامة الشلبي» وذكر أنه جمع كتاباً في المراثي وأنه روى عن ابن خير وقرأ عليه بشلب.

(٨) من مثل: تفرقوا أيدي سبا.

فلا مع الشُّوقِ في سوقهم ولا مع الأجنادِ في العسكرِ

قلتُ : فما تقولُ في القرشيِّ الأستاذِ^(١)؟

قال : وما عسى أن أقول فيه؟ هو فلذةُ حسَب ، وذماءُ أدب !

قلتُ : فهل أنجب فيمن أعقب؟

قال : خلفُ أضاعوا الصلاةَ واتبعوا الشهوات ، فسوف يلقون غيًّا.

قلتُ : فما حالتهُ في خطابه إذا اسحنفر ، وركب المنبر؟ فأنشد^(٢):

مليء ببهرٍ والتفاتٍ وسلعةٍ ومسحةٍ عثنونٍ وقتلٍ أصابعٍ

قلتُ : فما تقولُ في المشرف بن قسي^(٣)؟

فقال : درهمٌ فَنَسَى ، وشيطانٌ يترجم عنه أنسي !

قلتُ : فكيف نظرُهُ في الرُّعية؟!

فقال : لا يقسم بالسوية ، ولا يعدل في القضية ، ومن استرعى الذئب ظَلَمَ^(٤).

قلتُ : لله دَرَكٌ^(٥) ، لا فَضَّ فوك ، ولا مَلَكَ مضيفوك ، فما أرقَّ أخبارك ، وأصدق إخبارك ، أقسم لو تحققتُ بعد الطَّيَّة ، لو هبَّتكَ المطيَّة ، فلما زجرَ حمارة ، وقع في نفسي أن أقفوَ آثاره.

فناديته : نشدتك الله — كيف تركتَ حانوتَ أبي عبد الله بن الهرة؟

فقال : مهبةٌ للنُّبلاء ، ومسبةٌ للفضلاء.

(١) هو الشيخ الأديب الخطيب أبو بكر محمد بن إبراهيم بن غالب القرشي العامري. ذكره ابن خير في فهرسه وأشار إلى أنه أجاز له بخط يده من شلب. (فهرسة ابن خير ٣٢١).

(٢) ورد البيت في البيان والتبيين ١٧ بدون نسبة.

(٣) المشرف بن قسي: أحد المنتزين بشلب، وفي ترجمة ابن الطلاء أنه استقضى بحصن مرجيق في فتنة ابن قسي (الذيل والتكملة ٥/ ٤٢).

(٤) مثل يضرب لمن يُؤثِّر غير الأمين. وله خبر في (الميداني ٢: ٢٥٧-٢٥٨).

(٥) مثل يقال لكل متعجب منه (الميداني ٢: ١٤٠).

قلت: فما هذا القصائد الطارئة، والفوائد الناشئة؟

فقال: زيد فيها زوائد، والنَّاسُ بعدَكَ صنفان: مثنٍ وحاسِدٍ، وكلاهما هذيانٌ زادَ القرائحَ فساداً، وسوقَ الشَّعرِ كساداً، فوهبته نَزْراً، وسألته عذراً، فأنشد:

رَقَّ الصِّدِيقُ لِمَا رَأَى مِنْ اخْتِلَالِي بِاللَّيَالِي فِي التَّلَبُّثِ ثُمَّ بِالِ^(١)

أودتْ بِمَالِي ثُمَّ قَدْ حَالَتْ بِحَالِي فَلِذَاكَ مَا زَجَّتِ الْحَقِيقَةُ بِالْمَحَالِ

ثم اضطربَ، فغرب، فكان آخر العهد به

تعقيب:

وهذه المقامة نسبها صاحب «رسائل ومقامات أندلسية» لأبي الوليد بن سيّد أمير، ولكن عبارته في تصدير المقامة توحى بأنه يتشكك في هذه النسبة، وقد أورد ابن الأبار ترجمة لمن يسمّى عبد الله بن سيّد أمير اللخمي، ذكر فيها أنه من أهل شَلْب، وأنه برع في الحديث والنحو، وكانت له مشاركته في علم الطب عُرف بها، ولعله صاحب هذه المقامة. سار كاتب هذه المقامة على نهج صاحب المقامة القرطبية، فوقفها على هجاء أعيان شَلْب وقضاتها وأدبائها، وأشار في مقدمتها إلى عنوان المقامة القرطبية، فقال: «حدّث سمان بن زمان، أو أبان بن شيبان، عن حيّان بن عيّان، وليس يُعرف ابن من كان، صاحب فلان بن فلان، الذي أنشأ «ميزان الأعيان بحكم الزمان»

تشابه المقامتان في بنائهما وأسلوبهما تشابها كبيراً، ولكن يبقى للمقامة القرطبية فضل السبق في هذا المضمار، وهو هجاء المدن وأعيانها، وليس بين أيدينا ما يشير إلى أن المقامة الشلبيّة أحدثت ردود فعل كتلك التي أحدثتها المقامة القرطبية.

(١) كذا بالأصل وهو قلق عروضيّاً.

(١) المقامة المحسنية

وهذه المقامة كتبها أبو عبد الله الجوني^(١) في عبد المحسن بن علي بن عبد الله الأنصاري^(٢)، وسماها المقامة «المحسنية»، وجمع فيها مالمشعراء فيه من الأبيات وتضمن اسمه في آخر كل بيت منها، ووصفه فيها بقوله: «فتى يحسد البدر سناه، وتستظرفه القلوب وتتمناه، سهام جفونه أنفذ من السهام، وأمضى من الحسام، تدعُ الصحيح يكابد الحسام، وتترك الفصيح يكتني عن الخطبة بالإيهام، قد جمع إلى بهاء المنظر الرائق، وانتهاء الحسن الفائق، أدباً بارعاً، وظرفاً بالثناء فارعاً، يُجمل من لاقاه بزوراً وإكراماً، ويظهر سروراً وابتساماً».

وأنشد فيها لأبي عمرو بن سالم^(٣)، وذكر أنه كتب بها إلى أبي الحسين بن زعرور في عبد المحسن رحمه الله:

قسماً بمجد أبي الحسين وحُسنه	ما في الملاح شبيه عبد المحسن
هو ملكٌ حُسنٍ قد رضينا حُكمه	دون البرية، فليسى أو يُحسِن
قد صيرَ الإحسانَ فينا سيرة	لولاه ما حَسُنْتُ محاسِنُ مُحسن

(١) ورد نص المقامة في: أدباء مالقة: ص ٢٩٢-٢٩٨، وانظر أيضاً: مختارات من الشعر المغربي والأندلسي لم يسبق نشرها: ص ٢٣٢-٢٤١.

(٢) أبو عبد الله الجوني: لم نثر على ترجمته، ولكن مشاركته في «المقامة المحسنية» تعني أنه من أدباء مالقة الذين عاشوا في النصف الثاني من القرن السادس وبداية القرن السابع.

(٣) وصفه صاحب «أدباء مالقة: ص ٢٩٢» بقوله: «من طلبة مالقة ونبائها، نبيلاً ذكياً فظناً لودعياً، وكان جميل الصورة، ولأدباء مالقة فيه أشعار». ويبدو أنه من أعلام مالقة في القرن السادس؛ لأن الذين وصفوه في أشعارهم عاشوا بمالقة في القرن السادس.

(٤) هو أبو عمرو ابن سالم بن صالح بن علي بن صالح بن سالم الهمداني، من أهل مالقة، يعدّ من كبار علماء مالقة وأدبائها وشعرائها، توفي سنة ٦٢٠هـ، من أهم شيوخه الشاعر أبو عبد الله محمد بن غالب الرصافي البلسني، ومن أهم تلامذته أبو الحسن علي بن محمد الرعيني (ت ٦٦٦هـ).

انظر ترجمته في: أدباء مالقة: ص ٣٦١-٣٦٨، والتكملة: ٢/ ص ٧١٢.

فأجابه أبو الحسين بن زعرور^(١) في عبد المحسن رحمه الله تعالى:

يا مادحي بكلامه المستحسن، هلاً اجتزأت بمدح عبد المحسن ؟
ذاك الذي مهما أشار مُسلماً أزرّت أنامله بنور السّوسن
وإذا تكلم أو تبسم ضاحكاً خرست محاسنه جميع الألسن
يا ليته -واللهُ يكلاً حسنه- لو زاد عني بعضُ ضرٍّ مسّني
فكفى به أن قلت في أوصافه: لولاه ما حسنت محاسنُ محسن !

وللفقيه الأجلّ أبي محمد البرجي^(٢):

من أين يطمع عاذلي في سلوقي وأليمُ حُبٍّ مُعذّبي قد مسّني ؟
وإمهجتي وشنان، رونقُ خدّه وزدّ تفتح فوق غصن السّوسن
إن قلت: بدرٌ فوق غصن، لم تُصب فالبدرُ مثل كماله لم يُحسن
لما تشابه وصفه وصفائه هتفت بنظم حُلّاهُ عُربُ الألسن
حاز الصيانة والبراعة والعُلا والحسن والإحسانَ عبدُ المحسن

وللفقيه الأديب أبي العباس الموريّ -رحمه الله تعالى-^(٣):

بأبي غزالٍ أهيفُ في خدّه وردّ جنّي في غلالة سوسن
قد حلّ في رتب المعالي منزلاً ما ليس يبلّغه مديحُ الألسن
فتكتُ لواحظه بقلبٍ متيمٍ ما باله لمتيمٍ لم يُحسن
خطّ الجمال على جميع صفاته، أشكو كلّ المحاسن حازَ عبدُ المحسن
له، ولعله يرثي لـ قد نالني منه وما قد مسّني

(١) لم نقف على ترجمته، ويستدل من توجيه أبي عمرو بن سالم بالأبيات الأولى من "المقامة المحسنية" إليه أنه كان من معاصريه، أي من أدباء النصف الثاني من القرن السادس الهجري.

(٢) هو أبو محمد عبد الله بن حسن البرجي، من أهل مالقة، ترجم له صاحب "الذيل والتكملة: ٤/ ص ٢١٥" ترجمة قصيرة، واعتبره من شعراء مالقة ونبهائها وأذكيائها، وذكر أنه كان حياً سنة ٦١١ هـ.

(٣) لم نقف على ترجمته، ويبدو أنه من أعلام مالقة في القرن السادس والسابع الهجريين.

وللفقيه الأديب أبي عبد الله الشُّلبي^(١):

أحسنَ فدتك النفسَ عبدَ المحسن
وأمّنَ عليّ بلثمَ صفحتك التي
وأجبَ نداءً متيمّ صبّ بكم
قسماً بحسن صفاتك الغرّ التي
لا زلتُ منقاداً بحبلِ هواكم
فالضرّ من وجدي بكم قد مسّني
رُقيتُ أسيرةً حُسنها بالسوسن
دنفٍ شجٍ يدعوك عبد المحسن
حارت لها في الوصف كلّ الألسن
ما دُمْتُ حياً، فلتُسيّ أو تُحسّن

وللفقيه الأديب أبي جعفر أحمد القيّار^(٢) فيه - رحمه الله تعالى -:

بأبي غزالَ جَلّ عن غزلانكم
حكمتُه في مهجتي، فله بها
أضمتُ سهامَ جُفونه قلبَ امرئٍ
كم شفّ جسمي جُبه، وتعفّفي
وبُهِتُ حتى أنطقتني حكمه:
ظبيُّ يريك الحُسن في روض الهوى
ما زال يرشّف لحظه من مهجتي
ويريك سَمْطِي لؤلؤ في خاتم
دعتِ النجوم صفاته لمديحها
في وصفه قُصرت جميعُ الألسن
ما شاء مني، فليسيّ أو يُحسّن
قد رام يقطف وردةً من سوسن
يأبى شكاية كلّ ضرّ مسّني
ما في الملاح شبیه عبد المحسن
ورداً تفتح في أزهـر سوسن
ما ضُمنت صفحاته قد مسّني
من فيه يُقسِم أنه لم يُحسّن
فعدتُ تمرّ على جميعِ الألسن

(١) ذكره صاحب «أدباء مالقة» باسم أبي عبد الله محمد بن أبي العباس الشُّلبي، وقال عنه: «إنه كان كاتباً بليغاً شاعراً مطبوعاً» أدباء مالقة: ص ١٣٧. ومشاركته في المقامة المحسنية، وصلته بأبي عمرو بن سالم تدلّان على أنه من أعلام القرن السادس الهجري، كما أن ترجمته في أدباء مالقة تعني أنه شُلبيّ من الوافدين على مالقة.

(٢) لم نقف على ترجمته. وإذا كانت "القيّار" تحريف لاسم الخيار فيكون المقصود بذلك أبا جعفر أحمد بن عبد المجيد ابن سالم الخيار المالقي، المتوفى سنة ٦٢٤ هـ - ترجم له ابن الأبار في التكملة: ١/ ص ١١٤-١١٥، والرعيّني في البرنامج: ص ١٣٥-١٣٨، وابن عبد الملك في الذيل والتكملة: ١/ ص ٢٥٨-٢٦١.

وللفقيه الأديب أبي بكر بن مجبر^(١):

أشكو لذي الإحسان عبد المحسن
إني شُغِفْتُ بِدَلَّاهِ ودلاله
ظبي غريزُ الحسن طرَّزَ خده
ريم حوى ظرفاً وحسناً جامعاً
فعساه يرحمُ لوعتي وصَبَابتي
فلعلَّه يرثي لما قد مَسَّنِي
ويُحْسِنُ منظره وإن لم يُحْسِنِ
بالجُلُنارِ وغَضُّ نورِ السوسنِ
نظقت بما يحوي جميعُ الألسنِ
ويسيرُ بالإحسانِ عبدُ المحسنِ

وللفقيه الأديب أبي عبد الله بن راشد^(٢):

وبديع حسنٍ راقٍ حتى قَصَّرَتْ
غُصْنُ زهَاهِ للسوالفِ سوسنُ
يهوى نكالي، فهو طَوَّعُ زمانه
من لي بمن قد مَسَّنِي مَسَّ الجوى
لو قيل: مَنْ مَلَكَ القلوبَ بِحُسْنِهِ؟
عن وصف بعضٍ منه كُلُّ الألسنِ
وَكَذَبْتُ! جَلَّ سِوَالفَا عَنْ سوسنِ!
إن لم يُسْئِ في فعله لم يُحْسِنِ
في حَبِّه، فيزيلُ ما قد مَسَّنِي!
هتَفَ الجميعُ بِذِكْرِ عبدِ المُحْسِنِ

وللفقيه الأديب أبي التقي صالح بن جابر^(٣) فيه:

نَفْسِي الفداءُ لِكُلِّ نَفْسٍ شَفَّهَا
ما شَفَّنِي من حَبِّ عبدِ المُحْسِنِ

(١) هو أبو بكر يحيى بن عبد الجليل بن عبد الرحمن بن مجبر، وكان - كما يقول ابن الأبار - شاعر الأندلس في وقته، بل

شاعر المغرب غير مدافع، وقد انتقل إلى مراكش، عاصمة الموحدين، وبها كانت وفاته سنة ٥٨٨هـ.

انظر ترجمته في بغية الملتبس: ص ٤٩٣ (رقم ١٤٩٣)، والتكملة: ٢/ ص ٧٢٥.

(٢) لم نعر على ترجمته، والأرجح أنه والد أبي جعفر أحمد بن راشد، الذي ذكره ابن عبد الملك المراكشي، وقال عنه: "إنه كان

نبلاً ذكياً أديباً شاعراً محسناً، توفي سنة ٦٢٠هـ". انظر الذيل والتكملة: ١/ ص ٤٢٤ (رقم ٦٢٤).

(٣) هو عالم أديب شاعر مالقي، نسبة ابن سعيد إلى مدينة بلّش في شرقي مالقة وقال: إنه لم يجد فيها من الشعراء إلا اثنين هما

صالح بن جابر هذا وعبد العزيز ابن الطراوة.

جُبِلْتُ عَلَى اسْتِخْسَانِ مَا تَلْقَاهُ مِنْ
مَا أَنْ يَسِيءَ لَهَا بِأَمْرِ مُوجِعٍ
فَأَنَا الَّذِي أَرْضَى بِهِ حَكْمًا، وَقَدْ
لَا يَدْعِي فِي حُبِّهِ مَنْ لَمْ يَقْلُ
نَصَبٍ، وَرُبَّ مُعَذِّبٍ مُسْتَحْسِنٍ
إِلَّا وَقَالَتْ زِدْ وَأَوْفِ وَأَحْسِنِ
أَحْكَمْتُ قَوْلَ مُحْسِنٍ، بَلْ مُحْسِنِ
فِي فِعْلِهِ حَسَنًا وَإِنْ لَمْ يُحْسِنِ

وللفقيه الأديب أبي محمد الباهلي^(١) فيه رحمه الله تعالى:

الْبَدْرُ يُقَسِّمُ بِالطَّلَاقِ ثَلَاثَةً
وَاسْتَوْتَقْتُ شَمْسُ النَّهَارِ بَصْرَ مَهَا
وَتَشَوَّفْتُ أَزْهَارَ سَوْسَنِ خَدِّهِ
وَاسْتَعْجَمْتُ آيَاتُهُ وَصِفَاتِهِ
وَرَأَيْتُ إِحْسَانًا وَحُسْنُ شَبِيبَةٍ
أَنْ لَا يَضَاهِي حُسْنَ عَبْدِ الْمُحْسِنِ
سَنَةً مَتَى عَرَضَتْ لِمَنْظَرِهِ السَّنِي
فَتَمَزَقْتَ أَجْزَاءَ رَطْبِ السَّوْسَنِ
كَيْمَا يُتَرَجِّمَهَا فِصَاحُ الْأَلْسُنِ
فَعَجِبْتُ مَنْ حَسَنِ الشَّبِيبَةِ مُحْسِنِ

وللفقيه الأجل أبي جعفر أحمد بن موسى^(٢) فيه رحمه الله تعالى:

بِأَبِي بَدِيعُ الْحُسْنِ طَرَزَ خَدَّهُ
جَازَتْ مَحَاسِنَهُ الْجَمَالَ فَقَصَّرَتْ
يَا بَاكِيًا حَالَ الْمُتَيْمِ إِذْ رَأَى
هَلْ فِي الْبَرِيَةِ خَلْقٌ إِلَّا عَبْدُهُ؟
حَيْثُ انْتَهَى فِي الْحَالَتَيْنِ شِدْوُتُهُ:
بِرُقُومٍ وَزِدْ فِي غِلَائِلِ سَوْسَنِ
عَنْ وَصْفِ أَيْسَرِهَا طَوَالَ الْأَلْسُنِ
ضُرَرًا مِنْ أَجْلِ صَدُودِهِ قَدْ مَسَّنِي
فَهُوَ الْمَخْيَرُ: فَلَيْسَ أَوْ يُحْسِنِ
مَا فِي الْمِلَاحِ شَيْءُ عَبْدِ الْمُحْسِنِ

(١) هو أبو محمد عبد الله بن محمد الباهلي، من أدباء مالقة وشعرائها. ذكره صاحب "الذيل والتكملة" ضمن تلامذة أبي عمرو ابن سالم فيكون بذلك من أعلام النصف الثاني من القرن السادس. انظر حوله: ابن سعيد: المغرب، ١/ ٣٤٦.

(٢) لم أعثر على ترجمة له فيها بين يدي من مصادر.

وللفقيه أبي الحسن الحضرمي^(١):

مَنْ لِي بِمَنْ سَحَرُ الْأَنَامِ بِحُسْنِهِ
ظَبِيٍّ غَرِيرٍ أَهَيْفٌ فِي خَدِّهِ
قَدْ عَادَ كُلَّ الْحَسَنِ عِنْدَ كَمَالِهِ
فَالْبَدْرُ يَحْسُدُهُ بِحُسْنِ كَمَالِهِ
أَشْكُو إِلَيْهِ صَبَابَتِي وَأَبْثُهَا
فِي وَصْفِهِ قَصْرَتْ جَمِيعُ الْأَلْسَنِ
وَرَدُّ جَنِيِّ فِي أَزَاهِرِ سَوْسَنِ
فَعْدَا بِدِيْعِ الْحُسْنِ عَبْدُ الْمُحْسَنِ
وَالشَّمْسُ مِثْلَ جَمَالِهِ لَمْ تُحْسِنِ
فَلَعَلَّهُ يَرِثُنِي لِمَا قَدْ مَسَّنِي

وللفقيه أبي عبد الله الجوني:

يَا قُرَّةَ الْعَيْنِينَ مَهْلًا، إِنَّنِي
جَرَعْتَنِي غُصَصَ الصَّبَابَةِ وَالْهَوَى
بَدْرٌ يَلُوحُ عَلَى قُضَيْبٍ نَاعِمٍ
كَمَلْتَ مُحَاسِنَهُ وَتَمَّ جَمَالُهُ
قَسَمًا بِحُسْنِ صِفَاتِهِ وَبِمَجْدِهِ
قَدْ جَازَ حُبِّي فِيكَ وَضَفَّ الْأَلْسَنِ
فَازِلُ بِفَضْلِكَ ضَرًّا مَا قَدْ مَسَّنِي
وَكَا نَ سَالِفَتَيْهِ غُصْنُ السَّوْسَنِ
فَلَأَجَلَ ذَا سَمَوِهِ عَبْدَ الْمُحْسَنِ
لَا زَالَ فِي قَلْبِي وَإِنْ لَمْ يُحْسِنِ

ولما كملت أشعار الطلبة فيه، قال فيهم الأديب أبو عمرو ابن سالم بمنته وكرمه:

أَحْسَنْتُمْ فِي مَدْحِ عَبْدِ الْمُحْسَنِ
مَا أَنْتُمْ إِلَّا عِيْدُ جَمَالِهِ
يَكْفِيهِ أَنْ يَهْرَثَ مُحَاسِنُهُ الْوَرَى
وَأَجَدْتُمْ فِيهِ، وَإِنْ لَمْ يُحْسِنِ
فَلْتَخَضَعُوا لِبَهَاءِ مَنْظَرِهِ السَّنِيِّ
وَزَرَّتْ بِأَقْوَالِ الْفَصِيحِ الْمُحْسَنِ

(١) هو الفقيه النحوي الأندلسي أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن محمد بن خروف الحضرمي (ت ٦٠٩ هـ).

تعقيب:

هذه المقامة مجموعة من القطع الشعرية القصيرة ذات قافية موحدة (نونية) ووزن موحد (الكامل). وهذه القطع في الأصل قد جمعها أبو عبد الله الجوني، الذي سماها، كما ذكر صاحب كتاب أدباء مالقة «المقامات المحسنية». ومنطلقها ثلاثة أبيات ابتدأت بها المقامة، كتبها أبو عمرو بن سالم^(١) في أحد المالكين اسمه عبدالمحسن بن علي ويُعرف بابن أبي خُرص، وأرسل بها إلى أبي الحسين بن زعروز، فأجابه بأبيات في نفس الموضوع وعلى نفس القافية والوزن، ثم استجاب جماعة آخرون قيل عنهم إنهم «طلبة».

وابن أبي خُرص، الذي قيلت فيه هذه المقامة كان -كما ذكر صاحب أدباء مالقة- «من طلبة مالقة ونبائها، نبيلاً ذكياً فطناً لودعياً، وكان جميل الصورة، ولأدباء مالقة فيه أشعار... وكان عبدالمحسن هذا كريم النفس عالي الهمة، جميل العشرة»^(٢).

وقد اشترك في «المقامة المحسنية» ثلاثة عشر شاعراً، قدّمنا التعريف بهم في الصفحات السابقة. والشعر الذي تضمنته المقامة شعر بسيط ساذج، إلا أن المقامة - رغم ذلك - تمثل فنّاً من الأدب طريفاً، يبدو أنه كان له حظ من الانتشار في الأندلس.

ولا نجد في المصادر تحديداً للفترة التي كُتبت فيها هذه المقامة، ولكننا نرى أن بدايات النصف الثاني من القرن السادس الهجري هي زمن كتابة «المقامة المحسنية»، لأن من المشاركين فيها أبا بكر يحيى بن عبد الجليل بن عبد الرحمن بن مجبر المرسبي الذي كان -كما ذكر ابن الأبار- «شاعر الأندلس في وقته، بل شاعر المغرب غير مدافع»^(٣)، وقد انتقل إلى مراكش -عاصمة الموحدّين الذين قال فيهم أمداحاً كثيرة- و بها كانت وفاته سنة ٥٨٨ هـ^(٤).

(١) انظر ترجمته في أدباء مالقة: ص ٣٦١-٣٦٨، وانظر بحثنا هذا ص ١٨١ (الحاشية).

وكان أبو عمرو هذا «مثير أدباء مالقة في عصره إلى ما يصدر عنهم من نظم أو نثر في أحوال تطرأ وأغراض تنشأ، فيقيدها عنهم وينشر بها محاسنهم عني بذلك كثيراً وشغف به» الذيل والتكملة: ٤/ ص ٦. والمقامة المحسنية من الأمثلة الدالة على شغفه بإثارة الأدباء إلى الكتابة، فقد بدأها بثلاثة أبيات اشترك بها في هذه المقامة.

(٢) أدباء مالقة: ص ٢٩٢-٢٩٨.

(٣) التكملة: ٢/ ص ٧٢٥.

(٤) انظر ترجمته في: الإحاطة: ٤/ ص ٤١٨، وبغية الملتبس: ص ٤٩٣ (رقم ١٤٩٣).

مقامة العيد^(١) لابن المربع الأزدي

يقول شاكر الأيادي، وذاكر فخر كل نادي، وناشر غرر الغرر للعاكف والبادي، والرايح والغادي، اسمعوا مني حديثاً تلذّه الأسعاع، ويسْتَطِرْفه الاستماع، ويشهد بحسنه الإجماع، ويجب عليه الاجتماع، وهو من الأحاديث التي لم تتفق إلا لمثلي ولا ذكرت عن أحد قبلي، وذلك يا معشر الألبا والخُلصاء الأَجَبَا، أني دخلتُ في هذه الأيام داري، في بعض أدواري، لأقضي من أخذ الغذاء أوطاري، فقالت لي ربّة البيت: لم جئت؟ وبم أتيت؟ قلت: جيئتُ لكذا وكذا فهات الغذاء، فقالت: لا غداً لك عندي اليوم، ولو أودى بك الصوم، حتى تسأل الاستخارة، وتفعل كما فعل زوج الجارة، طيّب الله نَجاره، وملاً بالأرزاق وجاره. قلت وما فعل قريني، وأرني من العلامة ما أحببت أن تريني. قالت: إنّه فكَر في العيد، ونظر في أسباب التعييد، وفعل في ذلك ما يستحسنه القريب والبعيد، وأنت قد نسيّت ذِكره، ومحوته من بالك، ولم تنظر إليه نظرة بعين اهتبالك، وعيد الأضحى في اليد، والنظر في شراء الأضحية اليوم أوفقُ من الغد. قلت: صدقت، وبالحق نطقت، بارك الله فيك، وشكر جميل تحفّيك، فلقد نبّهت بَعْلَكَ لإقامة السّنة، ورفعت عنه من الغفلة منّة، والآن أسير لأبحث عما ذكرت، وأنظر في إحضار ما إليه أشرت، ويتأتّى ذلك إن شاء الله بسعدك، وتنايلن فيه من بلوغ الأمر غاية قصدك، والجدّ ليس من الهزل، والأضحية للمرأة وللرجل الغرل. قالت: دعني من الخرافات، وأخبار الزّرافات، فإنك حلّو اللسان، قليل الإحسان، تَحَذت الغربة صُحبتك إلى ساسان، فتهاونت بالنّسا وأساءت فيمن أسا، وعوّدت أكل خُبزك في غير منديل، وإيقاد الفتيل دون قنديل، وسكني الخان، وعدم ارتفاع الدُّخان، فما تقيم موسماً، ولا تعرف له ميسماً،

(١) ورد نصّ المقامة في كتاب الإحاطة: ج ٣ ص ٤٢٥ - ٤٣٢.

وأخذت معي في ذلك بطويل وعريض، وكلانا في طَرْفي نقيض، إلى أن قلت لها إزارك وردائي، فقد تفاقم بك أمر دائي، وما أظنك إلا بعض أعدائي، قالت مالك والإزار، شطُّ بك المزار، لعلك تريد إرهائه في الأضحية والأبزار، اخرج عني يا مقيت، لا عمِرتُ معك ولا بقيت، أو عَدِمَت الدَّين، وأخذ الورق بالعين. يلزمني صوم سنَّة، لا أغفيت معك سنَّة، إلَّا إِن رجعتُ بمثل ما رجع به زوج جاري، وأرى لك الرِّيح في تجارتي. فقممت عنها وقد لَوَت رأسها وَوَلَوْتُ، وابتدرتُ وهرولتُ. وجالت في العتاب وَصَوَلْتُ، وضمت بنتها وولدها، وقامت باللَّجج، والانتصار بالحُجج أودها، فلم يسعني إلَّا أن عَدَوْتُ أطوف السَّكك والشوارع، وأبادر لما غدوتُ بسبيله وأسارع، وأجوب الآفاق، وأسَل الرِّفاق، وأخترق الأسواق، وأقتحم زريبة بعد زريبة، وأختبر منها البعيدة والقريبة، فما استَرَّخَصْتُهُ استنَقَصْتُهُ، وما استغليته استعليته، وما وافق غرضي، اعترضني دونه عَدَمُ عَرْضِي، حتى انقضى ثلثا يومي، وقد عييت بدوراني وهومي، وأنا ولم أتحصل من الاتبياع على فائدة، ولا عادت عليَّ فيه من قضاء الأرب عائدة، فأومأت الإياب، وأنا أجد من خوفها، ما يجد صغار الغنم من الذئاب، على أن مررتُ بقَصَاب يقصب في مجزِّره، قد شدَّ في وسطه مئزره، وقَصَّر أثوابه حتى كشف عن ساقيه، وشَمَّر عن ساعديه حتى أبدى مِرْفَقَيْهِ، وبين يديه عنزٌ قد شدَّ يديه في رقبته، وهو يجذبه فَيَبْزُك، ويَجْزُّه فما يتحرَّك، ويروم سيره فيرجع القهقري، ويعود إلى وِراء، والقصاب يشدُّ على إزاره خِيفَةً من فراره، وهو يقول: اقتله من جانِّ باغ، وشيطان طاغ، ما أشدَّه وما ألدَّه، وما أصدَّه، وما أجده، وما أكثره بشحم، وما أطيبه بلحم، الطَّلَاق يلزمه، إن كان عاين تيساً مثله أو أضحية تشبهه قبله، أضحية حَفِيلَة، وَمِنْحَة جليلة. هنا الله مَنْ رُزِقَها، وأخلف عليه رزقها. فافتحمتُ المزدَحَم، أنظرُ مع من نَظَر، وأختبر فيمن اختبر. وأنا والله لا أعرف في التقلب والتخمين. ولا أفَرِّق بين العجف والسمين، غير أني رأيتُ صورة دون البغل وفوق الحمار، وهيكلًا يُجْبِرُك عن صورة العُمَّار، فقلت للقصاب كم طلبك فيه، على أن تمهل الثمن حتى أوفيه، فقال ابغني فيه أجيراً، وكُنْ له الآن من

الذبح مُجْبِرًا، وَخُذْهُ بِمَا يُرْضِي، لِأَوَّلِ التَّقْضِي. قَلْتُ اسْتَمِعِ الصَّوْتِ، وَلَا تَخَفِ الْفَوْتَ. قَالَ ابْتَعْهُ مِنِّي نَسِيَّةً وَخُذْهُ هَدِيَّةً، قَلْتُ نَعَمْ، فَشَقَّ لِي الضَّمِيرَ، وَعَاكَسَنِي فِيهِ بِالنَّقِيرِ وَالْقَطْمِيرِ. قَالَ تَضْمَن لِي فِيهِ عَشْرِينَ دِينَارًا أَقْبِضْهَا مِنْكَ لَانْقِضَاءِ الْحَوْلِ دُنِيًّا دُنِيًّا. قَلْتُ: إِنَّ هَذَا الْكَثِيرَ، فَاسْمَحْ مِنْهُ بِإِحَاطَةِ الْيَسِيرِ، قَالَ وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسْمَةَ، لَا أَنْقِصُكَ مِنْ هَذَا، وَمَا قَلْتُ لَكَ سِمْسِمَةً، اللَّهُمَّ إِنْ شئتَ السَّعَةَ فِي الْأَجْلِ، فَأَقْضِي لَكَ ذَلِكَ دُونَ أَجْلِ، فَجَلَبَنِي لِلْإِبْتِيَاعِ مِنْهُ الْإِنْسَاءُ فِي الْأَمَدِ، وَغَلَبَنِي بِذَلِكَ فَلَمْ أَقْتَرِ مِنْهُ لِرَأْيِ وَالِدٍ وَلَا وَلَدٍ، وَلَا أَحْوَجَتْ نَفْسِي فِي ذَلِكَ لِمَشُورَةِ أَحَدٍ، وَقَلْتُ قَدْ اشْتَرَيْتَهُ مِنْكَ، فَضَعْتُ الْبَرَكَةَ، لِيَصِحَّ النَّجْحُ فِي الْحَرَكَةِ. فَقَالَ فَقِيهٌ، بَارَكَ اللَّهُ فِيهِ، قَدْ بَعَثَهُ لَكَ، فَاقْبِضْ مَتَاعَكَ، وَثَبَّتْ إِبْتِيَاعُكَ، وَهِيَ هِيَ فِي قَبْضِكَ، فَاشْدُدْ وَثَاقَهُ، وَهَلُمَّ لِنَعْقِدَ عَلَيْكَ الْوِثَاقَةَ. فَانْحَدَرْتُ مَعَهُ لِدَكَانِ التَّوْثِيقِ، وَابْتَدَرْتُ مِنَ السَّعَةِ إِلَى الضِّيقِ، وَأَوْثَقَنِي بِالشَّادَةِ تَحْتَ عَقْدٍ وَثِيقٍ، وَحَمَلَنِي مِنْ رُكُوبِ الدَّيْنِ وَلِحَاقِ الشَّيْنِ فِي أَوْعَرِ طَرِيقٍ، ثُمَّ قَالَ لِي هَذَا تَيْسُكَ فَشَأْنُكَ وَإِيَّاهُ، وَمَا أَظُنُّكَ إِلَّا أَنْكَ تَنْعَاهُ، وَأَتِ بِحَمَلَيْنِ أَرْبَعَةَ، فَإِنَّكَ لَا تَقْدِرُ أَنْ تَرْفَعَهُ، وَلَا يَتَأْتِيَ لَكَ أَنْ يَتْبَعَكَ وَلَا أَنْ تَتَّبِعَهُ، وَلَمْ يَبْقَ لَكَ مِنَ الْكُلْفَةِ إِلَّا أَنْ يَحْصَلَ فِي مُحَلِّكَ، فَيَكْمُلُ سُرُورَ أَهْلِكَ. وَانْطَلَقْتُ لِلْحِمَالِ، وَقَلْتُ هَلُمَّ إِلَيَّ، وَقَمِ الْآنَ بَيْنَ يَدَيَّ، حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى مَجْزَرَةِ الْقَصَابِ، وَالْعِزُّ يُطَلَبُ فَلَا يُصَابُ، فَقَلْتُ أَيْنَ التَّيْسُ يَا أَبَا أُوَيْسَ. قَالَ إِنَّهُ قَدْ فَرَّ، وَلَا أَعْلَمُ حَيْثُ اسْتَقَرَّ. قَلْتُ أَتَضَيِّعُ عَلَيَّ مَالِي، لِتُخَيِّبَ آمَالِي، وَاللَّهُ لَا يَجْزَنُكَ بِالْعَصَا كَمَنْ عَصَا، وَلَا رَفَعْتُكَ إِلَى الْحُكَامِ تُجْرَى عَلَيْكَ مِنْهُمْ الْأَحْكَامُ. قَالَ مَالِي عِلْمُ بِهِ، وَلَا بِمَنْقَلَبِهِ، لَعَلَّهُ فَرَّ لَأَمِهِ وَأَبِيهِ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ، فَعَلَيْكَ بِالْبَرِّيحِ. فَانْجَهْتُ أَنْأَدِي الْأَسْوَاقِ، وَجِيرَانَ الزُّقَاقِ، مَنْ تَقِفُ لِي تَيْسًا فَلَهُ الْبِشَارَةُ، بَعْدَ مَا أَتَى بِالْأَمَارَةِ، وَإِذَا بِرَجُلٍ قَدْ خَرَجَ مِنْ دَهْلِيزٍ، وَلَهُ هَدِيرٌ وَهَزِيرٌ، وَهُوَ يَقُولُ مِنْ صَاحِبِ الْعِزِّ الْمَشُومِ، لَا عَدَمَ بِهِ الشُّومِ، إِنْ وَقَعْتَ عَلَيْهِ عَيْنِي، يَرْتَفِعُ الْكَلَامُ بَيْنَهُ وَبَيْنِي. قَلْتُ أَنَا صَاحِبُهُ فَمَا الَّذِي دَهَاكَ مِنِّي أَوْ بَلَغَكَ عَنِّي. قَالَ إِنْ عَنَزَكَ حِينَ شَرَدَ، خَرَجَ مِثْلَ الْأَسَدِ، وَأَوْقَعَ الرَّهَجَ فِي الْبَلَدِ، وَأَضْرَبَ بِكُلِّ أَحَدٍ، وَدَخَلَ فِي دِهْلِيزِ الْفَخَّارَةِ، فَقَامَ فِيهِ وَقَعْدٌ، وَكَانَ الْعَمَلُ فِيهِ

مطبوخاً ونيّاً، فلم يترك منه شيئاً، ومنه كانت معيشتي، وبه استقامت عيشتي، وأنت ضامن مالي، فارتفع معي على الوالي، والعزُّ مع هذا يُدور وسط الجمهور، ويكرّر كرة العفريت المزجور، ويأتي بالكسر على ما بقي في الدهليز من الدّواجن والقُدور، والحلق قد انحسروا للضجيج، وكثر العياط والعجيج، وأنت تعرف عَفْرطة الباعة، وما يحوون من الوضاعة، وأنا أحاول من أخذه ما أستطيع، وأروم الإطاعة من غير مُطيع، والباعة قد أكَسَبَتْهُ من الحماقة، ما لم يكن لي به طاقة. ورجل يقول المُحتسب، وأعرف ما تكتسب، وإلى من تنتسب، فقد كثر عنده بك التَّشكي، وصاحب الدهليز قُبالاته يبكي، وقد وَجَدَ عنده عليك وَجَدَ الشكوى، وأيقن أنك كسرت الدَّعوى، وأمر يا حضارك، وهو في انتظارك، فشَدَّ وَسَطُكَ، واحفظ إِبْطَكَ، وإنك تقوم على من فتح باعه للحُكم على الباعة، ونُصِبَ لأرباب البراهين على أرباب الشواهين، ورفع على طبقة. ليملاً طبقة، ثم أُمْسَكْنِي باليمين، حتى أَوْصَلْنِي للأمين، فقال لي أرسلت التيس للفساد كأنك في نِعم الله من الحُسَاد. قلت إنه شَرِدَ، ولم أدر حيث ورد، قال ولم لا أخذت ميثاقه، ولم تشدد وِثاقه، يا شرطي طَرَّدَهُ، واطرح يدك فيه وجرِّده. قلت أَتَجَرَّدُني الساعة، ولست من الباعة، قال لا بد من ذاك، أو تضمن ما أفسده هناك. قلت الضَّمان الضَّمان، الأمان الأمان. قال قد أَمُنْتُ إن ضَمِنْتُ، وعليك الثقاف، حتى يقع الإنصاف، أو ضامنٌ كاف، فابتدر أحد إخواني، وبعض جيراني، فأدّى عني ما ظهر بالتقدير، وآلت الحال للتكدير. ثم أردت الانصراف بالتيس، لا كان كيانه، ولا كَوْنُ مكانه، وإذا بالشرطي قد دار حولي، وقال لي كُلفَ فعلي بأداء جَعلي، فقد عطّلت من أجلك سُغلي، فلم يكن عندي بما تُكسر سورته، ولا بما تُطْفئ جَمْرُهُ، فاستَرَهَنَ مِئْزري في بيته ليأخذ مايته، وتوجَّهت لداري، وقد تقدّمت أخباري، وقدمت بغباري، وتغيّر صغاري وكباري، والتيس على كاهل الحِمَال، يَرْغُو كالبعير، ويزار كالأسد إذا فُصِلت العير، فقلت للحمال انزله على مَهَل، فهلال التعييد قد استَهَلَّ، فحين طرحه في الأسطوان، كَرَّ إلى العدوان، وصرخ كالشيطان، وهم أن يقفز الحيطان، وعلا فوق الجدار، وأقام الرّهجة في الدار، ولم تبق في الزقاق عجوزٌ إلا

وَصَلَتْ لَتَرَاهُ، وَتَسْلُ عَمَا اعْتَرَاهُ، وَتَقُولُ بِكُمْ اشْتَرَاهُ، وَالْأَوْلَادُ قَدْ دَارَتْ بِهِ وَأَرْهَقَهُمْ
لَهْفُهُ، وَدَخَلَ قُلُوبَهُمْ خَوْفُهُ، فَابْتَدَرَتْ رَبَّةَ الْبَيْتِ وَقَالَتْ كَيْتَ وَكَيْتَ، لَا حَلَّ وَلَا زَيْتَ،
وَلَا حَيٍّ وَلَا مَيِّتَ، وَلَا مَوْسِمَ وَلَا عِيدَ، وَلَا قَرِيبَ وَلَا بَعِيدَ، سُقَّتِ الْعِفْرِيَّةُ إِلَى الْمَنْزِلِ،
وَرَجَعَتْ بِمَعْرَلٍ، وَمَنْ قَالَ لَكَ اشْتَرِهِ، مَا لَمْ تَرَهُ، وَمَنْ قَالَ لَهُ سُقَّهُ حَتَّى تَوَثَّقَهُ، وَمَتَى
تَفْرَحَ زَوْجَتُكَ، وَالْعَنْزُ أَضْحَيْتُكَ، وَمَتَى تُطْبِخَ الْقُدُورَ وَوَلَدُكَ مِنْهُ مَعْذُورٌ، وَبِأَيِّ قَلْبٍ
تَأْكُلُ الشَّوْيَةَ، وَلَمْ تَخْلُصْ لَكَ فِيهِ النِّيَّةُ وَاقْلَّةُ سَعْدِهَا، وَاخْلُفَ وَعْدِهَا، وَاللَّهُ لَوْ كَانَ الْعَنْزُ
يُخْرِجُ الْكَنْزَ، مَا عَمَرَ لِي دَارًا، وَلَا قَرَّبَ لِي جَوَارًا، أَخْرَجَ عَنِّي يَالْكَعِجَ، فَعَلَ اللَّهُ بِكَ وَصْنَعُ،
وَمَا حَبَسَكَ عَنِ الْكَبَاشِ السَّمَانِ، وَالضَّأْنِ الرَّفِيعَةِ الْأَثْمَانِ، يَا قَلِيلَ التَّحْصِيلِ، يَا مَنْ لَا
يَعْرِفُ الْخِيَاطَةَ وَلَا التَّفْصِيلَ، أَذَلِكَ عَلَى كَبْشٍ سَمِينٍ، وَاسِعِ الصَّدْرِ وَالْجَبِينِ، أَكْحَلُ
عَجِيبٍ، أَقْرَنَ مِثْلَ كَبْشِ الْخَطِيبِ، يَعْبُقُ مِنْ أَوْدَاكِهِ كُلِّ طَيْبٍ، يَغْلِبُ شَحْمَهُ عَلَى لَحْمِهِ،
وَيَسِيلُ الْوَدَّ مِنْ عَظْمِهِ، قَدْ عُلِفَ بِالشَّعِيرِ، وَدُبِّرَ عَلَيْهِ أَحْسَنُ تَدْبِيرٍ، لَا بِالصَّغِيرِ وَلَا
بِالْكَبِيرِ، تَصْلُحُ مِنْهُ الْأَلْوَانُ، وَيُسْتَطَرَفُ شِوَاهُ فِي كُلِّ أَوَانٍ، وَيُسْتَحْسَنُ ثَرِيدُهُ وَقَدِيدُهُ فِي
سَائِرِ الْأَحْيَانِ، قُلْتُ بَيْنِي لِي قَوْلُكَ، لَا تَعْرِفَ فِعْلُكَ، وَأَيْنَ تَوْجَدُ هَذِهِ الصِّفَةَ، يَا قَلِيلَةَ
الْمَعْرِفَةِ. قَالَتْ عِنْدَ مَوْلَانَا، وَكَهْفُنَا وَمَأْوَانَا الرَّئِيسُ الْأَعْلَى، الشَّهَابُ الْأَجَلَى، الْقَمَرُ
الزَّاهِرُ، الْمَلِكُ الظَّاهِرُ، الَّذِي أَعَزَّ الْمُسْلِمِينَ بِنِعْمَتِهِ، وَأَذَلَّ الْمُشْرِكِينَ بِنِقْمَتِهِ.

تحليل مقامة ابن المربع

هذه مقامة خاطب فيها ابن المربع حاكم مالقة الرئيس أبا سعيد فرج ابن نصر يستجديه أضحية بمناسبة العيد، ولذلك سُميت «مقامة العيد».

وابن المربع يحكي - في مقامته هذه - قصة رجل من أهل الكدية، أو الشحادة الأدبية، ويستهلها بأن الرجل دخل داره ليتناول شيئاً من الطعام فقالت له زوجته: لم جئت؟ لا طعام لك عندي إلا إذا صنعت ما صنعه زوج الجارة إذ فُكر في العيد وأنت قد نسيت، فقال لها: صدقت وسأخرج الآن أبحث لك عما ذُكِرَت، وأخذت تقول له إنك لن تأتي بشيء، وأخذت تهوّن من شأنه، ولما كان يجد من خوفها - كما يقول - ما يجد صغار الغنم من الذئاب عدّا يطوف السكك والشوارع ويجوب الآفاق، ويسأل الرفاق، ويخترق الأسواق، إلى أن مرَّ بقصّاب (جزار) وبين يديه عنز، وسأله أن يبيعه منه ويمهله في الثمن، وباعه له مؤجلاً بعشرين ديناراً، وانحدر معه لدُكان موثّق يكتب لهما عقد البيع، وعاد مع الجزار فلم يجد العنز، وكان قد شرد، فأخذ ينادي في الأسواق والأزقة من رأى عنزاً، وإذا برجلٍ فخّار خرج من دهليز يصيح أين صاحب هذا العنز، والعنز يدور في الدهليز ويحطم ما بقي من الطواجن والقدر. وطلبه المحتسب (شرطي السوق) وصاحب الدهليز أمامه يبكي، ولم يعف عنه إلا بعد أن أدّى عنه جيرانه ما أفسده عنزه. وتوجّه به مع الحمال إلى داره ولم تبق في الزقاق عجوز إلا وصلت لترات، وتسأله بكم اشتراه، والأولاد يدورون به، أما ربّة البيت، فبادرت زوجها تقول: «ليس في البيت خلٌّ ولا زيت، ومتى تُفرح زوجتك، والعنز أضحيّتك، واقلّة سعدتها، وأخلف وعدها، وما حبّسك عن الكباش السمان».

وفجأة يتغير المشهد، فيهدأ الجو ويسوده الوقار: لقد غادر المؤلف ذلك المكان الشعبي، وغادر منزله، وتوجه أبى الأمير أبي سعيد بن نصر، ويطلب منه أن يخلّصه من ذلك البؤس، ويَبِّه كبش العيد. ويفيض في مديح الأمير، ولكن ابن الخطيب يكتفي بمقطع من المديح، ويحذف المقاطع الأخرى لطولها، كما يقول.

مقامة السياسة (١)

للسان الدين بن الخطيب

حَدَّث من امتاز باعتبار الأخبار، وحاز درجةَ الاشتهار، ينقل حوادث الليل والنهار، وولج بين الكئام والأزهار، وتلطّف لحنجل الورد من تبسم البهار، قال: سَهَرَ الرشيد ليلة، وقد مال في هجر النبيذ ميلةً، وجهد ندماءه في جلب راحته، وإمام النوم بساحته، فشحت عهادهم، ولم يُغنِ اجتهادهم، فقال: اذهبوا إلى طُرُق سَمّاها ورسّمها، وأمّهات قسمها، فَمَنْ عثرتم عليه من طارق ليل، أو غُشاء سيل، أو ساحب ذيل، فبلغوه، والأمنة سَوّغوه، واستدعوه، ولا تَدَعُوهُ. فطاروا عَجالي، وتفرقوا ركباناً ورجالا، فلم يكن إلا ارتدادُ طرف، أو فُواق حُرْف^(١)، وأتوا بالغنيمة التي اكتسحوها، والبضاعة التي ربحوها، يتوسطهم الأشعث الأغر، واللجّ الذي لا يُعبر: شيخٌ طويل القامة، ظاهر الاستقامة، سَبَلته مُشَمِّطَة، وعلى أنفه من القبع^(٢) مَطَّة، وعليه ثوب مرقوع، لطير الحُرْق عليه وقوع، يُهَيِّئُ بذكر مسموع، وينبئ عن وقت مجموع، فلَمّا مَثَلَ سَلَم، وما نبس بعدها ولا تكلّم. فأشار إليه الملك فَقَعَد، بعد أن انشمر وابتعد، وجلس، فما استرق النظر ولا اختلس، إنّما حركة فِكْره، معقودةٌ بزمام ذِكْره، ولحظات اعتباره، في تفاصيل أخباره، فابتدره الرشيدُ سائلاً، وانحرف إليه مائلاً، وقال: مَنْ الرجل؟ فقال: فارسيُّ الأصل، أعجميُّ الجنسِ عربيُّ الفَصْلِ، قال: بلدك وأهلك وولدك؟ قال: أمّا الولدُ فولدُ الديوان، وأمّا البلدُ فمدينة الإيوان، قال: النّحلة وما أعملت إليه الرّحلة، قال: أمّا الرحلة فالاعتبار، وأمّا النّحلة فالأمور الكبار، قال: فنّك، الذي اشتمل عليه

(١) ورد نصّ هذه المقامة في ريجانة الكتاب: ٢/ص ٣١٦-٣٣٤. وأوردها المقرئ في نفع الطيب: ٦/ص ٤٣٠-٤٤٥.

(٢) فواق: فترة ما بين الحلبتين، والحرف: الناقّة. نصّها في كتابه ريجانة الكتاب: ٢/ص ٣١٦-٣٣٤.

(٣) القبع: الصياح أو الإعياء والانبهار.

دُنْكَ؟ فقال: الحكمة فني الذي جعلته أثيراً، وأضجعت فيه فراشاً وثيراً، وسبحان الذي يقول ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (البقرة ٢٦٩) وما سوى ذلك فتبع، ولي فيه مُصْطَافٍ ومرْتَبِع. قال: فتعاصد جذل الرشيد وتوقّر، كأنها عُثْيِي وجهه قطعة من الصبح إذا أسفر، وقال: ما رأيت كالليلة أجمع لأملٍ شارد، وأنعم بمؤانسة وارد، يا هذا إنّي سائلُك، ولن تخيبَ بعدُ وسائلُك، فأخبرني ما عندك في هذا الأمر الذي بلينا بِحُمْلِ أعبائه، ومُنيّا بمراوضة إباطه، فقال: هذا الأمر قِلادةٌ ثَقِيْلَةٌ، ومن خُطّة العجز مستقيلة، ومفتقرة لِسَعَةِ الدَّرْعِ، وربط السياسة المدنيّة بالشرع، يفسده الحِلْمُ في غير محله، ويكون ذريعة إلى حَلِّهِ، ويُصلّحه مقابلة الشكل بشكله. ومن لم يكن سباعاً أَكِلًا تَدَاعَتْ سباعٌ إلى أَكله.

فقال الملك: أَجَلْتِ فَفَضِّلُ، وَبَرَيْتِ فَفَضِّلُ، وَكَلْتِ فَأَوْصِلُ، وانثر الحبّ لمن يُحْوِصِلُ، واقسم السياسة فنوناً، واجعل لكل لقبٍ قانوناً، وابدأ بالريعية، وشروطها المرعية. «فقال: رَعَيْتُكَ ودائع الله قَبْلَكَ، ومراة العدل الذي عليه جَبَلُكَ، ولا تصل إلى ضبطهم إلا بإعانة الله تعالى التي وهب لك، وأفضل ما استدعيت به عونه فيهم، وكفايته التي تكفيهم، تقويمُ نفسك عند تقويمهم ورضاك بالسَّهر لتنويمهم، وحراسة كَهْلِهِم ورضيعهم، والترفع عن تضييعهم، وأخذ كل طبقة بما عليها وما لها، أخذاً يحوطُ ماها، ويحفظُ عليها كماها، ويقصّر عن غير الواجبات آماها، حتى تستشعرَ عَليتها رَأْفَتَكَ وحنانَكَ، وتعرف أوساطها في النَّصَبِ امتنانَكَ، وتحذر سِفْلَها سنانَكَ، وحظّر على كلّ طبقة منها أن تتعدى طورها، أو تخالف دورها، أو تجاوزَ بأمرٍ طاعتَكَ فورها، وسدّ فيها سُبُلَ الذريعة، واقصّر جميعها عن خدمة الملك بموجب الشريعة، وامنع أغنياءها من البطرِ والبطالة، والنظر في شبهات الدين بالتمشديق والإطالة، وليقلّ فيها شجر بين الناس كلامها، ويرفض ما تنبذ به أعلامها، فإن ذلك يُسقطُ الحقوق،

ويرتّبُ العقوقَ، وامنعهم من فحش الحرص والشره، وتعاهدهم بالمواعظ التي تجلو البصائر من المَوَه، واحملهم من الاجتهاد في العمارة على أحسن المذاهب، وائتھم عن التحاسد على المواهب، ورُضهم على أهل اليسار، والسخاء على أولي الإعسار، وخذهم من الشريعة بالواضح الظاهر، وامنعهم من تأويلها منَع القاهر، ولا تطلق لهم التجمّع على من أنكروا أمره في نواديهم، وكفّ عنهم أكفّ تعدّهم، ولا تبخ لهم تغيير ما كرهوه بأيديهم، ولتكن غايتهم، فيما توجّهت إليه إبايتهم، ونكصت عن الموافقة عليه رايتهم، إنهاءً إلى مَنْ وكلّته بمصالحهم من ثقاتك، المحافظين على أوقاتك، وقدم منهم من أمنت عليهم مكره، وحدث على الإنصاف شكره، ومن كثر حياؤه من التائب، وقابل الهفوة باستتابه المنيب، ومن لا يتخطى عندك محلّه الذي حلّه، فربما عمد إلى المبرم فحلّه، وحسن النية لهم بجهد الاستطاعة، واغفر المكاره في جنب حسن الطاعة، وإن ثار جرادهم، واختلف في طاعتك مُرادهم، فتحصن لثورتهم، واثبت لفورتهم، فإذا سألوا وسلّوا، وتفرّقوا وانسلّوا، فاحتقر كثرتهم، ولا تُقلّ عثرتهم، واجعلهم لما بين أيديهم وما خلفهم نكالا، ولا تترك لهم على حلمك اتكالا.

»ثم قال: والوزير الصالح أفضل عددك، وأوصل مددك، فهو الذي يصونك عن الابتذال، ومباشرة الأندال، ويشبّ لك على الفرصة، وينوب في تجرع الغصة، واستجلاء القصة، ويستحضر ما نسيته من أمورك، ويغلب فيه الرأي بموافقة مأمورك، ولا يسعه ما تمكّنك المسامحة فيه، حتى يستوفيه، واحذر مصادمة تياره، والتجوز في اختياره، وقدم استخارة الله تعالى في إشاره، وأرسل عيون الملاحظة على آثاره، وليكن معروفاً بالإخلاص لدولتك، معقود الرضى والغضب برضاك وصولتك، زاهداً عما في يديك، مؤثراً لكل ما يُزلفُ لديك، بعيد الهمة، راعياً للأذمة، كامل الآلة، محيطاً بالإيالة، رحيب الصدر، رفيع القدر، معروف البيت، نبيه الحيّ والميت، مؤثراً للعدل والإصلاح، درياً

بحمل السلاح، ذا خبرة بدخل المملكة وخرَجْها، وظهرها وسرجها، صحيح العقد، متحرزاً من النقد، جاداً عند هوك، متيقظاً في حال سَهْوِكَ، يلينُ عند غضبك، ويصل الإسهاب بمقتضبك، قلقاً من شكره دونك وحمده ناسباً لك الإصابة بعمّده، وإن أعيا عليك وجودُ أكثر هذه الخلال، وسبق إلى نقضها شيء من الاختلال، فاطلب منه سكون النفس وهدونها، وأن لا يرى منك رتبة إلا رأى قدرة دونها وتقوى الله تعالى تفضل شرف الانتساب، وهي للفضائل فذلّة الحساب، وساو في حفظ غيبه بين قربه ونأيه، واجعل لحظة من نعمتك موازياً لحظّك من حُسْنِ رأيه، واجتنب منهم من برى في نفسه إلى الملك سبيلاً، أو يقوّد من عيصه للاستظهار عليك قبيلًا، أو من كاثّر مالك مألّه، أو من تقدم لعدوك استعماله، أو من سمّت لسواك آماله، أو من يعظّم عليه إعراض وجهك، ويهمّة نادرُ نهجك، أو من يداخل غيرَ أحبابك، أو من ينافس أحداً ببابك.

«وأما الجند فاصرف التقديمَ منهم للمقاتلة، والمكايدة والمخاتلة، واستوفِ عليهم شرائط الخدمة، وخذهم بالثبات للصدمة، ووفّ ما أوجبت لهم من الجراية والنعمة، تعاهدهم عند الغناء بالعلفة والطعمة، ولا تكرم منهم إلا من أكرمه غناؤه، وطاب في الذبّ عن ظنك ثناؤه، وولّ عليهم النبهاء من خيارهم، واجتهد في صرفهم عن الافتتان بأهلهم وديارهم، ولا توطئهم الدّعة مهاداً، وقدمهم على حصصك وبعوثك مهما أردت جهاداً، ولا تُلَيِّنْ لهم في الإغماض عن حسن طاعتك قياداً، وعودهم حُسْنَ المواساة بأنفسهم اعتياداً. ولا تسمح لأحد منهم في إغفال شيء من سلاح استظهاره، أو عدّة اشتهاره، وليكن ما فضل من شيعهم وريهم، مصروفاً إلى سلاحهم وزيّهم، والتزيد في مراكبهم وعلماهم، من غير اعتبار لأثمانهم، وامنعهم من المستغلّات والمتاجر، وما تكسّب به غير المشاجر، وليكن من الغزو اكتسابهم، وعلى المغانم حسابهم، كالجوارح التي تفسد باعتيادها، أن تطعم من غير اصطيادها.

« واعلم أنها لا تبذل نفوسها من عالم الإنسان، إلا لمن يملك قلوبها بالإحسان وفضل اللسان، ويملك حركاتها بالتقويم، ورُبُّها بالميزان القويم، ومن تثق بإشفاقه على أولادها، ويشترى رضى الله تعالى بصبره على طاعته وجَلادها، فإذا استشعرت لها هذه الخلالَ تقدمتك إلى مواقف التلف، مطيعةً دواعي الكلف، واثقة منك بحسن الخلف، واستبق إلى تمييزهم استباقاً، وطبقهم طباقاً، أعلاها من تأملت منه في المحاربة عنك أخطاراً، وأبعدهم في مرضاتك مَطاراً، وأضبطهم لما تحت يده من رجالك حزمًا ووقاراً، واستهانة بالعظائم واحتقاراً، وأحسنهم لمن تقلده أمرك من الرعية جواراً، إذا أجدت اختباراً، وأشدَّهم على ماطلة من مارسه من الخوارج عليك اضطباراً، ومن بلا في الذي عنَّ لك إحلاء وإمراراً، ولحقه الضر في معارض الدِّفاع عنك مراراً، وبعده مَنْ كانت محبته لك أزيد من نجدته، وموقعُ رأيه أنفع من موقع صَعْدته، وبعدها مَنْ حَسُنْ انقيادُهُ لأمرائك، وإحماده لآرائك، ومَنْ جعل نفسه من الأمر حيث جعله، وكان صبره على ما عراه أكثر من اعتداده بما فعله، واحذر منهم من كان عند نفسه أكبر من موقعه في الانتفاع، ولم يستحِ من التزيد بأضعاف ما بذله من الدفاع، وشكا البخس فيما تعذر عليه من فوائده، وقاس بين عوائد عدوك وعوائدك، وتوَعَّد بانتقاله عنك وارتحاله، وأظهر الكراهية لحاله.

«وأما العمال فإنهم ينبئون عن مذهبك، وحالهم في الغالب شديدة الشبه بك، فعرفهم في أمانتك السعادة، وألزمهم في رعيك العادة، وأنزلهم من كرامتك بحسب منازلهم في الاتصاف، بالعدل والإنصاف، وأجلهم من الحفاية، بنسبة مراتبهم من الأمانة والكفاية، وقفهم عند تقليد الأرجاء، مواقف الخوف والرجاء، وقرّر في نفوسهم أَنَّ أعظم ما به إليك تقربوا، وفيه تدربوا، وفي سبيله أعجموا وأعربوا، إقامة حق ودحض باطل، حتى لا يشكو غريمٌ مَطل ماطل، وهو أثر لديك من كل ربابٍ هاطل،

وكفّهم من الرزق الموافق، عن التصدي لِدَنِيِّ المرافق، واصطنع منهم من تيسرت
كلفته، وقويت للرعايا ألفتة، ومن زاد على تأميلة صبره، وأربى على خبره، وكانت رغبته
في حسن الذكر، تشفُّ على بنات الفكر، واجتنب منهم من يغلبُ عليه سوء الحساب،
وكانت ذريعته المصانعة بالنفاية، دون التقصي والكفاية، ومن كان منشؤه خاملاً،
ولأعباء الدناءة حاملاً، وأبغِ مَنِ يكون الاعتذارُ في أعماله، أوضح من الاعتذار في
أقواله، ولا يفتننك مَن قلدته اجتلابُ الحطّ المقنع، والتنفقُ بالسعي المسمع، ومخالفة
السّنن المرعية، واتباعه رضاك بسخط الرعية، فإنه قد غشّك من حيث بلك ورشك،
وجعل من يمينك في شمالك، حاضر مالك، ولا تُضْمَنُ عاملاً مال عمله، وحُل بينه فيه
وبين أمله، فإنك تميّت رسومك بمحياه، وتخرجه من خدمتك فيه إلا أن تملكه إياه، ولا
تجمع له بين الأعمال فيسقط استظهارك ببلد على بلد، والاحتجاج على والد بولد،
واحرص على أن يكونَ في الولاية غريباً، ومتقلُّه منك قريباً، ورهينة لا يزال معها مريباً،
ولا تقبل مصالحته على شيء اختانه، ولو برغبة فتّانة، فتقبل المصانعة في أمانتك، وتكونَ
مشاركاً له في خيانتك، ولا تُطِل مدة العمل، وتعاهد كشف الأمور مَن يرعى الحمل،
ويبلغ الأمل .

« وأما الولد فأحسن آدابهم ، واجعل الخير دابهم ، وخَفْ عليهم من إشفاقك
وحنانك، أكثر من غلطة جنانك، واكتم عنهم ميلك، وأفض فيهم جودك ونيلك، ولا
تستغرق بالكلف بهم يومك ولا ليلك، وأثبهم على حُسن الجواب، وسبق إليهم خوف
الجزاء على رجاء الثواب، وعلمهم الصبر على الضرائر، والمهلة عند استخفاف الجرائر،
وخذهم بحسن السرائر، وحبب إليهم مراس الأمور الصعبة المراس، وحسن الاصطناع
والاحتراس، والاستكثار من أولى المراتب والعلوم والسياسات والحلوم، والمقام
المعلوم، وكرّه إليهم مجالسة الملهين، ومصاحبة الساهين، وجاهد أهواءهم عن عقولهم،

وحذّر الكذب على مَقُولهم، ورشّحهم إذا آنت منهم رُشداً أو هدياً، وأرضعهم من المؤازرة والمشاورة ثدياً، لتمرّنه على الاعتياد، وتحملهم على الازدياد، ورُضهم رياضة الجياد، واحذر عليهم الشهوات فهي داؤهم، وأعداؤك في الحقيقة وأعداؤهم، وتدارك الخلق الذميمة كلّما نَجَمَت، واقدعها إذا هجمت، قبل أن يظهر تضعيفها، ويقوى ضعيفها، فإن أعجزتك في الصغر الخيل، عظم الميل:

إِنَّ الْغُصُونَ إِذَا قَوْمَتَهَا اعتدلت وَلَكِنْ تَلَيْنَ إِذَا قَوْمَتَهَا الخشبُ

وإذا قدروا على التدبير، وتَشَوَّفوا للمحل الكبير، إياك أن توطئهم في مكانك، جهد إمكانك، وفرقهم في بلدانك، تفريق عبدانك، واستعملهم في بعوث جهادك، والنيابة عنك في سبيل اجتهادك، فَإِنَّ حَضْرَتَكَ تشغلهم بالتحاسد، والتباري والتفاسد، وانظر إليهم بأعين الثقات فإن عين الثقة، تُبْصِرُ ما لا تبصر عين المحبة والمقة.

«وأما الخدم فإنهم بمنزلة الجوارح التي تفرق بها وتجمع، وتبصر وتسمع، فَرُضهم بالصدق والأمانة، وُصْنهم صَوْنُ الجُمَانَةِ، وخذهم بحسن الانقياد إلى ما أثرته، والتقليل مما استكثرته، واحذر منهم من قويتْ شَهَوَاتُهُ، وضافت عن هواه لهواته، فإن الشهوات تنازعُكَ في استرقاقه، وتشاركك في استحقاقه، وخيرهم من ستر ذلك منه بلطف الحيلة، وآداب للفساد محيلة، وأشرب قلوبهم أن الحق في كلّ ما حاولته واستنزته، وأن الباطل في كلّ ما جانبته واعتزلته، وأن مَنْ تصفّح منهم أمورك فقد أذنب، وباين الأدب وتجنّب، وأعط من أكذدته، وأضقت منه مُلْكُهُ وشددته، رَوْحَةٌ يشتغل فيها بما يعنيه، على حسب صعوبة ما يُعَانِيهِ، تغطبهم فيها بمسارحهم، وتجمّ كليلة جوارحهم، ولتكن عطايك فيهم بالمقدار الذي لا يُيْطَرُ أعلامهم، ولا يُؤْسَفُ الأصاغر فيفسد أحلامهم، ولا تَرْمِ مُحْسَنَهُم بالغاية من إحسانك، واترك لمزيدهم فضلة من رفدك ولسانك، وحذّر

عليهم مخالفتك ولو في صلاحك: بحدّ سلاحك، وامنعهم من التوائب والتشاجر، ولا تحمد لهم شيم التقاطع والتهاجر، واستخلص منهم لسرك من قلّت في الإفشاء ذنوبه، وكان أصبر على ما ينوبه، ولودائعك من كانت رغبته في وظيفة لسانك، أكثر من رغبته في إحسانك، وضبطه لما تقلّد من وديعتك، أحبّ إليه من حسن صنيعتك، وللسفارة عنك من حلا الصدق في فمه، وآثره ولو باختطار دمه، واستوفى لك وعليك فهم ما تحمله، وعُني بلفظه حتى لا يهمله، ولمن تودعه أعداء دولتك من كان مقصور الأمل، قليل القول صادق العمل، ومن كانت قسوته زائدة على رحمته، وعظّمه في مرضاتك أثر من شحمته، ورأيه في الحذر سديد، وتحزّزه من الحيل شديد، ولخدمتك في ليلك ونهارك من لانت طباعه، وامتد في حسن السجية باعه، وأمن كيده وعذره، وسلم من الحقد صدره، ورأى المطامع فمطمع، واستثقل إعادة ما سمع، وكان بريئاً من الملال، والبشر عليه أغلب الخلال، ولا تؤنسهم منك بقبيح فعل ولا قول، ولا تؤيسهم من طول، ومكن في نفوسهم أن أقوى شفعاثهم، وأقرب إلى الإجابة من دعائهم، إصابة الغرض فيما به وكلوا، وعليه شكلوا، فإنك لا تعدم بهم انتفاعاً، ولا يعدمون لديك ارتفاعاً.

« وأما الحرم فهنّ مغارس الولد، ورياحين الخلد، وراحة القلب الذي أجهدته الأفكار، والنفس التي تقسمها الإحماد إلى المساعي والإفكار، فاطلب منهن من غلب عليهن من حسن الشيم، المترفة عن القيم، ما لا يسوءك في خلدك، أن يكون في ولدك، واحذر أن تجعل لفكر بشر دون بصير إليهن سبيلاً، وانصبّ دون ذلك عذاباً وبيلاً، وأزعجنّ من النساء العُجْز منّ بانت في الديانة والأمانة سبله، وقويت غيْرته ونبله، وخذهنّ بسلامة النيات، والشيم السنيّات، وحسن الاسترسال، والخلق السلسال، وحذرّ عليهنّ التغامّر والتغاير، والتنافس والتخاير، وآس بينهن في الأغراض والتصامم عن الإعراض، والمحابة بالأعراض، وأقلل من مخالطتهن فهو أبقى لهمتك، وأسبل

لحرمتك، ولتكن عشرتك لهن عند الكلال والملال، وضيق الاحتمال، بكثرة الأعمال، وعند الغضب والنوم، والفراغ من نصّب اليوم، واجعل مبيتك بينهن تنم بركاتك، وتستقر حركاتك، وافصل من ولدت منهن إلى مسكنٍ تختبر به استقلالها، وتعتبر بالتفرد خلاها، ولا تطلق لحرمة شفاعته ولا تدبيراً، ولا تنط بها من الأمر صغيراً ولا كبيراً، واحذر أن يظهر على خدمهن في خروجهن عن القصور، وبروزهن من أجمة الأسد الهصور، زي بارع، ولا طيب للأنوف مسارع، واخصص بذلك من طعن في السن، ويئس من الإنس والجن، ومن توفر النزوع إلى الخيرات قبله، وقصر عن جمال الصورة ورسم بالبله.

«ثم قال: واعلم يا أمير المؤمنين - سدد الله تعالى سهمك لأغراض خلافته وعصمك من الزمان وآفته - أنك في مجلس الفصل، ومباشرة الفرع من ملكك والأصل، في طائفة من عز الله تعالى تذب عنك حُماتها، وتدافع عن حوزتك كماتها، فاحذر أن يعدل بك غضبك عن عدل تزري منه بيضاعة، أو يهجم بك رضاك على إضاعة، ولتكن قدرتك وقفاً على الاتصاف، بالعدل والإنصاف، واحكم بالسوية، واجنح بتدبرك إلى حسن الروية. وخف أن تقعد بك أناتك عن حزم تعين، أو تستفزك العجلة في أمر لم يتبين، وأطع الحجة ما توجهت إليك، ولا تحفل بها إذا كانت عليك، فانقيادك إليها أحسن من ظفرك، والحق أجدى من نفرك، ولا تردن النصيحة في وجهه، ولا تقابل عليها بنجه، فتمنعها إذا استدعيتها، وتحجب عنك إن استوعبتها، ولا تستدعها من غير أهلها، فيشغبك أولو الأغراض بجهلها، واحرص على أن لا ينقضي مجلس جلسته، أو زمن اختلسته، إلا وقد أحرزت فضيلة زائدة، أو وثقت منه في معادك بفائدة.

«ولا يزهدنك في المال كثرته، فتقل في نفسك أثرته، وقس الشاهد بالغائب، واذكر وقوع ما لا يحتسب من النوائب، فالمال المصون، أمنع الحصون، ومن قلّ ماله، قصرت

آماله، وتهاون بيمينه شماله، والملك إذا فقد خزينه، أخنى على أهل الجدة التي تزينه، وعاد على رعيته بالإجحاف، وعلى جبايته بالإلحاف، وساء معتاد عيشه، وصغر في عيون جيشه، ومَنّوا عليه بنصره، وأنفوا من الاقتصار على قصره، وفي المال قوة سماوية تصرف الناس لصاحبه، وتربط آمال أهل السلاح به، والمال نعمة الله تعالى فلا تجعله ذريعة إلى خلافه، فتجتمع بالشهوات بين إتلافك وإتلافه، واستأنس بحسن جوارها، واصرف في حقوق الله تعالى بعض أطوارها، فإن فَضَلَ المَالُ عن الأجل فأَجَلَّ، ولم يضر ما خلف منه بين يدي الله عزّ وجلّ، وما ينفق في سبيل الشريعة، وسد الذريعة مأمول خَلْفُهُ، وما سواه فمتعين تَلْفُهُ.

«واستخلص لنواديك الغاصّة، ومجالسك العامة والخاصة، من يليق بولوح عتبتها، والعروج لرتبها، أمّا العامية فمن عظم عند الناس قدره، وانشرح بالعلم صدره وكان الله تعالى إخبّاته وانكساره، ومن كان للفتيا متصباً وبتاج المشورة معتصبا، وأمّا الخاصية فمن رَقَّت طباعه، وامتد فيها يليق بتلك المجالس باعه، ومن تبهر في سير الحكماء، وأخلاق الكرماء، ومن له فضل سافر، وطبع للدنية منافر، ولديه من كلّ ما تستر به الملوك عن العوام حظ وافر، وصف ألبابهم بمحصول خيرك، وسكّن قلوبهم يئمن طيرك، وأغْنِيهم ما قدرت عن غيرك. واعلم بأن مواقع العلماء من ملكك مواقع المشاغل المتألّقة، والمصاييح المتعلّقة، وعلى قدر تعاهدها تَبَذَّل من الضياء، وتجلو بنورها صَوَر الأشياء، وفرغها لتحجير ما يزين مدتك، ويحسن من بعد البلى جدّتك، وبعباية الأواخر ذكرت الأول، وإذا محيت المفاخرُ خربت الدول.

«واعلم أنّ بقاء الذكر مشروطٌ بعمارة البلدان، وتخليد الآثار الباقية في القاصي والدان، فاحرص على ما يوضح في الدهر سُبُلَكَ، ويحجز المزية على من قبلك، وأن خير الملوك من ينطق بالحجّة وهو قادر على القَهْر، ويبذل الإنصاف في السر والجهر، مع

التمكن من المال والظَّهر، ويسار الرعية جمال للملك وشرف، وفاقتهم من ذلك طرف،
فغلب أليقَ الحالين بمحلك، وأولاهما بظعنك وحلَّك.

«واعلم أن كرامة الجور دائرة، وكرامة العدل متكاثرة، والغلبة بالخير سيادة،
وبالشر هوادة، واعلم أنَّ حسن القيام بالشرعية يحسُّمُ عنك نكاية الخوارج، ويسمو بك
إلى المعارج، فإنَّها تقصدُ أنواع الخدع، وتوري بتغيير البدع، وأطلق على عدوك أيدي
الأقوياء من الأكفاء، وألسنة اللفيف من الضعفاء، واستشعر عند نكته شعار الوفاء».

«ولتكنْ ثقتك بالله تعالى أكثرَ من ثقتك بقوة تجدها، وكتيبة تنجدها، فإن
الإخلاص يمنحك قوى لا تكتسب، ويمهّد لك مع الأوقات نصراً لا يحتسب. والتمس
أبدًا سلّم من سالمك بنفيس ما في يدك، وفَضِّل حاصلَ يومك على مُتَتَطَر غدك، فإن أباي
وضحتْ محجّتك، وقامت عليه للناس حجتك، فللنفوس على الباغين مَيْل، ولها من
جانيه نَيْل، واستهد في كلّ يوم سيرةً من يناويك، واجتهد أن لا يوازيك في خير ولا
يساويك، وأكذب بالخير ما يُشيعه من مساويك، ولا تقبل من الإطراء إلّا ما كان فيك
فضل عن إطالته، وجدُّ يُزري على بطالته، ولا تلقَ المذنبَ بحميّتك وسَبِّك، واذكر عند
حركة الغضب ذنوبك إلى ربك، ولا تنسَ أن ربَّ المذنب أجلسك مجلسَ الفصل،
وجعل في قبضتك رياشَ النصل، وتشاغل في هدنة الأيام بالاستعداد، واعلم أن
التراخي منذرٌ بالاستعداد، ولا تهملْ عَرَضَ ديوانك، واختبارَ أعوانك، وتحصينَ معاقلك
وقلاعك، وعُمِّ إِيالتك بحسن اطلاعك، ولا تشغل زَمَنَ الهدنة بِلذاتك، فتجني في
الشدة على ذاتك، ولا تطلّق في دولتك ألسنة الكهانة والإرجاف، ومطاردة الآمال
العجاف، فإنّه يبعثُ سوء القول، ويفتحُ باب العول، وخذ على المدرسين والمتعلمين،
والعلماء والمتكلمين، حَمْلَ الأحداث على الشكوك الخالجة والمزلات الواجحة، فإنّه يفسدُ
طباعهم ويغري سباعهم، ويمدّ في مخالفة الملة باعهم، وشُدَّ سبيلَ الشفاعاتِ فإنّها تفسد

عليك حُسْن الاختيار، ونفوسَ الخيار، وابذل في الأسرى من حُسْنِ ملكتك ما يرضي مَنْ مَلَكَكَ رقابها، وقَلْدك ثوابها وعقابها، وتَلَقَّ بدءَ نهارك بذكر الله تعالى في ترفعك وابتذالك، واختَمَ اليوم بمثل ذلك.

«واعلم أنك مع كثرة حُجَابك، وكثافة حِجَابك، بمنزلة الظاهر للعيون، المطالب بالديون، لشدة البحث عن أمورك، وتعرّف السرّ الخفي بين أمرك وأمورك، فاعمل في شرك ما لا تستقبح أن يكون ظاهراً، ولا تأنف أن تكون به مُجَاهراً، وأحكِمَ بريك في الله ونَحْتَك، وخَفْ مَنْ فوقَكَ يخف مَنْ تحتك، واعلم أن عدوك من أتباعك من تناسيت حسنَ قرضه، أو زادت مؤونته على نصيبه منك وفرضه، فأصمت الحجاج، وتوقّ اللّجج، واسترب بالأمل، ولا يحملنك انتظام الأمور على الاستهانة بالعمل، ولا تحقرن صغير الفساد، فيأخذ في الاستئساد، واحبس الألسنة عن التخلي باغتيالك، والتشبّث بأذيال ثيابك، فإن سوء الطاعة ينتقل من العين الباصرة، إلى الألسن القاصرة، ثم إلى الأيدي المتناصرة، ولا تثق بنفسك في قتالِ عدوّ ناواك، حتى تظفر بعدوّ غضبك وهواك، وليكن خوفك من سوء تدبيرك، أكثر من عدوك الساعي في تبيرك^(١)، وإذا استنزلت ناجماً^(٢)، أو أمنت نائراً هاجماً، فلا تقلّده البلد الذي نَجَمَ، وهَمَى عارضه فيه وانسجم، يعظم عليك القدح في اختيارك، والغص من إيثارك، واحترز من كيده في حورك ومأمك^(٣)، فإنك أكبر همّه وليس بأكبر همك، وجمل المملكة بتأمين الفلوات، وتسهيل الأقوات، وتجديد ما يُتعامَل من الصرف في البياعات، وإجراء العوائد مع الأيام والساعات، ولا تبخس عيار قيم البضاعات، ولتكن يدك عن أموال الناس محجورة،

(١) التبير: الهلاك.

(٢) الناجم: النائر.

(٣) الحور: العودة والرجوع، والمأم: القصد.

وفي احترامها إلا عن الثلاثة مأجورة: مأل من عدا طوره طوره أهله، وتحارق في الملابس والزينة، وفضول المدينة، ويروم معارضتك بجهله، ومن باطن أعداك، وأمن اعتداك، ومن أساء جوار رعيتك بإخساره، وبذل الأذية فيهم بيمينه ويساره.

وأضّر ما مُنيت به التعادي بين عبدانك، أو في بلد من بلدانك، فسُدَّ فيه الباب، واسأل عن الأسباب، وانقلهم بوساطة أولي الألباب، إلى حالة الأحباب، ولا تطوّق الأعلام أطواق المنون، بهواجس الظنون، فهو أمر لا يقف عند حد، ولا ينتهي إلى عدّ، واجعل ولدك في احتراسك، حتى لا يطعم في افتراسك.

« ثم لما رأى الليل قد كاد يتصف، وعموده يريد أن ينقصف، ومجال الوصايا أكثر ممّا يصف، قال: يا أمير المؤمنين، بحر السياسة زاخر، وعمر المتمتع بناديك مستاخر، فإن أذنت في فنّ من فنون الأنس يجذب بالمقاد، إلى راحة الرقاد، ويعتق النفس بقدرة ذي الجلال. من ملكة الكلال. فقال: أمّا وقد استحسناً ما سردت فشأنك وما أردت.

« فاستدعى عوداً فأصلحه حتى حمده، وأبعد في اختباره أمدّة، ثم حرك بمه، وأطال الجس ثمه، ثم تغنى بصوت يستدعي الإنصات، ويصدع الحصة، ويستفز الحليم عن وقاره، ويستوقف الطير ورزق بنيه في منقاره، وقال:

صاح ما أعطر القبول بنمة	أتراها أطالت اللبث ثمة
هي دار الهوى منى النفس فيها	أبد الدهر والأمان جمة
إن يكن ما تارّج الجو منها	واستفاد الشذا وإلا فممة
من لطرفي بنظرة ولأنفي	في رباها وفي ثراها بشمة
ذكر العهد فانتفضت كأي	طرقني من الملائك لمة
وطن قد نصّيت فيه شباباً	لم تُدسّ منه البرود مذمة
بنّت عنه والنفس من أجل من قد	خلّفته خلال له مُغتمة

كان حلماً فويح مَنْ أَمَلَ الدَّهْرَ رَوَاعِيَهُ جَهْلُهُ وَأَصَمَّهُ
تَأْمُلُ الْعَيْشَ بَعْدَ أَنْ خَلَقَ الْجَسَدَ ثُمَّ وَبِنَائُهُ عَسِيرُ الْمَرَمَةِ؟
وَعَدَتْ وَفَرَّةُ الشَّيْبَةِ بِالشَّيْءِ بِ عَلَى رَغَمِ أَنْفِهَا مَعْتَمَةً
فَلَقَدْ فَازَ سَالِكُ جَعَلَ اللَّـ لهُ إِلَى اللَّهِ قَصْدُهُ وَمَأْمَنُهُ
مَنْ يَيْتُ مِنْ غُرُورِ دُنْيَا بِهِمْ يَلْدَغُ الْقَلْبَ أَكْثَرَ اللَّهُ هَمَّهُ

ثمَّ أحوال اللَّحْنِ إلى لون التنويم، فأخذ كلُّ في النعاس والتهويم، وأطال الجس في الثقل، عاكفاً عكوف الضاحي في المقليل، فخاط عيون القوم، بخيوط النوم، وعمر بهم المراقِد، كأنَّها أدار عليهم الفراقِد، ثم انصرف، فما علم به أحد ولا عرف، ولَمَّا أفاق الرشيد جَدَّ في طلبه، فلم يعلم بمنقُلبه، فأسف للفراق، وأمر بتخليد حِكْمه في بطون الأوراق، فهي إلى اليوم تتلى وتُنقل، وتجلّ القلوب بها وتُصقل، والحمد لله رب العالمين».

التحليل:

بنى ابن الخطيب مقامته هذه على حوار بين اثنين، هما: الخليفة هارون الرشيد، وحكيم فارسي الأصل عربيّ اللسان، يجيد فن الحكمة.

يقول في مقدمتها: « سهر الرشيد ليلة، وقد مال في هجر النبذ مَيْلَةً، وجهد ندماءه في جَلْبِ راحته، وإلام النوم بساحته..... فقال: اذهبوا إلى طرق سَمّاها ورسمها، وأمّهات قسمها، فمن عثرت عليه من طارق ليل أو غثاء سيل، أو صاحب ذيل، فبلّغوه، والأمنة سوّغوه، واستدعوه، ولا تدعوه.... ». فكان أن أتوا «بشيخ طويل القامة، ظاهر الاستقامة»، فأشار إليه الرشيد بالجلوس، ثم سأله عن نفسه، فكشف عن أصل فارسي أعجميّ الجنس، عربيّ الفصل، قال الرشيد: «فأخبرني ما عندك في هذا الأمر الذي بُلينا بحمل أعبائه، ومُئينا بمراوضة إباطه، فقال: هذا الأمر قلادة ثقيلة، ومن خطة العجز مستطيلة، ومقتصرة لسعة الذرع، وربط السياسة المدنية بالشرع....».

فطلب منه الملك أن يفصل الإجمال فطفق يحدثه عن كيفية تدبير السياسة مع الرعية والوزارة والجند والعمال والخدم والحرم، ونبّهه إلى دور العلماء ومكانتهم في قيام الملك: «واعلم بأن مواقع العلماء من ملكك، مواقع المشاغل المتألقة، والمصاييح المتعلقة، وعلى قدر تعهدها تبذل من الضياء، وتجلو بنورها صُورَ الأشياء واعلم أن بقاء الذكر مشروط بعمارة البلدان، وتخليد الآثار الباقية في القاصي والدان» .

فاستحسن الملك هذه النصائح والإرشادات، ثم إذا بالشيخ يستدعي عوداً فيصلحه، ثم يُغني فينيم الجمع، وفي الصباح يستيقظ الرشيد فلا يرى للشيخ أثراً، فيحزن لفراقه، ويأمر بتخليد حكمه .

وتباينت آراء الباحثين في هذا المقامة، فقد أعجب أحدهم بموضوعها وجودة مضمونها فقال: « وحبذا لو وجدت هذه المقامة طريقها إلى ساستنا فأفادوا منها، وإلى طلاب السياسة من أبنائنا، ليروا على ضوئها إلى أي مدى من النضج والعمق، بلغ الفكر السياسي العربي في القرن الثامن الهجري ».^(١)

ونظر إليها باحث آخر من زاوية أخرى، فقال عنها: « هذه المقامة تذكّرنا مرة أخرى بمقامات الوعاظ لابن قتييبة، ذلك أن موضوعها يقوم على النصيحة والإرشاد ».^(٢) أمّا د. شوقي ضيف فيرى أنها أشبه برسالة أو مبحث فيما ينبغي أن يكون الحاكم عليه.... وهي حريّة أن تُقرن برسائل السياسة عند ابن المقفع ».^(٣)

(١) د. عبد العزيز عتيق: الأدب العربي في الأندلس، ص ٤٩٩.

(٢) د. يوسف نور عوض: فن المقامات بين المشرق والمغرب، ص ٣٠٣.

(٣) عصر الدول والإمارات (الأندلس): ص ٥٢٠

المقامة السينية^(١)

للسان الدين بن الخطيب

فمن ذلك ما صدر عني للسلطان الجليل المعظم الكبير أبي عنان فارس رحمه الله

من سبته بين ركوب البحر وفي كل كلمة منها سين:

سَقَتْ سَارِيَاتِ الشَّحْبِ سَاحَةَ فَاسٍ سَوَاحِبُ، تَكْسُو السَّرْحَ حُشْنٌ لِبَاسٍ
وَسَارَتْ بِتَسْلِيمِي لِسَدَّةِ فَارِسٍ نَسِيمٌ سَرَى لِلْسَّلَسِيلِ بَكَاسٍ

منها في ذكر السلطان أبي عنان:

أَنِسْتُ بِمَسْرَى سَبْتَةٍ وَتَأْنَسْتُ بِسَاحَتِهِ نَفْسِي وَأَسْعَدُ نَاسٍ
وَيَسَّرْتُ لِلْيُسْرَى وَيَسَّرَ مُرْسَلِي وَسَدَّدَ سَهْمِي وَاسْتَقَامَ قِيَاسُ

باسم السَّلام أَسْتَمَنَحُ مُسْبِلَ الْإِسْعَادِ، وَأَبْلِسُ أَنْفَسَ الْحَسَادِ، وَبِإِرْسَالِ التَّسْلِيمِ
لِسَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، أَسْدُ أَسْرَابِ الْفُسَادِ، وَأَلْتَمِسُ لِسَفْرِي سَلَامَةَ النُّفُوسِ وَالْأَجْسَادِ، سَلَامٌ
وَسِيمٌ، تَسْتَعِيرُ نَفْسُ مَسْرَاهِ الْبَسَاتِينَ، وَيَحْسِدُهُ الْآسُ وَالْيَاسَمِينَ، وَيَسْتَمِدُّهُ النَّرَجَسُ
السَّاجِي وَالنَّسْرِينَ، يُسْرِي لِمَجْلِسِ، مُسْتَخْلَفِ الْقُدُّوسِ السَّلَامِ سَبْحَانَهُ، وَيَسْتَبِقُ لِسَدَّةِ
سُلْطَانِ الْمُسْلِمِينَ. سَلِّ السَّعْدَ حُسَامَهُ، وَسَدِّدْ سَهَامَهُ، سَيْفَ الشُّنَّةِ السَّمْحَاءِ سَحَابَةَ سَمَاءِ
السَّخَا، أَسْدُ الْمَرَّاسِ، مُلْبِسِ الْمَفْسِدِينَ لِبَاسِ الْبَاسِ، مُيَسِّرِ الْحَسَنَةِ لِلنَّاسِ، يَعْسُوبِ
الْخَمِيسِ، مَسْرُوحِ سَوَائِمِ التَّسْجِيعِ وَالتَّنْسِيمِ وَالتَّجْنِيسِ، سِنْدُ الشُّنَّةِ، أَسْدُ الْأُسْنَةِ، الْبَاسِلِ
السَّيِّدِ السَّنِّيِّ الْمُسَدَّدِ، السَّامِيِّ السَّنِّيِّ، سُلْطَانِ السَّلَاطِينِ، السَّاطِي بِأَسِهِ بِالسَّاطِينِ، مُسْتَنْدِ
الْإِسْلَامِ، فَارِسِ، شُدِلَتْ لِسِيرَتِهِ الْحَسَنَةُ الْمَلَابِسِ، وَاسْتَنَارَ بِابْتِسَامِ سَعْدِهِ الْمَسْرَى
الْعَائِسِ. حَسْبُكَ بِأَسْمٍ وَمُسَمًى، وَنَفْسُ نَفِيسَةٍ سَكَنْتَ الْإِسْلَامَ جِسْمًا، وَأَنِسْتُ لِسَعَادَةِ

(١) ورد نصّ المقامة في: ريجانة الكتاب ونجعة الكتاب، ٢/ ص ٢٤٦-٢٤٧.

المسلمين قسماً، ينسي السحائب الساكنة لمستتي السنين، وتخرس ألسن محاسن اللّسنين، ويستعبد إحسانه إحسان المحسنين، سما مجلسه، وسعد ملتسمه، وتسنّت سلامته، وخرست سبل السنة استقامته، وسدّد سهمه، وسنّى السعادة للناس بأسه وسلّمه، فسبحان مُيسر العسير، ومُسدي الكسير، ومسهّل الإكسير، ومُسنّى سلطانه يستوعب محاسن السّبعة المُستخلفين، استيعاب التيسير، فسهّلت المسالك العسيرة، وحسّنت السيرة، ليستبين سرّ الاستخلاف، ويتيسر سبب الاستيلاف، ويستجدّ ملابس سلطنة الأسلاف، وسيظهر سيفه مساجد المسلمين بالأندلس، سالباً دنس النّاقوس، ويلبس إبليس باستنقاذاها، لباس البؤس، ويستفتح القدّس، بتيسير القدّوس، رسمه بسبّته خُرسَتْ ساحتها، واتّسعت باليسر مساحتها، مسترقّ إحسانه، ومستعبد سلطانه السّعيد السفارة والرّسالة، بسببه، المتوسل بالوسائل الحسنة، لحسبه سميّ الرسول، سليل سعيد، المُتّسب لسلمان، ليس بسلمان الفارسي، حسبما استوعبه سفر الأنساب تيسّرت لُراة المسلمين برسالته الأسباب. سطره لسلطانكم السّامي، وسفر السّفين تيسّر، ومُور التّسهيل والتيسر تُفسّر، والسّمراء ونسبتها استوعبها الإيساق، ولسوابق المرّسى استباق، ولمحاسن السّلطنة الفارسية اتّساق، وسكنها مُستملككم تسعة بسبب نسيم استباد مرّاه، واستتبع سرّاه يتتسب لسّمّت الإسكندرية، ويسخر بالسّفن السّفريّة، والسّاعة استعجلت السّفر مُستننا^(١) سكون نفسه، وسهو حرسه، واستتبت لاستصحاب الحسنة الفارسيّة لساحل البلّس ميسوراً من سكانه يسمّى، بُحسين ويُنسب لسالم استنجاحاً بِسمّته الحسّن والسّلامة، سَلَكْتَ للتّسهيل، سواء السبيل وسَقَت الناس سُلّاف المَسرة، بكأس السّلسبيل، ومُسترقّ المجلس الفارسي مجلس السّنا والقدّس، مسافرٌ بالجسم، مستوطنٌ بالنفس ولسانه بإحسانكم سيفٌ مسلول، ولنفسه بِتَسَنّي

(١) هكذا في رجمانة الكتاب، وقد يكون الصواب مستغنيا.

سعادتكُم سُول، فبِسَعَادَتِكُمْ يَسْتَصِيح، وَيَسْمَلَةُ مُحَاسِنِكُمْ يَسْتَفْتَح، وَسُلْطَانِكُمْ لَيْس
يَنْسَى وَسِيلَةَ مَتَوَسِّل، وَسَبَلَ الْحَسَنَاتِ مِنْ سَمَا يَمِيرُ تَكُم مُسْتَرْسِل، وَاسْتَوْعِبَهَا سَيْنِيَّة،
وَبَسِينِ اسْمِكُمْ سَعِيدَةُ سَيْنِيَّة، خَلْسَةُ مَجْلِس، وَوُسْعُ مُفْلَس، وَسَمْحُكُمْ مَسْئُول، وَمُسْتَعِيزُ
سُلْطَانِكُمْ أَسْعَدُ رَسُول، نَسْلُ السَّلَامِ تَقْدَسُ اسْمُهُ، بِتَسْنِي سَعَادَتِكُمْ سُرُورَ الْمُسْلِمِينَ،
وَيُسْنَى بِسَبَبِكُمْ سُنَّةُ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، وَرُسْمُ تَاسِعِ مَسْتَفْتَحِ سَنَةِ سِتِّ وَخَمْسِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ.

تعقيب

جعل ابن الخطيب حرف السين في كل كلمة من كلمات هذه المقامه، ولذلك
أطلقنا عليها اسم «المقامة السينية»^(١) وموضوع هذه المقامة مدح السلطان أبي عنان
المريني^(٢)، واستحثاثه على قتال النصاري، فقد كان يرى فيه الشهامة والمروءة والخوف
على جوهر الإسلام.

وصف ابن الخطيب أبا عنان بأنه «سند السنّة، وأسد الأسنة، وسلطان السلاطين...»
وأبدى تفاؤله بأن هذا السلطان «سيظهر سيفه مساجد المسلمين بالأندلس، سالباً دنس
الناقوس، ويلبس إبليس باستنقاذاها لباس البؤس، وستفتح القدس...».

ولا غرابة أن يبالغ ابن الخطيب في مدح السلطان أبي عنان، الذي ربطته به علاقة
قوية عندما زار المغرب الأقصى كسفير لسلطان غرناطة في عامي ٧٤٩هـ و ٧٥٥هـ، كما
أنه التجأ فترة إلى مدينة فاس عاصمة بني مرين عندما كان منفياً مع سلطانه المخلوع
محمد بن يوسف بن نصر، الغنى بالله عام ٧٦٠هـ^(٣).

(١) يبدو لي أنّ ابن الخطيب قد حذا في مقامته هذه حذو الرسالة السّينية للحريري، وهي رسالة التزم في كلّ كلمة منها
حرف السين نثراً ونظماً (انظر الرسالة في معجم الأدباء: ١٦/ ص ٢٧٦-٢٧٨).

(٢) هو فارس المكني بأبي عنان، وكان يلقب بالمتوكل على الله، ولد عام ٧٢٩هـ بفاس، وثار على أبيه الحسن المريني
بتلمسان عام ٧٤٩هـ، واستولى على المغرب الأقصى، وتوفي عام ٧٥٩هـ (الأعلام: ٥/ ص ١٢٧).

(٣) مشاهدات لسان الدين بن الخطيب (في بلاد المغرب والأندلس): ص ٦.

مقامتان في أدب الوزارة وقدر رتبتهما^(١) للسان الدين بن الخطيب

١. مقامة الإشارة إلى أدب الوزارة في السياسة^(٢)

أما بعد حمد الله الذي جلّ ملكه أن يُوازره الوزير، وعزّ أمره أن يدبره المدير، أو يؤيده الظهير، والاستعانة به على الوظائف التي يضطر إليها، ويعتمد عليها، فهو الوليّ النصير، والصلاة على سيدنا ومولانا محمد، الذي له القدر الرفيع والفخر الكبير. والرّضا عن آله وعشيرته، فحبذا الأُلّ والعشير. فإن من دعا إلى الله أيها الوزير الصّالح السعيد بعصمة يُضفى عليك لباسها، وعزة يصدق عليك قياسها، وأيام تروض لديك شامها، ويدفع بئمن نقيبتك بأسها، فإنما دعا للدولة بتأييدها، وللملّة بتمهيدها، وللمملكة بتجديدها، فقد ظهر من عنايته بك اختيارك، ومن حُسن أثره في نصرك وإيثارك، وهو الكفيل لك بالمزيد من آلائه، وموصول نعمائه، وأني لما رأيت برك ديناً يجب عليّ قضاؤه، ولا يجمُل بي إلقاؤه، تحيّرت لك في الهدايا، ما يملأ اليد، ويصاحب الأمد، ويُنجب العقب والولد، فلم أجد أجدى من حديث الحكمة التي من أوتيتها، فقد أوتي خيراً كثيراً، ومن أمل لرتبتها السّامية، فقد أحلّ محلاً كبيراً، والوصاة التي تنفعك، من حيث كنت وزيراً، والموعظة التي تفيدك تنبيهاً من الغفلة وتذكيراً، فاخترتُ لك وضعاً غريباً، وغرضاً قريباً، أن لقيت ما جمَحَ من أخلاقك، قولك وألانه، وأنهج لك

(١) تنوير: هاتان المقامتان رغم أن نصّها مطبوع، إلا أن طبعة كتاب «ريحانة الكتاب» مشوهة محرّقة لا تعطي الدارس فكرة صحيحة عن نثر ابن الخطيب، فكأنها في عداد المخطوطات، ولذلك أوردنا نصّها هنا. ولم يتيسّر لنا مقابلة نصّ هاتين المقامتين في أي مصدر آخر؛ لأن كتاب "ريحانة الكتاب" انفرد بهما، ولم نثر على نصّها في مصدر آخر سواه.

(٢) ورد نصّ المقامة في ريحانة الكتاب: ٢/ ص ٣٣٥-٣٤٠.

الصَّواب وأبانه، جانحاً إلى الاختصار، عادلاً إلى الإكثار، منسوباً إلى بعض الحيوان، على عادة الأول مَنْ صَنَّف في السِّياسة قبلي، أو ذهب لما ذهبْتُ إليه من فعلي، فقلت وبالله العَوْن والقوة ومنه يُلتَمَس السَّعادة المرجوة.

حكى من يَكْلِفُ برعي الآداب السَّوايم، ويُعنى باستئزال الحِكَم الحَوَائم، وبقَيِّد المعاني السَّارة على ألسنة البهائم، أن نِمراً يكنى أبا فروة، ويُعرف بالمرْقَط، كأنه بالنجوم مُنْقَط، شثن الكفَّين، بعيد ما بعد العَيْنين، كأنَّ ذُؤابة....^(١) ذؤابة كوكب أوجد مِلَّة مرَكَّب، وكأنَّ المجرَّة أَوْرَثته غدِيرها، والثريَّا نثرت عليه دنائيرها، عظيمُ الوثوب والطُّفور، حديدُ النَّاب والأطْفور، جَنُّ نَجِد وغُور، وكرةُ حورٍ وكورٍ، وجِرْمُ ثور في مِسْلاح سِنُور، استوزره مَلِكُ الوحوش، وقلَّده تدبيرَ الملك، وعَرَض الجيوش، فحلَّ من ذلك الأسد محلَّ الروح من الجَسَد، وكفاه ما وراء بابه، ودافع الأعداء من جَنابه، ووفر من جِبايته، وأَجْرَى رسوم عزه وإبائِهِ، وأَخْلَصَ اللهُ عَقِيْدَةَ نُصْحِهِ، وتَبَرَّأَ من شَيْنِ الغَشِّ وقُبْحِهِ، حتى عَمَّتْ الهَيْبَةُ وخَصَّتْ، وشَرَفَتْهُ الأَعْدَاءُ وغُصَّتْ، وعَرَفَتْ الوحوش أَقْدَرِها، وأَلَفَتْ السِّياسة مدارها، وأَمِنَتِ السُّبُلَ والمسالك، وخاف المَمْلُوكُ سَطوَةَ المالك، وحسنت الأخبار عن سيرته، وشَهِدَتِ بِالْعَدْلِ أَلْسُنُ جِيرَتِهِ، لما أَسَنَّ واستَنَّ، فَأَنكَرَ من قوته ما عَرَفَ، وقارب من مدى العمر الطَّرْفَ، فمال مزاجه وانحرف، وكعَّ عن الملاذ وانصرف، فأَصْبَحَ مَتْنُهُ هَزِيلاً، وجِسْمُهُ ضَيْلًا، ونشاطه قَلِيلاً، ورأى عبء الوزارة ثَقِيلاً، إِنَّ الْحَقَّ أَقْوَمُ قِيلاً. دخل على الأسد خلوة مشورته، وصرَّح له عن ضرورته، وأقام به الحقَّ في صورته، وقال أيها الملك السَّعيد، عِشْتَ ما بَدَأَ لَكَ، وَحَفِظْتَ مِيزَانَ الطَّبَايعِ عَلَيْكَ اعْتِدَالَكَ، ولازِلْتُ مرهوبَ السَّطَا، بعين الخطأ، فإنها في مهَادِ الدَّعَةِ أَمْنُ القَطَا، وَهَنَ من عَبْدِكَ العَظَم، وَضَعُفَ الافتِرَاسُ وسَاءَ الهَضْم، وكاد

(١) فراغ في كتاب ربحانة الكُتَّاب.

يُشْرِ النَّظْمُ، وَبَانَ فِي آلَةٍ خِدْمَتِكَ، الْكَلَالُ، وَاسْتَوَلَى الْهَمُّ وَالْاضْمِحْلَالُ، وَأَرْبَأُ لِمُلْكِكَ عَنْ تَقْصِيرٍ يَجْنِيهِ ضَعْفِي، وَإِنْ عَظُمَ لِفِرَاقِ سِدَّتِكَ هَفْنِي، فَسَوْغَنِي التَّفَرُّغَ لِمُعَادِي، وَالنَّظَرَ فِي بُعْدِ طَرِيقِي وَقَلَّةِ زَادِي، وَاسْتَكْفَ مِنْ يَقُومِ بِهِمَّتِكَ، وَيَبُوءُ بِعِبَاءِ خِدْمَتِكَ، فَمَا عَلَى اسْتِحْثَاتِ الْأَجْلِ مِنْ قَرَارٍ، وَمَا بَعْدَ الْعَشِيَّةِ مِنْ عَوَارٍ.

من عاش أخلقت الأيام جدته وخانه نقشاؤه السمع والبصر

وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ الَّذِي بِيَدِهِ النَّوَاصِي، وَعِلْمُهُ الْمَحِيطُ بِالْأَدَانِي وَالْأَقَاصِي، وَسِرُّهُ قَدْ شَمَلَ الْمُطِيعَ وَالْعَاصِي، أَنَّنِي مَا خُنْتُ أَمَانَتَهُ بِخَوْنِ أَمَانَتِكَ، وَلَا آلَيْتُ جَهْدًا فِي إِغَاثَتِكَ، وَلَا اقْتَحَمْتُ بِأَمْرِكَ حَدًّا مِنْ حُدُودِ دِيَانَتِكَ، وَلَا تَعَمَّدْتُ جَلْبَ ضُرٍّ، وَلَا خَلَطْتُ حُلُوَ النَّصِيحَةِ بِمَرٍ، وَلَا اسْتَفْسَدْتُ لَكَ قَلْبَ حَرٍّ، وَلَا اسْتَأَثَرْتُ لَكَ بِهَالٍ، وَلَا كُنْتُ يَوْمًا لَضِدِّكَ بِمِيَالٍ، وَلَا تَلَقَيْتُ مَهْمَّكَ بِإِهْمَالٍ، وَلَا ضَاقَ لِي عَنْ خُلُقِكَ ذَرْعُ احْتِمَالٍ، وَلَا أَعْمَلْتُ فِي غَيْرِ رِضَاكَ وَطَاعَتِكَ حَرَكَةَ يَمِينٍ وَلَا شِمَالٍ، فَقَالَ لَهُ الْأَسَدُ، أَيُّهَا الْوَزِيرُ الصَّالِحُ حَسُنَ جَزَاؤُكَ، كَمَا وَصَحَ لِلْحَقِّ اعْتِرَازُكَ، وَلَحَقْتُ بِالْعَوَالِمِ الشَّرِيفَةِ مَقُومَاتُكَ الْمَفْضِلَةِ وَأَخْلَاقُكَ. قُلْتَ صَوَابًا وَاسْتَوْجَبْتَ مِنَّا وَمِنَ الْمَعْبُودِ ثَوَابًا، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ فِي وَسْعِ مُلْكِنَا جَبْرَهُ، لَبَدَلْنَا لَكَ الْعَزِيزَ، وَهَانَ عَلَيْنَا أَمْرُهُ، لَكِنَّ التَّحْلِيلَ عَلَى عَالَمِ التَّرَكِيبِ مُحْتَمٌ، وَالْمَصِيرَ مَعْلُومٌ، وَالْفِرَاقَ وَانِي الْأَلْقَابِ وَالرُّسُومِ.

اسْمِعْ فَقَدْ أَسْمَعَكَ الصَّوْتُ إِنْ لَمْ تَبَادِرْ فَهَوِ الْمَوْتُ
نَلْ كُلَّمَا شِئْتُ وَعِشْ نَاعِمًا آخِرُ هَذَا كُلُّهُ الْمَوْتُ

وَقَدْ أَمَرْنَا لَوْلَدِكَ، وَتَقَلْنَا الْوِزَارَةَ مِنْ يَدِكَ، وَرَجَوْنَا أَنْ لَا نَعْدَمَ حُسْنَ مَقْصِدِكَ مِنْ ثِقَةِ نَفْسِكَ، وَسَلِيلِ جَسَدِكَ، وَكَانَ النَّمْرُ جَرَدٌ قَدْ اسْتَكْمَلَ الْوُقُوفَ، وَأَتَّصَفَ بِالْإِنْقِطَاعِ عَلَى الْحِكْمَةِ وَالْعُكُوفِ، مَخْتَارِ الْأَمَانَةِ وَالْفِرَاسَةِ صَادِقَةً فِيهِ أَحْكَامُ النَّجَابَةِ، وَمَخَايِلُ

الفراصة، كَلِفَ بالنَّظَرِ والدَّرَاسَةِ، كَرِيمُ الطَّعْرِ رَحِيبُ الذَّرْعِ طَيِّبُ الْأَصْلِ، سَامِي الفَرَعِ، لا تَوَرَّدَ المَعْضَلَاتِ، ولا تُوَاقِفُ فُطُتَهُ المُشْكَلاتِ، ولا تَجَاذِبُهُ الشَّهَوَاتِ، ولا تَطْرُقُ كِمَالُهُ المَهْفَوَاتِ، حَانَ عَلَى الرِّعْيَةِ، دَفَعْتُهُ لَشُرُوطِ السِّيَاسَةِ المَرْعِيَّةِ، قَدْ أَفْرَغَ فِي قَوَالِبِ الكَمَالِ جَوْهَرُهُ، وَتَطَابَقَ مَخْبَرُهُ وَمَظْهَرُهُ، وَتَفَتَّقَ عَنْ كِمَالِ العِفَافِ، وَحُسْنِ الْأَوْصَافِ زَهْرُهُ، فَاتَّخَذَ المُلْكُ صَنِيعاً تَقَضَّى لَهُ الْأَطْرَافُ، وَاسْتَقْدَمَ الْأَشْرَافُ، وَاسْتَدْعَى قَوْمَهُ لِلجِهَادِ، وَطَوَائِفَ النُّسَاكِ وَالزُّهَادِ، وَاحْتَفَلَ الْوَلِيمَةُ، وَأَفَاضَ النِّعَمَ الْعَمِيمَةَ، وَاسْتَحْضَرَ النَّمْرَ، وَقَدْ تَحَلَّى بِحَلِيَّةِ مَتَنَاسِكِ، وَبَذَلَ قَزْوَةَ الْوَزِيرِ بِعَرْوَةِ النَّاسِكِ، فَأَعْلَنَ فِي المَجْتَمَعِ بَرَضَاهُ عَنْ سِيرَتِهِ، وَاعْتَرَفَ بِنَصَحِ جَبِيهِ وَفَضْلِ سَرِيرَتِهِ، وَأَعْلَنَ بِتَسْوِغِ أَوْبَتِهِ وَقَرَّبَ الْقُرْبَانَ بَيْنَ يَدَيِ تَوْبَتِهِ، وَحَفَّتْ بِهِ أَرْبَابُ الدِّيَانَةِ وَنُسَاكُهَا، وَقَوْمَةُ الشَّرِيعَةِ الَّذِينَ فِي أَيْدِيهِمْ مَلَائِكُهَا، فَرَفَعُوهُ عَلَى رُؤُسِهِمْ وَأَكْتَادَهُمْ حَذُوَ مَعْتَادِهِمْ، وَجَهَرُوا حَوْلَهُ بِصُحُفِهِمُ المَحْفُوظَةِ، وَأَذْعَيْتَهُمُ الْمَلْفُوظَةَ، وَنُسَكُهُمُ المَجْدُودَةَ المَحْظُوظَةَ، حَتَّى أَتَوَا بِهِ هَيْكَلَ الْعِبَادَةِ، وَمَحَلَّ أَصْلِ النُّسْكِ وَالزُّهَادَةِ، وَخِدْمَةَ الْكَوَاكِبِ السَّادَةِ، وَالمَتَشَوِّقِينَ إِلَى السَّعَادَةِ، وَالمُنْسَلَخِينَ عَنْ كِدْرَاتِ سُوءِ الْعَادَةِ، وَقَصْدِهِ وَلَدِهِ، يَسْتَفْتَحُ بِدَعَايِهِ الْعَمَلَ، وَيَسْتَدْلِي بِوَصَايَاهُ الْأَمَلَ، فَلَمَّا فَرَّغَ النَّمْرُ مِنْ اسْتِقْبَالِ مِجْرَابِهِ، وَقَدْ تَجَرَّدَ مِنَ الْعِلَاقِ تَجَرَّدَ السِّيفُ مِنْ قِرَابِهِ، جِيءَ الْوَلَدُ لَدَيْهِ، ثُمَّ سَجَدَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَقَالَ بَعْدَ مَا أَطْرَقَ، وَطَرَفَهُ مِنْ الرِّقَةِ اغْرُورَقَ، أَيُّهَا المَوْلَى الَّذِي قُرْنَتْ بِحَقِّ الْبَارِي حُقُوقُهُ، فَمَا فِي المَنْعَمِينَ مِنْ يَفُوقِهِ، أَوْضَحْتَ لَعَلَّةَ إِيجَادِي مَذْهَباً، وَكُنْتَ لِنَفْسِي الْجَزِيَّةَ بِإِتْصَالِ الْعَقْلِ الْكَلِّيِّ سَبَباً، ثُمَّ تَغَلَّبَتْ وَكَفَيْتِ وَعِنْدَ تَقَاضُرِ الطَّبَاعِ وَفَيْتِ، ثُمَّ دَاوَيْتِ مِنْ مَرَضِ الْجَهْلِ وَشَفَيْتِ وَجَمَلْتِ عَلَى أَفْضَلِ الْعَادَةِ، وَأَظْفَرْتَ الْيَدَ بِعَرْوَةِ السَّعَادَةِ، وَأَنَا إِلَى وَصَاتِكَ الْيَوْمَ فَقِيرٌ، وَرَأْيِي فِي جَنْبِ رَأْيِكَ حَقِيرٌ، وَدَعَاؤُكَ لِي وَلِيٌّ وَنَصِيرٌ. وَلِلْحَظِّكَ فِي تَصَرُّفَاتِي الْقَاصِرَةِ نَاقِدٌ وَبَصِيرٌ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ بَوَاجِهُ بَيَّضِهِ الشَّيْبُ وَالنُّسْكُ، وَأَخْلَاقُ تَضَوُّعٍ مِنْ أَنْفَاسِهِ المِسْكُ، وَتَبَسَّمَ

تَبَسُّمُ الذَّهَبِ الْإِبْرِيْزِ خَلَّصَهُ السَّبْكُ، وَقَالَ يَا وَلَدِي الَّذِي رَجَوْتُهُ لَخَلْفِ شَخْصِي،
وَتَتِمِّمِ نَقْصِي، وَفَضَلَ الْحِكْمَةَ عَنِّي، وَسَرَّ الْجُزْءَ الْأَرْضِيَّ مِنِّي، طَالَمَا ابْتَهَلْتُ إِلَى اللَّهِ فِي
سَدَادِكَ، بَعْدَ تَخْيِيرِ دَعَاءِ وَلَادِكَ، وَاسْتَدْعَيْتُ حُكَمَاءَ الْهَيَاكِلِ الْمُقَدَّسَةِ لِإِرْشَادِكَ، فَلَوْ
اسْتَغْنَى أَحَدٌ عَنِ مَوْعِظَةٍ تُوقِظُ مِنَ نَوْمٍ، أَوْ سَدَادٍ رَأَى يَعْصِمُ مِنَ لَوْمٍ. أَوْ اسْتَشْعَارِ
مُنَاصِحَةٍ تَجَرِّئُنَا قَوْمَ، وَاسْتِعْرَاضِ تَجْرِبَةٍ تُعَلِّي مِنَ سَوْمٍ، لَكُنْتُ بِذَلِكَ خَلِيقًا. وَمَنْ أَسْرَ
الْإِفْتِقَارَ طَلِيقًا، لَكِنَّ الْإِنْسَانَ لَمَّا نَزِيدُهُ ذُو فَاقَةٍ، وَمَتَّصِفٍ بِإِفْتِقَارٍ إِلَى غَيْرِهِ وَإِضَاقَةٍ، وَلَيْسَ
لَهُ بِالْإِنْفِرَادِ مَعَ كَوْنِهِ مَدْنِيًّا مِنْ طَاقَةٍ، وَمَتَى ظَنَّنَ نَفْسَهُ غَيْرَ ذَلِكَ فَهِيَ حِمَاقَةٌ. وَبِحَسَبِ
مَا يَحَاوِلُهُ أَوْ يَحَاوِرُهُ يَكُونُ إِفْتِقَارُهُ لِمَنْ يُفَاوِضُهُ أَوْ يُشَاوِرُهُ. وَقَدْ نُدِبْتُ مِنَ الْوِزَارَةِ إِلَى مَنْزِلَةٍ
لَا تَطْمَئِنُّ بِمَنْ نَبَذَ طَاعَةَ الْحَقِّ وَتَقَوَّاهُ، وَرَضِيَ عَنْ نَفْسِهِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ، فَإِنْ قَهَرْتَ مِنْ
الشَّهْوَةِ الْمُرْدِيَةِ عَدُوَّكَ، وَبَلَغْتَ مِنْ مَسْكَةِ الْهَوَى مَرْجُوَّكَ، وَأَلْفَتْ قَرَارَكَ فِي ظِلِّ الْحِكْمَةِ
وَهَدَوَّكَ، تَذَلَّلَ لَكَ امْتِطَاؤُهَا وَتَهَنَّأَ لَكَ عَطَاؤُهَا، وَطَابَ فِيهَا خَبْرُكَ وَحَسُنَ عَلَيْهَا أَثْرُكَ،
وَلِلَّهِ يَذَرُكَ، وَإِلَّا فَلَسْتَ بِأَوَّلِ مَنْ هَوَى، وَرَمَدَ بَعْدَ مَا شَوَى، وَأَنَا مُوصِيكَ وَاللَّهُ يُبْعِدُكَ
مِنَ الْخَطْلِ وَيُقْصِيكَ، وَيَبَيِّنُ لَكَ قَدْرَ هَذِهِ الرُّتْبَةِ بَيْنَ الْأَقْدَارِ، ثُمَّ جَالَتْ بَعْضُ شُرُوطِ
الْإِخْتِيَارِ، ثُمَّ خَلَصَ لِلْوَصَاةِ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ، فِي سِتَّةِ أَرْكَانٍ، وَأَسْأَلُ الْعَالَمَ بِفَاقَتِي إِلَى
سَدَادِ قَوْلِكَ وَفِعْلِكَ، الْغَنِيَّ عَنْ قُدْرَتِكَ وَحَوْلِكَ، أَنْ يَجْمَعَ لَكَ مِنْ مَوَاهِبِ تَوْفِيقِهِ الَّتِي
لَا تُحْصَرُ بِالْعَدِّ، وَلَا تُنَالُ بِالْكَدِّ مَا يَتَكَفَّلُ بِرِضَاكَ عَنْكَ، حَتَّى تَحِبَّ مَا أَحَبَّهُ لَكَ، وَتَكْرَهُ مَا
كَرِهَهُ مِنْكَ، وَأَنْ يَخْتَمَ مَدَّتُكَ الْمُنْتَاهِيَةَ بِأَسْعَدَ مَا انْتَهَتْ بِأَسْعَدَ مَا انْتَهَتْ إِلَيْهِ آمَالُكَ .
وَتُطَاوِلُ نَحْوَهُ سَوَالُكَ. فَهُوَ حَسْبِي وَنَعْمَ الْوَكِيلُ.

٢. مقامة بيان قدر رُتبة الوزارة^(١)

اعلم يا ولدي أن هذه الرُتبة لمن فهِم وَعَقِل، مُشتقة من الوزير، وهو الثقل، لأنها تحمل من عبء الملك وثقله ما تعجز الجبال عن حمله، وهي الآلة التي بها يُعمل، وبحسب تباينها يُتباين منها الأنقص والأكمل، وعصاه التي بها يهش. ويختطب ويحش، ويلتقم ويمش، ويجمع ويفش، ومخلبه الذي به يُزق الفرخ، ويمرس العش، ومنجله الذي يعرف به من يُناصح ومن يَغش، ومرآته التي يرى بها محاسن وجهه وعيوبه، وسمعه الذي يتوصل بحاسته لمعرفة الأشخاص المحجوبة. وإذا فسد الملك وصلح الوزير، ربما نفعت السياسة واستقام التدبير، وصلاح الأمر بعكس هذه الحال محسوب من المحال لأن الواسطة القريبة، ونكته السياسة الغريبة، وموقعه من الملك موقع اليمين من الجسد، اللتين في القبض والبسط عليهما يُعتمد، وقالوا الملك طيب والرعية مرضى، والوزير تعرض عليه شكاياتهم عرّضا، والنجاح مرتبط بسداد عقله، وصحة نقله، فإن اختل السفير بطل التدبير. وإذا تقرر وجوب الإمامة ونصبها، وعقدها وعصبها، وكانت ضرورتها إلى الوزارة هذه هي، ومنزلتها هذه الصورة، وفي الواجب شرط، ولا يستقيم له غيرها ضبط، كيف لا يكون قدرها خطيرا، ومحللها أثيرا، وقول النبي (ﷺ) الذي اصطفاه برسالته وبكلامه، واختصه بخصيصتي الكرامة، مع كونه معصوما بعصمة ربه، غنيا بدفاعه، متأنسا بقربه، واجعل لي وزيرا من أهلي هرون أخي، اشدّ به أزرِي، وأشركه في أمري، دليل على محلّها من سدّ القواعد، وإجراء العوايد، وإقامة الشواهد، واستدرار الفوائد، ومُدافعة المكّايد، إلى غير ذلك من الآثار المجلّوة، والمحاسن المتلوّة، والإشعار بأن المنصب منصب الأخوة.

(١) ورد نصّ المقامة في ريجانة الكتاب: ٢/ ص ٣٤٠-٣٥٤.

فصل: واعلم أن الأولين من حكماء يونان في سالف الزمان، كانوا يعرفون وُضِل هذه ...^(١) ويجعلون تعظيمها من الشرائع والسُّنن، ويتحققون نُجباءها في المعادن الشَّريفة، والبيوت العتيقة، والأحساب المنيقة، ويختبرون نُصُب الموالد في أبناء أهل التَّرشيح، ويَعنون فيها بالنظر الصحيح، فمن قامت على صلوحه الشَّواهد، وشَهِدت بأهليَّته الموالد، عُنِي في الأرزاق قسمه، وأثبت عند الثَّقَات اسمه، ثم يؤخذون بالتَّعليم والدِّراسة، ويُتعاهدون بالآداب تعاُهد الفِراسة، ثم يُعرضون عند التَّرعرع على أهل الفِراسة، فمتى تأكَّد القول ورجَّح، وبان في أحدهم الفضل ووَضح، طُرِح ودرَّب، ومُرِّن وجَرَّب، ثم استعمل وقَرَّب.

فصل: وكان الوزراء يختارون من الجواري للمُباضعة، من ظَهر منها فضل التَّمييز، وأخلصها الاختيار خلوص الذهب الإبريز، ولا يغشوهن في سُكْر مُسقط، ولا فرح مُفَرط ولا كسل مُقعد، ولا حِزب مفسد، ولا غضب مُبرق مُوعِد. وإذا هم بطلب الولد، استَقَتَّى الكاهن في اختيار الوقت الرَّامِق، فلا يطلق له ذلك إلَّا في الأوقات المختاره، والنَّصَب الخليفة بتلك الإنارة، وبعده إصلاح القمر والشمس، والكواكب الحُمس، واستحضار الهيئات النَّابهة، والأشكال المتنافسة المتشابهة، وتقريب القرابين بين يدي الآلهة، ثم يلقى الجارية، وكلاهما يقول قولاً منقولاً عن الصُّحف الموصوفة، والكتب المقدَّسة المعروفة، معناه يامن قَصُرَت الأبواب عن كُنْهه، وَعَنَت الوجوه لوجهه، قد اجتمعنا على مزج مواد لا نعرف ما تُحدثه منها، ولا ما تُظهره عنها، وتلقينا توفيقك من سَعِينا بمقدار المجهود، وأنت ملاذُّ الوجود، ومفيضُ السُّجود، وليس تضرُّعنا لك بالمسألة، وإِتهالنا في رحمتك المستنزلة تَنْبِيهاً لأقدارك المصيبة للسَّداد، الجارية بمصالح العباد، إنما هو بحسب ما نحرز به فضل الرِّغبة إليك، والسؤال لما لديك، ونحن بحسن

(١) هنا بياض في كتاب ريجانة الكتاب.

اختيارك أوفق منّا بآرائنا، وقضاؤك السّابق من ورائنا، فلك الحمد على قضائك، والشكر على نعمائك.

فصل: وكان الوزير فيهم، يُشترط فيه أن يكون قديم النعمة، بعيد الهمة، مكين الرأفة والرحمة، كريم العيب، نقيّ الجيب، مسدّد السهم، ثاقب الفهم، واثباً عند الفرصة، واصفاً للقصة، مريحاً في الفضة، موفور الأمانة، أصيل الديانة، قاهرراً للهوى، مُستشعراً للتقوى، مشمراً عن السّاعد الأقوى، جليل القدر، رحيب الصدر، مشهور العفة، معتدل الكفة، حذراً من النقد، صحيح العقد، راعياً للهمل، نشطاً للعمل، واصلاً للذّم، شاكراً للنعم، خبيراً بسرّ الأمم، ذا حنكة بالدّخل والخرج، عفيف اللسان والفرج، غير مُغتتاب ولا غيابة، ولا ملق ولا هيابة، مجتزئاً بالبلاغ، مشغلاً عند الفراغ، مؤثراً للصدق، صادقاً بالحق، حافظاً للأسرار، مؤثراً للأبرار، مبايناً بطبعه لخلق الأشرار، وقد فاق قدر هذه الرتبة بين الأقران، وأعطى وزانها، والحمد لله، حقّه عند الاعتبار. ونحن نذكر بعد أركان الوصاة، ونفرغ لذكر حكمها المُحصاة، وخصولها المستقضاة.

الركن الأول: وهو العقد الذي عليه المعول، فيما يستشعر الوزير بينه وبين نفسه، ويجعله هجيراًه في يومه وأمسّه، واعلم أن المملكة البشريّة، الخليقة بالافتقار، الحرية، لما كان راعيها مركباً من أضداد مُتغايرة، وأركان متفاسدة متضاربة، ويجذبه كل منها إلى طبعه أخذاً برجاءه، مدافعاً بطبعه، لم يكمل حراسة ما وُكل إليه بنفسه، ولا وفّت بضم منتثرها آلات حسّه، فاحتاج إلى وزير من جنسه، ينوب مهما غاب عن شخصه، ويضطلع بتتيميم نقصه، ويتيقظ في سهره، ويجدّ عند هُوه، فيحتاج من اتّصف بهذه الصفة، إلى كمال في الفصل، ورجاحة في المعرفة، يعدل بها ما عاصى الملك من أمور مُلكه، ويوفي ما عجز عنه من نظم سلكه حتى تبرز المملكة في أتم صورتها، وتبلغ الكمال

الأخير، بمُقْتَضَى ضرورتها، وتَقْوَى الله عز وجل أول ما قَدَّمته، ثم تذليل بيتك لمن خَدَمته، ومقابلة ثقتك بك، بالوفاء الذي سَدَّدت إن التَزَمته، وحل الخاصَّة والعامة على حكم الشَّرْع، فإن لم تَبْنِ على ذلك، هدمته، وأفضل ما وُهب لك فيما قُلِّدته من قلادة، وعوْدته من عادة وسيادة، شَمُوْلُ الأمن، وعموم الرِّضا، وظهور الأمانة والصِّدْق في كل غرض مُقْتَضَى، وحُسْن النية، وطهارة الطَّوية، ورعاية الإحسان، وإفاضة الرأفة في عالم الإنسان وزيادة الكفاية بحسب الإمكان، واعلم أنَّ من لا يضبط نفسه، وهي واحدة لا يضبط أَمْر الكثير من الناس على تباين الأغراض، وتعدُّد الأجناس، فاربأ بنفسك عما تجرُّه الشهوات من النقص وازجرها عن كَلَف الحرص، وألن بجانبك لمن ظهر كماله، وقصّرت به عنه حاله، واعلم أنَّ بقاء النعم على كِتْدك^(١) مقصرون ببقائها من يدك، وجريان الأمور على مذهبك، بحسب استقامتها بسببك، وقلَّ أن يتهنأ في هذا العالم عمل عارٍ من الملامة، أو سالم من التَّجاوز كل السلامة فليكن خطأك في الإحسان للإنسان لا في الإساءة بالفعل واللِّسان، فقليل الخير ربما تمارَقت ثمرته، وأتت أكلها ضعفين شجرته، وإذا هممت بزوال نعمة عن جانٍ، فاذكر كم تُنال تلك النعمة من مكان، وفيها من لم يَسْتوجب عِقَاباً، ولا كَشَف في شرِّ نِقَاباً، وقد قالوا، الأشراف تُعاقب بالبُجْران، ولا تعاقب بالحرمان وربما قالت^(٢)... حراكن إليها ولم تعلم، ثم تأوه لفقد معروفها وتألَّم، فاجعل هذه الذرائع مُشْفِعاً في بقائها ودَواعي لإجرائها، يتكفَّل لك بارتُّك بإحراز السَّلامة، ورفع الملامة، والمثوبة في القيامة. واستعمل التواضع في هُبوب ريحك وتجاوَّف عن الخِسَّة والنَّجْمه بتعريضك وتصريحك فربما خَشِن جواب لا يغسل طبعه ولا يوجد من يُرقعه، ولا يزيله عقاب قابله ولا يرفعه، سيما فيمن استحقَّ الموت أو

(١) هكذا في ريجانة الكتاب.

(٢) هنا بياض في كتاب ريجانة الكتاب.

يتقن الفوت، وإياك والضَّجَر، فإنه يكدر الصَّفو، ويذهب العفو، ويبقي الفَلْة السَّنيعة، ويفسد الصَّنيعة، وقد رَكَلَ أبو عباد الوزير رجلاً برجله، فَرُفِعَ إلى الخليفة من أجله :

قل للخليفة يا ابن عم محمد إشكل وزيرك أنه رُكَّال
شكله عن رَكَل الرجال وإن تُرد مالاً فعند وزيرك الأموال
وتركها مثلاً يُذكر، وفَلْة تُنكر.

فصل: وإذا باشر عيوباً فَبَّعَ عيوبه دون فُصوله وأبوابه دون فصوله، ولا تشتغل بفروعه المتشعبة عن أصوله، ثم اصمُدْ بعدُ إليها، واعطف عليها، ولا تُعن بتفضيله عن جملته، فيضيع سائرُه قبل أناة الوقت ومُهْلته، ولا ترفض عملاً عن وقت يسرُّده وينصُّه، فإن لكل وقت عملاً يخصُّه، وأقلُّ ما يلحق من ازدحام الأعمال، تطرُق الفساد إليها، والاختلال عند الاستِحثاث عليها، والاستعجال وضيق المجال، وتهيبُ العمل مطيل الزمان، مُنِبٍ عن ضيق الجتنان، ولا تركزَنَّ في الاستخدام إلى شفاعاة غير نفاعاة، مالم تكن شفاعاة الكفاية والأمانة والرَّعاية، واعلم بأنَّ من ظهر حُسن صبره، على انتظام أمره، حَسُنَ صبره على شدائده في حوادث الدهر ومكائده، فالصبر قدرٌ مشترك فيمن أخذ وترك، والنفس لا تنفكُ من مُعترك، واعلم أنَّ الراحة عند الحاجة إلى الحركة، تُهدئُ التعب الضروري لمن أخذه فيها وتركه، ولا تُغفلن شيئاً تقلدته، بعد ما حَسِبته من وظائفك وعددته، فيظن بك من الخروج عن طبعك الذي جُبَلت عليه، بمقدار ما خرج إليه، ولا تحتجب عن الناس، يَفْشو بغضك، ويضعفُ من السياسة فُرصك، وتكتُمك النصيحة سهاؤك وأرضك، والله درُّ القائل:

كم من فتى تُحمد أخلاقه وتسكن الأحرار في ذمته
قد كثر الحاجب أعداءه وسلط الذَّم على نعمته

ولا يُعجبُنكَ ما يظن من مساويك، ولتكن معرفتك بعَيْب نفسك، أوثق عندك من مدح أبناء جنسك، وانقُص عن العامّة، ومن يُلبسها، وامتنع عن التكبر بمن يُجانسها، ففي طباعها إهانة الملتبس بإشباعها، وتنقص من اتصل برعاها، واعلم بأنّ إحسانك للحرّ يحرّكه على المكافآت المختلفة، وإحسانك إلى الوغد يحملُه على معاودة المسألة، وُضع إحسانك ولسانك حيث وضعها الرأى الصحيح، والاختيار الصّريح، هذه أرشدك الله نُقطة من يَم، وقافية من جم، وحِصاة من نُثير، وقليل من كثير، والتبيل من قاس الشيء بنظيره. واستدلّ على الكثير بيسيره، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

الركن الثاني: فيما يستشعره الوزير مع الملك، ليأمن عادية الأمر المرتبك. وإذا خدمت ملكاً زاد رأيك على رأيه، وفضل سعيك في التدبير حسن سعيه، فأره الاستعانة بمدّ يدك، واقصر من إشراف جيدك، وأظهر التعجب مما فضّل عليك به، وسِر من الحزم على مذهبه، ولا تتبجح بتجاوزها لأهل طبقتك، وإذا أنفقت عنده الكفاية، فاقصد في نفقتك، فإنه لا يُحسن منه مَوْقع قولك أو عملك ويرى أن تعزّزك به أكثر من تحمُّلك، فيشرع في كسرك ويثيره إلى قسرك، وإذا تعارَص عندك العجز في مُرؤتك وديانتك وكفائتك وأمانتك، فبزه الكفاية عنده عما يُشير، وارص بالنقص في المروّة لا في الدّين فهو عليه أسهل، وفرق ما بين الحالين لا يُجمل، وإياك أن يأنس بك فيها إخلالاً، أو يرى منك فيها إهمالاً، واحذر الإضرار لديه بالناس في سبيل النصيحة، أو التوفير عليه كما توفّر العامة على أنفسها الشحيحة، وانتفع له قلوب الخلق بمُساعدتهم فيما قصروا فيه عن يسير الحق، فإنك تَسرّخص له بذلك تملك الأحرار، وتحسين الآثار، واترك لشئونه الخاصّة شئونك، وحرّك من أحسنت إليه على شكره دُونك، ليقف على أن سعيك له أكبر من سَعْيِك لنفسك، في يومك وأمسك، ولا حظّ لك فيما لا تُمسك، وإياك أن تُحيا بمثل تحيّه أو تُلقى بمثل ما يلقي به عند رؤيته، أو تُرفع بالسلام عليك الأصوات، أو

يسبِقُ الناس بابك قبل الملك بالغَدوات فكم جَلَبَ ذلك من الآفات، وغَيَّرَ من الصفات، وإذا دعاكَ إلى هُوءٍ أو شرابه، وخصَّكَ بمزيد اقتِرابه، فليكنُ الإِعظام على الألتِذاذ غالباً، والفكر للحَذَرِ مراقباً، واجعلِ التحرُّزَ منه في أوقات انبِساطه إليك واجباً، ولا تستهز من ذلك بما ليس بيبين، وإياكَ أن تُنم بك أسِرَّةُ وجهه، أو نظرَةُ عين، واجتنبِ لباس ثوبه وركُوبَ مَرَكَبه، واستخدم جميع ما يتزَيَّن به، فمن خُدم السلطان لنباهة الذِّكر، ولباس العِزَّة، لم يضرَّه تَقْصير الرِّياش، ولا تعودُ البِزَّة، ومن صَحبه للذِّلة والترَف، كان سريع المُتَصَرِّف، مَسْلُوب الشَّرَف، وإذا خصَّكَ بمشورته، وطلب رأيكَ لضرورته، فلا تخاطبه مخاطبة المرشد لمن استهداه، وأره حاجتك لما أبداه. وإذا اعترف بخطيِّا يواقِعُه في بعض أنظاره، أو أعلن يوماً بسوء اختياره، فأجلِ فكركَ في التماس عُدْرته وتوجيه عارِه، واحتل بِفُطْنَتِكَ في رَمِّه، واحذر أن توافِقَه على ذمِّه، وذُلَّ نيتِكَ لكلامك، واضرِف إلى ترك التَّجاوز جُلَّ اهتمامك، فالكلام إذا طابق نية المتكلم حرَّكَ نية السَّامع، وإذا صَدَرَ عن القلب، أَخَذَ من القلب بالمجامع، وإذا توجَّه إليك عَتَبَه لَشُبْهه في أمرِكَ عرضت أو ظَنَّة تعرَّضت، فلا تقبل رضاه عنكَ تمويهاً، ما لم تَقم حُجَّتكَ فيها، ولا تُتسام إلا لامة، وأره أنك لا تُؤثر الحياة دون براءة السَّاحة حتى ترتفع الظَّنة رأساً، ولا تخشَ من تَبِعة الإحْنَة بأسياً، ويكون ذلك عنده شاهداً بفضلك، وزائداً له في محلك، ولِن له إذا غَضِب، واتَّق الكريمة دونهُ إن رهب، واصرف لَحْظَكَ عنه إن أَكَل أو شَرِب، وسُدَّ بينك وبينه باب العِتاب بالمُشافهة أو الكتاب، ولا تَخَف من طاعة الملك إلا ما وافق من طاعة ربِّه، يضع الله تَجَلَّتْكَ في ذاته، واذكر قول الوزير المتقدم، وقد أمره الملك المُسَلِّط بقتل رجل، وتلطَّف فسبق له عن ذنبه بما جرَّ عظيم إنكاره وقَطِيع عَتَبه أيها الملك السَّعيد لو كنت مالِكِي وحدَه، لأنفذتُ من غير مُهلِه أمركَ، وشرحتُ بالامِثال صَدْرَكَ، ولكنَّكَ تملك ظاهري وحدَه، ولي من يملكه وما بعده، وإذا أنفذت عهدك، نكثت عهدَه، وإذا

خرجتُ من يدك، دخلتُ في يده التي لا تمنع، فكيف أضنع وله الأمر أجمع، وأنا لك في طاعته من شراك نعلك أطوع، فبكى الملك الجاهل لصدق حجته وحمل الرّجلين من العفو على أوضح محجته، وهذا القدر كافٍ لأولي الألباب في هذا الباب.

الرّكن الثالث: فيما يحذره من تقدم الملك عليه في الأمر الذي أسند إليه، وجعل زمامه في يديه، واعلم أن من العار بارتياضك، وسداد أغراضك أن يتقدّمك الملك بخلق هي أولى بك، وأدخل في حسابك، من الصّبر على الملاهي، والانقياد للأوامر الدّينية والنّواهي، وهجر الدّعة في الضّيق والسّعة، وشدة اليقظة، والذكر الذي يُعنى به الحفظة من ذكر إقطاع، أو مقدار ارتفاع أواسم مُرتزق، أو حصر عملٍ مفترق، أو التفكير في مصلحة المملكة، فإنّه إن راض ذلك دونك وعلكه، ونهجه منفرداً وسلّكه، وتميّز فيه بالملكة. وساعحك في التّقصير والباع القصير، وسرّه سبقه إياك، وتقدّمه عليك فيما ولّاك، فهو مما يحطّ لديه أمرك، ويوهن قدرك، وإن كان غرك ويرى أنه لا مؤازرك فيما نابّه، ولا كافي فيما عرابابه، وأمل منابه، واجتهد أن يراك شديد الحرص، آنفاً من النّقص، ولا يحسّ منك في وظيفتك بتقصير، ولا يشعر منك فيه برأي قصير.

فصل: واحذر أن تسوّل لك قدرة الإمكان ودالة السّلطان، الزيادة في الاستكثار من الضّياع والعقار، والجواهر النّفيسة والأحجار، وغير ذلك من الاختيجان والاختكار، وما تدعو إليه جلالة المحلّ ونباهة المقدار، فيتقسّم فكرُك وشغلك، ويضيع سعيك وفضلك، ويخصيه عليك من يُضمّر لك الافتراس، ولا يملكك من كيده الاختراس، من حرّم حظّه، أو وكس معناه أو لفظه، ومُتطلّع إلى أوفى من وزّانه، متسام إلى ما وراء إمكانه، أقصرت به السياسة عن شأنه، فأضرم الحسد ناره، وأذكى إواره، وأعظم صغيرك وأثاره، ويتشوّف إلى مُناهضتك من كان عنها مُقصرّاً، ويجهر من كان مستتراً، ويستدعي الأرتياب ما جلبه الحظّ إليك، والاستظهار به عليك، وطمع الخايد

فيما لديك، واحرز مع الملك السُّلغة التي تَقِيك، وتوسِّدك مهاد الفضلة وتنمِّيك، وترفع
كَلِّك، وتَشْمَل أَهْلَكَ، حتى يعلم أنك بقليل ما يُجْريه لك العدلُ لديه، أَغْنَى منه بالكثير
في يَدَيْهِ، واجتنب الانهك في الاستِكتار من الولد والحشَم أُولي العدد، والأذيال التي
ثَبَّتت في أَقْطار البلد، فإنَّ الحاسِد يراهم بذخاً ونعمة، وإنَّها هم مؤونة ونِعمة، وداعيةٌ إلى
استهلاك عَتاد، أو تدبير مُستفاد، وإثارة حُساد لهم، وردِّ جاهك، وعليك صدره، ولهم
نفعٌ كَدْحك، وعليك ضرره، والاقتصاد في أَمْرِكَ أدوم لسلامتك وأَرْفَع لِمَلامتك،
وأغضْ لَطَرْف حاسِدك وأصدُقْ لَفَوائِدك، وأزِوَح لِقَلْبِكَ وأخْلِص فيما بينك وبين
رَبِّكَ، وفيما عَثُرَت عليه التَّجارب، ووَضَحَت منه المذاهب، أن المتقلَّل من الوزراء،
طويلُ عُمره، ناجحُ أَمْرِهِ، مظفَّر بأعدائه، وأضداده، قريبٌ من الحال المُرضيه في معاده.
ولتكن هَمَّتْكَ مصروفة إلى استِبراء حال المَمْلَكة واعتبارها، وتأملُ أفكارها، وماعليه كُلُّ
جزء من أجزائها، من سداد ثغورها ودفاع أعدائها، ونقصان ارتفاعها، واختلال
أوضاعها، أو تدبير مصلحة يَبْقَى لك ذكُرها وخبرُها، ويحسن بك أثرُها، وخفَّ مصارع
الدَّالة، فهي أدوُّ دائك، وأكبرُ أعدائك. واعلم أنَّ الاقتصاد مع إِمكان التَّوسِعة، والتنزل
مع الرِّتبة المرتفعة ينبئ عن قوَّة رأيك وصحَّة عزمك، واستقامة سَعْيِكَ، والرَّغبة في
التَّرف، والميل إلى الشَّرَف، دالة على غَلَبَةِ الهوى على الشَّرَف، وأجلُّ ما جُمِلت به زِمَانُكَ،
ورفعت شأنُكَ، خِدْمَةُ الشَّرِيعَةِ، وإِحياء سُومِها، وقَمْع البدع، وإزالة سُومِها، يذع لك
الحمد ويتخلَّد لك المجد. وتولَّ ذلك متى أَمَكَّنكَ بنفسك، ولا تكلِه إلى غيرك من أبناء
جنسك، حتى إذا وفَّقْتَ به على غَميرة يجب تغييرها، ويتعين نكيرها، فارفع إلى الملك
عَيْنُها، وقَبِّح عنده شَيْنُها، ثم حلِّ بينه وبينها، وأظهر للناس أن قلقه بها أَهَمُّكَ، أَكثَرُ من
قَلْبِكَ، وخلِّقُه لِإنكارها متقدِّمة لِحُلِّقِكَ، تهدي إليه بذلك ما يزيد في مكانتك ويُغَبِّظ
بأمانتك، وَيَشْهَد بمؤازرتك وإِعانتك وحسبنا، الله ونعم الوكيل.

الرُّكن الرابع: في تصنيف أخلاق الملوك، للسَّير بمقتضاها والسُّلوك، واعلم أن للملوك أخلاقاً، يَفْطِنُ المَلاطِف من خَدَامِها إلى اسْتِعْمَالِها، فيَجْعَلُها أُسّاً لِلسِّيَاسَةِ وَأَحْكَامِها، وَهِيَ أَنَّ الْمَلِكَ لَا يَخْلُو أَنَّ يَكُونُ سَخِيّاً وَبَازِلاً، أَوْ مُمَسْكَاً بِأَخْلَافٍ، وَقَوِيّاً عَلَى تَدْبِيرِهِ أَوْ ضَعِيفاً، يُلْقِي المَقَادَةَ إِلَى وَزِيرِهِ أَوْ سَيِّئِ الظَّنِّ مِنَ الاسْتِرْسَالِ فِيهِ أَوْ حُسْنِ البَشَرِ عِنْدَ الْإِفْتِرَاضِ، أَوْ مُنْقَبِضاً عَنِ الْأَعْرَاضِ، وَإِذَا تَرَكَّبتْ هَذِهِ الْخِلَالُ تَرْكِيباً طَبِيعِيّاً، وَتَرْتَّبَتْ تَرْتِيباً وَضْعِيّاً، وَتَقَابَلْ أَمْتِزَاجُها، بَلَغَ إِلَى سِتَّةِ عَشَرَ أَرْوَاجُها، وَتَأْتِي لِلْحَكِيمِ مِنَ الْوُزَرَاءِ عِلَاجُها. وَرَبِّمَ انْحَرَفَتْ هَذِهِ الْخُلُقُ أَوْ تَوَسَّطَتْ، وَرَبِّمَ أَفْرَطَتْ، وَعَلَى هَذَا التَّرْتِيبِ ارْتَبَطَتْ. وَإِنْ كَانَ سَخِيّاً أَثَرَ دُرُورُ الشُّكْرِ عَلَى تَوْفِيرِ قَوَافِلِ الْمَالِ، وَكَانَ يُحْسِنُ الذِّكْرَ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ، وَإِنْ كَانَ بَخِيلاً، فَبُضْدُ هَذِهِ الْحَالِ، وَإِنْ غَلَبَتْ عَلَيْهِ قُوَّةُ التَّدْبِيرِ، اسْتَدْعَاكَ إِلَى الْمِشَارَكَةِ فِي سَعْيِكَ، وَأَخْرَزَ بِذَلِكَ عَلَيْكَ الْحِجَّةَ فِي رَعْيِكَ وَإِنْ غَلَبَ عَلَيْهِ الضَّعْفُ رَكَّنَ إِلَى تَدْبِيرِكَ، وَفَوَّضَ إِلَيْكَ الْأَمْرَ فِي قَلِيلِكَ وَكَثِيرِكَ، وَخَلَاكَ وَمَا لَا يَحْمَدُ مِنْ عَوَاقِبِ أُمُورِكَ. وَإِنْ كَانَ حَسَنَ الظَّنِّ تَمَكَّنَتْ مِنْ إِحْكَامِ تَدْبِيرِكَ لِدَوْلَتِهِ، وَبَلَغَتْ مِنْهَا أَقْصَى مَصْلَحَتِهِ، وَإِنْ كَانَ سَيِّئِ الظَّنِّ شَغَلَكَ عَنِ الْإِخْلَاصِ بِكَالْفِ الْخِلَاصِ، وَبِإِحْرَازِ الْحِجَّةِ عَلَيْهِ عَنِ التَّفَرُّغِ الْكَثِيرِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ. وَإِنْ كَانَ الْبِشْرُ عَلَيْهِ غَالِباً، كَانَ لِنَشَاطِلِكَ جَالِباً، فَاجْعَلْ هَذِهِ الْأَخْلَاقَ أَصُولاً وَرَعِيكَ لَهَا مَوْصُولاً، وَصَاحِبَهُ عَلَى خُلُقِهِ وَعَقْلِهِ، وَانْقُلْ مِنْهَا بِالْتَلَطُّفِ مَا قَدَّرْتَ عَلَى نَقْلِهِ، وَاعْطِ صُورَةَ مَنْ تَخْدُمُهُ مَا يُنَافِسُ تَأْلِيفُها، وَيَرْفَعُ تَكْلِيفُها، وَأَنْفِقْ مَا يُنْفِقُ عِنْدَها وَجَارَ أَخْلَاقُها، وَاجْتَنِبْ ضِدَّها، يَحْسُنْ أَثْرُكَ، وَيَعْظُمُ شَأْنُكَ، وَيَنْفِذْ لَكَ سُلْطَانُكَ.

الرُّكن الخامس: فِي سِيرَتِهِ مَعَ مَنْ يَتَطَلَّعُ لِهَضْبَتِهِ، وَيُحْسِنُ عَلَى رُتْبَتِهِ. وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا يَخْلُو مِنْ حَلٍّ مَحْلُكَ مِنْ عِلْوِ الْقَدْرِ، وَعِزَّةِ الْأَمْرِ، عَنْ قَرِينِ يِعَاذُهُ، أَوْ حَاسِدٍ يَكَايِدُهُ، أَوْ مُتَطَلِّعٍ يَمْتُّ إِلَى الْمَلِكِ بِقَرْنِيٍّ، أَوْ يَمَحُلُ إِثَافَهُ فِي اللَّطَافَةِ وَأَرَبِيَّ يَتَوَهَّمُ أَنَّ وَسِيلَتَهُ تُبَلِّغُهُ مَا

يَتَطَاوَلُ إِلَيْهِ مِنْ مَنَزَلَتِكَ، وَتُلبَّسُهُ لِبَاسَ تَجَلَّتْكَ، أَوْ ذِي هَمَّةٍ جَاحِدَةٍ وَلَأْغْنَانِ الشَّرَفِ طَامِحَةٍ، يَرَى أَنْ خَطَّهُ مَنَحُوسًا، وَأَنْ مِثْلَهُ لَا يَكُونُ مَرءً وَسَاءً، وَآخِرَ ذَاكَ فِيهَا مَفْتَرًا فِيمَا أَثَرَتْ فِيهِ رِضَى مِنْ حُكْمِ يَفْضُلِكَ، وَحُسْنِ الْإِبْقَا فِي الْمَمْلَكَةِ يَعْدَلُكَ، وَاحْتِمَالِ الْمَدَافِعِ حُسْنِ مَوْقِعِكَ، وَجَلَالَةِ مَحَلِّكَ، فَظَنَّ تَرَاحِيكَ لِإِخْلَالٍ فِي التَّدْبِيرِ، وَإِسَاءَةٍ فِي التَّقْدِيرِ، وَكُلُّهُمْ يَنْظُرُ إِلَى الْمَلِكِ مِنْ أَضْعُرِ جَوَانِبِهِ، وَيُخْفِي عَنْهُ أَكْثَرَ مِمَّا يَظْهَرُ مَذَاهِبِهِ، وَلُطْفِ الْمَحَلِّ، وَالتَّقَدُّمِ فِي الْعِلْمِ وَالْفَضْلِ، وَإِنْ كَانَ يَغِيرُ مِنْ حَلِّ مَحَلِّكَ، وَنَاهِضِ فَضْلِكَ، لَيْسَ مِنَ الْإِضْطِرَارِ أَنْ يَكُونَ لِمَنْزِلَتِهِ أَسْبَابًا، وَلَا لَطَلْبِهِ أَبْوَابًا، وَالْحَقُّ أَنْ تَجَاهِدَهُ الْجَمَاعَةُ، وَتَقْمَعَ مِنْهَا الطَّمَاعُ بِالزِّيَادَةِ فِي فَضَائِلِكَ الدَّاتِيَةِ، وَالتَّحَرُّزُ مِنْ مُلَابَسَةِ الدَّنِيَّةِ وَالْمُنَاصِحَةِ لِمَنْ خَصَّكَ بِالْمَزِيَّةِ وَلَا تَكْشِفِ فِي الْمَجَادَةِ وَجْهًا، وَلَا تُبْدِ فِيهِمْ غِيَّةً وَلَا نَجْهًا، وَاكْتَسَرَ سُورَةُ حَسَدِهِمْ بِإِحْسَانِكَ، وَسَوَّغَهُمُ الْمَعْرُوفَ مِنْ وَجْهِكَ وَلِسَانِكَ، وَاصْطَنَعَ أَضْدَادَهُمْ مِمَّنْ ضَلَعَ عَلَيْهِمْ وَمِثْلَ لَدِيهِمْ، تَحْرُسُ مِنْهُمْ غِيْبَكَ، وَتُدَافِعُ عَيْبَكَ، وَتَجْلُو رَيْبَكَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَحْسَ مِنْكَ لِهَذَا الْغَرَضِ بِفَاقَةٍ، وَلَا يَشْعُرُ بِإِضَاقَةٍ، فَإِنَّكَ تَنْشُرُ مَعَايِبَهُمُ الْمُطْوِيَّةَ، وَتَرْمِيهِمْ مِنْ أَشْكَالِهِمُ بِالْبَلِيَّةِ. ثُمَّ تَتَلَقَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَوَارِطَهُمْ بِحُسْنِ الْإِقَالَةِ وَتَتَغَمَّدُ سَقَطَاتِهِمْ بِالْجَلَالَةِ، وَتَكْرِّرُ بِكَرَمِ الْعَفْوِ عَلَى سَوَاتِهِمُ السَّوَالِفِ، وَتَخْلِيهِمْ وَمَا بِقُلُوبِهِمْ مِنَ الْحَسَايِفِ فَإِنَّ تَسَلَّطَ الْجَاهِلِ عَلَى نَفْسِهِ قَصُرَ عَنْهُ مِنْ عَدَلٍ أَوْ أَخْطَأَ نَيْلَهُ مِنْ فَضْلٍ، أَعَزَّ عَلَى جِرْمَانِهِ مِنْ ظَفَرِ أَعْدَائِهِ، وَلَا تَرُكْنِ إِلَى مَنْ وَثَرْتَهُ، وَلَا إِلَى مَنْ حَرَّكَتْ حَسَدَهُ وَأَثَرْتَهُ، وَخَذَ حَاشِيَتِكَ بِتَرْكِ التَّعَالِي، وَالتَّضَامُنِ لِدَوِي الشَّرَفِ الْعَالِي، وَالْإِقْصَارِ مِنَ الْمَطَامِعِ وَإِدَالَتِكَ فِي الْمَسَامِعِ، وَلِتَخْطُ الْعَدْلَ فِي النَّاسِ إِلَى الْفَضْلِ، وَالْبِشْرَ إِلَى الْبَذْلِ، وَالْقَوْلَ الصَّالِحَ إِلَى الْفِعْلِ، وَاخْتَرِ مَنْ تَصْطَنِعُهُ لَخْدَمَتِكَ، وَتُنْصِبِهِ مَظْهَرًا لِنِعْمَتِكَ بِنِسْبَةِ مَا شَرَطَ فِي الْإِخْتِيَارِ فِي رُتْبَتِكَ، فَإِنْ إِحْسَانَ الصَّنِيعَةِ يَرُدُّ عَنْكَ، سُوءُ الْقَالَةِ، وَقُبْحُ الْإِدَالَةِ، وَيَصُونُ عِرْضَكَ مِنَ الْإِذَالَةِ.

الرُّكن السادس: فيما تُساس به الخاصّة والبطانة، وذوو الدّالة والمكانة، واعلم أنّ من الخاصّة مريض لشدائد الدّولة ومهمّاتها، ومتّسم من ألقاب الغنا بأكرم سِماتها، فهو يرى لنفسه اليَدَ واليوم والغد، وآخر متعلّق بقراية من المَلِك وحرمة، أو وكيد مَيْل وذمّة، وليست حظوظهم من المُلْك على حسب قوّة أسبابهم، ووَزَن ما في حسابهم، وإن عدّلت خالفت موافقة المَلِك، وباينت طُرُقها، والصّواب التمسك بالترتيب على الإطلاق، ووضع الناس من المملكة موضع الاستحقاق، واستعمال إرضاء المَلِك في تفصيل من أثره بحسن العطية، وباينَ بين أصناف الشُّفوف، وأنواع المزيّة، واعلم أنّ مَيْل الأعلام إلى رفعة المنزلة، أعظم منها إلى الصّلة، وراعِ أمر الجماعة فتتم ما وقع بالمستحق من التّقصير، بكرّم المواعيد وإلغاء المعاذير، وأصلح قلوبهم للمُلْك بكلّ ما يتكفّل بجبر الكسير، واجذبها إلى طاعته بحُسن أوْصافك، وصحّة رأيك في القليل والكثير، وانجّله فضايك من غير شوب باطنٍ ولا تكدير، تصفُ لك سريرة صدره، ويأتمنك على جميع أمره، واحذر انصباب القوم عليك، وإخلاها بمراكزها من داره، وانصرافها إليك، والتحامها بك، وتمسكها دون المَلِك بأسبابك، اعتماداً على نُصرة جنابك، وقيامك بأمرها وحُسن منابك، وخفّ وضعها إياك من قلوبها وعيونها، وكافّة شؤونها لا يؤثر المَلِك رضاه ولا يُحمد مُقتضاه، فربما زرع لك في قلبه سوء الطّوية، وأثبت لك الحقد وخُبث النّية، وخبّاً لك وأنت لا تعلم أعظم البليّة، ولتمكّن النفوس أنّ رضاك برضاه معقود، وأنك لا تعمل إلّا ما رآه. ولا تؤثر إلّا ما ارتضاه، وأنّ لك منه منزلة محمودة، ودرجة معقودة، من زادك عليها ظلمك، وجلب ألك، وأنّ في قبولك لها وإيثارك، ما يُزري على فضل اختبارك، وعامل المَلِك في ولّده بحفظ الغيب، والسّلامة من الرّيب، واحفظ له الرّسم واستبقه، واجعل حقّهم دون حقّه، وإذا دعوت لهم فاشطّر السعادة بخدمته وطاعته، واجعل رضاه من الولّد رأس بضاعته، واحذر من إهمال هذا العرض

وإضاعته، وإيّاك أن تفضّل ولدك ولدّه، ولا عدّتك عدده، ولا تُناقشه في شيء قصده، ولا تظهر حاشيتك على حاشيته، ولا تتشبه غاشيتك بغاشيته، ولا تنازعه تجلّته، ولا تُفخر منزلته، ولا تحل محله من جيشه، ولا تُغر عليه في نباهة بناية، وفَضْل عَيْشه، وتفقّد نفسك، فانزل عن الرُقي اختياراً قبل أن ينزلك اضطراراً.

فصل: وإذا انصرفت إليك من إحدى حُرمة، رغبةً، أو تأكّدت في مهمّ قربة، أو بدّرت إليك شفاعاً، أو توجّهت في حاجة طاعة، فلا تسمع رسالتها، ولا تعتبر مقالاتها، إلّا من لسان إنسان موصوف عند الملك بإحسان، حالٍ من يقنه بمكان، واحترز في محاورتها من فلتات اللسان وهفواته، وراجع خطابها مُراجعة الأخ إلى أكرم أخواته، أو الإبن الأبرّ أمّهاته، ولا تُصغ في مخاطبتها إلى خُضوع كلام ورقّة، تحيّة وسلام، وانفر من ذلك نفرتك من السُّموم الوحية والمهالك الرديّة، واسدل دون الولد والحرم جناح التّقية، واكتم سرّه عن أبناء جنسك لابل عن نفسك، واجعل قلبك له قبراً، وأوسع صيانة، وصبراً فإن تراحم عليك تراحمًا تخاف عليه معرّة النسيان وإغفال ذكرها على الأحيان، فاتخذ لها رمزاً يفرّدك بعلمها، ولا تُبج لسواك شيئاً من حُكمها، ولا تُغفل مع الأحيان ما جرى به رسمك من عَرَض كتابٍ وارد، أو خبر وافد، أو بريّد قاصد واستأمره فيما جرّت به العوايد، وإن خُصّت لديه منزلتك، ولطُفت منه، محلّتك، فلا تترك أن يمرّ ذلك على سَمعه، معتياً لرغيه، وأدقه حلاوة الاستبداد بأمره ومهيّيه، واترك له مَنفذاً يحتج له بابه، عند مغيبك، كما تحبّبه العدل من نصيبك، ولازم سدّته مع الأحيان، وإيّاك أن تجتمع معه على فراغ، فيبقى الملك مضيقاً بمقدار ذلك الزمان، وإذا انصرفت إلى منزلتك، فاختل بعَمالك وكتّابك، وذوي الرأْي والنصيحة من أصحابك، على إحكام حال الملك الذي ناطها بك، فإذا أمسيّت، فاشغل طائفة من ليلك بمدارسة شيء من حُكم الدين، وأخبار الفضلاء المُهتدين، واجلِ صدا نفسك بالبراهين، ومجالسة

العلماء والصالحين، واختتم سعيك ببعض صحف النبيين، وأدعية المرسلين والمتأهين
لتختِمَ يومك بالطَّهارة والعِفَّة، والحِلْم والرَّأفة، واعتدال الكفَّة، وليهونَ عليك النَّصَب
والوَصَب، والعُمرُ المغْتَصَب، إنك مُهتَدٍ بهدي ربِّك الذي يرفعك، ويُنجح مسعاك،
ويُثيبك على ما إليه دَعَاكَ.

قال فلما استوفى النَّمِرُ مقالَه، وأحرَزَ السُّبُلَ سُؤالَه، وقرَّرَ حالَه، انصرف متجهاً إلى
خِدمته، وصَرَفَ النَّمِرَ إلى العِبادة وَجَهَ هَمَّتَه، ثم لَحِقَ بعد ذلك بجوار رَبِّه ورحمته، وقَيَّدَ
الحاكي ما أفادته هذه المُحاورَة، لتُلفَى رَسْماً يُقْتَضَى وَحِلْماً به يُهْتَدَى إذا ذَهَبَ الأثر وعَفَا،
وحسبنا الله ونعم الوكيل.

تعقيب:

رسم ابن الخطيب في هاتين المقامتين سياسة لمنصب الوزير ومهام الوزارة. وقد
حوت هاتان المقامتان كل ما يتعلق بهذه الرتبة من مسؤوليات، وواجبات.

أجرى ابن الخطيب الحوار في المقامة الأولى على ألسنة الحيوانات، ويظهر الراوية
عفواً أثناء ذلك الحوار. وقد بدأ لسان الدين تلك المقامة بالدعاء، وطلب العون من الله
عز وجل للذي يأخذ برتبة الوزير.

وبعد أن عدّد ابن الخطيب وصاياه للوزير، التي جعلها صفات للنمر الذي
استوزره الأسد، ختم مقامته بقول مهّد به لمقامته الثانية، فقال: «وأنا موصيك، والله
يبعدك عن الخطر ويقصيك، ويبين لك قدر هذه الرتبة بين الأقدار، ثم جالت بعض
شروط الاختيار، ثم خلص للوصاية بحسب الإمكان، في ستة أركان...».

ويتنقل ابن الخطيب في المقامة الثانية إلى بيان صفات الوزير وقدراته، وبيان قدر
رتبة الوزارة، فيقول: «اعلم يا ولدي أن هذه الرتبة لمن فهم وعقل، مشتقة من الوزير،

وهو الثقل، لأنها تحمل عبء الملك وثقله، ما تعجز الجبال عن حمله... وإذا فسد الملك وصلاح الوزير، ربما نفعت السياسة واستقام التدبير، وموقعه من الملك موقع اليدين من الجسد، اللتين في القبض والبسط عليهما يعتمد، وقالوا الملك طيب، والرعية مريض، والوزير تعرض عليه شكاياتهم عرضاً....».

والأرجح أن تكون هاتان المقامتان مقامة واحدة، لكن ابن الخطيب أثر فصلهما، فالأركان الستة التي جاءت مفصلة في المقامة الثانية كان قد أشار إليها في نهاية المقامة الأولى.

مقامة تفضيل النخلة على الكرمة^(١) لأبي الحسن التُّبَاهي المالقي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

صَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لِلزَّائِرَةِ النَّاصِرَةِ، حَفِظَهَا اللهُ فِي السَّرِّ
والعلانية، آمين:

قلت أخاطب مَنْ أَجْرَى مِنَ السُّرَاةِ^(٢) ذِكْرَ الْعِرَاقِ، فَأَهَاجَ لِلنَّفْسِ الشَّعَاعِ^(٣) لَوَاعَجِ
الْأَشْوَاقِ، يَا أَيُّهَا الْأَخْلَاءُ الَّذِينَ هُمُ الصَّنَائِعِ الَّتِي تَحْسُدُهَا الْغِيَامُ، وَالبِدَائِعِ الَّتِي تَوُدُّهَا
بَدَلًا أَزْهَارُهَا الْكَمَائِمِ، بَقَيْتُمْ وَشَمَلْتُكُمْ جَمِيعَ، وَرَوْضُ أَمَلِكُمْ مَرِيعَ^(٤)، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ
لِلْغَرِيبِ الْمَعْنَى مِنْ حَدِيثِ الْمُحِبِّ سَمِيعَ:

بِأَرْضِ النَّخْلِ قَلْبِي مُسْتَهَامٌ فَكَيْفَ يَطِيبُ لِي عَنْهَا الْمَقَامُ
لِذَاكَ إِذَا رَأَيْتُ لَهَا شَبِيهَا أَقُولُ وَمَا يُصَاحِبُنِي مَلَامُ:
«أَلَا يَانَخْلَةٌ مِنْ ذَاتِ عِرْقٍ»^(٥) عَلَيْكَ - وَرَحْمَةُ اللهِ - السَّلَامُ^(٦)

(١) اعتمدنا النص المنشور بحوليات الجامعة التونسية (العدد ٢٧، ١٩٨٨، ص ٢٠٧-٢١٨، تحقيق حسناء الطرابلسي).

(٢) السرات والسرارة: جمع سرّي: السيد الشريف السخي.

(٣) الشعاع: المتفرق من كل شيء. يقال: طارت نفسه شعاعاً أي تبددت من الخوف ونحوه.

(٤) جميع بمعنى مجتمع، ومريع بمعنى مُزْع أي مُخْصِب، يقال أَمْرَعُ المَكَانُ وَمُرْعٌ فَهُوَ مُزْرَعٌ وَمَرِيعٌ.

(٥) ذات عرق موضع بالحجاز، وهو في الحج ميقات أهل العراق وفارس وخراسان.

(٦) البيت الذي وطأ عليه منشئ المقامة بيتي المذكورين في القطعة وهو: «ألا يانخلة من ذات عرق... لعربي هو الأصوص

[ت ١٥١ أو ١٥٥ هـ] وقول الأصوص «نخلة» كناية عن المرأة وأصل هذه الكناية أن عمر بن الخطاب كان نهى

الشعراء عن ذكر النساء في أشعارهم لما في ذلك من الفضيحة وكان الشعراء يكونون عن النساء بالشجر وغيره.

فَسَلَّمْتُ يَوْمًا تَسْلِيمَ الْمَبْرَّةِ، عَلَى هَذِهِ الشَّجَرَةِ الْكَرِيمَةِ الْبَرَّةِ، جَارَةَ حَائِطِ الدَّارِ،
الوَاقِفَةِ لِلخِدْمَةِ كَالْمَنَارِ، عَلَى سُدَّةٍ^(١) الْجِدَارِ، بَيَاضِ النَّهَارِ وَسَوَادِ اللَّيْلِ، الْمُتَلَفِّعَةِ^(٢) بِشَعَارِ^(٣)
الْوَقَارِ الطَّاهِرَةِ الدَّيْلِ، أُنَيْسَةِ مَشِيخَةِ الْجَمَاعَةِ، الْقَاطِنَةِ مِنَ الْحَمْرَاءِ السَّامِيَةِ بِبَابِ ابْنِ
سَمَاعَةَ^(٤). فَحِينَ عَطَفْتُ عَلَيْهَا، وَصَرَفْتُ زِمَامَ رَاحِلَتِي إِلَيْهَا، وَوَقَفْتُ بَازَاءَ فَنَائِهَا وَقُوفَ
الْمُشْفِقِ مِنْ فَنَائِي وَفَنَائِهَا، وَقُلْتُ لَهَا كَيْفَ هُوَ حَالُكَ أَيَّتُهَا الْجَارَةُ، السَّاكِنَةُ بِنَجْوَةِ^(٥)
الْحِجَارَةِ، الْوَاعِظَةُ لِلْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ، بِمَقَامِهَا وَإِنْ كَانَتْ صَامِتَةً عَلَى الصَّعِيدِ:

سَقَاكِ مِنَ الْغُرِّ الْغَوَادِي^(٦) مَطِيرُهَا وَلَا زِلَّتْ فِي خَضْرَاءِ عَفْصِ نَظِيرُهَا

فَمَا أَوْلَاكِ وَرَحْمَاتِ السَّمِيعِ الْمُجِيبِ، مِنْ بَاسِقَةٍ بِالتَّكْرِيمِ وَالتَّرْجِيبِ^(٧).

خِلْتُهَا اهْتَزَّتْ عِنْدَ النَّدَاءِ اهْتِرَازَ الشُّرُورِ، وَتَمَائِلَتْ أَكْحَامُهَا^(٨) تَمَائِلَ الثَّمَلِ الْمَسْرُورِ،
ثُمَّ قَالَتْ لِسَائِلِهَا، بِلِسَانٍ وَسَائِلِهَا، عِنْدَ مُشَاهَدَةِ مِثْلِي:

(١) السدة: المكان القريب من المنزل.

(٢) التلפע في اللغة: الاشتغال.

(٣) الشعار: كل مايلي الجسد من الثياب فهو شعار. وشعار الله ما جعله الله تعالى علماً لطاعته، واحدها شعيرة.

(٤) باب ابن سماعة هو الباب الكائن بالجانب الغربي من قلعة دار الخلافة بالاندلس.... وسماعة رجل من مواليتها، كانت
يؤكد عبد الله خدمة بذلك الباب فكان يكثر من ملازمته فأضيف اليه من أجل ذلك وشهر به. والحمراء اسم قد رُسم
لتلك الجهة كلها.

(٥) النجوة المكان المرتفع الذي تظنه نجاك.

(٦) الغوادي: المبركات بالمطر من السحاب، أي التي تأتي غدوة.

(٧) الترجيب: في أصل اللغة: التعظيم وترجيب النخلة هو أن يبتنى لها دكان يرفدها من شق الميل إذا كرمت على أهلها
وخافوا أن تقع وذلك البناء هو الترجيب واسمه الرُّجبة.

(٨) أكمامها: الأكمام في النخل موجودة في موضعين، فروع النخلة في أكمام من ليفها، وطلع النخلة. والكُم من النبات:
كل ما التف على شيء وستره ومنه كرائم الزهر وبه شبه كُم الثوب.

تقول العربُ: «عَيْنُهَا فِرَارُهَا»،^(١) وآيَةُ وَجْدِهَا لِلنَّاضِرِينَ أَصْفَرَارُهَا. وَجُمْلَةُ نَجِيَّتِي^(٢) بَعْدَ إِتْمَامِ نَجِيَّتِي، أَنَّ الدَّهْرَ عَجَمَ قَنَاتِي^(٣)، وَمَسَّ الْكِبَرُ مَنَعَ سِنَاتِي، وَمَا عَسَى أَنْ أَبْثُ مِنْ شَكَاتِي وَجُلَّ عَلَاتِي، لَعَمْرُكَ فِي تَرْكِيبِ ذَاتِي، وَأَجِدُ مَعَ ذَلِكَ أَنَّ وَقَارِي، حَسَنَ لَدَى الْحَيِّ احْتِقَارِي، وَكَثْرَةَ قَنَاعَتِي، أَثْمَرَتِ إِضَاعَتِي، وَكَمَالَ قَدِّي، أَوْجَبَ قَدِّي^(٤)، فَمَا أَنَسَ مِ^(٥) الْأَشْيَاءِ لَا أَنَسَ عَبَثَ مَنُحُوسٍ، مِنْ أَحْبُوشِ^(٦) الْيَهُودِ أَوْ الْمَجُوسِ، يَفْخَصُ بِمُدَّتِهِ عَنْ وَرِيدِي، وَيَخْرِصُ عَلَى جَبْرِ^(٧) جَرِيدِي، وَيَجْدُعُ كُلَّ عَامٍ بِخَنْجَرِهِ أَنْفِي، وَكُلَّمَا رُمْتُ كَفَّ إِذَايْتَهُ عَلَى كَشْحٍ^(٨) كَفِّي، فَلَوْ رَأَيْتُمْ صَعَصَعَةً^(٩) أَفْنَانِي، وَسَمِعْتُمْ عِنْدَ جَذْمٍ^(١٠) بَنَانِي، قَعْقَعَةَ جَنَانِي، وَالذَّمْعُ لِمَا جَفَانِي يَفِيضُ مِنْ أَجْفَانِي، وَالْعَابِثُ الْمَذْكُورُ قَدْ شَدَّ مَا جَدَّ بِأَمْرَاسِهِ، وَرَفَعَهُ لِبَيْعَةٍ كُفِّرَهِ عَلَى رَأْسِهِ^(١١) هَذَا بَعْدَ الَّذِي وَرَدَ مِنْ وَضْعِهِ عَلَى أَسْنِمَةِ الْقُبُورِ،

-
- (١) فِرَارُهَا: الْفَرُّ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ: الْاِخْتِبَارُ النَّاتِمُ الدَّالُّ عَلَى الْمُتَوَصِّلِ بِهِ لِحَقِيقَةِ بَوَاطِنِ الْأَشْيَاءِ وَمِنْهُ الْمَثَلُ الْمَشْهُورُ وَهُوَ قَوْلُهُمْ: «عَيْنُهُ فِرَارُهُ» بِضَمِّ الْفَاءِ وَكسرها ومعناه: إِذَا رَأَيْتَهُ تَفَرَّسْتَ فِيهِ الْجُودَ.
- (٢) نَجِيَّتِي: يُقَالُ نَجِيٌّ وَنَجِيَّتِي بِكَسْرِ الْجِيمِ وَمُشَدَّدِ الْيَاءِ أَي: مُسَارَرَّةٌ وَيُقَالُ ذَلِكَ لِلوَاحِدِ وَالْاِثْنَيْنِ وَالْجَمْعِ.
- (٣) قَنَاتِي: يُقَالُ: عَجَمَ الْقَنَاءَ وَصَدَعَهَا وَوَصَفَهَا بِالْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ: كُلُّ ذَلِكَ اسْتِعَارَةٌ جَارِيَةٌ بِمَجْرِي الْمَثَلِ وَالْغَرَضُ بِهَا عَلَى الْجُمْلَةِ تَقْرِيرُ حَالَةِ الْمُخْبِرِ عَنْهُ فِي نَفْسِ السَّمَاعِ بِأَمْرٍ جَسَمِي يَنْتَزِلُ بِهِ الصَّحِيحُ مِنْزِلَةُ الْعَلِيلِ وَالنَّاقِصُ مِنْزِلَةُ الْكَامِلِ.
- (٤) الْقَدُّ الْمُسَمَّى أَوَّلًا فِي السَّجْعِ الْمُرَادُ بِهِ الْقَامَةُ وَالْقَدُّ الْمَذْكُورُ ثَانِيًا الْمُرَادُ بِهِ الْقَطْعُ طَوْلًا.
- (٥) لِاخْتِلَافٍ فِي جَوَازِ حَذْفِ نُونِ «مِنْ» فِي مِثْلِ الْمَوْضُوعِ الْمَذْكُورِ، وَقَدْ نَصَّ عَلَى ذَلِكَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ النُّحَاةِ فِي كِتَابِهِمْ مِنْهُمْ ابْنُ مَالِكٍ (٦٠١هـ).
- (٦) الْأَحْبُوشُ: الْجِلْبَاعَةُ.
- (٧) الْجَبْرُ: الْقَطْعُ.
- (٨) كَشْحٌ: قَطْعٌ.
- (٩) الصَّعَصَعَةُ: الْاضْطِرَابُ.
- (١٠) الْجَذْمُ: الْقَطْعُ.
- (١١) الْبَيْعَةُ بِكَسْرِ الْبَاءِ هِيَ مَحَلُّ اجْتِمَاعِ الْيَهُودِ... وَالْبَيْعُ كَنَاسُ النَّصَارَى وَاحِدَتُهَا بَيْعَةٌ.

حَسْبَمَا ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ الْمَشْهُور: ^(١) لَحَمَلْتَكُمْ يَا بَنِي سَامٍ وَحَامٍ ^(٢)، عَلَى الْغِيَرَةِ وَشَائِجٍ ^(٣) الْأَرْحَامِ، فَقَدْ عَلِمْتُمْ الْأَمْرَ ^(٤) الَّذِي نَصُّهُ: أَكْرَمُوا عَمَّتَكُمْ، وَهَبُوا أَنْتُمْ الْآنَ - أَعَزَّكُمْ اللَّهُ - أَمَّتَكُمْ ^(٥)، وَإِنِّي مِنْ حَيْثُ الشَّكْلِ وَإِنْ أَصْبَحْتُ لَكُمْ بِمَثَابَةِ وَصِيفَةٍ، نَظِيرَةِ الْعُذِيقِ ^(٦) الْمَضْرُوبِ بِهِ الْمَثَلُ يَوْمَ السَّقِيفَةِ، لِمَنْ رَامَ مِنْ أَشْرَافِ الْأَنْصَارِ أَنْ يَكُونَ إِذَاكَ خَلِيفَةً، وَجَدَّةُ أَبِي كَانَتْ الْفِيدَانَةُ ^(٧) الْكَبِيرَةُ، الَّتِي حَادِثُهَا الْأَمِيرُ بِالرُّصَافَةِ الْغَرِيبَةِ مِنْ كُورَةِ

(١) عذاب القبور ثابت بالكتاب والسنة.... و[الحديث] مذكور في الصحاح ومتداول على ألسنة الجمهور ففي الحديث، قال: مر النبي (ﷺ) بقبرين يغذبان، إنهما يغذبان في كثير، أما أحدهما فكان لا يستبري من البول أما الآخر فكان يمشي بالنميمة، ثم أخذ جريدة رطبة فشققها بنصفين ثم غرز في كل قبر واحدة فقليل: يا رسول الله لم صنعت هذا؟ فقال: لعلَّه أن يُخَفَّفَ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَبْسَا.

(٢) سام وحام: ولدا نوح، سام أبو العرب وحام أبو الحبش.

(٣) الوشائج: الأرحام المشتبكة: المتصلة.

(٤) يشير بذلك إلى الحديث الثابت ... عن النبي (ﷺ) وقد اختلف في سبب تسمية النخلة بالعمة [ومن الأسباب أنها] لا تحمل حتى تلحق كنساء بني آدم. ثبت في صحيح مسلم عن موسى بن طلحة عن أبيه، قال: مررت مع رسول الله (ﷺ) يقوم على رؤوس النخل. فقال ما يصنع هؤلاء؟ فقالوا يلحقونه فيجعلون الذكر في الأنثى فتلحق.

(٥) المقصود هنا... إنها هو تنبيه السامع على ما يجب لمن هو بمنزلة الجارية من الرحمة والرعاية على أقل الحالات، فكيف بمن هو مع ذلك من ذوي الأرحام؟.

٦ العذق بكسر العين: العنقود الكبير من النخل أو العنب وقيل: غصن له شعب والعذيق هو تصغير عذق بالفتح وهو النخلة نفسها.

(٧) تاريخ الفيدانة المنبّه عليه نقله غير واحد منهم: أبو القاسم بن بشكوال في صلته فقال ما نصه: قال أبو بكر بن موسى ابن فتح، دخلت يوما على أبي عثمان وهو يُعَلِّقُ فَقُلْتُ لَهُ: رَأَيْتُ السَّاعَةَ فِي تَوَجُّهِي إِلَيْكَ الْقَاضِي وَالْوَزَرَءَ وَالْحُكَّامَ وَالْعُدُولَ بِأَجْمَعِهِمْ إِلَى حِيَازَةِ الْجَنَةِ الْمَعْرُوفَةِ بِدَنْبَالِسٍ وَهِيَ هَاشِمٌ لِلْمُظَفَّرِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ قَالَ لِي: إِنَّ هَاشِمًا لَضَعِيفٌ، هَذِهِ الْجَنَّةُ الْمَذْكُورَةُ هِيَ أَصْلُ اتَّخَذَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُعَاوِيَةَ وَكَانَ فِيهَا نَخْلَةٌ أَدْرَكْتُهَا بِسِنِي وَمِنْهَا تَوَالَدَتْ كُلُّ نَخْلَةٍ بِالْأَنْدَلُسِ، قَالَ: وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُعَاوِيَةَ وَقَدْ تَنَزَّهَ إِلَيْهَا وَرَأَى تِلْكَ النَخْلَةَ فَحَنَّنَ:

يَا نَخْلَ أَنْتِ غَرِيبَةٌ مِثْلِي	فِي الْغَرْبِ نَائِيَةٌ عَنِ الْأَصْلِ
فَأَبْكِي وَهَلْ تَبْكِي مُكَمَّمَةً	عَجْمَاءُ لَمْ تُطَبِّخْ عَلَى خَنْثَلِ
لَوْ أَنَّهَا تَبْكِي إِذَنْ لَبَكَتْ	مَاءَ الْفَرَاتِ وَمِنْبَتِ النَّخْلِ
لَكِنَّهَا ذَهَلَتْ وَأَذْهَلَنِي	بَعْضُ بَنِي الْعَبَّاسِ عَنِ الْأَصْلِ

...والفيدانة التي حادتها الأمير هي النخلة.

أَلْبِيرَة^(١)، فكيف يسهل عليكم إهمالي، ويَجْمُلُ لَدَيْكُمْ إهمالي، وتَرْكُ أختيالي، والأيام بِحَمْدِ اللَّهِ مُسَاعِدَة، وَالْمُلْكُ مُلْكُ بَنِي سَاعِدَة^(٢).

فلَمَّا سمعتُ عِتَابَهَا، وعلمتُ أنها، قد شَدَّتْ لِلْمُسَاجِلَةِ^(٣) أَقْتَابَهَا^(٤). قلت لها: أَهْلَا بِكَ وَسَهْلًا، وَمَهْلًا عَلَيْكَ ثُمَّ مَهْلًا، لقد دَهَمَجَ^(٥) بعيرُك، وعادت بالخَيْبَةِ عَيْرُك، فليستِ الحَقِيقَةُ كالمجاز، والفرقُ حاصلٌ بين الصُّدُور والأعجاز، ولغة بني تميم والحجاز. هُنا جَنَّةٌ مِنْ أَعْنَاب، مُرْسَلَةُ الذِيُول مُذَلَّلَةُ الْأَطْنَاب^(٦)، قد طاب إِشْتِيَارُهَا^(٧) وَمُحَمَّدُ اخْتِمَارُهَا، وَعَذِبَتْ عُيُونُ أَنْهَارِهَا، وَتَفَتَحَتْ كِمَائِمُ أَزْهَارِهَا، عَنْ وَرْدِهَا وَتَرْجِسِهَا وَبَهَارِهَا، وَسَرَتْ بِطُرْفِ محاسِنِهَا الرَّفَاق، حَتَّى قَلَقَتْ مِنْهَا الشَّامُ وَالْيَمَنُ وَالْعِرَاق. قُطُوفُهَا^(٨) دَانِيَة، وَأَرْزَاقُهَا مُتَوَالِيَة لَا مُتَوَانِيَة.

(١) أَلْبِيرَة اسم أعجمي للقاعدة المنسوبة إليها الكورة وهي البلدة التي انتقلت عمارتها إلى غرناطة بعد وفاة المنصور بن أبي عامر أيام ابتداء الفتنة البربرية... وأَلْبِيرَة أيضاً قلعة منيعة على ريف الفرات من ناحية العراق، كريمة البقعة وبينها وبين مدينة حلب نحو مائة ميل.

(٢) ينو ساعدة: هم ولد الخزرج بن ساعدة وسقيفتهم إلى الآن بالمدينة الشريفة معروفة، وهو جَدُّ الملوك، ملوك الأندلس من بني نصر.

(٣) المساجلة: مقابلة المستقي الماء على البئر في الاستقاء بالدلو ومنه قولهم: الحرب يسجال - بالكسر - أي مرة لهؤلاء ومرة على هؤلاء.

(٤) أَقْتَابَهَا: جمع قتب بكسر القاف وهي حواشي البطن ومصارينه وأمعاه، وعادة من تهاى لأمر مهم أن يجمع له نفسه ويستبدل لباسه ويحترم بما أمكنه، والقصد بتلك الكلمات الكناية عن بعض ما لدى النخلة المذكورة من الانفعال والمسارة للجدال على جهة الاستعارة.

(٥) دهمج بعيرك: قال أبو علي في أماليه: يقال للبعير إذا قارب الخطو وأسرع: بعيرك دهايج ودهامج، وقد دهمج يدهمج دهمجة. والبعير: الجممل والناقة.

(٦) مذلة الأطناب: التذليل في الأشجار هو أن تطيب الشجرة فتتزل وتنعكس نحو الأرض.

(٧) الاشتيار: الاستخراج من أَثَرْتُ العسل وشرته وشرت الدابة إذا استخرجت جريها.

(٨) القطوف: جمع قطف وهو العنقود من النخل والعنب ونحوه.

فعندما كثر خَيْرُها ، هُجِرَ بالضرورة غَيْرُها ، وأنتِ لا كُنْتِ يا خَشَبَة^(١) ، وقد صِرْتَ من الكَبِيرِ^(٢) عَشْبَة^(٣) ، لا يَجْتَنِي بَلْحُكٍ ولا طَلْعُكٍ ، ولا يُرْتَجَى نَفْعُكٍ ، فالأولى قطعك أو قَلْعُكٍ ، وإلاَّ فأينَ قِنُوكَ أو صِنُوكَ^(٤) ، وتمرك أو بسرُك ، هَلَّا أَبْقَيْتِ يا فَيْسِلَة^(٥) على نَفْسِكَ ، ورَعَيْتِ ما بَقِيَتْ مَصْلَحَة جَنْسِكَ ، فلقد انْتَهَتْ بِكَ المَحَاجَة إلى ارْتِكابِ ما لا يَجُوز ، وفي عِلْمِكَ أَنَّ مِنْ أَمْثالِ الحُكَمَاءِ ، «أَهْوَنُ هَالِكٍ عَجُوز» ، حَسْبُكَ السَّمْعُ لَكَ بِالمَقام ، ما دُمْتَ حَيَّةً في هذا المَقام .

فانقطعَ كلامُها ، وارتفعَ بِحُكْمِ العَجْزِ مَلامُها ، وما كانَ إلاَّ أَنْ نُقِلَ مَقالي ، فقال المتكلمُ بلسانِ القالي^(٦) : أنا أَتَطَوُّعُ بالجواب ، وعلى الله جَزِيلُ الثواب ، لِيَعْلَمَ كُلُّ سائِلٍ ، أَنَّ تَفْضِيلَ النَخِيلِ على العِنَبِ مِنَ المَسائِلِ ، التي لا يَسَعُ فِيها جَحْدُ جَاحِدٍ ، وإنْ كانا أخوينِ سُقَيَا بِماءٍ وَاحِدٍ^(٧) . وقد جرى مِثْلُ هذا الخِطاب ، بَيْنَ يَدَيِ عُمَرَ بْنِ الحِطَّاب ، فقال لِأَبِي حَشْمَة^(٨) : أَيُّهُما أَطْيَبُ ، الرُّطْبُ أم العِنَبُ ،

(١) خشبة: مفرد الخشب: والخشب: الشجر المقطوع ، وهو مثل يتمثل به في معرض التوبيخ للمخاطب والتجهيل له .

(٢) من الهزال .

(٣) عشبَة : لفظ منقول من أئمة اللغة . ففي الأمالي ما نصه : « يقال للرجل إذا بيس من الهزال : ما هو إلاَّ عشبَة وكذلك يقال للكبير الذي ذهب لحمه » .

(٤) القِنُو : العِذْق - بكسر العين - الذي يقال له الكناسَة والعرجون عُودُه الذي يتنظم فيه التمر وهو القِنَى أيضا مقصور

(٥) الفسيلة: النخلة الصغيرة والفسيل أيضاً : صغار الشجر .

(٦) القالي: هو أبو علي البغدادي ، ولد سنة ٢٨٨ هـ ، وتوفي سنة ٣٥٦ هـ .

(٧) قوله : وإنْ كانا أخوينِ سُقَيَا بِماءٍ وَاحِدٍ : إشارة إلى الاعتبار بقوله تعالى : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَةٌ وَجَعَتْ مِنْ أَغْنَبٍ وَزَرْعٍ وَنَخِيلٍ صِنَوَاتٍ وَغَيْرِ صِنَوَاتٍ يُسْتَقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنَفْضُكُلٍ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْآكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد ٤] .

(٨) أبو حشمة ولعلها حشمة: اختلف الناس في اسمه فقيل : عبيد الله بن ساعدة وعبد الله بن ساعدة بن عامر بن عدي . وحكاية سؤال أبي حشمة عن الرطب وردت بألفاظ مختلفة ، ونص ما في النوادر منها عن الربيع قال : ذكروا عن عمر بن الخطاب أيها أفضل الرطب أم العنب فقال : ليس كالصَّنْفَر في رؤُوس الرُقُل والراسخات في الوَحْل ونزل مريم بنت عمران ، وينضج ولا يُعْنى طابِخُه ويحترش به الضب من الصلعاء : ليس كالزبيب إن أكلته ضرست ، وإن تركته غرثت .. يحترش : يصاد ، والصلعاء : الأرض التي لا نبات فيها .

فقال: ليس كالصَّقْرِ في رُؤُوس الرِّقْلِ^(١)، الراسخات في الوَحْل، المُطْعِمات في المحل، تُخَفِّة الصَّائِم، وتَعَلِّة^(٢) الصَّيِّ القادِم، ونُزَلِ^(٣) مَرِيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ، والنَّخْلَةُ هِيَ الشَّجَرَةُ الَّتِي مُثِّلَ بِهَا الْمُؤْمِنُ مِنَ الْإِنْسَانِ، لَيْسَ كَالزَّيْبِ الَّذِي إِذَا أَكَلْتَهُ صَرِسَتْ، وَإِذَا تَرَكْتَهُ غَرِسَتْ، وَلِفَائِدَةُ الرِّوَايَةِ حُجَّةٌ، لِمَنْ أَرَادَ سُلوَكَ الْمَحَجَّةِ^(٤)، وَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ فَقَدْ لَزِمَ التَّفْضِيلُ لِلنَّخْلَةِ عَلَى الْكَرْمَةِ لُزُومُ الصَّلَةِ لِلْمَوْضُولِ، وَالنَّصَبِ لِلْمُنَادَى الْمُطْطُولِ^(٥)، وَالْفَخْرِ لِكِتَابِي^(٦) «المَحْصَل» و«المَحْصُول»^(٧) وَكَمْ عَلَى تَرْجِيحِ ذَلِكَ مِنْ قِيَاسٍ صَحِيحٍ، وَنَقْلٍ ثَابِتٍ صَرِيحٍ. قَالَ: وَاعْتِزَّازُكُمْ بِالْمَهْرَمَةِ، عَنْ فِعْلِ الْمَكْرَمَةِ، لَأَمَّةٌ فِي الطَّبَاعِ كَامِنَةٌ، وَشَامَةٌ لِلتَّلَفِ لَا لِلْخَلْفِ ضَامِنَةٌ^(٨). وَذَكَرْتُمُ الثَّمَرَةَ وَالْبُسْرَةَ، وَالْوَقْتُ لَيْسَ بِوَقْتِ عَصْرَةٍ، فَإِذَا ذَكَرْتُمُ قَوْلَ الْقَائِلِ، فِي بَعْضِ الْمَسَائِلِ: دَعْنَا مِنْ تَمْرَتَانِ وَبُسْرَتَانِ، أَوْ تَمْرَتَيْنِ وَبُسْرَتَيْنِ. وَفِي التَّحَدُّثِ بِذَلِكَ أَدْلَةٌ صَدَقَ عَلَى تَطَلُّعِ النَّفْسِ الْفَقِيرَةِ

(١) الصَّقْرُ: الدِّبْسُ بِلُغَةِ أَهْلِ الْحِجَازِ: قَالَ الْحَرِيرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ. الصَّقْرُ: الدِّبْسُ وَهُوَ عَسَلُ التَّمْرِ. وَقَالَ أَبُو عَلِيٍّ فِي أَمَالِيهِ: وَيَقُولُونَ: رُطِبَ صَقْرٌ مَقْرٌ، وَالصَّقْرُ: الْكَثِيرُ الصَّقَرِ وَصَقْرُهُ: عَسَلُهُ. وَالْمَقْرُ: الْمَنْقُورُ فِي الْعَسَلِ وَكُلُّ شَيْءٍ أَنْفَعَتْهُ فِي شَيْءٍ فَقَدْ مَقَرَّتْهُ... قَالَ: وَالرَّقْلُ: الطَّوَالُ مِنَ النَّخْلِ وَاحِدَتُهَا رَقْلَةٌ.

(٢) تَعَلَّةُ الصَّيِّ الْقَادِمِ أَيُّ قَدَرٍ مَا يَجْعَلُ بِهِ نَفْسَهُ: يُشِيرُ إِلَى تَحْنِيكِ الْمَوْلُودِ بِالتَّمْرِ عِنْدَ وِلَادَتِهِ وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى تَفْضِيلِ التَّمْرِ.

(٣) النَّزْلُ: مَا يَنْسَاغُ مِنَ الطَّعَامِ وَقَبْلُ: طَعَامٌ قَلِيلُ النَّزْلِ إِذَا كَانَ لَا يَنْسَاغُ وَلَا يُثَالُ: النَّزُولُ أَيْضًا: الرِّيحُ: يَقَالُ: أَخَذَ الْقَوْمُ نَزْلَهُمْ أَيُّ مَا تَجْرِي عَادَاتُهُمْ بِأَخْذِهِ مِمَّا يَنْزِلُونَ بِهِ وَيَصْلُحُ عَيْشُهُمْ بِهِ وَهُوَ مَا خُذَ مِنَ النَّزُولِ.

(٤) الْمَحَجَّةُ عِنْدَ أَثَمَةِ اللُّغَةِ: الطَّرِيقُ الْمَسْلُوكَةُ قَرِيبَةً كَانَتْ أَوْ بَعِيدَةً وَكَذَلِكَ الْبِلَاطُ.

(٥) تَفْضِيلُ النَّخْلِ عَلَى الْعِنَبِ صَحِيحٌ بِنَصِّ الْكِتَابِ، وَإِجْمَاعُ فَضْلَاءِ الْأَثَمَةِ... وَنَصَبُ الْمَطْوُولِ وَهُوَ الْمُطْوَلُ لِمِشَابَتِهِ بِالْمُضَافِ.

(٦) الْفَخْرُ لِكِتَابِي «المَحْصَل» و«المَحْصُول»، يَرِيدُ فَخْرَ الدِّينِ الرَّازِي (ت ٦٠٦هـ) وَمِنْ مَصْتَفَاتِهِ: «المَحْصَل» وَ«المَحْصُول»، وَلَهُ الْفَخْرُ بِهَا وَلَهَا بِهِ.

(٧) قَوْلُهُ: «وَاعْتِزَّازُكُمْ بِالْمَهْرَمَةِ..... لَا لِلْخَلْفِ ضَامِنَةٌ». يُشِيرُ بِذَلِكَ إِلَى مَا ثَبِتَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ سَعْدِ بْنِ يَسَارٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: مَا مِنْ يَوْمٍ يَصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ يَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُتَّقًا خَلْفًا يَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُتْسِكًا خَلْفًا. وَالْمَهْرَمَةُ: بُلُوغُ أَقْصَى الْعُمُرِ، مِنْ هَرَمٍ، يَهْرَمُ.

للأغراض التافهة الحقيرة، والخِلافة السامية العظمى، التي تعلّقت هذه النخلة منها بالجَنابِ الأُمّى، أَجْمَلُ مَنْ أَنْ تَلَحَّظَ بَعَيْنُ كَمَالِهَا تِلْكَ الْمَلَا حِظَ، ولو أَصَلَهَا لَدِيهِ بَيَانُهُ^(١) عمرو بنُ بحرٍ الجاحظ، إِذْ هِيَ - شَكَرَ اللهُ تَعَالَى فَضْلَهَا، وَلَا قَلَصَ ظِلَّهَا - كَالسَّحَابِ تَجَوُّدُ بَغِيْثِهَا حَتَّى عَلَى الْأَكَامِ وَالضَّرَابِ^(٢)، وَلَيْسَ يَضِيعُ مَعَ جَمِيلِ نَظَرِهَا ذُو حَسَبٍ، وَلَا يُجْهَلُ فِي أَيَّامِهَا السَّعِيدَةِ مِقْدَارُ مُتَسَبِّإٍ إِلَى جُرْثُومَةٍ نَسَبٍ، وَالْمَطْلُوبُ مِنْهَا^(٣) لِهَذِهِ الشَّجَرَةِ الشَّمَاءُ، الَّتِي أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ^(٤)، إِنَّمَا هُوَ يَسِيرُ بِنَاءً، وَظَهِيرُ اعْتِنَاءٍ، وَتَحْمِيدِيٌّ مَاءً^(٥)، لَعَلَّ عَبَاسَةَ أَدِيمَ دَوَّهَا أَنْ تَذْهَبَ، وَأَكْثَمَ كِبَاسَةَ فَنُوحَا أَنْ تُفَضِّضَ بِنَعِيمِ النَّصَارَةِ ثُمَّ تَذْهَبَ^(٦)، فَيَعُودُ إِلَيْهَا شَرْحُ شَبَابِهَا، وَتَسْتَحْكِمُ مُهْرَةَ نِقَابِهَا، وَذَلِكَ كُلُّهُ بِمَنْ الْعَلِيمِ الْحَبِيرِ، مِنْ أَسْهَلِ الْعَمَلِ عَلَى فَضْلِ الْأَمِيرِ، وَنُضْحِ الْوَزِيرِ، إِذْ هُمَا عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ أَنَّ الْإِحْسَانَ الْقَفَاحُ وَالشُّكْرُ نَتَاجُهُ، وَالْمَعْرُوفُ لِلْسَّعَادَةِ طَرِيقٌ لَا يُسَدُّ رِتَاجُهُ^(٧).

(١) المقصود كتاب البيان والتبيين للجاحظ.

(٢) الأكام دون الجبال وأعلى من الرابية. والضراب: الزوابي الصغار واحدها ضَرْبٌ.

(٣) الضمير في منها يعود على الإمامة العظمى.

(٤) الشجرة الشماء هي النخلة. وهذا الفصل كله مأخوذ من قوله تعالى: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿١٥﴾ تَأْتِي مِنْ أَكْثَرِهَا كُلٌّ حِينَ يُرِيدُ رَبُّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٦﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ آجِنْتُمْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿١٧﴾» [٢٥-٢٦ سورة ابراهيم] الشجرة الطيبة هي النخلة في قول أكثر المتأولين.

(٥) الخمجدير: الماء الذي ليس بعذب خاصة. قال ابن الأعرابي. وفي النوادر: الخنجدير: بالنون بعد الخاء إذا كان ثقيلا أيضا.

(٦) الأديم: الجلد المدبوغ ويُستعار فيقال في وجه الأرض وغيرها. وعبس، يعبس عبوسا إذا غضب. وأما الدوّ فالمستوي من الأرض. والكبس بفتح الكاف نوع الثمر طيب.

(٧) الرّتاج في اللغة هو الباب نفسه.

قال المحدث: ومن يا إخوتي لِعَلِّي، بمُعارضة الحافظ أبي عليٍّ^(١)، ولو أُنِّي أُمسيتُ بمنزلة النضر بن شميل^(٢)، وأصبحتُ أفصحَ من عامر بن طفيل^(٣)، وكنت أخطبَ من شبيب^(٤)، وأشعرَ من حبيب^(٥)، وأحكمَ من أكتُم^(٦) وعَمرو بن الأَهم^(٧)، وعلى أَنه ما قال إلاَّ حقًا، فبُعْدًا لِلمرءِ وسُخْقًا، ولكِنِّي أقسمُ عليكم بمقدّر الضياء والحلك، ومُسَخَّرِ نجوم الفلك، يا صُيَّابَةَ^(٨) الأعراب، وأُصَيَّحَابَ الإغراب، وأربابَ فنونِ الإغراب، إلاَّ ما تأملتُم فصولَ هذه المقالة، وأفتيتُم بما يترجَعُ فيها من إجازة أو إقالة، فأنتم علماء الكلام، وزعماء كتائب الأقلام، والمراجعة بين الإخوان شُنْشَنَةٌ^(٩) معروفة، وطريقة إليها الوجوه في كثير من المخاطبات مَصْرُوفَةٌ، لازلتم مذكورين بالتَّقدُّم في أهل البيان، مشكورين على بذل الفضل مدى الأخيان، والله سبحانه يجعلُ التوفيقَ حاديكم ونورَ العلم هاديكم، ومنه جَلَّ اسمُه نَسألُ لي ولكم التطهير من كُلِّ مَعَابَةٍ، والسَّمَحَ فيها تخلَّلَ هذه المقامة من دُعَابَةٍ، والتَّحِيَّةَ الكريمةَ مع السلام الطيب المُعاد، على من يَقِفُ عليها من الآن إلى يوم المَعاد، والرحماتُ والبركاتُ.

(١) علي الأول: هو صاحب المقامة. وأبو علي: القالي وقد تقدم التعريف به.

(٢) النضر بن شميل: هو النضر بن شميل بن خَرْشَة: أحد الأعلام بمعرفة أيام العرب ورواية الحديث وفقه اللغة.

(٣) عامر بن طفيل: أحد فتاك العرب وشعرائهم وساداتهم في الجاهلية.

(٤) شبيب: هو ابن شيبَة (ت ١٧٠ هـ)، أحد الخطباء والبلغاء، كان يقال له الخطيب لفصاحته.

(٥) حبيب: هو حبيب بن أوس الطائي المعروف بأبي تمام (١٩٠ هـ - ٢٣١ هـ) من فحول الشعراء العباسيين..

(٦) أكتُم: هو أكتُم بن صيفي (ت ٩ هـ) أحكم حكماء العرب في الجاهلية.

(٧) عمرو بن الأَهم (ت ٥٧ هـ) هو الرجل الذي قال فيه الرسول (ﷺ) «إِنْ مِنْ الْبَيَانِ لَسِخْرًا» في خيره المشهور مع

الزُّبَيْرِ قَانِ بْنِ بَدْرٍ. وكان عمر بن الأَهم هذا شاعر مفلقا له قصائد عديدة.

(٨) الصُّيَّابَةُ: صميم القوم وخالصهم.

(٩) الشَّنْشَنَةُ: الخُلُقُ والطَّبِيعَةُ.

تعقيب:

إنّ الذي حدا بنا إلى إثبات نصّ هذه المقامة يتلخص في أسباب ثلاثة:

أولها: أنها غير معروفة رغم أن نصّها مطبوع، وذلك أن الطبعة لم تذكر فيها كلمة المقامة، فقد أوردها لسان الدين بن الخطيب في كتاب «الإحاطة» دون عنوان أو تنبيه على أنها مقامة، مكتفياً بالتقديم لها بقوله: «من أمثل ما صدر عنه في غرض غريب، وهو وصف نخلة بإزاء باب الحمراء».^(١) ويبدو أن الدارسين لم ينتبهوا إلى أنّ هذا الفصل هو المقامة التي كتبها النباهي في تفضيل النخلة على الكرم، فلذلك بقيت في عداد المخطوطات. ولما أتيح لنصّ المقامة هذا التحقيق العلمي الدقيق الذي نشر في حوليات الجامعة التونسية، رأيت أنه من الأفضل إثبات نصّ هذه المقامة ضمن نصوص المقامات الأندلسية الأخرى، كي يفيد منها الباحثون والدارسون، الذين قد لا يتيسّر لهم العودة إلى ذلك العدد من الحوليات الذي نشرت فيه المقامة.

وثانيها: أنّ الكثيرين ممن درسوا النثر الأندلسي بعامة، ودارسي المقامات الأندلسية بخاصة اكتفوا بذكر اسمها، دون إيراد نصّها، أو ذكر شيء عن مضمونها.

أمّا ثالثها فهو أنه وقع خلط عند الباحثين في اسمها وموضوعها، فالدكتور إحسان عباس سمّاها «المقامات النخلية»^(٢)، والصواب أنها مقامة واحدة. وذكر أحد الدارسين أنّ اسمها «الإكليل في تفضيل النخيل»^(٣)، وهذا هو عنوان الشرح الملحق بالمقامة وليس عنوان المقامة^(٤)، أمّا ليفي بروفنسال فقد ذهب إلى أنّ موضوع المقامة مفاخرة بين نخلة وشجرة تين^(٥)، وفي هذا وهم واضح، فلا نجد ذكراً لشجرة التين في هذه المقامة.

(١) الإحاطة: ٤/ ص ٩٥، وانظر نصّ المقامة فيه ص ٩٥ - ١٠٠.

(٢) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين): ص ٣٠٧.

(٣) د. قصي الحسيني: فن المقامات بالأندلس: ص ٤١.

(٤) حوليات الجامعة التونسية، العدد ٢٧، ١٩٨٨، ص ٢٠٤.

(٥) تاريخ قضاة الأندلس: (مقدمة المحقق: ط).

تحليل المقامة: (١)

استهل المؤلف مقامته بمقدمة ذكر فيها الدافع النفسي الذي دفعه إلى كتابتها، وهو الحنين إلى العراق والتعلق الروحي به. ثم انتقل إلى مخاطبة النخلة مسلماً عليها، ممجداً لها، وعقّب بنقل جواب النخلة كما تحيّلته، ثم ردّ عليها بتعديد محاسن الكرمة، وجاء بعد ذلك جواب الكاتب على لسان أبي علي القالي في الدفاع عن النخلة، وختم بالتصريح بعجزه عن معارضة القالي، وإقراره بفضل النخلة على الكرمة.

وقد تميّزت هذه المقامة بطرافة موضوعها، إذ تضمّنت تشخيصاً للنخلة ومناجاتها ومحاورتها مما جعل الحديث عن تفضيل النخلة على الكرمة لا يرد في أسلوب تقريري جافّ، بل في أسلوب أدبي يؤدي فيه الرمز دوراً مهمّاً. فالنخلة رمز المشرق والكرمة رمز المغرب، والنخلة رمز الإسلام والكرمة رمز سواه من الأديان. ومن أجل ذلك كانت الحجج التي اعتمدها الكاتب في تفضيل النخلة على الكرمة حججاً دينية فقهية، كما أنه ربط تاريخ دخول النخلة إلى الأندلس بتاريخ دخول بني أمية إليها.

ولقد غلب التفكير الفقهي على النزعة الأدبية في هذا النص، لأن ذلك يعود إلى غلبة التكوين الفقهي على المؤلف، فهو أديب ومؤرخ، ولكنه أيضاً فقيه وقاضي، لذلك كانت لغة المقامة لغة فقيه في مستوى المفردات والمفاهيم، وفي مستوى الأدلة والحجج وحتى في أسلوب الكتاب، الذي يذكرنا بالخطب الدينية التقليدية.

والمقامة تخضع للسجع من أول فقرة إلى آخر فقرة فيها، وكثيراً ما نجد اختلافاً في طول الفقرات، وقد غلبت النزعة الذهنية على أسلوب الكاتب فيها فقلّ حظها من الجمال الفني.

(١) لمزيد من التفصيل انظر : حوليات الجامعة التونسية، العدد ٢٧، ص ٢٠٥ - ٢٠٧، ١٩٨٨، تونس.

وإذا لم يَسْمُ الكاتب بمقامته إلى مستوى فني رفيع، فإنه يبقى لهذا النص المقامي قيمة من ناحية وثائقية، فقد أبرز الكاتب أهمية النخلة في الإسلام، محتجاً ببعض ما أثر عن الرسول (ﷺ) من أقوال، وما قاله العرب فيها من أمثال، كما أبرز قيمتها بالنسبة إلى أهل الأندلس، إذ هي رمز صلتهم الروحية بالشرق، وعامل من عوامل ذلك الحنين المتواصل في نفوسهم إليه. فهذه المقامة تبقى ذات طابع أندلسي، رغم أن الدافع إلى كتابتها لا يخرج عن التعلق بالشرق والحنين إليه.

ولا بأس في الإشارة هنا إلى أن صاحب هذه المقامة أتبع مقامته بشرح لها وسمه بـ «الإكليل في فضل النخيل»، وهو شرح يقوم على منهج لغوي فقهي^(١).

(١) انظر وصفاً لهذا الشرح في حوليات الجامعة التونسية، العدد ٢٧، ١٩٨٨، ص ٢٠٣.

مقامتان للفقيه عمر الزجال

١ - مقامة تسريح النصال إلى مقاتل الفصّال^(١)

يا عمادَ السّالّكين، ومَحَطَّ رِحالِ المستفيدين والمتبرّكين، وثمّالِ الضّعفاء والمساكين
والمترولين، في طريقتك يتنافس المتنافس، وعلى أعطافك تُزهى العباءات وتروّق
الدّلافس^(٢)، وبكتابك تحيا جوامدُ الأفهام، وبمَدَبَّتْكَ تُشردُ ذُبَابُ الأوهام، وفي زَنبيلِكَ^(٣)
يُدسّ التّالّد والطّارفُ، وبعضاك يُهش على بدائع المعارف، الله الله في سالك، ضاقت
عليه المسالك، وشادِ رُمي بالبعاد، أدركته متاعب الحرفة^(٤)، وأقيم من صفّ أهل
الصّفة، فلا يجد نشاطاً على ما يتعاطى، ولا يلقي اغتباطاً، وإن حَلَّ زاوية أو نزل رباطاً،
أقصى عن أهل القرب والتخصيص، وابتلي بمثل حالة برّصيص^(٥)، فأحيل عليك،
وتوقفت إقالته على توبة بين يديك، فكاتبك استدعاء، واستوهب منك هداية ودعاء،
ليسير على ما سوّيت، ويتحمل عنك أشتات ما رَوَيْت، فيلقى الأكفاء الطّرفاء عزيزاً،
ويباهي بك كلّ من خاطبك مُستجيزاً، فاصرف إلّي مُحيّاً الرّضا، وأعد من إيناسك العهد
الذي مضى، ولا تلقني مُعرّضاً ولا مُعرّضاً، وأصغِ إلّي سمعك كما قدّر الله تعالى وقضى:

(١) انظر نصّ المقامة في أزهار الرياض: ١/ ص ١١٧-١٢٤، ونفح الطّيب: ٥/ ص ٤٠-٤٦.

(٢) الدلافس: جمع دلفاس، نوع من اللباس خشن كالعباءة إلّا أنّه قصير، يلبسه الصوفية والفقراء.

(٣) الزنبيل: الفقة، الجمع زبابيل.

(٤) الحرفة: (بالضم والكسر): الحرمان. وأهل الصّفة: قوم من فقراء المهاجرين كانوا يأوون إلى صفة المسجد في عهد

الرسول عليه السلام، لأنّه لا مأوى لهم غيرها.

(٥) برّصيص: كان من عبّاد بني إسرائيل، ثم فتنه الشيطان، وقصته مشهورة تذكر عند تفسير قوله تعالى + كمثل الشيطان

إذ قال للإنسان اكفر"

نَعَصُّ عَلَيْهَا مَا تَوَالِي الْجَدِيدَانِ
وَنَحْلِفُ عَلَيْهَا مِنْ مُؤَكَّدِ أَيْمَانٍ
لِنَأْمَنَ مِنْ أَقْوَالِ زُورٍ وَبُهْتَانٍ
يَرُوحُ وَيَغْدُو بَيْنَ إِثْمٍ وَعُدْوَانٍ
بِمَنْطِقِ إِنْسَانٍ وَخُدْعَةِ شَيْطَانٍ
تَعُوذُ مِنْهُ عَالَمُ الْإِنْسِ وَالْجَانِ
إِلَى الصِّلَحِ أَلَتْ حَرْبِ عَبَسَ وَذَبِيانِ
وَصُلْحِكَ أَوَّلَى مَا أَقْدَمَ مِنْ شَانِي
وَأَنْتَ دَلِيلِي إِنْ صَدَعْتُ بِبُرْهَانٍ
رَأَيْتَكَ فِي أَهْلِ الطِّيَالِسِ تَرَعَانِي
لِبَاسُ إِمَامٍ فِي الطَّرِيقَةِ دِهْقَانٍ
بَأْنِكَ تَأْتِي مِنْ حِلَاكِ بِالْوَانِ
خَلُوبٌ لِأَلْبَابِ لَعُوبٌ بِأَذْهَانِ
زُبَيْبِيرَةٌ^(١) قَدْ مُدَّ مِنْهَا جَنَاحَانِ
وَإِنْ أَقْبَلْتُ فِي سَابِغَاتٍ^(٢) وَأَبْدَانِ
بِشَيْخِي سَاسَانَ وَعَمِّي هَامَانَ

تَعَالَ نَجِدْهَا طَرِيقَةَ سَاسَانٍ^(٣)
وَنَصْرَفْ إِلَيْهَا مِنْ مُثَارِ عَزَائِمٍ
وَنَعْقِذْ عَلَى حُكْمِ الْوَفَاءِ هَوَاءَنَا
وَنَقْسِمْ عَلَى الْأَنْصَدَقِ وَأَشْيَاءٍ
يَطُوفُ حَوَالَيْنَا لِيَفْسِدَ بَيْنَنَا
عَلَى أَنْتَا مِنْ عَالَمِ كُلَّمَا بَدَا
وَحَاشَاكَ أَنْ تُلْفَى عَنِ الصِّلَحِ مُعْرِضاً
وَإِنِّي أَهْتَمُّنِي شَتُونَ كَثِيرَةً
فَأَنْتَ إِمَامِي إِنْ كَلِفْتُ بِمَذْهَبٍ
سَأُرْعَاكَ فِي أَهْلِ الْعِبَاءَاتِ كُلَّمَا
وَيَا لَابَسِي تِلْكَ الْعِبَاءَاتِ إِنَّهَا
تَفَرَّقَتْ الْأَلْوَانُ مِنْهَا إِشَارَةً
وَيَا بَابِي الْفَصَّالُ شَيْخُ طَرِيقَةٍ
إِذَا جَاءَ فِي الثُّوبِ الْمَحْبَرِّ خِلْتَهُ
فَمَا تَأْمَنُ الْأَبْدَانُ أَفَةً لَسَعِهَا
سَادَعُوكَ فِي حَالَاتٍ كِيدِي وَكُذِّبْتِي^(٤)

(١) طريقة ساسان: أي طريقة أهل الكدية. وقد يريد بطريقة ساسان علم الحيل الساسانية. قال حاجي خليفة في كشف الظنون: «علم يعرف به طريق الاحتيال في جلب المنافع وتحصيل الأموال، والذي يباشره يتزيا في كل بلدة بزني يناسب تلك البلدة، فتارة يختارون زني الفقهاء، وتارة يختارون زني الوعاظ إلى غير ذلك، إنهم يخسرون في خداع العوالم بأمور تعجز العقول عن ضبطها». أزهار الرياض: ١/ ص ١١٨ (الحاشية). وذكر النويري أن طريقة "ساسان" نسبة إلى ساسان بن أردشير، الذي لحق بإصطخر وترهد، وخرج عن حلية الملوك، واتخذ غنماً يرعاها، وكان يتولأها بنفسه، فاستنفع الناس ذلك من فعله، وقالوا: صار ساسان راعياً (نهاية الأرب: ١٦٣/٥).

(٢) الكُذْبَة: شدة الدهر.

(٣) زنبيرة: تصغير زنبورة، وأصله زنبيرة، وهي من الذباب اللساع.

(٤) السابغات والأبدان: الدروع.

وإن كان في الأنساب منا تباينُ
 ألا فادعُ لي في جُنج ليلك دعوةً
 لك الطائر الميمون في كل وجهة
 فكم من فقيرٍ بئسٍ قد عرفته
 وكم من رفيع الجاه واليئ أنسه
 فلو كنت للفتح بن خاقان صاحباً
 ولو كنت للصّابي صديقاً ملاطفاً
 ولو كنت من عبد الحميد مُقرباً
 ولو كنت قد أرسلتها دعوة على
 ولو كنت في أرض الغبيط مراسلاً
 ولو كنت في حرب الأمين لطاهر
 ولو كنت في مغزى أبي يوسفٍ لما
 فما تنكر الآداب أنا نسيان
 لتَنجَحَ آمالي ويرجح ميزاني
 سريت إليها غير نكس ولا واني^(١)
 فرقت عليه نعمة ذات أفنان
 فعاش قرير العين مرتفع الشان
 لما خانه المقدارُ في ليلة الخان^(٢)
 لما قُبِلت فيه مقالة بُهتان^(٣)
 لما هَزَمَ السفاحُ أشياغَ مروان^(٤)
 أبي مسلم ما حاز أرض خراسان
 لبسطام لم تهزم به آل شيبان^(٥)
 لما هان في يوم اللقاء ابن ماهان^(٦)
 رماه بَغْذِرِ عبْدُه في تلمسان^(٧)

(١) النكس: الضعيف الجبان، والواني: المقصّر.

(٢) يشير إلى مقتل الفتح بن خاقان في الفندق الذي نزل به بمدينة مراكش سنة ٥٣٩ هـ .

(٣) الصابي: هو أبو إسحق إبراهيم بن هلال كاتب ديوان الإنشاء في دولة بني بويه. ويشير الشاعر هنا إلى ما ناله من اضطهاد وإبعاد من عضد الدولة بن بويه لمقالة نقلت إليه عنه فأغضبه.

(٤) يشير إلى ما نال مروان بن محمد وكاتبه عبد الحميد بن يحيى من هزيمة على يد السفاح.

(٥) الغبيط: مكان قرب الكوفة كانت به وقعة بين بني تميم وشيبان، غلبت فيه تميم شيبان وفيه أسر عتيبة بن الحارث بن شهاب بسطام بن قيس ففدى نفسه بأربع مئة ناقة. مراسلاً: معاوناً، ومتابعاً.

(٦) يشير إلى الوقعة التي كانت بين طاهر بن الحسين قائد جيش المأمون وعلي بن عيسى بن ماهان قائد جيش الأمين وانتهت بانتصار طاهر وقتل ابن ماهان.

(٧) لعلّه يريد السلطان يوسف بن يعقوب المريني في غزوة تلمسان وإقامته على حصارها مئة شهر وقد قتله عبده {سعادة} في أثناء ذلك الحصار.

ولو أن كسرى يزدرجرد عرفته
ولو أن لذرريقاً وطنت بساطه
وفيما مضى في فاس أوضح شاهد
ولما اغتنى منك السعيد بكاتب
فلا تنسني من أهل ودك إنني
ولا خير أن تجعل كفاء قصيدي
فجُدد بدنانير ولا تكن التي
فجودك فينا الغيث في رمل عالج
وما زلت من قبل السؤال مقابلاً
ولا تنس أياماً تقضت كريمة
وتألفنا فيها لقبض إتاوة
لما طاح مقتولا على يد طحان^(١)
لما أثرت فيه مكيدة أليان^(٢)
غني لدينا عن بيان وتبيان
رأى ما ابتغى من عز ملك وسُلطان
أخاف الليالي أن تطول فتنساني
كفاء ابن درّاج على مدح خيران^(٣)
ألمّ بها الكندي في شعب بوان^(٤)
وفضلك فينا الخبز في دار عثمان^(٥)
مُرادي بإحساب وقصدي بإحسان^(٦)
بزاوية المحروق أو دار همدان^(٧)
وإغرام مسنون وقسمة حُلوان

(١) يشير إلى هرب يزدرجرد آخر ملوك الفرس من أعدائه، والتجائه إلى طاحونة لم يحسن الطحان ستره فيها حتى أدركه طالبوه وقتلوه.

(٢) يشير إلى تمكين أليان (أمير المغرب من قبل لذرريق ملك القوط بالأندلس) العرب من دخول الأندلس انتقاماً لشرفه من لذرريق.

(٣) هو خيران الصقلي أمير المرية، مدحه ابن دراج القسطل، ولعلّ خيران لم يحسن جائزة الشاعر كما يفهم من السياق هنا.

(٤) الكندي : هو أحمد بن الحسين المنبجي، ونسبه إلى محلة كنده بالكوفة. وشعب بوان: متنزّه بفارس يشير إلى بيت المنبجي:

وألقي الشرق منها في ثيابي دنانيراً تفرّ من البنان

(٥) عالج: موضع بالبادية يصل إلى الدهناء، والدهناء فيما بين اليمامة والبصرة يقول: نحن متعطشون إلى جودك كتعطش رمال عالج إلى الغيث محتاجون إلى فضلك، احتياج المحصورين في دار عثمان بن عفان إلى الطعام والشراب وقد حرموها.

(٦) بإحساب: أي بما يكفيني ويرضييني.

(٧) زاوية المحروق: متعبد بفاس: ودار همدان بفاس أيضاً.

وقد جلس الطَّرْقُون بالبعد مطرقاً
عَرِيفِي يلحاني إذا ما أتيته
وقد جمعت تلك الطريقة عندنا
إذا استنزلوا الأرواح باسم تبادرت
وإن بَخَرُوا عند الحلول تَأَرَّجَتْ
وإن فتحوا الدارات في رد آبق
فيحسب أن الأرض حيث ارتمت به
وقد عاشرتنا أسرة كيموية
فلله من أعيان قوم تآلفوا
ونحن على ما يغفر الله إنما
مع الصبْح نُضْفِيها عباءة صُفَّة
أذكر في سفح العقاب ميّتكم
لديكم من الألوان ما لم يَحْيَ به

يقول نصيبي أو أبسوح بكتبان^(١)
ولم أنصرف عنكم بواجب الحان
أئمة حُسَاب وأعلام كُهان^(٢)
طوائف ميمون وأشياع برقان^(٣)
مجامرهم عن زعفران ولُوبان^(٤)
ثنت عزمه أو هام خوف وخِذلان^(٥)
ركائبه سرعان رَجُل ورُكبان
أقامت لدينا في مكان وإمكان^(٦)
على عقد سِحْرِ أو على قلب أعيان
نروح ونغدو من رباط إلى حان^(٧)
وبالليل نُدْلِيها زنانير رُهبان^(٨)
ثمانين شخصاً من إناث وذكران^(٩)
طُهورُ ابن ذَنُون ولا عُرْسُ بُوران^(١٠)

(١) الطَّرْقُون (كلمة مغربية مؤلدة): من يده قبالة اللهو وقبض ضرائب الأعراس ونحوها، مما تستعمل فيه الدفوف وآلات الملاهي.

(٢) الحُسَاب: المشتغلون بحساب الطوائع للناس.

(٣) ميمون وبرقان: من أسماء ملوك الجن التي تدور على ألسنة المشعبدین.

(٤) لوبان: لفظة مغربية معرفة عن اللبان.

(٥) الدارات: حلقات يعقدها شيوخ المشعبدین ومريدوهم عند استطلاع أم خفي كإظهار مسروق، ونحو ذلك.

(٦) كيموية: يراد به النسب إلى الكيمياء.

(٧) في نفح الطيب: { إلى خان }.

(٨) عباءة صُفَّة: يريد بها زِيّ الفقراء النساك. والزنانير: جمع زنار، وهو ما يشد به الراهب وسطه. يريد به أنه يعمل في الليل ما لا يعمل في النهار.

(٩) العقاب: موضع بالأندلس، كانت فيها وقعة مشهورة.

(١٠) ابن ذَنُون: هو المأمون: أحد ملوك الطوائف في طليطلة، من بني ذي النون، وقد بلغوا في البلخ والترف إلى الغاية. بوران: هي بنت الحسن بن سهل، وقد زفت إلى الخليفة المأمون بن هارون الرشيد في إعراس مشهور مذكور في كتب التاريخ.

ثم ذكر خمسة أبيات أقذع فيها، فلذا تركتها، ثم قال^(١):

فأقسم بالآيمان لولا تعففي
فَعُدْ للذي كُنّا عليه فإنّ لي
فمن يومٍ إذ صَبَرْتُ وُدِّي جانباً
ولا روت الكتابُ بعدَ نِفارنا
وما هو قصدي منك إلا إجازةً
وإنك إن سَخَرْتَ لي وأجزتني
ولم لا ترويني وأنتَ أَجَلٌ من
ألا فأجزني يا إمامي بكل ما
ولا تنس للذِّبَاغِ نظماً عرفته
ومزدَوَّجات ينسبون نظامها
وَأَلِمْ بشيء من خرافات عنترِ
وإن كنت طالعت اليتيمةَ وإسني
أجزني بكشف الدكِّ أَرْضِي وسيلةً
وناولني المصباح فهو لغربتي

عن السوء لَانَحَلْتُ عقيدة إيماني
على الغير إن صاحبه حَقَقْدَ غَيْرَانِ
وأعرضت عني ما تناطح عَنَزَانِ
محاورَةً من ثعلبانٍ لِسرحان
تُحوِّلني التفضيلَ ما بين خُلَائي
لنعم وَلَيّاً صَان ودي وجازاني
سقاني من قبل الرحيق فروّاني
رويت لمدغليس أو لابن قُزَمان^(٢)
فإنكُما في ذلك النظم سَيَّان
إلى ابن شُجاعٍ في مديح ابن بَطَّان
والمع يبعض من حكايات سُوسان
بلامية في الفحش من نظم واساني^(٣)
وخير جليس في بساط ودكان^(٤)
مُيسرُ أغراضٍ ورائدُ سلواني^(٥)

(١) حذف المقرئ في أزهار الرياض ثلاثة أبيات لأن الشاعر أقذع فيها، ولكنه أوردتها في نفع الطيب: ٥ / ص ٤٤.

(٢) أبو بكر بن قزمان ومدغليس من أوائل الزجالين بالأندلس.

(٣) هو أبو القاسم الحسين بن الحسين بن محمد المعروف بالواساني، وقصيدته اللامية هجا بها أبا الفضل يوسف بن علي.

(٤) كشف الدك: أراد به كتاب (كشف الدك وإيضاح الشك) وهو كتاب مشهور في الحيل والشعوذة.

(٥) في الفهارس كتب كثيرة في علوم مختلفة كل منها اسمه (المصباح) ولا ندري أيها يريد ولعله في الروحانيات، كما يفهم

من السياق.

وَأَلْحَقْ بِهِ شَمْسَ الْمَعَارِفِ إِنْسِي
وَقَدْ كُنْتُ قَبْلَ الْيَوْمِ عَرَفْتَنِي بِهِ
وَلَأَبْدُ يَا أَسْتَاذَ مَنْ أَنَّهُ تُجِيزُنِي
وَكُتِبَ ابْنُ أَخَى كَيْفَ كَانَتْ فَلِإِنهَا
وَلَا تَنْسَ دِيوَانَ الصَّبَابَةِ^(١) وَالصِّفَا
وَزَهَرَ رِيَاضِي^(٢) فِي صَنُوفِ أَضْحَاكِ
كَذَاكَ فَنَاوَلْنِي كِتَابَ حُبَّاحِبٍ
وَلِي أَمَلٌ فِي أَنْ أَرَوِّيَ رِسَالَةَ
وَحَبَسَ عَلَيَّ الْكَاسَ وَالْكُوزَ وَالْعَصَا
وَصَيَّرَ لِي الدُّلْفَاسَ أَرْفَعَ لَيْسَةَ
وَقَدْ رَقَّ طَبْعِي وَاعْتَرَّتْنِي خَشْيَةٌ
وَحُلَّ مَفَاتِيحَ الطَّرِيقَةِ فِي يَدِي
فَلِمَ لَمْ أَحْدَمْكَ إِلَّا بِنَيْتَةٍ
فَكُنْ لِي بِالْأَسْرَارِ أَفْصَحَ مُغْلَنَ

أَسْأَلُ عَنْ إِسْنَادِهِ كُلِّ إِنْسَانٍ^(٣)
وَلَكِنِّي أَنْسَيْتُهُ بَعْدَ عِرْفَانٍ
يَبْدُو ابْنُ سَبْعِينَ وَفَصْلُ ابْنِ رِضْوَانٍ^(٤)
لَوْزَنْ رَقِيقَ الْقَوْلِ أَكْرَمُ مِيزَانٍ
لِإِخْوَانِ صِدْقٍ فِي الصِّفَا خَيْرُ إِخْوَانٍ
وَجَبَذَ كِسَاءً فِي مَكَائِدِ نِسْوَانٍ
وَزَدَنِي تَعْرِيفاً بِهَا وَبِرَجُلَانِ
مُضْمَنَةِ أَخْبَارِ حَيٍّ بَنٍ يَقْظَانِ
فَإِنَّكَ مُثَرِّمٌ مِنْ عَصِيٍّ وَكِيْزَانِ
فَقَدْ جَلَّ قَدْزِي عَنْ حَرِيرٍ وَكُتَانِ
يَكَادِيهَا رُوحِي يَفَارِقُ جُثْمَانِي
وَسُوءٌ لَهُمْ فِيهَا مَزِيدِي وَنَقْصَانِي
وَإِنِّي لَمْ أَتْبَعَكَ إِلَّا بِأَحْسَانِ
فَلِمَ لَمْ يَدْخُلْ قَدْ أَخْلَضْتُ سِرِّي وَإِعْلَانِي

(١) يريد كتاب شمس المعارف ولطائف العوارف وهو كتاب مشهور في التعاويذ ونحوها من الروحانيات.

(٢) يريد كتاب بدء المعارف لابن سبعين المرسي الأندلسي. وابن رضوان: هو عبد الله بن يوسف من رضوان من أهل ماهة.

(٣) يريد ديوان الصبابة لابن أبي حجلة أحمد بن يحيى التلمساني المتوفى سنة ٧٧٦هـ.

(٤) في الفهارس كتب كثيرة باسم. (زهر الرياض).

٢- مقامة في أمر البواء^(١)

إلى حمراء الملك وَقَلْعَتِهِ، وَمَقَرَّ العزِّ وَمَنَعَتِهِ، وَمَطْلَعَ كُلِّ قمرٍ نَضْرِيَّ يُحْجِلُ الأَقْمارَ
بطلعته، أَبْقاها الله على تَعاقُبِ الأزمان، مَنْزَلَ أمانٍ ودارِ إيمانٍ، وأَمْتَعها بِحياةِ المَلِكِ
الحَزْرَجِيِّ اليَمانِ، مِنْ مَوْجِبَةِ إِجْلالِها كَما يَجبُ، المَعترِفَةُ بِفَضْلِها وشَرفِها وأنوارِ الشَّمسِ
لَا تُحْتَجِبُ، والواقِفَةُ عِندَ إشارَتِها وطاعَتِها، فَإِنْ تَأَمَّرُ أُمْتُشَلْ وَإِنْ تَدْعُ أُسْتَجَبُ، مالِقَةُ،
المُسْتَمسِكَةُ بِذِمَّتِها الوَثيقَةِ، المُتَشَوِّفَةُ، إلى أَخْبارِها تشوفُ المَحَبَّةِ الشَّفِيقَةِ، إلى رِيحانَةِ قلبِها
في الحَقِيقَةِ، وإلى هَذا يَاسِيدَتِي وَيَا عُدَّتِي، وَيَا ذَخِيرَتِي وَيَا عُمدَتِي، أَمْتَعنا الله وإِيّاكَ بِحياةِ
مِنْ اسْتَنْقَذنا مِنَ الوَرَطاتِ، وَرَدَّنا إلى الصَّوابِ مِمّا كانَ مِنّا مِنَ الغَلطاتِ، مولانا الغالبِ
بِاللهِ وَحَدَّه، المُوَعودِ بِعَزيزِ النَصْرِ وقَريبِ الفَتْحِ واللهِ ميسِّرِ وَعَدِهِ.

سلام عليك يتعطر بذكر مولانا أمير المسلمين فَوْحُهُ، وينشق كالمسك الفَتِيتِ
روحَهُ، وَرَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُهُ.

أما بعد، فَإِنِّي أَحمَدُ إِلَيْكَ اللهُ الَّذِي إِذا اسْتُكْفِيَ بِعِزَّتِهِ كَفَى، وَإِذا اسْتُشْفِيَ بِكَلِمَتِهِ
شَفِيَ، وَإِذا سئِلَ بِواسِعِ رَحْمَتِهِ عفا، وَأُصَلِّيَ على رَسولِ مُحَمَّدٍ الكَرِيمِ المِصْطَفَى، وعلى آلِهِ
وأَصْحابِهِ، أَكْرَمَ مِنْ نَصَحَ لَهُ وَأَخْلَصَ وَوَفَّى. كَتَبْتُ إِلَيْكَ يَا سَيِّدَتِي عَنْ نَفْسٍ قَلَقَةٍ، سَاهِرَةٍ
أَرَقَةٍ، حاذِرَةٍ مَشْفِقَةٍ، مُلْهَبَةٍ بِلِ مَحْتَرِقَةٍ، وَإِنِّي أَقْسِمُ عَلَيْكَ بِالرَّبِّ الَّذِي كَرَّمَكَ بِالْعِزِّ
وَشَرَّفَكَ، وَعَرَّفَكَ مِنْ لَطائِفِ الفَرَجِ بَعْدَ الشَّدَةِ ما عَرَّفَكَ، أَنْ تَسْعِدَني على تَسْكِينِ
لَوْعَتِي، وَتَأْمِينَ رَوْعَتِي، وَتَرَأْجُعَ رِقادِي بَعْدَ سُهادِي، وَقَضَاءَ حَاجَةٍ جَلَّتْ في فِؤادِي،
وَتَفْهَمِي مَرادَ إِشارَتِي، وإِشادةِ مَرادِي، وَتَرْكِ هَوَى النَفْسِ الَّذِي هُوَ لِلْحَقِّ مُعاندٌ
وَلِلرَّشَدِ مُعادي.

(١) ورد نصّ المقامة في أزهار الرياض : ١/ ص ١٢٥-١٣٢، ونفع الطيب: ٥/ ص ٤٠-٤٦.

ومبنى هذه الرسالة إليك على قوْلهم: «الشفيق مولع بسوء الظن» ومن مَن الله على عبده الوقاية من المتالف جل الله العظيم المن، وعلى قول المتنبي:

ربما ضر عاشق معشوقاً ومن البر ما يكون عقوقاً

والمثل الأول لي، والآخر لك، والله يُيسر في حفظ مولانا أملي وأملك. وإني أتعجب من مساعدتك على إقامة مولانا بمنزل، هذا المرض به فاش، وهذا الهواء الفاسد بين دياره جاءٍ وماشٍ، وسمعتُ أن حديث السفر لما لقة أثقل عليك من حديث رقيب وعاذل وواش، وأن الآراء في ذلك اختلفت، ولم يُرجع فيها إلى سُنين تقدمت وعوائد سلفت، والأوائل، من المؤمنين رحمهم الله ما تركوا شيئاً سُدى، بل نصبوا على كل طريق إلى النجاة علم هُدى، وسمعت ياسيدي أن القضية عُول فيها على المقام والاستسلام، وخولف فيها رأي الخليفة الرشيد لما تحول في مثلها عن سكنى دار السلام بمحضر أركان الدين وأعلام الإسلام، وقد سمعتُ في الأجوبة الظريفة، ما صدر من قوله: أخشى أن أكون أول خليفة، وقد كنتُ يا سيدتي أرتجي أن يكون لهذا المرض ارتفاع، أو يحصل بدخول فصل البرد انتفاع، فتركت الكتب منتظرة لذلك، إلى أن تزايدت الحال وأنت على حالك، لا يمر الترحال بخاطرك ولا ببالك، وأنا أقول: أمّا واجب التسليم، لتقدير العزيز العليم، فمتأكد شرعاً، لا يضيق به المؤمن ذرعاً، لكن ما يفعل المستسلم بالروح والجسد، إذا قيل له اهرب من الأسد، وقد أبصره مقبلاً إليه، أو مُنْقَضاً عليه، يأخذ في تحفظه واحتراسه، أم يصبر لافتراسه؟ ومن قيل له في ظلم الليل: ارتفع عن هذا المكان تنج من السيل، أينام في مكانه، أم يبادر إلى السلامة بجهد إمكانه؟ ومن نودي: هذه الخيل قد طلعت مغيرة، والرعاة بالجبال مستجيرة، فارفع غنمك قبل الاكتساح، فالوقت في انفساح، أيتركها تسرح، ولا يبرح، أم يرفعها لتسلم، ممّا تدرب وتعلم؟ وكذلك إذا قامت الرماة صفوفاً، وأصابت سهامهم من الخلق ألوفاً، أيرجّح

الحقُّ تباعدا أم وقوفاً؟ وكذلك أيضاً المنازل، التي تدوم بها الزلازل، فأرضها في كل يوم تميد، ودَهَش القلوب بها حاضر عتيد، والخسف بها في يوم ينقص وفي يوم يزيد، لا تسمع فيها إلا سقوط جدار، على ركن دار، وانفكاك الأركان، على السكان، وإخراج ميت، من تحت بيت، وسقوط سارية على جارية، أُعْزَم على السكنى والاستيطان، تحت هذه الحيطان، أم يؤخذ في الاحتيال، بالخروج بالأطفال والعيال؟ يا سيّدي الحمراء، سألتك فأخبريني، وإن تحيرَ فهمي فاعذريني، ووصل إليّ الكتاب الشريف، من جنان العريف^(١)، يذكر أن السلامة كانت به مستصحبة لمولانا ولناسه، وأن العافية كانت بهم منتشقة مع أنفاس رنده وآسه، ما عرضتْ به على طبيب حاجة، ولا استدعى فيه المُعَاوِر للنظر في زجاجة، ولا لقول ولا لعمل، ولا بلغ من الجساوة والقساوة أقل أمل، ولم ينتقص من السّاكنين بهذا البستان، من عبيد مولانا السلطان غير فتى من الخُصيان، لايساوي عشرة دراهم في سوق الفتيان، والجميع بحمد الله استمرت عافيتهم على استقامه، بطول أيام الإقامة، وعرفني أيضاً جنان العريف في وافد كتابه، ووراد خطابه، أن رغبته كانت في انتقال مولانا نصره الله من صحيح هوائه، وسلسبيل مائه، ونفحة جناه، وتلاعب النسيم العاطر بين قبابه، إلى مالقة حيث الجو الصقيل، والرّوض الذي يطيب به المقيّل، والراحة التي تتمزج بالأرواح كما قيل، حيث العرف الأرج، والوادي المنعرج، والساحل الذي ينشرح به الصدر الحرج، حيث البنفسج يدير كئوس البهار، والياسمين نجوم طالعة بالنهار، حيث يتماوج طيب الزّهر، بعرف الأُترج ونفحات السّحر، حيث يشبه أنين السواني، حنين المتعشقات من الغواني، إذا مُجِدَّ الصّباح، وانفلق الإصباح، وعمرت صغار القوارب، ونادت بَحْرية الشباك: إلى المضارب^(٢)، وسالت

(١) بستان في خارج غرناطة، ذكره لسان الدين في الإحاطة ١/ ص ٢٥ (أزهار الرياض: ١/ ص ١٢٨ حاشية ١).

(٢) المضارب: الخيام التي تضرب على ساحل البحر، ليباع فيها ما يصاد من السمك.

أنوار المشارق على جوانب المغارب، ونادى محرك الجيش: ظهور الخيل، وصباح الخير، واستقبلوا الوادي الكبير لمصيد الأرنب والحوت والطير، شكر الله جنان العريف على ما قصد ونوى، وعلى ما أظهر من اتباع حق ومخالفة هوى، اعتماداً من أخبار الدول القديمة على ما حفظ وروى، وقال لي ياسيدي إنك وقفت مع الحديث المنصوص^(١)، الوارد في مثال هذا المرض على الخصوص، وفيه النهي عن الخروج من منازل هذا المرض ومواضعه، وعن القدوم على معتركاته ومصارعه، والحديث صحيح، والرشد فيه قول صريح، ولكن للعلماء فيه أقوال طويلة التفصيل، وقد لخصها وبينها الإمام ابن رشد في كتابه الجامع من البيان والتحصيل^(٢)، والاتفاق من الجميع أن النهي في هذا الحديث ليس بنهي تحريم، وإنما هو على سبيل إرشاد وأدب وتعليم، فلا إثم ولا حرج، على من أقام ولا على من خرج، وقال عمرو بن العاص: الأفضل الخروج لأهل الفطنة، اتقاء من اعتقاد يؤدي إلى فتنة، وكفى بعمرو بن العاص حجة لمن أراد انتصاراً، والكلام كثير، ولكني اختصرته نظراً وإنَّ اختصاراً، قدّمه كثير من الصحابة ورجّحه، لخليق بأن يقال فيه ما أسعده وما أنجحه! ياليت تفقهني كله يكون من هذا القبيل وجارياً على هذا السبيل، مستنداً إلى قول صحابي جليل، ومستنداً بأرشد علم ودليل، ولو كان على خلاف المشهور من قول خليل^(٣)، وهنا يقال: ما في هذه القلة غير هذا الإغريل^(٤). ياسيدي الحمراء، أراك في هذه القضية تفقّهت وتوقفت فيما بينه عالم وذو علم، ومنعت مما ليس فيه حرج ولا إثم، ولو كنت حاضرة لكان لي معك حديث طويل، واحتجاج

(١) ورد الحديث المشار إليه في صحيح مسلم، ونصّه: «الطاعون رجز أرسل على من كان قبلكم، فإذا سمعتم به بأرض فلا

تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها، فلا تخرجوا فراراً منه».

(٢) اسم الكتاب جامع البيان والتحصيل لما في المستخرجة من التوجيه والتعليل.

(٣) هو خليل بن إسحق المالكي، صاحب المختصر في فقه المالكية.

(٤) العبارة قد يكون فيها تحريف.

ينصره نص وتأويل. وسمعتُ أنك أشفقتَ من عظيم النفقة، وليس هذا موضع الشفقة، فالأمن ليس بغال، ولو يُشترى بكل ذخيرة وكل مال، والأولى بالملامة، مَنْ يفضّل شيئاً على السلامة. القمح يأكله السوس، والذهب تغني عنه الفلوس، فكيف يُستعظمان فيما تؤمّن به النفوس. وبلغني أنك قلت: مألقة ليس بها زرع، وبقليل المقام يضيق لها صدر وذرع، وفلاحتها وحرثها ليس لها أصل ولا فرع، وعزّ عليّ هذا الكلام، ولكنني سلمتُ والسّلام، فإن سعري عن سعر غرناطة منحط، وفي لمحة بصر يضيق مني بالطعام في كثير من الأيام ساحل وشطّ، ولا يُعلم أنه دامت لي شدة قطّ. لي في الاعتصام بالتوكل على الله ما يزيد على السبع مئة عام، ما أشغلت فيها فكراً ولا قلباً بادخار قوت ولا باحتكار طعام، أثق في اليوم والغد، بالرزق الرّغد، تأتي به الرياح على الأعناق، ويفيض سيله على جوانب الدواوين وأكناف الأسواق، وتجلبه الأحابيب والأعداء بإذن اللطيف الخبير الوهّاب الرزاق. قالت النملة: افتخاري بادخاري، قالت العصفورة: توسّلي، بتوكلي، قالت النملة: أعتمد على الحبّ، قالت العصفورة: أتوكل على الرّب، فلما جنّ الليل، أقبل السيل، فخرجت النملة بالعموم، وبقيت الحبوب بين الدّوم، فنزلت العصفورة وسجدت، والتقّطت من مدّخر النملة كل ما وجدت، وقالت: خسر المحتكر، وربح طالب الرزق المُبتكر، الكريم لا يفتخر بما يدّخر.

وصحّ عندي أن الوزير أعزّه الله ليس عنده في هذا كله كلام ولا قول، وأن الأمر عنده مفوّض على الرب الذي له القوة والحول. وسمعتُ ياسيدي أن هذا السقم، أعظم تأثيره إنّما هو قطع الأكباد، من صغار الأولاد، الذين من فوق السبع ودون العشر، وهم في هذه السنين رياحين القلوب العاطرة النشر، وهذا إلى كتّبي لك أعظم داع، فإن الأولاد سوائهم، والوالد راع، والراعي لا يترك غنمه في طريق سبُع ضار، ولا قريباً من حريق نار، ونحن نشاهد الطير ينقل أفراخه من وكر إلى وكر، ويسترها بملتف الشجر

إذا خاف عليها عادية جارح أو صاحب مكر، فكيف لا نقندي في تأمين روعتنا بمن تقدّم من الأكابر، ونفق في حامل السيل^(١) بأولادنا الأصاغر، فما عندك في هذا كله من القول ومن الجواب؟ وما يظهر لك من وجه الرأي والصواب؟ اكتبني بذلك كتاباً أعتمد عليه، وأستند إليه، وقبلي عني يد مولانا تقبيلاً، ويا ليتني وجدت إلى ذلك سبيلاً، وأخبريه أني في خدمته على نيتي الأولى، عاكفة على شكر منته الطولي، أدام الله حيطة البلاد والنفوس بحفظة وحياطته، وأسمعي البشارة بقدومه على محدث مألقة من حمراء غرناطته، ويحفظه في النفس والأولاد، والملك والبلاد، بمنه وفضله.

تعقيب على مقامي الفقيه عمر الزجال

صاحب هاتين المقامتين هو الفقيه عمر الزجال، الذي وصفه المقرئ بأنه «أشهر من نار على علم، وأزجاله ومنظوماته ومقاماته عند العامة محفوظة، وعند الخاصة مرفوضة، إلا القليل الذي يُسمَح في مثله لصاحب القلم، كمقامته التي سماها «تسريح النصال إلى مقاتل الفضال»^(٢).

ولعل السبب في رفض الخاصة لمقامات الزجال هو غلبة الهزل عليها، ويبرّر المقرئ نزع الزجال إلى الهزل بأن ذلك مما يقع لكثير من الأئمة على سبيل الإحماض^(٣)، ولم تكن للزجال غاية سوى إظهار البلاغة والاقتدار^(٤).

(١) حامل السيل: السيل الجارف.

(٢) أزهار الرياض ١/ ص ١١٦.

(٣) المصدر نفسه: ١/ ص ١٢٥ الإحماض: الانتقال من حال إلى حال، مأخوذ من إحماض الإبل والمواشي، وهو نقلها من رعي الخلة إذا شتمتها إلى رعي الحمض، والحمض: ما ملح وأمر من النبات، وهو للهاشية كالفاكهة للإنسان.

(٤) أزهار الرياض: ١/ ص ١٢٥.

والمقامة الأولى مقامة شعرية في ثلاثة وثمانين بيتاً، وطأها بتوطئة نثرية وسماها «تسريح النّصال إلى مقابل الفصّال». وهذه المقامة تُعدّ آخر حكاية من حكايات الكدية بالأندلس من حيث تاريخ التأليف، فقد كتبها صاحبها سنة ٨٤٤هـ وحفظها المقرّي في كتابيه «أزهار الرياض» و«نفح الطيب». والمؤلف لا ينتمي إلى صنف المكّدين ولا إلى الزّجالين كما يوحي بذلك اسمه، بل كان قاضياً ومع ذلك فهو ينتسب في مقاماته إلى هؤلاء وهؤلاء.

والفقيه عمر لا يهدف من وراء مقامته إلى نيل العطايا للتخلص من الفقر، فقد «كانت المقامة بالنسبة له تمريناً أدبياً مجانياً»^(١). وربما من أجل ذلك فقد أنكرت النخبة المثقفة هذا النوع الأدبي في عصره، وأعجبت به العامة حسب عبارة المقرّي، الذي يذكر أن مؤلفات الفقيه عمر كانت في جملتها هزلية.

أمّا مقامته الثانية «في أمر الوباء» فقد أثبتتها المقرّي -كما يقول- لغرابة منزعها، وإن كان بعض فصولها لا يجري على المشهور، وعدّها من أبدع ما صدر عنه من مذاهب العلماء^(٢). والمقامة كلّها احتجاج على إبقاء السلطان في مكان قد فشا فيه الوباء، وتزيّن له الرحلة إلى مالقة، المدينة التي ينتسب إليها الفقيه عمر.

وتتشابه هاتان المقامتان في طرافة موضوعيهما، وإن كانت أولاهما تعتمد على جانب الهزل، الذي عُرف به الفقيه عمر.

(١) محمود طرشونة: فن المقامة في الأندلس، حوليات الجامعة التونسية، عدد ٢٨، ص ١٦٢.

(٢) أزهار الرياض: ١/ ص ١٢٥.

الفصل الثالث

المقامات الأندلسية

(الدراسة الفنية)

أولاً: الموضوعات والمضامين

ثانياً: الخصائص الفنية

أولاً: موضوعات المقامات الأندلسية وأغراضها

من التأمل في النماذج والنصوص المتوافرة لدينا من المقامات الأندلسية يتبين لنا أنها تناولت أغراضاً مختلفة، ودارت حول محاور متعددة. وأبرز الموضوعات التي تناولتها مقامات الأندلسيين:

المقامات النقدية:

عرضت بعض المقامات الأندلسية لجانب من أبجديات النقد الأدبي، أو المفاضلة بين الشعراء. ومن ذلك مقامة أبي المطرف عبد الرحمن بن فتوح^(١)، التي قامت أساساً على موضوع النقد الأدبي، فقد عرض صاحبها لنقد أربعة من شعراء عصره الأندلسيين، وحاول أن يميز كل أديب منهم عن سواه بصفة غالبية عليه.

والنقد في هذه المقامة يقوم على التعلق بالألفاظ والنواحي البيانية والبديعية، وغيرها مما يتعلق بالأسلوب. «قال الفتى: من أعذبهم لفظاً، وأرجحهم وزناً؟ قلت: الرقيق حاشية الظرف، الأنيق ديباجة اللطف، أبو حفص بن برد، قال: فمن أقواهم استعارات، وأصحهم تشبيهات؟ قلت البحر العجاج، والسراج الوهاج؟ أبو عامر بن شهيد. قال: فمن أذكروهم للأشعار، وأنظمهم للأخبار؟ قلت، الحلو الظريف، البارع اللطيف، أبو الوليد بن زيدون. قال: فمن أكلفهم بالبديع؟ وأشغفهم بالتقسيم والتبعية؟ قلت: الراعي في روضة الحسب، المستطيل بمرجة الأدب... أبو بكر يحيى بن إبراهيم الطنبلي».

(١) انظر ترجمة ابن فتوح في الفصل الأول من دراستنا هذه، وانظر نصّ مقامته ص ٦٥ من هذه الدراسة.

وقد سَمَّى أحد الدارسين مقامة ابن فتوح باسم «المقامة الأدبية»^(١)، لأنها تدور كلّها على الشعر والسؤال عن الأدباء، والخصائص التي تميّزوا بها عن غيرهم. ومن المقامات التي عرض فيها صاحبها لشيء من النقد، أو الرأي الأدبي، مقامة عمر بن الشهيد، التي أورد ابن بسّام فصلاً منها.

بدأ ابن الشهيد مقامته بنبذة عن صنعة الكتابة وأصولها، ووصف حالها في عصره، وقد فقدت رونقها وبهاءها، وعن ذلك يقول: «إنّ صنعة الكتابة محنة من المحن، ومهنة من المهن، والسعيد من خدمت دولة إقباله، والشقي من كانت رأس ماله، والعاقل من إذا أخرجها من مثالبه، لم يدخلها في مناقبه، ولا سيّما وقد تناولها يد كثير من السُّوق، وباعوها بيع الخلق، فسلبوها تاج بهائها ورداء كبريائها، وصيّروها صناعة يكاد الكريم لا يعيرها لحظة، ولا يفرغ في قلبها لفظه...»^(٢). وهو هنا يتحدث عن الكتابة الديوانية وحال صاحبها، وكيف أن تقلّب الأيام جعل كثيراً من السوق والضعاف يتبوأون هذا المنصب، فزال عن الصنعة رونقها، وفقد أصحابها احترامهم.

وعرض في فقرة أخرى إلى ما تتطلبه صناعة الكتابة إذا ما أريد إحكامها، ووصف ما يعانیه الكاتب، وما يجده من تعب وعناء في مهنته، فيشبهه بالجوهرى مرّة، وبالصائغ مرّة أخرى، وبالعُقاب مرّة ثالثة، فيقول: «والبليغ كالجوهرى واجد التعب، في نظم الدر أو المخشَلَب، وكالصائغ واجد العناء في سبك الصُّفَر أو الفضة البيضاء، وكالعُقاب واجد الانهواء على الصقر أو المكاء. والعاقل من برز يوم السرور في زيّ الأعياد، ويوم الحزن في ثياب الحداد»^(٣).

(١) د. علي بن محمد: النشر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس: ص ٥٧٨.

(٢) انظر دراستنا هذه ص ٧٥.

(٣) انظر دراستنا هذه ص ٧٥.

ولأبي الطاهر السرقسطي مقامتان نقديتان، عرض في الأولى لبعض الشعراء، منذ جاهليتهم إلى عصره، وعلّق على تاريخهم أو شعرهم بملاحظات سريعة، فقد بدأ الحديث بامرئ القيس «فقلت: ما رأيك بالملك الضليل؟ قال: ذو التّاج والإكليل... حسبك من حامل لواء، وقائد أقيال وأذواء، وقائل غير محتاج، وفتاح رتق من القول ورتاج. وقد قيل: بدئ الشعر بكندة وختم بكندة، وكلّ يقول ما عنده».^(١) ومعروف تلقيب امرئ القيس بالملك الضليل، وقوله حسبك من حامل لواء إشارة إلى الحديث المنسوب إلى الرسول ﷺ عن امرئ القيس بأنه «قائد الشعراء في النار» أو «معه لواء الشعراء إلى النار». وقوله: «فتاح رتق من القول ورتاج» مسبوق إلى معناه، قال ابن قتيبة: «وقد سبق امرؤ القيس إلى أشياء ابتدعها، واستحسنها العرب، واتبعته عليها الشعراء من استيقافه صحبه في الديار، ورقة النسيب، وقرب المأخذ».^(٢)

وعلى هذا النحو يمضي السرقسطي في بيان آرائه في كثرة غامرة من الشعراء المشاركة. ويرى د. محمد رضوان الداية أنّ السرقسطي مسبوق إلى المقامة النقدية، وأنّ الجديد في الأحكام النقدية، التي ساقها نزر يسير؛ لأنّ الكثير مما جاء به مما ثبت في كتب الأدب العامة، واحتوته كتب التراجم والمختارات، وتُنوّل في أخبار الشعراء وشروح دواوينهم^(٣). وبرغم ذلك فقد كانت هذه المقامة أطول مقامة عند السرقسطي^(٤)، وهي تدل على سعة اطلاعه، ومتابعته لحركة الشعر في المشرق، ومعرفته بحركة النقد المواكبة لها، ومن المؤسف أنه لم يجر للأندلسيين في مقامته ذكراً، فلم يعرض لأي شاعر أندلسي.

(١) انظر المقامات اللزومية: ص ٣٥٦ - ٣٥٧

(٢) الشعر والشعراء: ص ٧٠ - ٧١.

(٣) النقد الأدبي في الأندلس: ص ٣٥٨.

(٤) المقامات اللزومية: ص ٣٥٣ - ٣٨٣

والمقامة النقدية الأخرى للسرقي، هي المقامة الخمسون في النظم والنثر^(١)، التي ختم بها مقاماته اللزومية. وتعرض هذه المقامة لقضية أخذت باب الجدل والخلاف في كتب النقد، وهي أفضلية الشعر أو النثر^(٢)، أيها أسبق؟ وأيها أفضل؟.

لقد نسّق السرقي محاوره طويلة بين أنصار الشعر وأنصار النثر، وجعل كل فريق منهما يُدلي بدلوه، ويتنصر لما يوافق هواه وميله، فالذين يفضلون الشعر يعلّلون له بأنه أصعب مرتقى من النثر، وأقرب إلى الحفظ، وبه يظهر جمال الكلام من لفظ ومعنى^(٣)، أمّا القائلون بتفضيل النثر فإنهم يحتجّون له بيسر مسلكه المطلق من القوافي، وببلاغة ألفاظه التي تزيّن بها المواثيق والعهود والأخبار، وبآثره الذي تسكن له القلوب وتستعطف وبأنه معيار البلاغة والفصاحة، ومسبار الركائز والرجاحة^(٤).

وحاول السرقي - في مقامته - التقريب بين وجهة نظر الفريقين، فدفع عن الشعر ما يدار حوله من الكذب، وتصريفه في الأغراض المردولة، فقال: «وإن شابهه كذبا ومينا، فقد أغضوا عليه عينا، وإنما حمده أوفر من ذمّه، وشهده أكثر من سمّه...»^(٥). ودافع عن النثر بأن افتقاره النظم والوزن لا يضره، ما دام رائقاً في لفظه وتعبيره، فقال: «هو الدرّ منظوماً أو مثوراً، والحكمة متروكاً أو مأثوراً، وما يضرّ الدرّ إن لم تنظمه النواظم، وقد فضّله الأكابر والأعظم...»^(٦).

(١) انظر نصّ المقامة في المقامات اللزومية: ص ٥٤٧ - ٥٦٥.

(٢) لمزيد من التفصيل حول موضوع المفاضلة بين الشعر والنثر في التراث النقدي الأندلسي انظر كتاباً لصاحب هذه الدراسة بعنوان: النقد الأدبي في الأندلس (عصر المرابطين والموحدين: ص ٥٠ - ٥٨) وانظر أيضاً بحثاً محكّماً له في هذا الموضوع نشرته مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية، العدد ٣٧، المجلد ١٨، حزيران ٢٠٠٦.

(٣) المقامات اللزومية: ص ٥٤٨.

(٤) المصدر نفسه: ص ٥٥٤.

(٥) المصدر نفسه: ص ٥٥٧.

(٦) المصدر نفسه: ص ٥٥٨.

ويتهيء السَّرْقَسْطِي في مقامته إلى ضرورة تجنّب المفاضلة بين الشعر والنثر على سبيل العموم، ما دام كلّ منهما فن قوليّ، له وظيفة وغاية، وتجري عليه معايير القبح والجمال، فلكلّ منهما فضله في مجاله. ويخاطب أنصار الفنّين بقوله: «فلا تفضّلا قائلاً على قائل، إلّا بفضل فاضل وطّول طائل، والإحسان ضروب، والشمس طلوع وغروب،..... وخذا في كلّ الأحوال بالأعْدَل الأَقْسَط، وميلاً إلى السّهْل والأبسط، ولا تعدّلا عن السواء الأوسط»^(١).

ودعوة السَّرْقَسْطِي إلى الأخذ بالسهل والأبسط دعوة غريبة، وهو الذي ملأ مقاماته تعقيداً وإغراباً، قصد إليه قصداً، كما أنه التزم - في مقاماته - ما لا يلزم وقد يكون التزامه السجع في مقاماته، هو الذي ألجأه إلى استخدام عبارة «وميلاً إلى السهل والأبسط»، ولعله لم يكن يقصدها حقيقة.

ويرى أحد الباحثين أن السَّرْقَسْطِي قد أظهر - في مقامته هذه - الهاجس الذي كان يلاحقه طيلة كتابة هذه المقامة، وهو دفاعه عن فن المقامات، الذي يجمع بين فني الشعر والنثر، هذين الفنّين اللذين استمر النقد العربي يحول في المفاضلة بينهما، ومن جمع بينهما فهو المبرّز^(٢). وقد دلّل السَّرْقَسْطِي على أنه جمع في مقاماته بين فني الشعر والنثر والشعر بكفاءة واقتدار.

(١) المقامات للزوميّة: ص ٥٥٨.

(٢) د. محمد سعيد محمد: دراسات في الأدب الأندلسي، منشورات جامعة سبها (ليبيا)، ط ١، ٢٠٠٢، ص ٣١٧.

المقامات السياسية:

وهذا النوع من المقامات ظهر بالأندلس، ولم يكن له مثيل عند البديع والحريري. ويُعدّ لسان الدين بن الخطيب حامل لواء هذا النوع من المقامات، كما أنّ مقامته في السياسة أوّل أثر مقاميّ في السياسة بهذا الاسم الصريح. وقد رسم في تلك المقامة سياسة واضحة لكل شريحة من شرائح المجتمع مبتدئاً بالملك، فالوزير، فالجند، فالعمال، ثم الولد، والخدم...^(١).

ورسم ابن الخطيب لمنصب الوزير ومهام الوزارة سياسة أودعها في مقامتين: الأولى بعنوان «الإشارة إلى أدب الوزارة في السياسة»^(٢). والثانية «بيان قدر رتبة الوزارة»^(٣)، وقد اشتملتا على كل ما يتعلق بهذا المنصب من مسؤوليات وواجبات. ويستهل ابن الخطيب مقامته بالدعاء، وطلب العون من الله عز وجل، أن يأخذ برتبة الوزير..... ثم يقول لمن يحاوره: «وإني لما رأيت برّك ديناً يجب عليّ قضاؤه، ولا يحمل بي إلقاؤه، تخيّرت لك من الهدايا ما يملأ اليد، ويصاحب الأمد، وينجب العقب والولد، فلم أجد أجدى من حديث الحكمة، التي من أوتيتها، فقد أوتي خيراً كثيراً، ومن أملّ لرتبتها السامية، فقد أحلّ محلاً كبيراً، والوصاة التي تنفعك من حيث كنت وزيراً...»^(٤). وقد أولى ابن الخطيب رتبة الوزارة اهتماماً كبيراً، وتحدّث عنها حديث مجرّب، فقد كان وزيراً للأمير أبي الحجاج يوسف بن نصر أمير غرناطة.

وبعد أن أنهى وصاياه للوزير في المقامة الأولى، انتقل إلى المقامة الثانية ليبين قدر هذه الرتبة، فقال: «إذا فسد الملك وصلح الوزير، ربما نفعت السياسة، واستقام

[١] انظر نص المقامة وتحليلها ص ١٩٤-٢٠٨ من دراستنا هذه.

[٢] انظر نصّ المقامة ص ٢١٢-٢١٦ من دراستنا هذه.

[٣] انظر نصّ المقامة ص ٢١٧-٢٣١ من دراستنا هذه.

[٤] انظر ص ٢١٢ من دراستنا هذه.

التدبير،... وموقعه من الملك موقع اليدين من الجسد، اللتين في القبض والبسط عليهما يُعتمد، وقالوا: الملك طيب، والرعية مرضى، والوزير تعرض عليه شكاياتهم عَرَضاً، والنجاح مرتبط بسداد عقله، وصحة نقله، فإن اختل السفير بطل التدبير^(١).

ولا تخلو مقامات السُّرْقَسطي مما يمتّ إلى إدارة الحكم وسياسة القضاة، فهو يبرز شخصية القاضي، ويجعلها محور بعض مقاماته، ومن هذه المقامات المقامة الثالثة عشرة^(٢)، التي رسم فيها صورة للقاضي العالم بفنون البلاغة، وألوان البديع والبيان، وكان مضمونها يجري حول اتهام السائب بن تمام بشيء من المال والأثاث الذي تعود ملكيته للشيخ أبي حبيب، فيمثل الجميع أمام القاضي، ويتحدث الشيخ أبو حبيب بنظمه ونثره البديع الذي استمال به القاضي، فمن ذلك قوله^(٣):

يا حاكماً تـشتاقـةُ عـُـمـانُ
والتربـة الميثاءُ والـصـمـانُ
أنت التقـي زانـه الإيـمـانُ
كـما يـزِينُ نـظـمـه الجـمـانُ
هـل لي عـلى دهرٍ عـدا ضـمـانُ
أم دون ذاك الحـمـدُ والحـرمـانُ

(١) انظر ص ٢١٧ من دراستنا هذه.

(٢) انظر المقامات اللزومية ص ١٧٠ - ١٨٤.

(٣) المصدر نفسه : ص ١٧٤.

وبعد أن ينتهي من نظمه يأتي بحجته نثراً فيقول: «أيها الحَكَمُ العَدْلُ، والمحَكَمُ الجَدْلُ، وأخا الرأي الفاصل، والحُسام القاصل، والله ما أنا بالظَلْمُوم، ولا بالمَلِيم ولا المَلُوم، لكل باطن وظاهر، وَدَسَّس من الأمر وطاهر...»^(١).

وفي المقامة السادسة والثلاثين نجد صورة للقاضي العادل، الذي يستمع لأقوال الطرفين، ويحكم للمتّهم، وهو «السائب بن تمام»^(٢).

وفي المقامة السابعة والعشرين، وهي «مقامة القاضي»، يرسم السّرْقسطي صورة للقضاة المرتشين، ومساعدتهم، وينقد القضاة نقداً حاداً، ويستخدم ألفاظاً تنبؤ عن الذوق، والأخلاق الفاضلة، يقول على لسان القاضي: «... وأما ثمرة الدّنان، فلثمرة الجنان، وأما إتاوة الخصوم والأعوان، فلا إخصاب المجلس والخوان. وما كان من رشوة، فلراحة ونشوة، وأما اللهو والمجون فحديثها شجون، وأما فدية الحدود، فميراث الأبناء عن الحدود.... ويوم الأربعاء، فقد أخلَصْتُه للدعاء، وربما ختمتُ آخره بالسّماع، والمباشرة والجماع، وَحَنَنْتُ إلى البَمِّ والزّير، وبقيتُ أيّ حِلْمٍ وزير، أصغي إلى خريير الماء، وأستغفر الله عَمَّا أبحثُ من الفروج والدماء...»^(٣).

ولا ندري لماذا وجه السّرْقسطي نقده الحاد إلى القضاة؟ هل لأنه كان يرى أن فسادهم يشكل خطراً كبيراً على المجتمع، لأنهم يُعوّل عليهم في إرشاد الأمة ونصح الناس، وينبغي أن يكونوا القدوة في مسلكهم؟ أم أنه كان يحسدّهم على مكانتهم؟ فالقضاة والفقهاء كانوا أعلى مرتبة من الأدباء في عهد المرابطين.

(١) المقامات اللزومية: ص ١٧٦.

(٢) المصدر نفسه: ص ٤٣٢ - ٤٣٩.

(٣) المصدر نفسه: ص ٣٢١ - ٣٣٢.

المقامات الاجتماعية:

صوّرت المقامات الأندلسية جوانب مختلفة من المجتمع الأندلسي وطبقاته، وعالجت الأحداث الاجتماعية المختلفة، والعلاقات بين الأفراد، كما أنها انتقدت العيوب الاجتماعية، التي تفشّت في المجتمعات الإسلامية في المشرق والمغرب على السواء.

ونبدأ أولاً بالمقامات التي استوحت الحريري في مقاماته السّاسانية القائمة على الكدية والحيلة في جمع المال، وأوّل ما يلقانا من ذلك مقامات السّرقسطي، الذي قلّد مقامات الحريري بعدد مماثل، وزاد عليه فيها التزام ما لا يلزم في سجعها ونثرها.

تقوم العقدة في أكثر مقامات السّرقسطي على تحقّي بطلها، وعلى مهارته في الوعظ، فقد بنى أكثر مقاماته على فكرة الوعظ، التي يتخذها البطل وسيلة لخداع الناس، ونيل عطاياهم، ومن مقامات الكدية عند السّرقسطي على سبيل المثال لا الحصر، المقامة النجومية^(١)، والمقامة الحمايية^(٢).

ولابن أبي الخصال مقامة ساسانية^(٣)، عارض بها الحريري في مقاماته القائمة على الكدية والاحتيال، وهي تقوم على الكدية والاحتيال على طريقة أبي زيد السّروجي في مقامات الحريري.

وذهب أحد الباحثين إلى أن غرض الكدية كان نادراً بل معدوماً في المقامات الأندلسية في عصر الطوائف والمرابطين، وأن خلو المقامة من الكدية ظاهرة إيجابية في المجتمع الأندلسي، تدل على رفضه للاستجداء والتذلل^(٤). ويبدو أنه لم يطلع على قدر

(١) انظر المقامات للزومية: ص ٣٠٦ - ٣٢٠

(٢) انظر المصدر نفسه: ص ٤٧٢ - ٤٨٠

(٣) انظر نصّ المقامة في رسائل ابن أبي الخصال: ص ٤٢٠ - ٤٤٩، وانظر تحليلنا لها ص ١٢١ من دراستنا هذه.

(٤) د. حازم عبد الله الأخضر: النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين: ص ٣٤٢.

كاف من مقامات الأندلسيين في تلك الفترة، مما جعله يطلق حُكماً غير مستند إلى دليل، فمقامات السَّرْقِسطي من نتاج عصر الطوائف المرابطين، وابن أبي الخصال كان من الكتاب في بلاط علي بن يوسف بن تاشفين (ت ٥٣٧هـ)، وكلاهما -كما ذكرنا- له مقامات في الكدية نهجت نهج مقامات الحريري. كما أن المقامات التي وقف عندها الباحث وحللها كمقامة ابن مالك القرطبي، ومقامة عمر بن الشهيد، ومقامة ابن المعلم^(١)، فهي وإن كانت تخلو من معاني الكدية والإلحاح في الطلب والتوسل، إلا أنها تخلو منها في الظاهر فقط، فمقامة ابن مالك القرطبي كلّها مدح من أجل العطاء، ومقامة ابن الشهيد فيها وصف للفقير ابن أبي الحديد بهذه العبارات: «حَنَّتْ نفس الفقير بسيادتها إلى كرم عاداتها، من الإحسان إلى الأتباع والتسليّة لنفوس الأُلُوف والأشياء»، فما معنى إحسان الفقير إلى الأتباع؟ وما معنى تسليته للأُلُوف؟ أليس في هذا ما قد يدل على طلب عطاء واستجداء؟ ومقامة ابن المعلم إنما هي بحث عن الأمراء، الذين يجزلون العطاء، ويكثرون العطايا والجوائز. ومقامة ابن برد من أشد المقامات صلة بالكدية، وهي تشبه تماماً كدية أبي الفتح الإسكندري، أو أبي زيد السروجي^(٢).

والأقرب إلى الصواب - في رأينا - هو ما ذكره د. إحسان عباس عن طبيعة المقامة الأندلسية في عصر الطوائف والمرابطين من أن قصّة الكدية والحيلة المقترنة بالمقامة قد انتفت من بعضها^(٣)، ولكن مقامات تلك الفترة لم تخل خلواً تاماً من الكدية والحيل المتعلقة بها.

وإذا كانت طريق الكدية التي شقّها السَّرْقِسطي لم تستقطب اهتمام أصحاب المقامات الأندلسيين، ولم يتابعها أندلسيون آخرون، ممّن فضلوا توظيف فن المقامة لطرق

(١) انظر نصوص هذه المقامات في الفصل الثاني من دراستنا هذه.

(٢) انظر نصّ المقامة وتحليلها ص ٩٧-١٠٣ من دراستنا هذه.

(٣) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين): ص ٣٠٨.

أغراض الشعر القديمة والنقد الأدبي، فإن عودة موضوع الكدية إلى الأدب الأندلسي نجدها في مقامة العيد لابن المربع الأزدي، وهي واحدة من المقامات الأندلسية التي حافظت على رشاقة مقامات الكدية.

وآخر حكاية من حكايات الكدية بالأندلس من حيث تاريخ التأليف هي المقامة التي كتبها عمر الزجال بعنوان «مقامة تسريح النّصال إلى مقاتل الفصال»^(١).

لجأ السّرقسطي في بعض مقاماته إلى تصوير العيوب الاجتماعية ونقدها، ومن أهم مقاماته في تصوير هذا الجانب مقامة «الدب»^(٢)، وفيها يقوم الشيخ المحتال بالتكسب من ترقيص دبّ له، والناس مجتمعون من حوله. والمقامة التاسعة والأربعون في الطب والعرافة، وفيها يصور بطله وقد انتحل مهنة الطب والعرافة معاً، فإذا به الطبيب النطاسي يعالج فتى أصابه المرض ففعل به الأفاعيل فشقه مائل والزبد من فمه سائل، ويلجأ إلى عالم الجن يستعين بهم في تخفيف آلام مريضه، فيقول: «يا مارد سهمك صار، ويا مريد ماذا تريد، ما أطعاك ما أعصاك، ما أبعدك عن الخير وأقصاك، اخرج يا واغل، فإنك شاغل، ابعده يا خاتل، فإنك قاتل»^(٣).

وبعد أن يسخر الجن لحيلة من حيله ينادي الناس قائلاً: «أيها الناس عندي في هذا الشأن سراير، وخبايا من الحكمة وضرير، أخذتها عن العلماء، ولقّنتها من الحكماء، أين من شكّا من هذه الأعراض؟ أين من رُمّي من هذه الأعراض.... أين من خامرته

(١) انظر نصّ المقامة ص ٢٤٤-٢٥١ من دراستنا هذه.

(٢) انظر المقامات اللزومية : ص ٤٥٣ - ٤٧١.

(٣) المقامات اللزومية : ص ٥٣٨.

(١٠) المقامات اللزومية : ص ١٠٥.

الأشواق والوساوس، ولعبت به الأجراس والوساوس، أين من سحره ساحر؟ أو دحره داحر؟ أين من لقعته عين، أو رهقه دين؟ عليّ الضمان وأنا الزعيم وله النعيم»^(١).

ويظهر من المقامة الأولى^(٢) عند السرقسطي أن كبار رجال الدولة آنذاك قد انهمكوا في الملذات، وأسرفوا في اللهو، وكان مستشاروهم يحبون إليهم البطالة واللهو وإنفاق الأموال مما يثقل كاهل الرعية، ويجعلهم يغفلون عن مصالح الشعوب. وبعض رجال الدين الذين يُعَوَّل عليهم في الإرشاد والنصح، أخذوا يظهرهم أمام الناس بلباس التقوى، وحين يسدل الظلام ستاره يخلعون عنهم ذلك اللباس، ويلبسون لباس اللهو وطلب المتعة، وهو بذلك ينتقد ظاهرة النفاق التي يعيشها هؤلاء، ويظهر ذلك من قول السائب للسدوسي الكَوْر إلى الحَوْر، أين منك الوعد والوعيد، والمبدئ والمعيد^(٣). وقد أخفى السرقسطي اسم البلد الذي يحدث فيه هذا الفساد، وكأنه يقصد كل البلاد الإسلامية، التي رحل إليها بقلمه.

وانسحبت هذه الحياة اللاهية على العامة أيضاً، فتنفشى الفقر، وكثر الجوع. وفي ظل هذا الوضع المتردي، اختار السرقسطي لبطله أن يكون متشرداً ينتقل من بلد إسلامي إلى بلد آخر، بل رحل إلى الصين، التي لم تكن بلداً إسلامياً، وإن كان فيها مسلمون. ويدل تنقله المستمر على شعوره بعدم الاستقرار، وإحساسه بالغربة في بلده، مما جعله يختار لبطله التشرد والانتقام من المجتمع عن طريق أسلوب الخداع الذي اتبعه معهم، وهو الوعظ عن طريق الحديث اللين، الذي يجعلهم يسارعون إلى جيوبهم لإعطائه المال.

(١) المقامات اللزومية : ٧٥.

(٢) المقامات اللزومية : ص ٤-١٥.

(٣) المقامات اللزومية : ص ١٣٤.

ويبرّر السرّسطيني تفشّي ظاهرة حب المال، الذي أصبح كلّ شيء في حياة الناس من خلال تعبيره على لسان بطل مقاماته الذي يقول شعراً^(١):

جَزَيْتُ ذَا الدَّهْرِ وَأَبْنَاءَهُ مِنْ زَيْدِهِ طَرَأَ وَمِنْ عَمُرِهِ
فَلَمْ أَرَ الْمَجْدَ سِوَى دَرْهِمٍ تَحْوِيهِ كَفَاكَ عَلَى قَمَرٍ
وأصبح النسب لا يعني شيئاً أمام المال^(٢):

الحسب المال فدع عنك ما قد قيل من عبي وذيان

وانعدمت الروابط الاجتماعية، وتفكّكت العلاقات الأسرية، وأصبح المال كل شيء، كما يظهر من قول السّدوسي^(٣):

وَالْمَالُ أَخٌ إِنْ أَخٌ خَانَ أَوْ عَاقَكَ مِنْ دَهْرٍ عَقَبَ
وَلِمَالٍ يَشُدُّ الْمَجْدُ كَمَا يَشُدُّ بِعَامِلِهِ الْعَقَبُ

وأفرز اختلال العلاقات الاجتماعية وحب المال ظاهرة البخل، فقد أصبح ظاهرة انعدمت معها العطايا من الأغنياء، قال السّدوسي يذم ذلك^(٤):

وَإِنَّمَا الْبَخْلُ دَاءٌ وَلَيْسَ مِنْهُ شِفَاءٌ

ويبرّر بطل مقامات السرّسطيني احتياله بسبب انعدام العطف، والبخل بالمال. ويبين أنه لم يكن مجبولاً على الغدر، فيقول^(٥):

عندي الوفاء وعندي البر واللفظ لو أنّ أبناء هذا الدهر قد عطفوا

(١) المقامات اللزومية: ص ٣٤٩.

(٢) المصدر نفسه ص ٥٤٥.

(٣) المصدر نفسه ص ٤٥٧.

(٤) و (٥) المقامات اللزومية: ص ٢٨٩-٢٩٠.

ولا جُبِلْتُ على غدر ولا ملل
لكنها شيم ما عابها نطف
وإنما بخلوا عنا بوفرهم
فحسبنا خلس في الدهر تختطف

ويقول أيضاً^(١):

فاخذر الخَلَّ في الزمان وخَفْه
خيفة القوم سطوة الحَجَّاج
واحترس من خداع قوم ذئاب
وُسِّمُوا بالوعاظ والحَجَّاج

ولجأ السدوسي بطل مقامات الحريري، إلى الحيلة والخداع عن طريق الوعظ، ليتنقد عدة ظواهر اجتماعية منها: لجوء بعض الناس إلى الكسب المادي، ولو عن طريق الاحتيال والنصب:

فاخْتَلْ لِعَيْشِكَ واجْهَدْ
بِالسَّلْمِ أَوْ بِالْيَمَانِ^(٢)

وبالإضافة إلى ما ذكرناه فقد عاجلت مقامات السرقسطي عدداً من القضايا: أبرزها مقتته لتفشي ظاهرة الخمرة، التي يرى فيها شاربوها هروباً من الواقع. وحارب السذاجة والخرافات. كما استهجن فساد القضاء مما أدى إلى تمزيق الأندلس، وشكا الدهر، وشكا الغربية، كما شك الشيوخوخة، وتغير الناس، والانحلال الخلقي.

وفي مقامة ابن المعلم^(٣) نجد حديثاً حول أوصاف الصديق، وأحوال الصداقة، وألوان العلاقات بين المتحابين والمتآلفين، مما يصح أن يكون أقرب إلى الرسالة الإخوانية منه إلى المقامة العادية.

(١) المقامات اللزومية، ص ٤٢٣.

(٢) المصدر نفسه ص ٩٩.

(٣) انظر ص ٩٧ دراستنا هذه.

وصوّرت المقامة الأندلسية أيضاً بعض المشكلات اليومية المتعلقة بحرفة الإنسان ومهنته، ومن أمثلة ذلك مقامة ابن الشهيد، التي تطرّق فيها إلى صنعة الكتابة وحال الكاتب، وتعلّق هذه الحال واعتمادها على إتقانه أو عدم إتقانه لفنونها وأساليبها، فهي «محنة من المحن، ومهنة من المهن، والسعيد من خدمت دولة إقباله، والشقي من كانت رأس ماله...»^(١).

ومن النواحي الاجتماعية التي اعتمدتها المقامة الأندلسية الفكاهة والنادرة والترفيه عن النفس، ونقرأ ذلك أيضاً في مقامة ابن الشهيد التي تحدّث في مستهلّها عن صنعة الكتابة، ثم انتقل إلى وصف رحلة له مع جمع من أصحابه، ووصف ما كان في هذه الرحلة من مواقف فكاهية ممتعة يجري فيها حوار بينهم وبين رجل استضافوه، وأراد أن يذبح لهم ديكاً هراماً، فاعترض الديك، ودافع عن نفسه، وحاول أن يخلص نفسه من الموت، فلفت نظر صاحبه وضيوفه إلى فراريج أطيب لحماً، وأسرع طبخاً...^(٢).

ومن الأغراض التي عرضت له المقامة الأندلسية تصوير المناسبات السياسية والحربية، وبخاصة مناسبات النصر، والتوجه إلى الأمير أو السلطان بتلك المناسبة، ومن هذا النوع مقامة أبي محمد بن مالك القرطبي، التي وجّهها إلى المعتصم بن صمّاح، وأفرد صدرها للحديث عن معركة عاد الأمير منها، وتوجيه التهاني إليه «بشرى لنا ولدولته الغرّاء، وهنيئاً لنا ولحضرتة الزهراء...»^(٣).

ومقامة العيد لابن المربع الأزدي من مقامات الكدية التي تصوّر جوانب كثيرة من المجتمع الغرناطي، تصوّر ربّة البيت وما تكلف به زوجها من مطالب فوق طاقته،

(١) انظر ص ٧٥ من دراستنا هذه.

(٢) انظر ص ٨٠ من دراستنا هذه.

(٣) انظر ص ٨٧ من دراستنا هذه.

وتصوّر القصاب في زيّه وقد شدّ في وسطه مئزره، وقصّر ثوبه، وكشف عن ساقيه، وشمر ساعديه، وتصوّر جشعه في البيع. وترينا نظام التوثيق وكتابة العقود في الأندلس، وما كان يشيع هناك من صناعة الفخار، والمحتسب ومن يساعده من الأمناء ورجال الشرطة، والعجائز وتطفلهن، والأولاد والتفافهم حول كلّ ما يرون^(١).

المقامات الوصفية:

نجد فيما بين أيدينا من مقامات الأندلسيين مقامات تدور حول موضوعات وصفية، ومن ذلك مقامة عمر بن الشهيد، التي هي أشبه بوصف رحلة له وصفاً أدبياً طريفاً فيه غير قليل من الدعابة، ففي أحد فصولها يصف ابن الشهيد يوماً ربيعياً جميلاً كانت فيه رحلة مع صحبه، وفي فصل ثان يصف منزل بدوي دخله مع صحبه، ويتحدث عن أثاث بيته حديثاً فكّها. وتختلف الصورة في أحد فصول المقامة، إذ تبلغ الرحلة بالكاتب إلى «دار البطاريق، وملعب الكأس والإبريق» في قرية من قرى النصارى، فيتلفت إلى الناحية الجمالية في الطبيعة والناس، فيصفها بكل روعة^(٢).

وتمضي فصول المقامة تسوّق الوصف، وتنمق الفكاهة من خلال المشاهدات الكثيرة، يقول: «..... ولئن مرّت بك كلمات محالّيات، تنظمها سلوك هزليات، فإنها هي أوصاف طابقت موصوفاتها، وحُلّى قَدَر محليّاتها»^(٣).

وعلى هذا النحو من الوصف والاستقصاء يمضي ابن الشهيد في مقامته، حتى تبدو أشبه بلوحة تصويرية تعجّ بالحركة والحياة.

(١) تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات: الأندلس) ص ٥٢٢.

(٢) انظر نص المقامة ص ٧٥ - ٨٣ من دراستنا هذه.

(٣) انظر ص ٢٤٤ - ٢٥٠ من دراستنا هذه.

أما ابن مالك القرطبي فقد أطل في وصف فتوح ابن صُمداح وانتصاراته في الحروب، ووصف جيشه وأسلحته من دروع وسيوف ورماح وخيل، وصوّر عودة الجيش المنتصر، مظهراً براعته في الوصف، وقدرته على التصوير والإبداع.^(١)

ومقامة الفتح بن خاقان، وإن كانت في الهجاء أصلاً، إلا أنّ صاحبها يستهلّها بوصف بلنسية، «فهي في ثغر الجزيرة ابتسام، فأنختُ بها الجمل، وقد وافت الشمس على الحمل، وصدح القمرى وهدل، وقام وزن النهار فاعتدل، فرأين أرضاً عليلة الأرواح، ظليلة الأدواح، صقيلة الجوانب، مترعة المذانب.....، تذهل بتمائيلها، ذوات الأطواق عن هديلها...»^(٢).

ومقامة الوادي آشي وإن كان الغرض منها مدح القائد ابن ميمون فإن الجانب الوصفي غالب عليها، فهي تقوم على تعدّد المشاهد، وانتقال الحدث من مكان إلى آخر، يقول: «وصلت إلى مدينة وادي آش، وجسمي لا يتبيّن نحولاً في فراش، وفراشي فوق أجنحة الفراش، فمثلت في حيطانها، وحصلت بين رباها وغيطانها، فرأيت للحسن مقر إيراد وإصدار، وجمال قطر لا يجري على مقدار...»^(٣). ومنها قوله: «ولما قرب حين السفر وحن، وتعرّض في الأفق ذنب السرحان، بعث الله النسيم عليلًا، وهو يجرّ ذيله بليلا، والظلام مؤلياً عليلًا، والبرق يصدع جلاباب الظلام، والرياح تقتاد أزمة الغمام، وسَلَّ سيف البرق من غمده، وسبّح الرعد ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾، فأهملت السماء دموعها، وأروت الأرض معاهدها وربوعها...»^(٤).

(١) انظر المقامة ص ٨٧-٩٤ من دراستنا هذه.

(٢) انظر ص ١٠٣ من دراستنا هذه.

(٣) انظر ص ١٣٦ من دراستنا هذه.

(٤) انظر ص ١٤٠ من دراستنا هذه.

والمقاطع الوصفية في مقامات السّرقسطي طويلة وكثيرة، لا يتسع المقام لاستقصائها، ولكننا سنشير إلى بعض المقاطع الوصفية التي تعكس طابع التميّز والتجديد في مقاماته، ففي المقامة السادسة يصف ميناء «عدن» وصفاً دقيقاً، ويكشف عن المغامرة في ركوب البحر، والأخطار التي تلاحق السفن أثناء تجوالها في البحار^(١). وفي المقامة السابعة، وهي البحرية - ومكانها مرفأ الشحر -، يقوم بينهم خطيباً، ويهول عليهم أمر السفر في البحر^(٢).

وبلغت مقامات وصف البلدان - إن صحّت تسميتها بالمقامات - ذروتها عند لسان الدين بن الخطيب، فهي أقرب - في نظر الدراسين - إلى أدب الرحلات والرسائل منها إلى المقامات، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك في موضع آخر من هذه الدراسة.

ومن مقامات الوصف الخالص، التي وصلت إلينا، قطعة من مقامة ابن غالب الرصافي في وصف القلم^(٣)، وهذه المقامة وصلت إلينا مبتورة، مما فوّت علينا فرصة الوقوف على نموذج مكتمل من مقامات الوصف.

والذي نلاحظه أن أغلب القطع الوصفية في المقامات الأندلسية، لم تأت مقامات مستقلة بذاتها، وإنما جاءت فصولاً، أو قطعاً من المقامات. وقد تفنّن المقاميون في الوصف، وكان التشبيه هو العنصر الأساسي، الذي اعتمدوا عليه، في تكوين صورهم وتشكيلها، فجاءت هذه القطع الوصفية أشبه بلوحات فنية بسيطة الألوان، لا غموض فيها ولا تعقيد، كما أننا نجد فيها مقدرة عالية على الوصف، وبراعة في استقصاء الجزئيات، ومهارة في التشبيه والتصوير.

(١) المقامات اللزومية (المقامة السادسة): ص ٦٥ - ٧٦.

(٢) المقامات اللزومية (المقامة السابعة): ص ٧٧ - ١٠٣.

(٣) انظر ص ١٣٢ من دراستنا هذه.

مقامات المدح:

بتأمل ما بين أيدينا من المقامات الأندلسية، يمكننا القول: إن المقامات -وهي من فنون النثر- قد زاحمت الشعر في أخص أغراضه، أعني المدح، والهجاء والغزل.

ويبدو أن بعض الممدوحين قد سئمو المدائح الشعرية، فهذا هو ابن المعلم، يذكر في مقامته أن رسول ممدوحه طلب إليه أن يقول في ممدوحه نثراً بدلاً من الشعر، يقول: «وأفضنا في وصف معاليه، واستنشدي فأنشدته ما قلته فيه. فقال: دعني من زخرف شعرك، وصفه لي بمنصف نثر، فقلت: على الخير سقطت، وأنا الكفيل بما سألت وشرطت، وأسمعته سجعاً لا نظماً ونثراً لا شعراً»^(١).

_ وقد اشتدت المفاضلة بين الشعر والنثر عند النقاد والأدباء الأندلسيين، وكان لكل من هذين الفنين مؤيدوه وأنصاره، وقد يكون لارتباط الشعر بالمبالغة والكذب في أذهان الكثيرين أثر في أن يتناول النثر موضوعات الشعر، وهذا واضح من عبارة ابن المعلم السابقة "فالشعر زخرف، والنثر منصف" وقد عرفنا شيئاً من ذلك في مقامة السرقسطي، ومن أجل هذا نجد أن بسام في كتابه «الذخيرة» يقدم الكتاب على الشعراء، ويبدأ بذكرهم، لأنهم - كما يقول - صدور في أهل الآداب^(٢)، فهو يعتبر الكتاب أرفع شأنًا، وأجل منزلة من الشعراء. وعندما كان يترجم للأدباء، الذين كانت شهرتهم في مجال الشعر كابن زيدون، وابن خفاجة وغيرهما، كان يبدأ الحديث عن نثرهم أولاً، ويورد فصولاً منه، ثم ينتقل إلى مختاراتهم الشعرية. ونجد مثل هذا الاتجاه أيضاً عند ناقد أندلسي آخر هو ابن عبد الغفور الكلاعي الذي مال إلى تفضيل النثر على الشعر، لأسباب دينية وخلقية، لا يتسع المقام لذكرها^(٣).

(١) انظر ص ٩٩ من دراستنا هذه.

(٢) الذخيرة: ق ١ م ١ ص ٣٢.

(٣) انظر كتابه: إحكام صناعة الكلام، ص ٤٤ وما بعدها.

لقد جاءت نسبة كبيرة من النصوص المعدودة في المقامات متصلة بموضوع المدح. فمقامة ابن المعلم التي رواها ابن بسام في "الذخيرة" من مقامات المدح الخالص، وهي تغرق في وصف الممدوح، ورصد مناقبه، وإظهار الحاجة إلى عطائه. وهذه المقامة تراحم الشعر في موضوع المدح، فهي تبتعد عن النمط التقليدي للمقامة، وتكاد تلتزم بناء القصيدة، والبكاء على الأطلال من خلال موضوع المدح، فها هو يفتح الكلام بما يشبه بكاء الأطلال، ويذكر به، فيقول: «سقى عهدك أيتها الدمنة الزهراء كل عهد، وجاد قطرك أيتها الروضة الغناء كل قطر، وسال عليك من أدمعي كل مُلث هطال...»^(١) وعلى الرغم من أن هذه المقامة تعرض لنظرات نقدية في الحياة والناس، إلا أنها تدور في الأساس حول المدح، الذي كان شعراً منشوراً، كقوله: «هو الإمام الطاهر، والكوكب الزاهر، والأسد الخادر، والبحر الزاخر، أوهب الملوك للذخائر، وأعفاهم عن الجرائر، وأرفعهم قدراً، وأوسعهم صدرًا...»^(٢).

وتنتهي المقامة بطلب العطاء من الممدوح، فكأنها - كما يرى د. محمد رضوان الداية - قصيدة مدح طويلة،^(٣) وإلى مثل هذا كان قد ذهب د. شوقي ضيف من قبل عندما قال: «وهي أشبه بقصيدة مدح طويلة، دبّجها في المعتصم بن ضُهادح»^(٤). وكان أحد الدراسين قد رأى في نص ابن المعلم موضوعاً ذا شقين اثنين: أحدهما يتصل بالسعي الدائم الذي عُرف لدى الأدباء بالتجول بين بلاطات الملوك، والتنقل بين الحواضر بحثاً عن من يمنح الأوفر، ويقرى أكثر. والثاني هو أن القيم الأدبية الجديدة،

(١) انظر ص ٩٧ من دراستنا هذه.

(٢) انظر ص ٩٩ من دراستنا هذه.

(٣) في الأدب الأندلسي: ص ٢٥٦.

(٤) تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات: الأندلسي): ص ٥١٩.

التي رجّحت كفة النثر، حين غزا الشعر في عقر داره، ولم يترك له مجالاً يختص به، فصار المدح بالنثر مما يقبل الملوك عليه، ويرغبون فيه^(١).

ويظهر الاتجاه الشعري في المدح في مقامة ابن مالك القرطبي، التي خصّص أكثر فصولها لمدح المعتصم بن صّمداح، يقول فيه: «فلله يومنا بالأمس، ما أجلبه لألطف الأنس، حين طلع علينا من كان طلوعه ألدّ إلى الأعين من وتينها، وأوقع في القلوب من سكنها، طلع طلوع الصباح المتهلّل، وجاء مجيء العارض المسبل، دلفنا إليه كالقطا الأسراب، فبهرنا الأمر العُجاب، وكانت الأفئدة مما وجفت، والألباب ممّا رجفت، ألا يرجع نافرهما، ولا يقع طائرهما»^(٢).

وخلاصة موضوع هذه المقامة أنّها مجموعة من القطع في مدح ابن صّمداح، ووصف حروبه، وإشهار محامده وفضائله، ولذلك أسماها بعض الدارسين «المقامة المعتصمية»^(٣).

ومن مقامات المدح أيضاً مقامتان لمحارب بن محمد الوادي آشي، إحداهما وصل إلينا اسمها، دون نصّها، وهي المقامة العياضية في مدح القاضي عياض، أمّا الثانية فقد أوردنا نصّها^(٤)، وهي في مدح القائد ابن ميمون، وذكر شجاعته في الحروب البحرية.

أمّا لسان الدين بن الخطيب فقد كتب مقامته «السّينية» في مدح السلطان أبي عنان المريني، وهي من مقامات المدح الخالص، يقول فيها: «...سَلَّ السَّعْدُ حَسَامَهُ، وَسَدَّدَ سَهَامَهُ، سَيْفُ السَّنَةِ السَّمْحَاءِ، سَحَابَةُ سَمَاءِ السَّخَاءِ، أَسَدُ الْمَرَّاسِ، مُلْبِسُ الْمَفْسِدِينَ لِبَاسِ الْبَاسِ، مَيَسَّرَ الْحَسَنَةَ لِلنَّاسِ... حَسْبُكَ بِاسْمٌ وَمُسَمًّى، وَنَفْسُ نَفِيسَةٍ

(١) علي بن محمد: النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس : ص ٥٧٧.

(٢) انظر ص ٨٧ من دراستنا هذه.

(٣) علي بن محمد: النثر الأدبي الأندلسي في لقرن الخامس : ص ٥٧٣.

(٤) انظر ص ١٣٥-١٤٦ من دراستنا هذه.

سكنت الإسلام جسماً، وأسنت لسعادة المسلمين قسماً، تخرس ألسن محاسنه اللسّنين، ويستبعد إحسانه إحسان المحسنين، سما مجلسه، وسعد مُلتمسه، وتَسَنّت سلامته، وحرست سبل السّنة استقامته.....»^(١).

ومقامة «قسطاس البيان في مراتب الأعيان» من مقامات المدح^(٢)، كتبها يحيى الأركشي في مدح الفقيه علي بن خلف. وقد أورد ابن عبد الملك المراكشي قطعة موجزة من هذه المقامة، ولو أوردناها كاملة لأمكننا استجلاء معاني المدح فيها.

ولم يقتصر المدح في المقامات الأندلسية على مديح الأفراد والأشخاص، بل تجاوز ذلك إلى مدح المدن، ومن أمثلة ذلك مقامة الوزير الكاتب أبي عامر بن أرقم، التي مدح بها مدينة غرناطة. ويدور الحوار في هذه المقامة، التي وصلت إلينا مبتورة، بين شخصين أحدهما يدعى «فلان بن فلان» وهو الراوي، والآخر: من أبناء الجاه والخواص، وهو البطل. وتبدأ المحاور، وأول سؤال يدور فيها حول غرناطة نفسها، فيسأل الفتى: أين أمك؟ وما همك؟ قلت: غرناطة، فقال: حيث اللّمة المشفّقة المحتاطة، والسّدى والنّدى، والأجناد والأنجاد والإصراخ والإنجاد، والغور والنجاد، أُكْرِمْتَ فارتبط، قلت: وما علّمك بها؟ قال: هي المطلع، وإليها بحول الله المرجع،.... قلت: فسقاطها؟ فقال: قصور تُقَرّ لها إرم بالقصور، وسور أعين الحوادث عنه صور، كأنه الثغر المبتسم، والسّلك المنتظم.....»^(٣).

ومن مقامات مدح البلدان وأهلها أيضاً مقامة لمحمد بن خلف الهمذاني الغرناطي، الذي كتب مقامة في أهل غرناطة، وصفها السيوطي -كما ذكرنا- بأنها حسنة.^(٤)

(١) انظر نصّ المقامة في دراستنا هذه ص ٢٠٩-٢١١.

(٢) انظر ص ١٣٤ من دراستنا هذه.

(٣) فلائد العقيان: ص ٣٧٣، وانظر دراستنا هذه ص ١٤٧-١٤٨.

(٤) انظر ص ٣٥ من بحثنا هذا.

مقامات الهجاء

كما سخر الأندلسيون المقامة في المديح فقد استخدموها في الهجاء أيضاً، وهم بذلك - كما أسلفنا - يوظفون النثر في أغراض الشعر.

وتناولت مقامات الهجاء هجاء الأشخاص، أو هجاء مدينة وأعيانها. فمن مقامات هجاء الأشخاص المقامة البلنسية للفتح بن خاقان في هجاء شيخه ابن السيّد البطليوسي. وقد بلغت هذه المقامة مبلغاً كبيراً من الفحش والسب والتهكم والاستهزاء^(١).

أمّا هجاء المدن وسكّانها فمنه المقامة القرطبية^(٢)، التي تدور أحداثها في مدينة قرطبة في القرن السادس الهجري، وتتناول أعيانها من قضاة وعلماء وأدباء وفقهاء بالسب والطعن والتجريح.

ومن مقامات هجاء المدن وأهلها أيضاً المقامة الشّلبية^(٣)، التي سار صاحبها على نهج المقامة القرطبية، فوقفها على هجاء أعيان مدينة «شَلْب» من قضاة وأدباء وعلماء.

وتذكر المصادر مقامة صُنعت في هجاء أعيان مالقة ونُسبت إلى عليّ بن جامع الأوسي^(٤)، ولكن نصّ هذه المقامة قد ضاع - فيما يبدو - ولم يصل إلينا.

(١) انظر نصّ المقامة وتحليلها ص ١٠٣-١١٢ من دراستنا هذه.

(٢) انظر نصّ المقامة وتحليلها ص ١٥٠-١٦٩ من دراستنا هذه.

(٣) انظر نصّ المقامة وتحليلها ص ١٧٠-١٨٠ من دراستنا هذه.

(٤) كتاب أدباء مالقة: ص ٣٣٢. وانظر ترجمته ص ٣١ من دراستنا هذه.

مقامات الوعظ والدعاء:

سوف نزيد هذا الأمر توضيحاً في حديثنا عن علاقة المقامة بالخطبة. ولكننا نقول هنا: إن بعض مقامات^(١) السرقسطي قد قامت أساساً على الوعظ، الذي يهدف إلى نبذ الدنيا ومغرياتها، والاستغفار من الذنوب، والتقرب إلى الله عز وجل، وابتغاء مرضاته.

فنقرأ في المقامة العشرين قوله على لسان البطل: «فينا أنا ألاحظ الأهرام، وأعين الأشخاص منها والأجرام، فأحقر نفسي وأذلّلها، وأرجيها بالصفح وأعلّلها، والدمع قد انتشرت دُرُرُه، وانسكبت دَرَرُه، فإذا بصوت عال، والناس بين أسراب إليه ورِعال، وهو يقول: «أين من شيد وأطال، ومَلَك فاستطال، وكفر وتمرد، ونكّب عن السبيل وعَرَّد، أين فرعون ذو الأوتاد، وكنعان أخو العدد والعتاد... هذه الآثار والرسوم، فأين الأجساد والجسوم. تمرّون على القبور والأجداد، ولا تفكّرون في النوائب والأحداث...»^(٢).

والمقامات اللزومية تقوم في أغلبها على الرحلة من الغرب إلى الشرق، من الفرع إلى الأصل، من بلاد الإسلام الحديثة البعيدة إلى مهده القديم. رحلة الغذاء الروحي بالنسبة إلى السائب، ورحلة الكدية بالنسبة إلى الشيخ أبي حبيب. ولم يجر السرقسطي إلاّ مقامة واحدة^(٣) في الأندلس وطنه الخاص، بينما جرت أحداث مقاماته الأخرى في بلدان العالم الإسلامي. وهذه نزعة تندرج في إطار الحنين إلى المشرق بالروح والفكر والأدب. وقد أدخل السرقسطي هذا الحنين إلى مقامة الوعظ، فيقول في المقامة الثامنة، وهو يخاطب المذنبين: «ركبتم الجرائر، ولم تخلصوا السرائر، وقصّرتُم في اللّوازم، وهزّأتم بالعوازم، كلّكم إلى منزله

(١) منها المقامات ذوات الأرقام: ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ١٨، ٢٠.

(٢) المقامات اللزومية: ص ٢٥٤-٢٥٥.

(٣) هي المقامة الثامنة والأربعون (المقامات اللزومية: ص ٥٢٤-٥٣٥) وتجري أحداثها في طريف، وهي بلدة تقع على البحر في أقصى جنوب الأندلس. وذكر السرقسطي الأندلس عرضاً في المقامة البربرية، وهي السادسة والأربعون، وأحداثها تدور في مدينة طنجة من المغرب الأقصى.

راجع، فطاعم أو هاجع. يفترش الحشايا، ويتتهز الغدايا والعشايا. ولا يفكر في غريب سلب وطنه، وابتز مسرحة وعطنه. ولا بن السبيل والضيف النزيل، حق في الكتاب والتزليل...»^(١).

أما المقامات التي تضمنت الدعاء فمنها المقامة اللزومية الرابعة والعشرون، التي يقول فيها السرقسطي على لسان شيخ يدعو: «اللهم إليك المآب، وأنت أعلم ما الناس وما الذئاب. بيدك المتاب، ومنك الإعتاب... فاجعل لهم من رحمتك نصيباً، ولا ترهم يوماً عصياً، اللهم اسلبهم ثوب الرياء، وألبسهم ثوب الحياة والحياء. وألن قلوبهم القاسية، واعطف نفوسهم العاصية»^(٢).

وهناك مقامتان لابن قزمان الزجال تضمنتا الدعاء أيضاً، الأولى في استهلال شهر رمضان، والثانية في استهلال شهر شوال، وردتا في كتاب «الإحاطة» لابن الخطيب، وقد أوردنا نصّهما في دراستنا هذه.^(٣)

(١) المقامات اللزومية: ص ١١٣-١١٤.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٩٥.

(٣) انظر نصّ المقامتين ص ١٢٤-١٢٩ من دراستنا هذه.

المقامات الغزلية:

الغزل من الموضوعات الشعرية التي تناولتها المقامة الأندلسية، فقد اتجهت بعض المقامات إلى التغزل بالجواري الحسان، وذكر الأوصاف الحسية، كما أنهم أنشأوا مقامات خاصة بموضوع الغزل، مثل «العياضية الغزلية» لابن عياض القرطبي التي لم تصل إلينا كاملة، وإنما وصلتنا قطعة منها، أوردها ابن سعيد في كتابه المغرب...^(١)، ونعتها بأنها «ترجمت عن لطافته ومعرفته وانطباعه»^(٢). وقد اشتمل الجزء الذي وصل إلينا من هذه المقامة على تعابير غزلية حسية من مثل قوله: «من خصور القيعان إلى روادف الرعان»، وقوله: «ولا أمل إلا اعتلاق خِلّ ظريف»^(٣).

وبالإضافة إلى الموضوعات المتعددة، التي تناولتها مقامات السرقسطي، فإننا نجد واحدة من مقاماته، تحدثت عن لوااعج الحب وآثاره، ومعاناة العاشق الوهّان، ووصف ما يعانيه عند رؤية الأطلال، فيقول: «دخلت أصبهان، ومعي صاحب من بني نبهان... كانت له علاقة وجدية، وصباة نجدية، تُذهبُ عليه نفسه ذهاباً، ويروح في يد الحب سلباً ونهباً، فبينما أنا ذات يوم إذ دخل عليّ بتأوه عن حسرات، وتنفس عن زفرات، وجوانحه تطوي على جمرات، ترمي من الشوق بشررات...»^(٤).

وتحدث السرقسطي في مقامة أخرى عن المرأة الجارية التي تباع وتشتري، وذكر محاسنها الحسية، فقال: «ودخل بنا إلى مثل القمر التمام، مفدّة بالأحوال والأعمام، نَقَرَّ عن شنيب كالبرد، وتهتز عن قوام كسيف الصيقل الفرد، فإذا نهَّد كالنفّاح، قد حُتِم بالعنبر النفّاح، وخَضِرَ بتيل، كما لوي الفتيل، وكفل رداح، كما انداح من الرمل مُنداح....»^(٥).

(١) انظر ص ١٣٠ من دراستنا هذه.

(٢) المغرب: ١/ ص ٣٤٤.

(٣) انظر ص ١٣٠ من دراستنا هذه.

(٤) المقامات اللزومية: ص ٢٩٩ (المقامة الخامسة والعشرون).

(٥) المقامات اللزومية: ص ١٦٦.

مقامات المجون:

وهي المقامات التي تطرق موضوعاً مكشوفاً، أو ما يُسمّى بـ«الأحاض»، حيث ينتقل المقامي فيه من الجِدِّ إلى الهزل للترويح عن النفس.

ومن هذه المقامات ثلاث مقامات للسّرّ قسّطي ضمن مقاماته الخمسين، وهي المقامة الثانية عشرة (المقامة الفارسية)^(١)، وتشتمل على غزل مكشوف، والمقامة التاسعة عشرة (المقامة الخمرية)^(٢)، والمقامة الحادية والثلاثون^(٣)، وهي من المقامات غير المسماة، وجزء من المقامة العاشرة، وفيه غزل بالمذكر، لم يشغل المقامة بأكملها كما في المقامات السابقة.

وكما يكون المجون في الغزل المكشوف، وفي الغزل بالمذكر، وإدمان الخمرة، فإنه يكون في الهجاء الفاحش، الذي رأيناه في مقامة الفتح بن خاقان، التي شكّل الجانب الماجن جزءاً منها، حيث استخدم فيها كثيراً من الألفاظ الفاضحة المكشوفة، التي ما كان ينبغي أن يصرّح بها، ولكن ما ساد ذلك العصر من مجون وهو أباح لهذه الألفاظ النابية المكشوفة أن تظهر في كتابة الكتاب، ونظم الشعراء

ومن المقامات التي ورد فيها فحش ومجون مقامة «تسريح النّصال إلى مقاتل الفضّال»^(٤) للفقير عمر الزجال، التي أوردتها المقرئ في «نفح الطيب» كاملة^(٥) ولكنه عندما أوردتها في «أزهار الرياض»^(٦)، حذف منها أبياتاً لأن صاحبها - كما يقول المقرئ

(١) المقامات اللزومية: ص ١٦٠ - ١٦٩.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٤١ - ٢٥٣.

(٣) المصدر نفسه: ص ٣٨٤ - ٣٩٦.

(٤) المصدر نفسه: ص ١٤٠ - ١٤٣.

(٥) نفح الطيب: ٥/ ص ٤١ - ٤٦.

(٦) أزهار الرياض: ١/ ١١٧ - ١٢٤.

– «أقذع فيها، فلذا تركتها»^(١). ويبدو أن الناس كانوا يتساهلون في إيراد الفحش في المقامات، يدلنا على ذلك قول المقرئ: «وقد اغتفر الناس المقامات مع ما فيها من سخيـف المقالات والأعمال بالنيّات»^(٢).

وبعد أن تناولنا موضوعات المقامات الأندلسية، تبين أن فن المقامة في الأندلس كان في نفس الوقت امتداداً لهذا الفن الأدبي كما ظهر في المشرق، ومحاولة لتجاوزه. فقد تبنى شكله الأصلي عدد من أصحاب المقامات، لكن إنتاجهم – أو على الأقل ما تبقى منه – لا يكفي لتقييم مكانته في تاريخ هذا الفن.

وتحويل وجهة المقامة من الكدية إلى الرحلة والنقد الأدبي، والمدح لا يقلل من شأن المقامين الأندلسيين وإنما يدل على قدرتهم على التفنن والإبداع. وهذا ليس من ابتداء الأندلسيين، فمن المؤلفين المشاركة من ركّز على موضوعات لم ترد أصلاً في المقامات الأولى، ونخص بالذكر مقامات الزمخشري التعليمية، ومقامات ابن الجوزي الوعظية، ومقامات الشاب الظريف الغرامية، وغيرها.

(١) أزهار الرياض: ١/ ص ١٢٢.

(٢) المصدر نفسه: ٣/ ص ١٠٣.

ثانياً: الخصائص الفنية للمقامات الأندلسية

بنية المقامة (الإطار الشكلي):

كان بديع الزمان الهمذاني يصدر مقاماته بقوله: «حدثنا عيسى بن هشام قال»، ولم يجد عن هذا الافتتاح إلا في مقامتين، فقد استهل المقامة الغيلانية بقوله: «حدثني عيسى ابن هشام قال...»^(١)، وصدر مقامته الأذربيجانية بعبارة «قال عيسى بن هشام...»^(٢).

أما الحريري فقد نوع افتتاحه لمقاماته، فقد استهل أكثر من نصف مقاماته بقوله: «حكى الحارث بن همام قال...»، أما بقية المقامات فكان يُصدرها بقوله: «أخبر الحارث ابن همام...» و«حدث الحارث بن همام»، وروى الحارث بن همام.... واستهل مقامة واحدة هي المقامة «الإسكندرانية» بقوله: «قال الحارث بن همام...»^(٣).

وبعد عبارة الافتتاح يعرض الراوي حدث المقامة، الذي يدور في الأغلب حول الكدية والحيل التي يلجأ إليها البطل لنيل رزقه، وكانت أغلب مقامات البديع والحريري تختم بأبيات قصار من الشعر يجيء بعدها تعليق الراوي على الحدث.

وإذا ما انتقلنا إلى المقامات الأندلسية فإننا نجد أغلب كتّاب المقامات الأندلسيين لم يلتزموا البناء المتبع عند البديع والحريري، فقد استهل ابن الشهيد مقامته بمقدمة في أصول صناعة الكتابة^(٤)، بينما افتتح محمد بن مالك القرطبي مقامته بمدح ابن صمادح

(١) انظر: مقامات الهمذاني: ص ٣٨.

(٢) المصدر نفسه: ص ٤٣.

(٣) انظر شرح مقامات الحريري: ص ١٦٢ - ١٨٠ (المقامة التاسعة).

(٤) انظر نص المقامة ص ٧٥ - ٨٣ من دراستنا هذه

والثناء عليه^(١)، أمّا بن المعلم فقد اختار وصف الطبيعة وحنينه إلى إخوانه مقدمة لمقامته^(٢). وتباينت خواتم هذه المقامات فكان كلّ كاتب ينهي مقامته نهاية لا تتفق في بنائها مع غيرها من خواتم المقامات الأخرى.

أمّا السّرقسطي فقد راعى عند افتتاحه لمقاماته - التي عارض فيها الحريري - ما رأيناه عند البديع والحريري، فقد استهل أكثر من ثلثي مقاماته بقوله: «قال.....»^(٣)، ويقصد الراوي السائب بن تمام. أما بقية المقامات فكان يصدرها بقوله: «حدّث المنذر ابن حام قال: حدّث السائب بن تمام...»^(٤)، وقد التزم السّرقسطي في مقاماته البناء نفسه الذي بنى بديع الزمان والحريري مقاماتها عليه، فبعد أن يفتتح مقامته بواحدة من تلك العبارات يعرض لبسط حدث المقامة الذي يدور في أغلب الأحيان حول الكدية والحيلة، ثم يختم بأبيات كثيرة من الشعر إذا قورنت بتلك الأبيات التي كانت تختم بها أكثر مقامات البديع والحريري، يلحقها بتعليق الراوي على الحدث.

الراوي والبطل:

يجدر بنا هنا أن نتحدث عن نوعين من المقامات الأندلسية، أولهما: المقامات التي نهج فيه أصحابها نهج بديع الزمان والحريري، ومن ذلك المقامات اللزومية للسّرقسطي، ومقامة عارض بها ابن الخصال مقامات الحريري. وثانيهما: المقامات التي لم تقم على معارضة المقامات المشرقية، ولم ينهج فيها أصحابها نهج بديع الزمان والحريري.

(١) انظر نص المقامة ص ٨٧ - ٩٤ من دراستنا هذه.

(٢) انظر نص المقامة ص ٩٧ - ١٠٠ من دراستنا هذه.

(٣) منها المقامات ذوات الأرقام: ١٢، ١١، ١٤، ١٦، ١٧، ١٨، ١٩، ٢٨، ٢٩، ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٧، وغيرها

(٤) منها المقامات ذوات الأرقام: ١، ٢، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩، ١٣، ١٥.

فمقامات النوع الأول سارت على نسق المقامات المشرقية في وجود راو للمقامة وبطل لها، وتعدّ مقامات السرقسطي النموذج الأفضل لهذا النوع من المقامات؛ لكثرتها من ناحية، وثبات شخصياتها من ناحية أخرى.

والشخصيتان الرئيسيتان في مقامات السرقسطي هما السائب بن تمام والشيخ أبو حبيب، وهو رجل سدوسي محتال أصله من عُمان. وأحياناً يذكر في بعض المقامات شخص ثالث اسمه «المنذر بن حمّام» لا دخل له في أحداث المقامة، وإنما هو راوية يتلقى حديث المقامة عن السائب بن تمام الذي يكنى بأبي الغمر، ويتدخل في قصة المقامة أحياناً فتیان هما ابنا الشيخ السدوسي -أو أحدهما- والأول منهما حبيب، والثاني غريب، اللذين استخدمهما في بعض الأحيان للتحايل والكدية، ولكن ذلك لم يكن كثيراً، فلم يرد إلا في خمس مقامات^(١).

وشخصية المنذر بن حمّام - في مقامات السرقسطي - تنقل الحديث ولا تتدخل فيه، حيث نجد عبارة «حدّث المنذر بن حمّام، قال: حدثنا السائب بن تمام»^(٢)، وأحياناً يقول «حكى المنذر بن حمّام، قال: حدثني السائب بن تمام قال...»^(٣).

وأما السائب بن تمام فله دوران في مقامات السرقسطي، فهو راوي الحديث، وأحد البطلين الرئيسين، ومن أهدافه الرئيسية البحث عن العلم، يقول: «وهجرت الأخدان والأصحاب، وأضمرت الانقياد والإصحاب، وجعلت أتطلب أندية الكتاب، ومشاهد ذوي العلم والكتاب»^(٤). ومن أهدافه أيضاً ابتغاء صلحاء الناس وخيارهم ليزداد خبرة بالحياة، يقول بعد أن حلّ بالإسكندرية: «وقد خلصتُ إليها بالوفر الوافر

(١) المقامات ذوات الأرقام: ٨، ١٨، ٣٦، ٤٢، ٤٩.

(٢) انظر المقامات: ١، ٢، ٤، ٩، ١٣، ١٥.

(٣) انظر المقامة الثالثة.

(٤) المصدر نفسه: ص ١٦٤.

والحال السرية، وكنتُ إذا حللتُ مثلها من حضرة التمسُّ ما فيها من حُسْن ونضرة، وتتبعُ صلحاءها وزهادها، وطالعتُ نجادها وهادها....^(١)، يبتغي الوعظ والقصاص والعلماء والشعراء، ففي عُمان يلتقي بقائم «يقصُّ القصص والأنباء، ويحمل من الحديث الكُلَّ والأعباء، ينظم تارة وينثر، ويمر هوناً في حديثه ولا يعثر»^(٢).

وهو شخصية تسيطر عليها حالات الاضطراب فيغرق في اللهو، ويشكو الفقر والغربة، وهو شخصية ضعيفة تقع عليه الاحتمالات، أو تقع أمامه ولا يحرك ساكناً، ولا يحتاج، و تتكرر عليه مرات ومرات.

وهو رحالة لا يكاد يستقر في مكانه، فيوماً فارق جر جان إلى أرجان^(٣)، وآخر انحدر فيه إلى أرض حُلوان^(٤)، وقد تطرحه طوارح الزمن إلى أرض اليمن^(٥)، وقد يحل دمياط^(٦)، أو سنجار^(٧)، أو ظفار^(٨)، أو اليمامة^(٩).

وهكذا فهو في ترحال دائم يتقلب من بلد إلى بلد^(١٠)، ينجد في سيره ويُسْثَم^(١١)، فما يزال يركب «الدهر حالاً على حال، من خصب وإمحال، وحلّ وترحال»^(١٢)..». وكان

(١) المقامات الزومية: ص ١٠.

(٢) المقامات الزومية: ص ٣٩، ٣٥٣.

(٣) المصدر نفسه: ص ١٦.

(٤) المصدر نفسه: ص ٢٩.

(٥) المصدر نفسه: ص ٣٩.

(٦) المصدر نفسه: ٤٩.

(٧) المصدر نفسه: ص ١٤٩.

(٨) المصدر نفسه: ١٦٠.

(٩) المصدر نفسه: ص ١٧٠.

(١٠) المقامات الزومية: ص ١٣٦.

(١١) المصدر نفسه: ص ١٠٢.

(١٢) المصدر نفسه: ص ٧٧.

ينبغي من هذا التجوال الرزق حيث يقول: «أتبّع الرزق وأستشير، فيأبى عليّ قليله وكثيره، أقاربه فيباعد، وأطالبه فلا يساعد»^(١).

وقد تجرّه ملذات الحياة إلى اللهو في تلك الرحلات، يقول: «مازلت أذهب مع الجنوب والشّمال، وأرمي باليمين والشّمال... ولم يزل المال ينقاد عِناؤه، ويدنو عِناؤه... فتسامت هممي، وتجلّت غممي... وجاريتُ كلّ حقوق في البطالة وسَبوق. أصبوا إلى النّغم والملاهي، وأنا عن رشدي ساهٍ أو لاهٍ...»^(٢). لكنّه لا يستمر على هذا اللهو، بل يثوب إلى رشده، ويندم عن تأخر متابه، يقول: «وأنا أتذمّم من تأخر المتاب، وأتلوم على تعذر الإعتاب»^(٣).

أمّا البطل فهو الشيخ أبو حبيب السّدوسي، الذي يظهر في صور مختلفة، ولكنّه في أغلبها يبدو شيخاً كبير السن فيكون واعظاً في كثير من الأحيان، أو قاضياً، أو سيّد قوم، أو ناقدًا، أو داعياً للبطالة، أو طبيباً، أو امرأة تلعب بالرجال، أو فقيراً، أو ماجناً، أو محتالاً يتفنّن في ضروب الاحتيال.

وهو شخصيّة رحّالة لا يستقر في مكان، بل ينتقل من بلد إلى بلد ومن جهة إلى أخرى، وهو أديب له قدرة بيانية فائقة تخلب الألباب، وكل من يستمع إلى حديثه يقترب منه، وقد استغلّ بلاغته لخدمة أهداف عامة، وهي تصوير مجتمع الأندلس ونقده. ولم يكن احتياله على الناس باستدرار عطفهم، وأخذ الأموال منهم إلا طريقة أخرى لنقده لظاهرة حب الناس للمال، الذي يسعون للحصول عليه بشتى الطرق المشروعة، وغير

(١) المقامات اللزومية: ص ٧٧.

(٢) المقامات اللزومية: ص ٣٨٤.

٣ المصدر نفسه: ص ٢٣٢.

المشروعة، وقد تبين أن المال في حياة الناس أصبح كل شيء يقول للسائب: «الحب المال والكرم بالأعمال»^(١)، وهو شخصية متقلبة المزاج، ويسخر أبناءه للخداع، ونجده يبرّر في بعض الأحيان انصرافه إلى الاحتيال، ومن ذلك قوله للسائب:

اعذر أخاك اليوم في فعله فربما ضرّ أخٌ نافع^(٢)

فهو لم يكن، يتحايل على صديقه بدافع الشر، لكنه مضطر إلى ذلك، لأنه، يعاني من الهموم المادية، ويحمل شعوراً مأساوياً بالضعف والفقر، فنجده شاكياً من صروف الزمان وتقلب الأيام. يقول عن نفسه: «أنحى عليه دهره، وتساوى يومه وشهره، ونبت به أعطانه، وشطت عنه أوطانه، و نفض الزمان أغصانه، وسلب حصانه وحصانه»^(٣).

وقد يعترف البطل للراوي بآثامه، فيقول: «فحدر عن لثامه، واعترف بآثامه»^(٤). وبرغم شعوره بالذنب فإنه لا يتوب، وقد صرح بذلك الرواية الذي يئس من متاب البطل، الذي يكرّر معه التحايل برغم المال الذي يعطيه له وبرغم معرفته له، وكل ما يصدر عنه هو الاعتذار في بعض الأحيان^(٥).

ويرى أحد الباحثين أن السرقسطي لم يتخذ للبطلين الرئيسيين في مقاماته اسمي السائب وأبي حبيب اعتباطياً، ويعلّل اسم السائب بقوله: «السائب ليس سائب الاسم فقط، بل سائب الجسم أيضاً؛ لأنه رَحالة لا يكاد يستقر في مكانه ولكنه حبيس

(١) المقامات اللزومية: ص ٢٩٦.

(٢) المصدر نفسه: ص ٣٢٠.

(٣) المقامات اللزومية: ص ٣٩١.

(٤) المصدر نفسه: ص ١٧١.

(٥) المصدر نفسه: ص ٢٨١.

الموقف»^(١). وكذلك أبو حبيب فيبدو أنه سميّ بهذا الاسم لأن ما يصدر عنه من أدب ومواعظ محببة إلى الناس وإلى الراوية لكنه بغیض بحيلة^(٢)، وقد عبّر عن ذلك السائب بقوله: «أبو حبيب لا درّ درّه من بغیض إلىّ حبيب»^(٣).

ومن المقامات التي نهج فيها أصحابها نهج الحريري مقامة لأبي عبد الله بن أبي الخصال، والجدير بالملاحظة أن ابن أبي الخصال لم يبتدع شخصيته الخياليتين، بل اتكأ على الحريري، واختار الحارث بن همام راوية، والسروجي بطلاً.

أمّا المقامات التي لم تقم على المعارضة فالأمر فيها مختلف فابن فتّوح لم يستتر وراء شخصية متخيلة، وإنما أعلن عن شخصيته في صراحة ووضوح، ونصّب نفسه بطلاً للمقامة، ولم يتخذ لحديثه راوية.

ومقامة ابن الشهيد التي نصّب فيه نفسه بطلاً لا تتخذ ذلك الشكل الذي وجدناه عند البديع والحريري، فهي مجرد مشاهدات وملاحظات لم تصل إلينا كاملة، ولا نعتقد أن الجزء المفقود منها يختلف كثيراً في تكوينه عن الجزء الذي وصل إلينا. ونجد في مشهد منها الديك الذي أنطقه ابن الشهيد يقوم بدور أشبه بدور بطل المقامة، وعرف الطريق إلى خلاص نفسه من هذا المأزق المتأزم.

ومقامة ابن المعلم من مقامات المدح الخالص، ساقها في ألفاظ سهلة، وتراكيب مقبولة، كما أدخل عليها شيئاً من الحيوية حين أدارها على نفسه، وكأنه نصّب نفسه بطلاً لها^(٤).

(١) محمود الهادي الطرابلسي: مدخل إلى تحليل المقامات اللزومية، حوليات الجامعة التونسية، عدد ٢٨، ص ١١٦.

(٢) د. محمد سعيد محمد: دراسات في الأدب الأندلسي، ص ٣٠٨.

(٣) المقامة الثانية والعشرون (القيروانية): ص ٢٨١.

(٤) انظر نصّ المقامة ص ٩٧-١٠٠ من دراستنا هذه

أمّا مقامه ابن مالك القرطبي، فإنها لا تكاد تحيد عن ذلك، إذ ليس لها عنوان، ولا يتبيّن فيها بطل ولا راو ولا عقدة ولا كدية مما تعرفه المقامة^(١).

وكان ابن المربع الأزدي هو البطل والراوي معاً في مقامه العيد، وهذا ظاهر من مطلع المقامة حيث قال: «يقول شاكر الأيادي، وذاكر فخر كلّ نادي، وناثر الغرر للعاكف والبادي، والرائح والغادي....»^(٢).

طول المقامة:

تباينت المقامات الأندلسية في طولها، فهناك مقامات غاية في الطول، وأخرى غاية في القصر، مما يدلّ على تفتّن المقامين الأندلسيين في كتابة مقاماتهم.

ومن المقامات الطويلة مقامه أبي محمد القرطبي، وهي مقامه مفرطة في طولها بمقاييس صاحب «الذخيرة» - فلذلك اجتزأها، واكتفى من جُمَلتها بفصول منها، جاءت بعد الحذف والاقتضاب في اثنتي عشرة صفحة من مطبوع كتابه^(٣).

ومقامة ابن الشهيد، أورد ابن بسام فصلاً منها، وذكر أنها طويلة، ولذلك حذف بعض فصولها. والظاهر أنها طويلة فعلاً، ذلك أن الفصول التي أوردتها جاءت بعد الحذف في اثنتي عشرة صفحة من كتاب «الذخيرة»^(٤). ولا ندري ماذا يمثل حجمها الحالي من النص الأصلي، الذي أنشأه المؤلف أوّل مرّة.

(١) انظر نص المقامة ص ٨٧-٩٤ من دراستنا هذه.

(٢) انظر المقامة كاملة ص ١٨٨-١٩٣ من دراستنا هذه.

(٣) انظر الذخيرة: ق ١ م ٢ ص ٧٤١-٧٥٢.

(٤) انظر الذخيرة: ق ١ م ٢ ص ٦٧٤-٦٨٥.

أمّا مقامة ابن المعلم فقد أورد ابن بسّام فصولاً منها تحت هذا العنوان: «فصول من مقامة»^(١). وقد طالت هذه الفصول، وبلغ ما أوردته منها ابن بسّام خمس صفحات من مطبوع كتاب «الذخيرة»^(٢)، وهذا يعني أن المقامة كاملة أطول مما أوردته صاحب «الذخيرة»، وكأن صاحبها كان يعرض براعته في رسم مناظر متعددة، يصلح كلّ واحد منها ليكون مقامة في حدّ ذاته، ولكنه جمعها في مقامة واحدة.

ومقامتا «السياسة» و «الإشارة إلى أدب الوزارة» للسان الدين بن الخطيب، واللّتان أوردتهما في كتابه «ريحانة الكتاب» من المقامات الطويلة، ولذلك نجده يقسم المقامة الثانية على مجلسين، ويجعلها في مقامتين^(٣)، لأنه اعتقد أنها لا تنتهي في مجلس واحد.

ومقامة العيد لابن المربع الأزدي جاء الجزء الذي وصل إلينا منها في ست صفحات من مطبوع كتاب «الإحاطة»، وقد استرسل صاحبها في مديح الأمير أبي سعيد ابن نصر، ولكن ابن الخطيب اكتفى بفقرة واحدة من المديح، كما قال^(٤)، وبهذا فوّت علينا فرصة الوقوف على نصّ مقامة ممتعة في الكدية.

وقد يكون للتداخل بين فنيّ الرسالة والمقامة عند الأندلسيين أثر في جعل هذه المقامات تنهج منهج الرسائل في إطنابها وطولها.

أمّا مقامات السرقسطي فإنها تمثل شكل المقامة الطبيعي، ولعل ذلك راجع إلى أنه عارض بها الحريري، والتزم فيها طريقته التزاماً وثيقاً.

(١) الذخيرة: ق ٢م ١ ص ١١٣

(٢) المصدر نفسه ق ٢م ١ ص ١١٣-١١٧

(٣) انظر دراستنا هذه ص ٢١٢-٢٣٢.

(٤) الإحاطة: ٣/ ص ٤٣٢.

ومقامة ابن أبي الخصال بالرغم من أنّه عارض بها الحريري وسار على نهجه واتخذ نفس الشخصيتين الخياليتين اللتين أجراهما الحريري في مقاماته،^(١) إلا أنها طالت أكثر مما نجده عند الحريري، فقد بلغت ثلاثين صفحة، أكثر فيها ابن أبي الخصال من شعره الذي أورده، وأظهر ثقافته الغزيرة من خلال كثرة تضمينه للأمثال العربية، وكثرة ترديده للأسماء التي لها دور في الثقافة العربية، يضاف إلى ذلك قدرته اللغوية من خلال تعابيره واقتباساته من الشعر والقرآن الكريم.

ويرى د. إحسان عباس أنه لا يلتزم هذا المنهج، الذي التزمه ابن أبي الخصال إلا كاتب لا يودّ أن ينشئ عدة مقامات متفرقة، وإنما هو ينشئ مقامة أو اثنتين ويحاول أن يعرض براعته في رسم مناظر متعدّدة يجمعها معاً في مقامة واحدة^(٢). وتابعة في ذلك بعض الباحثين الذين رأوا أن ابن أبي الخصال حاول أن ينشئ عدة مقامات قليلة يجمعها في مقامة واحدة^(٣).

(١) انظر نص المقامة في رسائل ابن أبي الخصال: ص ٤٢٠ - ٤٤٩، وانظر ص ١٢١ - ١٢٣ من دراستنا هذه.

(٢) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين): ص ٣١٧

(٣) د. محمد رضوان الداية: في الأدب الأندلسي، ص ٢٥٨، ود. مصطفى السيوفي: ملامح التجديد في النثر الأندلسي:

المقامة والأنواع الأدبية الأخرى أولاً: علاقة المقامة بالقصة:

أسلوب القصص من أظهر الأنواع الأدبية التي تحملها المقامة، فالمقامة المشرقية في الغالب قصة قصيرة، أو حكاية موجزة، تُساق بأسلوب يميل إلى الدعابة والسخرية. ولا يربط بين المقامات رابط، لهذا كانت كل حكاية مستقلة عن غيرها، وتكاد تكون موضوعاً مستقلاً يفيد منه القارئ متعة أدبية أو فنية أو اجتماعية بشكل مستقل لا يمت بصلة إلى المقامة التي سبقتها، أو التي جاءت بعدها، حتى إن أحد الباحثين عدّ بديع الزمان رائد القصة العربية في المشرق^(١).

والمقامة الأندلسية نشأت بعد نشأة المقامة المشرقية، ووصول نماذج منها إلى الأندلس، وكان من الطبيعي أن تسلك المقامة الأندلسية من حيث أصلها على الأقل سبيل المقامة المشرقية في اعتمادها القصص والحكاية. وقد كان عدد من المقامات حريصاً على تحقيق هذه الصنعة، ومنها المقامات اللزومية، التي حافظت على أسلوب المقامة الفنية، مع بعض الغلو في استخدام الصنعة البديعية.

وفي مقامات السرقسطي كثير من الحكايات والقصص، فالمقامة العنقاوية^(٢)، التي وقعت أحداثها في الصين، استمد فيها السرقسطي مادة من أقاصيص البحريين وحكاياتهم وتصرف بها، فقد جعل البطل في المقامة يقوم ليحدث الناس عن العجائب البحرية، التي لاقاها في سفره، فقد أخبرهم أنه كان ذات يوم يسير في قفرة ملساء: «فبينما نحن كذلك إذ انسابت تلك الأرض، واستدار بنا الطول والعرض، فطوينا المراحل،

(١) د. مصطفى الشكعة: الأدب الأندلسي (موضوعاته وفنونه)، ص ٦٤١.

(٢) انظر نصّ المقامة في المقامات اللزومية ص ٤٨١ - ٤٩٦.

ورأينا الصحاري تمشي بنا والسواحل إلى أن رأينا البحر يسير إلينا ونسير إليه، ويعلو علينا تارة ونعلو عليه.... إلى أن خرجنا إلى جزيرة عريضة، ذات مرباع خصيبة وأرض أريضة.... واستيقظنا من تلك الغمرات، وصحونا من تلك السكرات، فعلمنا أنه حيوان بحريّ أصحر ثم أبحر». وبعد ذلك يصف كيف هبط فوقهم شيء كأنه السحابة الظليلة، وظهر لهم شيخ فأخبرهم أن السحابة الظليلة ليست سوى فرخ العنقاء، وأن الشيخ شاهده وهو فرخ صغير، توفيت أمه، فزقه بيده وتقديرًا من ابن العنقاء لهذه التربية فإنه يزور الشيخ في كل شهر «فكم جلب إليّ من ماء النيل، وخصني من ماء دجلة والفرات بكل عذب فرات، وحباني من سيحان وجيحان بكل رزق طيب وريحان»، ثم يصف كيف تعلقوا بالطائر حتى يوصلهم إلى بر الأمان: «فمازلنا كذلك حتى جثم ذلك الطائر، وتعلق به منا كل سادر وحائر.... سار في الهواء سيراً رقيقاً، وجعل السحاب يسايرنا رقيقاً، تحفّق تحتنا البروق، وتتطلع إلينا المغارب والشروق، إلى أن فارقتنا البحار، وعلمنا أنه الاصطحار، ولما يجنّ من ليلنا الأسحار، ثم أخذ في الانصباب والانحطاط إلى واسع من الأرض ملطاط، إلى أرض ذات أشجار وأنهار، ورياض مودقة وأزهار، فخبّرنا أنها من أرياف النيل وشطوطه، ومجاريه وخطوطه، فحمدنا الله على نعمائه، وتقلّبنا بين أرضه وسمائه....»^(١).

وقد تحتوي المقامة على قصّة موجزة ضمن كلام طويل وتفاصيل كثيرة، في شؤون شخصية أو اجتماعية، أو غير ذلك، على نحو ما نجده في مقامة ابن المعلم، التي بدأها بمقدّمة أشبه بالمقدّمات الطللية^(٢). وبعد أن يسترسل في هذه المقدمة، يأتي إلى سرد ما

(١) المقامات اللزومية : ص ٤٩٢.

(٢) انظر دراستنا هذه ص ٩٧.

يشبه الحكاية، أو القصة القصيرة، فيقول: «وكان لي أليف وعقيد شريف، من صُرحاء الإخوان، وصيّابة الفتيان، ومصاص أعيان الزمان، وحين سوّلت لي همتي ما سوّلت، وخيّلت لي أمنيّتي ما خيّلت، أجلنا قداح الرأي، وأسهمنا بين القرب والنأي.....»^(١)

ثانياً: علاقة المقامة بالرسالة

إنّ الحديث عن الإطار الشكلي للمقامة الأندلسية يقودنا إلى الحديث عن علاقتها بفن الرسالة، والتداخل بين هذين الفنين. فصورة المقامة الأندلسية - باستثناء مقامات السّرّطي، وغيرها من المقامات التي نهجت نهج المقامة المشرقية - كانت تختلط بالرسالة الأدبية، حتى إنّ هذا الخلط بين المقامة والرسالة لم يغادر أذهان الأدباء والنقاد الأندلسيين، فهذا هو ابن بسام يورد فصلاً من نثر ابن مالك القرطبي ويعنون لها بقوله: «فصول من مقامة لأبي محمد بن مالك القرطبي»^(٢). ولكنه عقب على تلك الفصول بقوله: «ومدّ ابن مالك في رسالته أطناب الإطناب....»^(٣). فالنص هو هو، ولكن ابن بسام يسميه «مقامة» حيناً و«رسالة» حيناً آخر.

وقد عالج الباحثون والدارسون التداخل بين فني المقامات والرسائل عند الأندلسيين، ومن نبهوا على ذلك د. إحسان عباس، وأول ما رآه أن المقامات الأندلسية «قد انتفت من بعضها قصّة الكدية والحيلة المقترنة بها، وأصبحت صورة من رسالة يقدّمها شخص بين يدي أمريرجوه، أو أمل يحبّ تحقيقه، كما أن كثيراً من المقامات الأندلسية أصبح وصفاً للرحلة والتنقل في داخل بلاد الأندلس، وفي هذا أيضاً شاركت

(١) انظر دراستنا هذه: ص ٩٧.

(٢) الذخيرة: ق ١/ ٢م / ص ٧٤١.

(٣) للذخيرة: ق ١/ ٢م / ص ٧٥٢.

الرسالة....^(١) ويرى د. عبد العزيز عتيق أنّ كتاب المقامة الأندلسية قد خرجوا بالمقامة إلى صورة أشبه بالرسالة، أو بها تُسمّى حديثاً بالمقالة^(٢).

وقد ترتب على التداخل بين المقامة والرسالة أن بعض المقامات لا يتوافر فيها عنصرا البطل والراويّة، فلم يعودا مُلتزمين كلّ الالتزام، وكذلك فهي لا أسامي لها كمقامات البديع والحريري، لأن الأندلسيين لم يهتموا بالبناء الفني للمقامة اهتمام المشاركة، بل انصبّ اهتمامهم حول إظهار براعتهم الفنية في التعبير اللفظي والأسلوب البياني، مع محاولة الاحتفاظ بشيء من الفكاهة والتسلية.

والكثير من المقامات الأندلسية، التي لم تقم على معارضة المقامات المشرقية، مالت إلى نهج الرسالة، سواء من حيث الإطناب والإطالة، أو من حيث الاتجاه نحو وصف الرحلات، وسرد التفاصيل التي تكون فيها، ولذلك فإننا نجد من الباحثين من يعدّ تلك المقامات في الرسائل أو في أدب الرحلات. فمقامتا «خطرة الطيف» و«معيّار الاختيار» وغيرهما من مقامات لسان الدين بن الخطيب - إن صحّت تسميتها بالمقامات - لم يجعلها د. شوقي ضيف في المقامات الأندلسية، لأنها أشبه بالرحلات منها المقامات^(٣)، ولذلك تحدّث عنها في أدب الرحلات^(٤). وجعلها غيره في رسائل ابن الخطيب^(٥)، وقد تقدّمت الإشارة إلى ذلك في بحثنا هذا^(٦).

(١) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف المرابطيين) ص ٣٠٨.

(٢) الأدب العربي في الأندلس: ٤٨٢.

(٣) تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات): ص ٥١٧.

(٤) المرجع نفسه: ص ٥٣٠ - ٥٣١.

(٥) انظر: د. مختار العبادي: مشاهدات لسان الدين بن الخطيب (مجموعة من رساله): ص ٢٤، ص ٦٧.

(٦) انظر ص ٥٥ من هذا البحث.

ولكن السؤال الآن: هل يمكننا أن نلحق مقامه ابن مالك القرطبي، ومقامة عمر ابن الشهيد، ومقامة ابن المعلم، وغيرها مما أورده ابن بسّام تحت اسم «مقامة» بفن المقامات؟ إنّ الإجابة عن هذا التساؤل قد تبدو بعيدة عن الجو المعروف لهذه المقامات، التي لم تصل إلينا كاملة، فهي تخلو من عناصر المقامة كالشخصيتين الخياليتين «الراوية والبطل»، ومن أسلوب الحوار، وغيرهما من عناصر المقامات. ومن هنا فقد تباينت آراء الباحثين فيها، فمقامة ابن مالك - كما يرى د. عبد العزيز عتيق - لا يجمعها بالمقامة غير الاسم لخلوها من تقاليدها، ولهذا فهي أقرب شبهاً بالرسالة^(١). ومقامة ابن المعلم - كما يرى د. شوقي ضيف - أشبه برسالة في مديح أمير^(٢)، ومقامة ابن الشهيد خرجت عن رسوم المقامة المعروفة، وكلمة «مقامة» تطلق هنا على نزعة ووصف مشاهد، وتضمين للوصف الثري بالشعر^(٣). ومهما يكن فإن هذه المقامات الثلاث التي عرضها ابن بسّام في ذخيرته وأسمائها مقامات ليست مقامات بالمعنى الذي أراده بديع الزمان والحريري، وإنما تصف موضوعاً أو موضوعات، وهي أشبه بالرسائل منها بالمقامات^(٤).

ثالثاً: علاقة المقامة بالخطبة (الخطبة الوعظية)

يقف بطل المقامات في كثير من الأحيان خطيباً واعظاً، يذكر الناس بالآخرة، أو ينبّههم على أمور تخص حياتهم، وهم عنها غافلون، ويكثر هذا في مقامات السرقسطي، التي يتخذ بطلها فكرة الوعظ وسيلة لخداع الناس ونيل عطائهم. وكان للشيخ

(١) الأدب العربي في الأندلس: ص ٤٩٤

(٢) تاريخ الأدب العربي (عصر الطوائف والمرابطين): ص ٣١٠.

(٣) إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين): ص ٣١٠

(٤) تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات: الأندلس): ص ٥١٧.

السّدوسي، بطل المقامات السّرقسطي، خطب ذات أسلوب جميل يستخدم فيها النداء بعبارة «أيها القوم» أو «يا أيها الناس»، كقوله في المقامة التاسعة والأربعين: «يا أيها الناس عندي في هذا الشأن سرائر، وخبايا من الحكمة وضرائر، أخذتها عن العلماء ولقّتها عن الحكماء.... أين من لحقته آفة، أين من سحره ساحر، أو دحره داحر...»^(١).

وبنى السّرقسطي كثيراً من مقاماته على فكرة الوعظ، ومن مواعظه قوله في المقامة الرابعة: «يا أيها الناس، أضربْ لكم الأمثال، ولا أخاطب منكم الغناء ولا الحُثَال. الحكمة للمؤمن ضالّة، والموعظة على الهدى دالّة، الموت نازل، والأجل مقارب ومُنازل. والمرء بين أمل خادع، وقدر رادع، وعُمر ذاهب، وأجل ناهب...»^(٢). وفي المقامة النجومية^(٣)، ينال الشيخ أبو حبيب العطايا من الراوي وجماعته بمواعظه وحسن كلامه. وفي المقامة الحمامية^(٤)، يدعو الشيخ أبو حبيب الناس إلى افتداء حمّامة في قفص، ويطنب في وصف أسرها حتى ترقّ قلوب الناس وتدفع أموالها وثيابها لصاحب القفص ليطلق سراح الحمّامة، ولم يكن صاحب القفص إلاّ صديقاً للشيخ أبي حبيب، اتفق معه على تلك الحيلة.

وإذا استثنينا المقامتين الثلاثين والخمسين من المقامات اللزومية، وهما في الشعر والشعراء، وفي النظم والثر، وجدنا أنّ بطل المقامات يعتمد على مهارته في الوعظ، ووعظه غالباً تذكير بالآخرة والموت، ففي المقامة السادسة يقصد ميناء عدن، ويخطب في المجتمعين، ويشني على روح المغامرة فيهم، وحبّهم للحرية، ويقول لهم: «أذكركم بتلك

(١) المقامات اللزومية: ص ٥٣٩

(٢) المصدر نفسه: ص ٤٠

(٣) انظر: المقامات اللزومية: ص ٣٠٦ - ٣٢٠.

(٤) انظر: المصدر نفسه: ص ٤٧٢ - ٤٨٠.

البحور الزاخرة، والسفن الماخرة، والبحر العجاج. والماء الثجاج، وبالأعراف الجون، والغيايات والدجون، والغمرات المظلة، والأهوال المطلّة، وبرّنه القواصف، وأنه العواصف...^(١) فيستعير صفات البحر، ليزكّرهم بما يشبهها من أهوال يوم القيامة. وفي المقامة السابعة، وهي البحرية يقوم فيهم خطيباً، ويهول عليهم أمر السّفر في البحر: «وما الذي حملكم على ركوب هذا العجاج، وخرق هذا الماء الثجاج، ولكم في البر منفسح ومجال، ودونكم من صوله أوحالٌ وأوجال... هل شدّت عليكم المسالك، أو طُوّيت دونكم المهالك»^(٢).

ولم يقتصر الوعظ على مقامات السّرقسطي، فنرى الديك الذي جعله ابن الشهيد يقوم يدور البطل في بعض فصول مقامته واقفاً يخطب في جمع غفير من الناس الخارجين من صلاة الظهر، وقد «تواثبت إليه السّادة والوجوه». وهو يعدّد مننه عليهم، ويقول «أيها السّادة الملوك، فيكم الشاب مُتّع بالشباب، والأشيب نور شبيه مع الكواعب والأتراب، صحبتكم مدّة، وسبحت الله على رؤوسكم مراراً عدّة، أوقظكم بالأسحار، وأؤذن بالليل والنهار، وقد أحسنت لدجاجكم سفادا، وربيتُ لكم من الفراريج أعدادا...»^(٣) ثم يستغرب المعاملة السيّئة التي يلقاها منهم جزاء إحسانه المذكور، ولكن الأذى يبلغ القمة حين يراد به الموت في آخر عمره.

ويشتد غيظ الديك وألمه، فيسفع الدموع الساخنة، ويشتد الانفعال به فيغمى عليه... ويهرع أهل البادية الطيّبون إلى هذا المسكين «يضرّبون وجهه بالماء، ويخلصون له

(١) المقامات اللزومية: ص ٦٧ - ٦٨.

(٢) المصدر نفسه: ص ٧٨ - ٧٩.

(٣) انظر ص ٧٨ من دراستنا هذه

في الدعاء» حتى يفيق من غشيته. ويؤثر منظر الديك الباكي في الناس، فيشفقون عليه، ويتحركون لإنصافه من ظالمه فيقبلون على صاحبه باللوم والتوبيخ. ولكن البدوي يعتذر بأن ديكه، «ذو فخذ وصدر» وأنه لا بُدَّ له من قضاء واجب الضيافة بلحمه، ويفتخر بهذه المناسبة بشيمة الكرم، وإقراء الضيف، المتوارثة في أسرته أباً عن جد..

ويعترف له الديك بهذه الفضائل، ويثني عليه وعلى أخلاقه، وإنما يعاتبه على غلظه حين لم يعلم بأن «هرمات الديوك ليست من مطاعم الملوك»، وإنما ينفع أكلها في الاستشفاء والتداوي فحسب. يقع هذا الكلام من الناس موقعاً حسناً، يستلطفونه، ويوافقونه عليه، فيتخذونه منذ ذلك اليوم حكيماً.

وأبو زيد السروجي بطل المقامة عند ابن أبي الخصال يقف خطيباً واعظاً، يستحث القوم على العطاء، ويستثير فيهم دوافع السخاء، فيقول: «أيها الجمع الأريض والسؤدد العريض، والنفر البيض، والنائل المستفيض، والهمم السامية، والحفاظ الدامية، والسيوف الماضية، والليوث الضارية.. يا ينابيع الندى، ومصاييح الهدى، ومفاتيح الجدا، وحياة الحياة وردى الردى، ما هذا الجمود، والأكف لا تجود، ومنكم عهد الجود.....»^(١).

(١) رسائل ابن أبي الخصال: ص ٤٢٣، ٤٢٤.

رابعاً: علاقة المقامة بالقصيدة

تتكوّن المقامة الأندلسية في الغالب من قسمين: قسم نثري، ويشكل أغلبية المقامة، وقسم شعري يكون في آخر المقامة، وفي بعض الأحيان نجد شعراً يتخلّلها، وهو في الحالتين يشكّل جزءاً رئيسياً من تركيب المقامة. فالمقامة - وإن كان الأصل فيها النثر إلا أننا نجد السّرقسطي يكثر من الأبيات الشعرية في مقاماته، ونجد بين المقامات الأندلسية التي أوردنا نصوصها مقامات شعرية لا نثر فيها كالمقامة «المحسنية»^(١)، كما أننا نجد أيضاً مقامات يشكل الشعر الجزء الأكبر منها كمقامة «تسريح النصال إلى مقاتل الفصال»^(٢) للفقيه عمر الزجال.

والشعر في المقامة قد يكون من نظم صاحبها، كمقامة ابن أبي الخصال في معارضته الحريري، التي أورد فيها ثلاث قصائد متتابعة من شعره^(٣). وكذلك مقامات السّرقسطي، فالشعر فيها شخصي من نظم السّرقسطي نفسه، ويخضع للزوم كالنثر. وقد يكون من شعر الآخرين، حيث يعتمد المقاميون إلى تضمين مقاماتهم أبياتاً أو قصائد من الشعر - كي تخدم المعنى الذي قصدوا إليه - ترد في أثنائها، أو تنتهي بها، أو تكون في مطلعها بمثابة التمهيد^(٤).

وهذا يعني أنه قد يكون في المقامة أبياتٌ أو مقطعات أو قصائد تكوّن جزءاً من بنية المقامة وتكوينها، مما يدل على أن هناك علاقات بين المقامة والقصيدة. فالمقامة «هي

(١) انظر نصّ المقامة ص ١٨١-١٨٦ دراستنا هذه.

(٢) انظر نصّ المقامة ص ٢٤٤-٢٥١ في دراستنا هذه.

(٣) رسائل ابن أبي الخصال: ص ٤٣١-٤٣٥.

(٤) انظر الفصل الثاني من دراستنا هذه.

المجال الذي تعايش فيه الشعر والنثر بانسجام وتظافر في تناول الأفكار والصّور، والرؤى، والعواطف، دون أن نلمس تنافراً بينهما، طوّعهما المقاميون تطويعاً عجيباً، وجعلوهما نديّين متساخين^(١).

والشعر - في مقامات السّرقسطي كثير ومطرّد، لا تخلو منه واحدة، ودوره في بناء المقامة أساسي. فالسّرقسطي لا يسوقه للاستشهاد أو المجرّد ترصيع فصول المقامة النثرية، بل على أنه لبنة بنيوية وفكرية تبين أنّ المقامة عنده لا تقوم إلّا بها، ينشده الشيخ المكدي لكشف حقيقة وبيان موقف، فينسخ به الصورة التي يظهر بها في الفصول النثرية من المقامة، وكثيراً ما قام الشعر في آخر المقامة على موضوعين: الموضوع الأول، يتصل بمشكلة المقامة الخاصة، وفيه تحليل لوجه التصرف الذي يكون به من بكل السائب، ونقد لطبيعة المواقف الذي يتخذه منها في الحادثة المعروضة من ناحية، وتحليل لوجه التصرف الذي يكون من قبل أبي حبيب من ناحية أخرى. والموضوع الثاني يتجه فيه الشيخ المكدي إلى السائب بالوعظ والإرشاد فيما ينبغي أن يكون عليه سلوك الإنسان عامة في تجربة الحياة والأحياء وحكمة القلب مع الأزمان لكسب القوت والمحافظة على الاتزان. ولذلك كثرت في أشعار المقامات اللزومية أساليب الأمر والنهي، فكانت تقرّر الأشياء تقريراً، لا توحى بها إيجاء.

وإذا كانت القصيدة تبدأ باستيقاف الصبح والبكاء على الأطلال، فإن المقامة تبدأ بـ «حدث»، «حكي»، أو «قال»، أو «أخبر». ويصف الشاعر بعد الاستهلال أطلال محبوبته، ويصف ذكرياته في تلك الديار، والحنين إليها، وفي المقامة أيضاً حنين واشتياق إلى الأيام الخوالي، فهذا هو بن المعلم يستهل مقامته بالوقوف على الأطلال، داعياً لها

(١) فن المقامات بالأندلس: ص ١٩.

بقوله: « سقى عهدك أيتها الدمنة الزهراء كلّ عهد، وجاد قطرك أيتها الروضة الغنّاء كلّ قطر، وسال عليك من أدمعي كلّ مُلثّ هطال، وتناوحت عليك من أضلعي كلّ جنوب وشمال، منثّرة أنوارك، لا معفّية آثارك، ومهدية أرّجك ونسيمك، لا مغيرة أطلالك ورسومك....»^(١).

فهذه المقامة تزاحم الشعر في ميدانه، بعيدا عن النمط التقليدي للمقامة، وتكاد تلتزم بناء القصيدة، والبكاء على الأطلال من خلال موضوع المدح. ويسترسل كاتبها في هذه المقدّمة التي تشبه المقدّمات الطلية في قصائد الشعر الجاهلي.

وعندما ما ينتقل الشاعر إلى وصف الرحلة في القصيدة، التي يعرض خلالها معاناته، التي تعرّض لها من خلال تلك الرحلة كبعد الطريق، وشدة الحر، وكثرة الأخطار، حتى يصل إلى ممدوحه، وكلّما كانت المعاناة أكثر كان العطاء أجزل، وفي المقامات الأندلسية وصف للرحلة، بل إن مقامة عمر بن الشهيد تدور كلّها في فلك الحديث عن التحول، والانتقال، والرحيل، حتى إنّ أحد الدارسين للنثر الأندلسي سمّاها «المقامة الانتقالية»^(٢) يقول فيها: «.... ثم أغدّذنا سيرا، وكأننا ننقر طيرا، حتى نظرنا من السائمة تسرح في مروجها، كالعداري تيمس في دباييجها... ثم رحلنا وتذكّرنا الطراد، فمشت الجياد، وتواثب الآساد، واستعدّ بباز وكلاب....»^(٣).

ومعالم هذا الاتجاه الشعري في المقامات تعرب عنه مقامة ابن مالك القرطبي أيضا^(٤)، التي لا يتبيّن فيها كثير من عناصر المقامة، فهي أقرب إلى أن تكون قصيدة

(١) انظر دراستنا هذه ص ٩٧.

(٢) د. علي بن محمد: النثر الأدبي في الأندلس (أشكاله ومضامينه، ص ٥٧٥).

(٣) انظر ص ٨٢ من دراستنا هذه.

(٤) انظر نصّ المقامة وتحليلها ص ٨٧-٩٧ من دراستنا هذه.

مدحّية، انصرف صاحبها إلى الاهتمام بجمع الأقوال والألفاظ بأسلوب شاعري، يقول فيها: «حتى لاح لنا من ملك الأملاك، وثالث القمرين في الأفلاك، وجه جلّ هبوة ذلك العثير والعجاج الأكردر، فحين جلت غرّته الغراء جلايب الغبار، لم نذر أبدر الليل أم شمس النهار....^(١)». ويقول أيضاً: «ما رأيت وجهاً أسمح، ولا حلماً أرجح، ولا سجيّة أسجح، ولا بشراً أبدي، ولا كفاً أندي، ولا غرّة أجمل، ولا فضيلة أكمل، ولا خلقاً أصفى، ولا وعداً أوفى... مما خصّ الله به ثالث القمرين، وسراج الخافقين، وعماد الثقلين، المعتصم بالله ذي الرياستين»^(٢).

الصنعة اللفظية في المقامات الأندلسية :

اعتمدت المقامة السجع - الذي هو عنصر من عناصر المقامة المشرقية والأندلسية على السواء - أساساً في بنائها، والسجع في النثر كالقوافي الشعر وسيلة من وسائل الإيقاع والتنغيم، يقول ابن سنان: «فأما القوافي في الشعر فإنّها تجري مجرى السجع»^(٣)، ويقول أيضاً: «وكما أنّ الشعر يحسن بتساوي قوافيه، كذلك النثر يحسن بتماثل الحروف في فصوله»^(٤).

حرص كتاب المقامة الأندلسيون على فواصل الجمل والالتزام بالسجع، الذي يطول ويقصر بحسب حروفه ومعاني عباراته. وكان السجع من مقاييس الجمال الأدبي الشائعة عند الأدباء والنقاد. ولم يقتصر تأثير السجع والاحتفاء به على النثر الفني بألوانه

(١) انظر ص ٨٨ من دراستنا هذه .

(٢) انظر ص ٩٣ من دراستنا هذه .

(٣) سر الفصاحة: ص ١٧٩ .

(٤) المصدر نفسه ص ١٧١ .

المختلفة، وإنما تجاوز ذلك إلى النثر التأليفي. فابن بسام في كتابه «الذخيرة» استخدام السجع والتزم به في تراجمه للكتّاب والشعراء. أما الفتح بن خاقان - وهو واحد من كتّاب المقامات - فقد بنى كتابه «قلائد العقيان» على الثناء المسجوع، إذ أورد فيه أشعار الجيل الذي سبقه، وأشعاراً لبعض معاصريه مضمّنة في ثنايا تراجم شاعرية الصياغة، مرسلة في أسلوب مسجوع.

ولسنا نقصد في هذا المقام أن نقدّم دراسة بلاغية لألوان السجع التي ظهرت في المقامات الأندلسية، فالسجع وأنواعه في مقامات السّرقسطي وحدها قد لا تستوفيه دراسة متخصصة، ولكننا نريد أن نُبيّن عناصر الصنعة اللفظية في بعض المقامات الأندلسية، وبخاصة مقامات السّرقسطي، السجع يظهر في غير مقامات السّرقسطي عادة وتختفي، دون أن يلتزم به التزامات حرفياً، ولكنه في مقامات السّرقسطي مطّرد ولا تخلو منه مقامة ولا فقرة، ولا يعتمد فيه صاحبه على الازدواج فحسب، بل نجده ينوع في بناء السجع في مقاماته، فكان من مقاماته المزدوجة والمثلثة والموحدة السجعة، التي حافظت على الأصول الفنية للمقامة عند البديع والحريري.

وإذا كانت ومقامات السّرقسطي مبنية على السّجع، مثل مقامات الحريري، إلا أنه اقتدى فيها بأبي العلاء المعري فالتزم في نسجه ما لا يلزم ولذلك سميت بالمقامات اللزومية. واللزوم الذي اتبعه السّرقسطي هو أنه التزم فيها قبل حرف السجع حروفاً أخرى تختلف عن حروف السجع، فنراه في المقامة السادسة عشرة يشترط على نفسه أن تتوالى سجعاتها ثلاثية، ولذلك سمّاها المثلثة مفتتحاً لها بقوله: «أقمت في غزنة، فترشفت من مائها أي مزنه، وتوطأت من أكنافها كلّ سهلة وحزنة.....»، وسمى تاليتها المرصعة لأنه لم يكتف في سجعاتها بالاتفاق في حرف واحد بل التزم فيها حرفين أو أكثر، كقوله

في مطلعها. «حننت إلى الوطن المحبوب، ونزعتُ إلى الوطن المشبوب، حيث مآرب الشباب وملاعب الأحباب....». واشترط على نفسه في المقامة الثانية والثلاثين أن يختتم كل سجعاتها بحرف الهمزة، ولذلك سَمّاها الهمزية. واختتم سجعات المقامة الثالثة والثلاثين بحرف الباء ولذلك سَمّاها البائية، كما في قوله: «أقمت في حلب، بين درّ من العيش وجلب، أخوض في جدّ ولعب، وأروّض كل شامس ومستصعب».

وهكذا يسير في المقامة الجيميّة التي اختتم سجعاتها بحرف الجيم، وفي المقامة الدالية لاختتام السجعات بحرف الدال. وبالمثل صنع في المقامة السادسة ولثلاثين، التي اختتم سجعاتها بالنون وسَمّاها النونية، ويظهر غير قليل من التكلف في هذه المقامات لبناء السجعات فيها على حرف واحد.

واختلفت المقامتان اللتان بناهما على نسق الحروف^(١) عن المقامات السابقة فكل سجعتين تأتيان على حرف، ابتداء من الهمزة، ثم التاء، ولياء،.... إلى الياء، ومن ذلك قوله في المقامة السابعة والثلاثين، التي رتّب أواخر سجعاتها ترتيباً هجائياً: «قال: كنت زمان التكهل والاستواء، قد رأيت رأي الاعتزال والانزواء، وطويت صحف الآداب، ومحوت أثر تلك الأنداب، وطلّقتُ بنات الصبوة بتاتا، ولبست التوبة عباءة وبتاتا، وتعوّضتُ من المثاني و المثالث، بثوان من الذكر وثوالت، أدرع ثوب الدّياجي، وأطيل برسم البرّ طوافي وعياجي، فبينما أنا وقد سالت غرّة الصباح، وولّت دَوْلَة المصباح، ورسخ في نفسي من الأكل راسخ، لم ينسخه من الموعظة ناسخ، - حتى غلبني الهجود

(١) المقامتان السابعة والثلاثون والثامنة والثلاثون.

ووقدني الركوع والسجود، فرأيت كأني في حضرة بغداد، وقد أصابتني سحابة ظل ورذاذ، ثم أعقب وابل مطر، ففضى ما شئت من أهل ووطر...^(١).

وجاءت المقامتان التاسعة والثلاثون والأربعون مبنيتين على حروف أبجد، أي على نفس الحروف بالترتيب الأبجدي: أبجد، هوز، حطي، كلمن....، وقد كانتا أقصر المقامات لأنها محدّدتان بضعف عدد حروف النسق المتّبع.

وهكذا فإن السرقسطي قد التزم ما لا يلزم من السّجع في كلّ مقاماته، وظهرت ضروب من الصنعة المعقّدة المقصودة لذاتها في تلك المقامات، فعلى امتداد خمسين مقامة للسرقسطي لا تكاد تخلو جملة مسجوعة من التزام ذلك، ولعل ذلك يرجع إلى شدة تأثره بأسلوب المعري، وإن كان الحريري الذي قلّده السرقسطي يُعنى بالالتزام ذلك لكنه يتحرّر من أحياناً.

ومجمل القول: إنّ المقامات اللزومية حافظت على أسلوب المقامة الفنية، مع بعض الغلو في استخدام الصنعة البديعية في بعض المقامات التي أشرنا إليها، ولكن «سجعاته في المقامات الأخرى تشيع فيها العذوبة والسهولة والقدرة على التفنّن في الوعظ والوصف ونسج الكلام»^(٢). ويرى أحد الباحثين في المقامات اللزومية أنّ السجع في

(١) المقامات اللزومية : ص ٤٣٩.

البّت: كساء غليظ مهلهل، وقيل هو من وبر وصوف.

العجّ: رفع الصوت والصياح بالدعاء والتلبية في الحجّ.

الوقد: شدة الضرب، ووقذه النعاس : إذا غلبه.

(٢) تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات: الأندلس): ص ٥٢٤.

مقامات السّرقسطي أكثر تعقيداً وإثراءً من القافية في الشعر وهي بذلك تقوّي قيمته الإيقاعية تقوية لا تقدّر القافية في الشعر عليها.^(١)

وزخرت المقامات اللزوميّة بفنون البديع الأخرى من جناس وطباق وغيرهما، ومن أمثلة الجناس التام قول السرقسطي: «فلعلّه وعسى، أن يلين منه ما قد عسا»^(٢)، فكانت الأولى تعني الفعل «عسى»، والثانية تعني «ما غلظ واشتد». وقوله في وصف الركب الذين سافر معهم البطل «كلّهم يأوي إلى صاحب ونديم..... يتمّع بصنجه وربابه، ويأنس بزنبه وربابه»^(٣) فجناس بين كلمة «ربابه»، وعنى بالأولى آلة الربابة الموسيقية، وبالثانية اسم العلم (رباب). أمّا الجناس الناقص فقد عبّت به مقامات السّرقسطي، والتزمه في مقامتيه «المرصّعة»^(٤) و «المدبّجة»^(٥) فلا يكاد يخلو منه سطر فيهما. وإذا كان تركيزنا على الصنعة اللفظية في المقامات اللزومية، فهذا لا يعني أنّ المقامات الأندلسية الأخرى قد خلت من الصنعة والزّخارف اللفظية، ولكن مقامات السّرقسطي لكثرة عددها من ناحية، ولأن صاحبها التزم نهج الحريري، الذي عني بالصنعة في مقاماته عناية كبيرة من ناحية أخرى، لذلك قد توافرت فيها جميع فنون البديع.

إنّ المقامات الأندلسية، التي أوردنا نصوصها أو اكتفينا بالإشارة إليها، قد التزمت بالسجع، وهذا لا يخفى على قارئ تلك المقامات، ولكنها لم تلتزم به التزام

(١) محمد الهادي الطرابلسي: مدخل إلى تحليل المقامات اللزومية، حوليات الجامعة التونسية، العدد ٢٢٨، ص ١٢٥.

(٢) المقامات اللزومية: ص ١٧٧.

(٣) المقامات اللزومية: ص ١٧٧.

(٤) هي المقامة السابعة عشرة (المقامات اللزومية: ص ٢١٦ - ٢٣٠).

(٥) هي المقامة الثامنة عشرة (المقامات اللزومية: ص ٢٣٢ - ٢٤٠).

السرقسطي، ولم تغال في استخدامه مغالاته، ولكننا نجد فيها أمثلة كثيرة لفنون البديع الأخرى. فمن الجناس ما نجده في مقامة الوادي آشي وهو يصف فارساً يحمل فوق شمله طيراً جارحاً: «وقد احتمل فوق شمله أجمل جوارح، تميل إليه النفوس والجوارح»^(١)، فجناس بين (جوارح) الأولى، التي تعني الطيور الجارحة، و(الجوارح) التي تعني جوارح الإنسان، وهي أعضاؤه وأطراف جسده كيديه ورجليه، وقوله أيضاً: «وَحَلَلْتُ مَدِينَةَ سَلَا، وَقَلْبِي أَقْصَرَ عَنِ التَّصَابِي وَسَلَا، وَسَيْفِي يَنْشُدُ: خَلِيلِي عَنْ عَصْرِ الشَّبَابِ سَلَا»^(٢). فورد الجناس التام ثلاث مرات، فكانت «سلا» الأولى تعني المدينة المعروفة بسلا، والثانية تعني ترك، والثالثة تعني اسألاً.

الاقتباس والتضمين:

اعتمد المقاميون الأندلسيون على جوانب كثيرة في قنوات اقتباسهم، التي طعموا بها أسلوبهم بكل رائع جميل، فنهلوا من كتاب الله العزيز الحكيم، واعتمدوا على الحديث الشريف، وأردفوا ذلك بالحكم والأمثال، أو ما انتخبوا من أشعار يخلونها ويدخلونها في مضمون أقوالهم، غير عابئين أن تكون لأندلسيين أو مشاركة، وكانوا يذكرون صاحب النص، أو يغفلون الإشارة إليه، هذا بالإضافة إلى ما خالط نثرهم من ذكرهم لمشاهير الرجال وعظماء التاريخ وفحول الشعراء.

يُعَدّ القرآن الكريم أساساً بنى عليه الأندلسيون ثقافتهم، فكان كتاب التعبّد والتدين والتعامل، ولذا فقد حرص المقاميون على تضمين نصوصه الكريمة مقاماتهم.

(١) انظر ص ١٣٨ من دراستنا هذه.

(٢) انظر رسائل ومقامات أندلسية: ص ٨٢.

ويرجع هذا الحرص إلى أن الأندلسيين - كما يقول ابن خلدون - جعلوا القرآن الكريم أصلاً في التعليم في مرحلة الكتاب، فدخولهم الكتاب هياً لهم علاقة مبكرة بكتاب الله العزيز، إذ كان القرآن أصلاً مهماً يتعلّمه الصبيان في المكتب الأندلسي^(١).

وكانت تضمينات المقاميين واقتباساتهم من القرآن الكريم على شكلين:

أولهما: الاقتباس باللفظ، أي أن المقامي يأتي بالنص القرآني كاملاً، ولا يغيّر فيه شيئاً، **وثانيهما:** الاقتباس بالمعنى. وهذا الاقتباس أكثر شيوعاً من سابقه، إذ يحرص المقامي على اقتباس معاني القرآن الكريم ضمن معاني النصوص الثرية، وذلك بأنه يجري بعض التحوير على محفوظه من القرآن الكريم.

ونجد هذين الشكلين من الاقتباس في مقامة الوادي آشي، وفي المقامتين «القرطبية» و «الشّليّة». وما سبق من إيراد نصوص هذه المقامات وتحليلها كاف في عدم تكرار القول هنا، وقد أشرنا إلى تلك الاقتباسات في مواضعها من هذا البحث^(٢).

وفي مقامة النخلة لأبي حفص بن برد، يكثر الاقتباس بالمعنى، إلى درجة يصعب معها استقصاء، مواضع تلك الاقتباسات. بل إن المتأمل في فكرة المقامة التي تقوم على البخل والشح والسخرية، وما يترتب على الشح والبخل من خسران في الدنيا والآخرة، يذكر أنها لا تبعد كثيراً عن فكرة واردة في القرآن الكريم، في قصة نفر ساءم الله عز وجل أصحاب الجنة، إذ عزموا على صرمها وقطف ثمارها دون إخراج شيء لأحد من المحتاجين، فكانت عاقبتهم خسرانها بكل ما فيها، ﴿إِنَّا بَلَوْتَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا

(١) ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، ٤/ص ١٣٣٣.

(٢) انظر الفصل الثاني من دراستنا هذه.

أَصْحَبَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَنْتُونَ ﴿١٨﴾ فَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿١٩﴾ فَاصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنْ أَعْدُوا عَلَىٰ حَرْبِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَأَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَخْفَوْنَ ﴿٢٣﴾ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَعَدُوا عَلَىٰ حَرْبٍ قَدِيرٍ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ﴿٢٦﴾ ﴿١﴾

أما الشعر فهو ديوان العرب، فيه مفاخرهم ومآثرهم وأيامهم، وقد جعل المقاميون الشعر العربي أحد المكونات المهمة لثقافتهم، التي استعانوا بها في إنشاء مقاماتهم. وإذا كان ابن المعلم في تضمينه للشعر يورد البيت كاملاً، فإن أبا محمد القرطبي كان يلجأ إلى حل أبيات الشعر ونثرها في مقامته، ويدخلها في مضمون عبارته ببلاغة وإتقان، ونجده يحل معقود الشعر بصياغة جديدة مفارقة للمنظوم^(١).

لقد انصرف ابن مالك القرطبي في مقامته، التي أوردنا نصّها، إلى الاهتمام بجمع الأقوال والأمثال، وحلّ الأبيات الشعرية، وتخوير معاني الأدباء والشعراء السابقين. وقد أدرك ابن بسّام ذلك، فوصف المقامة بأنها «تُعَرَّبُ عن حفظ كثير»^(٢) كما أنّه عقّب عليها بقوله: «ومدّ ابن مالك في رسالته هذه أطناب الإطناب، وشن الغارة فيها على عدة شعراء وكُتّاب، من جاهلين ومخضرمين ومحدثين ومعاصرين، ولو ذكرت من أين استلب واختطف جميع ما وصف، وانصرف إلى كلّ أحد كلامه نثره ونظامه، ليحصل هو ساكتاً، ووقف باهتاً»^(٣).

(١) سورة القلم: ١٧ - ٢٦. وانظر مقامة ابن برد ص ٦٩ - ٧٢ من دراستنا هذه.

(٢) انظر المقامتين في الفصل الثاني من دراستنا هذه.

(٣) الذخيرة: ق ١ / ٢م / ص ٧٤١.

(٤) الذخيرة: ق ١ / ٢م / ص ٧٥٢.

وبالإضافة إلى ما أشرنا إليه من اقتباسات ابن مالك القرطبي، فإننا نورد أيضاً بعض عباراته، التي لجأ فيها إلى حل معقود الأبيات الشعرية، وإدخالها في تعبيراته، حيث يقول: «فإني وإن كنت الأخير زمانه، والسكيت أوانه، لدلالة على الدلائل، وخيلة على المخايل، أني آتي بما لم تستطعه الأوائل»^(١). وهذا مأخوذ من قول أبي العلاء المعري:

وإني وإن كنت الأخير زمانه لآتي بما لم تستطعه الأوائل

أو حيث يقول: «وإن ساء لي يوماً فعله وخلّاه، فإن أفعاله اللواتي قد سررن ألوف، وقد ألقى خلدي خلاء من غيره فاستوطن، وصادف قلبي فارغاً فتمكّن...»^(٢). وهذا القول ألفاظه محلولة من البيت:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خالِباً فتمكّننا

ولجأ المقاميون الأندلسيون إلى الاقتباس من الأمثال، يقول السرقسطي على لسان البطل الشيخ السدوسي: «وהל مررت بالوعساء، وعجت على الأجارع والأحساء، فقلت: سقط السائل على الخير»^(٣). والمثل هو «على الخير سقطت»^(٤). ونجد الوادي آشي - في مقامته التي أوردنا نصّها - يقتبس المثل: «تحت الرغوة اللبن الصريح»^(٥)، ويدخله في رسم صورة للجو يجنح نحو الهدوء بعد شدة الريح. والمثل: «يأتيك بالأمر من فِصّه»^(٦)، أفاد منه الفتح بن خاقان في مقامته، فقال: «واستفتشت العالم من وراء الزناد،

(١) و(٢) انظر دراستنا هذه ص ٩٣.

(٣) المقامات اللزومية: ص ١٨.

(٤) مجمع الأمثال: ٢ / ص ٢٤.

(٥) انظر ص ١٣٩ من دراستنا هذه. وهذا المثل اقتبسه ابن أبي الخصال في مقامته أيضاً (انظر رسائل ابن الخصال: ص ٤٤١).

(٦) مجمع الأمثال / ٢ / ص ٤١٨.

واستفتيت حافظ المتن والإسناد، لأقومَ بشرح الحديث ونصّه، ولآتينك الأمر من فصّه^(١). واستخدم الوادي آشي هذا المثل أيضاً في وصف بلاغة الرجل الذي ماشاه الراوية فتح بن ميسور وقوة حافظته، فقال: «فما سألته عن حديث إلا ذكره بنصه، ولا أمر إلا جاء به من نصّه»^(٢).

واعتمد ابن المعلم في مقامته على سرد الأمثال اعتماداً كبيراً، ولذلك شبّهها د. إحسان عباس برسالة ابن زيدون الهزلية في كثير من أجزائها^(٣). أمّا ابن أبي الخصال فقد أكثر من سرد الأمثال في مقامته، التي عارض بها الحريري، إذ أورد تسعة أمثال في مقامة واحدة^(٤).

وبعد، فإن نظرة سريعة إلى النصوص المقامية التي أوردناها، أو تلك التي أشرنا إليها، تُرينا أنّ الاقتباس من القرآن الكريم لم يقتصر على مقامات الوعظ والدعاء، بل امتد إلى مقامات المديح والهجاء، وغيرها من الموضوعات. وقد أشرنا إلى ما احتوته مقامتا ابن الشهيد وابن مالك القرطبي من ألوان الاقتباس اللفظي والمعنوي للحكم والأمثال والأشعار المشرقية والأندلسية.

وأما عن ذكر المقامين لعظماء التاريخ ومشاهير الرجال فيكفي دلالة على ذلك أن نطالع مقامة الفقيه عمر الزجال «تسريح النصال إلى مقاتل الفصال»، التي أوردنا نصّها^(٥)، بما زخرت به من حشد لأسماء الأعلام، ولا داعي للاستشهاد بأبيات منها هنا؛ لأن في ذلك ضرب من التكرار.

(١) انظر ص ١٠٦ من دراستنا هذه.

(٢) انظر ص ١٣٩ من دراستنا هذه.

(٣) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين): ص ٣١٤.

(٤) انظر رسائل ابن أبي الخصال: ٤٢٥، ٤٣٦، ٤٣٧، ٤٤٢، ٤٤٤، ٤٤٦، ٤٤٧.

(٥) انظر ص ٢٤٤-٢٥١ من دراستنا هذه.

ونختتم دراستنا بالقول: إذا كانت المقامة الأندلسية قد تناولت موضوعات وأغراضاً لم تعرف في المقامات المشرقية، وإذا كانت قد خرجت عن نهج المقامة المعروف عند البديع والحريري، فإن ذلك لا يقلل من شأنها، بل إنه قد يدل على تفوّقها، ويشكل سمة تحديث وعلامة تجديد للمقامة الأندلسية شكلاً ومضموناً.

فهرس المصادر والمراجع

- المصادر والمراجع المطبوعة.
- المصادر المخطوطة.
- الرسائل الجامعية.
- الدوريات

المصادر والمراجع المطبوعة

- القرآن الكريم
- ابن بَسَام وكتاب الذخيرة، د. حسين خريوش، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمّان، ١٩٨٤.
- الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين بن الخطيب، أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت ٧٧٦هـ)، تحقيق: محمد عبد عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ١، ١٩٧٤.
- إحكام صناعة الكلام، الكلاعي، محمد بن عبد الغفور (من أعلام القرن السادس)، تحقيق: محمد رضوان الدية، عالم الكتب، بيروت، ط ٢، ١٩٨٥.
- الأدب الأندلسي، (موضوعاته وفنونه)، د. مصطفى الشكعة، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٣، ١٩٧٥.
- الأدب العربي في الأندلس، د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٦.
- أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، المقرئ، أحمد بن محمد (ت ١٠٤١هـ)، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٣٩.
- الأمالي، القالي، أبو علي إسماعيل بن القاسم (ت ٣٥٦هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨.
- إنباه الرواة على أنباه النحاة، القفطي، جمال الدين علي بن يوسف (ت ٦٢٤هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط ١، ١٩٨٦.
- الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني، محمد بن عبد الرحمن (ت ٧٣٩هـ)، مكتبة المشنى، بغداد.
- بديعات الزمان، فيكتور الكك، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٦١.

- بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس، الضبي أحمد بن يحيى (ت ٥٩٩هـ)، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٧.
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ط ٢، ١٩٦٥.
- البيان والتبيين، الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة.
- تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط ٧، ١٩٨٥.
- تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات: الأندلس)، د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، ط ٢.
- تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، نقله إلى العربية عبد الحليم النجار وآخرون، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- تاريخ قضاة الأندلس، النباهي المالقي، أبو الحسن بن عبد الله المالقي (ت ٧٩٣هـ)، نشره ليفي برونفسال، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط ١، ١٩٤٨.
- تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، د. محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٩٨١.
- تحفة القادام، ابن الأبار القضاعي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت ٦٥٨هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٦.
- التكملة لكتاب الصلة، ابن الأبار القضاعي، نشر عزت العطار الحسيني، مكتبة الخانجي، مصر، ١٩٥٦.
- جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس، ابن القاضي، أحمد بن القاضي الكناسي (ت ١٠٢٥هـ)، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٣.

- جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس، الحميدي، أبو عبد الله محمد بن أبي نصر (ت ٤٨٨هـ)، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٦.
- الحلة السراء، ابن الأبار، تحقيق: حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٦٣.
- خريدة القصر وجريدة العصر، العماد الأصفهاني، أبو عبد الله محمد (ت ٥٩٧هـ)، تحقيق: عمر الدسوقي وعلي عبد العظيم، دار نهضة مصر للطباعة.
- دارسات في الأدب الأندلسي، د. محمد سعيد محمد، منشورات جامعة سبها، ليبيا، ط ١، ٢٠٠١.
- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، ابن فرحون، برهان الدين إبراهيم بن علي (ت ٧٩٩هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ديوان الرصافي البلسي، محمد بن غالب الرصافي (ت ٥٧٢هـ)، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط ١، ١٩٦٠.
- ديوان ابن خفاجة، (ت ٥٢٣هـ)، تحقيق: د. سيد غازي، نشر مطبعة المعارف بالإسكندرية، ط ٢.
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، أبو بسّام الشنتريني، علي بن بسّام (ت ٥٤٢هـ)، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٥.
- الذيل التكملة لكتابي الموصول والصلة، ابن عبد الملك المراكشي، أبو عبد الله ابن محمد بن محمد، (ت ٧٠٣هـ)، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت.
- رايات المبرزين وغايات المميزين، ابن سعيد المغربي، أبو الحسن علي بن موسى (ت ٦٨٥هـ)، تحقيق: د. النعمان عبد المتعال، القاهرة، ١٩٧٣.
- رسائل ابن أبي الخصال، أبو عبد الله بن أبي الخصال (ت ٥٤٠هـ)، تحقيق: د. محمد رضوان الداية، دار الفكر، دمشق.
- رسائل أندلسية، المؤلف مجهول، تحقيق: د. فوزي سعد عيسى، منشأة المعارف بالإسكندرية، ط ١، ١٩٨٩.

- رسائل ومقامات أندلسية، لمؤلف مجهول، تحقيق: د. فوزي سعد عيسى، منشأة المعارف الإسكندرية.
- الروض المعطار في خبر الأقطار، الحميري، محمد بن عبد المنعم، تحقيق: د. إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط ٢، ١٩٨٢.
- ربحانة الكتاب ونجعة المتأب، لسان الدين بن الخطيب (ت ٧٧٦هـ)، تحقيق: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ١، ١٩٨١.
- زاد المسافر وغرة حيا الأدب السافر، أبو بكر صفوان بن إدريس (ت ٥٩٨هـ)، أعدّه وعلّق عليه: عبد القادر محداد، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٧٠.
- سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، عبد الله بن محمد (ت ٤٦٦هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٢.
- شرح مقامات الحريري، الشريشي، أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن (ت ٦١٨هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطابع المدني، القاهرة.
- الشعر والشعراء، ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم، (ت ٢٧٦هـ)، تحقيق: د. عمر الطباع، دار الأرقم للطباعة للنشر، بيروت، ط ١، ١٩٩٧.
- الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت ٥٧٨هـ)، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر القاهرة، ١٩٦٦.
- صلة الصلة، ابن الزبير، أبو جعفر، أحمد بن إبراهيم (ت ٧٠٧هـ)، تحقيق: د. عبد السلام المهراس، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالمغرب، ١٩٩٥.
- عيار الشعر، ابن طباطبا العلوي، محمد بن أحمد (ت ٣٢٢هـ)، تحقيق: طه الحاجري ومحمد زغلول سلام، شركة فن الطباعة، القاهرة، ١٩٥٦.
- فن المقامات بالأندلس (نشأته وتطوره)، د. قصي عدنان الحسيني، دار الفكر، عمان، ط ١، ١٩٩٩.
- فن المقامات بين المشرق والمغرب، د. يوسف نور عوض، دار القلم، بيروت، ط ١، ١٩٧٩.

- فهرسة ابن خير (ما رواه عن شيوخه)، ابن خير الإشيلي، أبو بكر محمد بن خير (ت ٥٧٥ هـ)، مطبعة المثنى ببغداد، ١٩٦٢.
- في الأدب الأندلسي، د. محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، ط ١، بيروت، ٢٠٠٠.
- فلائد العقيان ومحاسن الأعيان، ابن خاقان، أبو نصر الفتح بن محمد (ت ٥٢٩ هـ)، تحقيق: د. حسين خريوش، مكتبة المنار، عمان، ١٩٨٩.
- كتاب أدباء مالقة، ابن خميس المالقي، أبو بكر محمد بن محمد بن علي (ت بعد ٦٣٩ هـ)، حققه وقدم له: د. صلاح جرار، دار البشير للنشر والتوزيع، عمان، ط ١، ١٩٩٩.
- الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٣.
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله (ت ١٠٦٧ هـ)، الأستانة، طبع بعناية وكالة المعارف، ١٩٤١.
- لسان العرب، ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١ هـ). دار صادر، بيروت، ١٩٥٦.
- مجمع الأمثال، الميداني، أحمد بن محمد (ت ٥١٨ هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٢، دار الجليل، بيروت، ١٩٨٧.
- مختارات من الشعر المغربي والأندلسي لم يسبق نشرها، تحقيق: إبراهيم بن مراد، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٩٨٦.
- مشاهدات لسان بن الخطيب في المغرب والأندلس، لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: د. أحمد مختار العبادي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٣.
- المطرب من أشعار أهل المغرب، ابن دحية، أبو الخطاب عمر بن الحسن (ت ٦٣٦ هـ)، تحقيق: إبراهيم الأبياري وأحمد أحمد بدوي، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٥٣.

- مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، الفتح بن خاقان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٣.
- المعجم في أصحاب القاضي الصدفي (أبو علي حسين بن محمد ت ٥٩٤هـ)، ابن الآبار القضاعي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت ٦٥٨هـ)، دار الكتاب اللبناني، تحقيق إبراهيم الأبياري، بيروت. ط ١، ١٩٨٩.
- المعجب في تلخيص أخبار المغرب، المراكشي، عبد الواحد (ت ٦٤٧هـ)، تحقيق: محمد سعيد العريان، القاهرة، ١٩٦٣.
- معجم البلدان، ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ)، طبعة دار صادر، بيروت.
- المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد المغربي، أبو الحسن علي بن موسى (ت ٦٨٥هـ) تحقيق: د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٣.
- المقامات اللزومية، السرقسطي، أبو الطاهر محمد بن يوسف (ت ٥٣٨)، تحقيق: بدر أحمد ضيف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٢.
- مقامات ورسائل أندلسية، فرناندودي لاجرانخا، ترجمة عبد اللطيف عبد الحلیم، دار الثقافة العربية، القاهرة.
- المقتضب من تحفة القادام، اختيار وتقييد: أبي إسحق إبراهيم بن محمد البلفيقي، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط ٢، ١٩٨٣.
- مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ)، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، مطبعة لجنة البيان العربي، ط ١، ١٩٦٠.
- مقامات الهمداني، أبو الفضل بديع الزمان (ت ٣٩٨هـ)، تقديم وشرح الشيخ محمد عبده، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٥٧.
- ملامح التجديد في النثر الأندلسي خلال القرن الخامس الهجري، مصطفى السيوفي، عالم الكتب، بيروت، ط ١، ١٩٨٥.
- النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمراطين، د. حازم عبد الله الأخضر، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨١.

- النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس الهجري (مضامينه وأشكاله)، د. علي ابن محمد، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٩٩٠.
- نشأة المقامة في الأدب العربي، د. حسن عباس، دار المعارف، القاهرة.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقرئ، أحمد بن محمد (ت ١٠٤١هـ)، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨.
- النقد الأدبي في الأندلس (عصر المرابطين والموحدين)، د. شريف علاونه، ط ١، الزرقاء، ٢٠٠٥.
- نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، (ت ٧٣٣هـ)، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، نشر المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر.
- الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت ٧٦٤هـ)، باعثناء س. ديدرنيغ، ط ٢، دار صادر، بيروت، ١٩٩١.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس، أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ) تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر بيروت، ١٩٧٨.

المصادر المخطوطة:

- ترسل الفقيه الكاتب، محمد بن أبي الخصال (ت ٥٤٠هـ)، ميكروفلم، مكتبة الجامعة الأردنية، رقم ٩١٠.
- الزافي في نظم القوافي، الرندي، أبو البقاء (ت ٦٨٤هـ)، نسخة خطية بخط مغربي قديم على ميكروفلم، مركز الوثائق مكتبة الجامعة الأردنية، شريط رقم ٩٦٥.

الرسائل الجامعية المخطوطة:

- النثر الفني في الأندلس في القرن الخامس، عبد القادر داغخي رسالة ماجستير جامعة دمشق، ١٩٨٣، (نسخة بمكتبة الجامعة الأردنية).

- النشر الفني في عصر الموحدين بالأندلس، أحمد أبو موسى رسالة ماجستير، جامعة تشرين، (نسخة بمكتبة الجامعة الأردنية).
- النشر الفني في عهد الموحدين بالمغرب والاندلس، يوسف عروج، رسالة دكتوراه، جامعة دمشق (نسخة بمكتبة الجامعة الأردنية).

الدوريات:

- حوليات الجامعة التونسية:
 - (١) عدد ٢٧، ١٩٨٨، مقامة تفضيل النخلة على الكرمة، تحقيق حسناء الطرابلسي، ص ١٩٩ - ٢١٨.
 - (٢) عدد ٢٨، ١٩٨٨، مدخل إلى تحليل المقامات اللزومية، محمد الهادي الطرابلسي، ص ١١١ - ١٤٥.
 - (٣) عدد ٢٨، ١٩٨٨، فن المقامة بالاندلس، محمود طرشونة، ص ١٤٥ - ١٦٥.
- مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية، عدد ٣٧، مجلد ١٨، ٢٠٠٦، المفاضلة بين الشعر والنثر في التراث النقدي الأندلسي، د. شريف علاونة، ص ٤٦٣ - ٤٨٦.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

www.moswarat.com

